الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

كاثي رايكس

Kathy Reichs



عظام الموتى

DEATH DU JOUR

رواية

«سيتابع محبو المسلسل التلفازي الشهير CSI مجريات التحقيق في مسرح الجريمة بسعادة كبيرة، حيث سيلتقون عالم د. تمبرانس بريدان المتخصصة بعلم الطب الشرعي بطلة رواية كاثي رايكس الأكثر مبيعاً، التي توظف خبرتها للكشف عن نمط إجرامي قاتل خلال يوم عمل واحد»

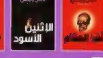
— مجلة بيبل

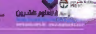
في برد شتاء مونتريال القارس، تعثر تمب بريدان الأرض لتعثر على جثة مدفونة منذ أكثر من قرن مضى، لكن سلسلة من حوادث الموت وحالات الاختفاء التي وقعت أخيراً هي التي تستأثر باهتمامها. وهي وحدها القادرة على إيجاد صلة بين أحداث تبدو غير مترابطة. في مسرح الجريمة، والمشرحة، والمختبر، تكشف تمب سراً يشمل حريقاً نجمت عنه وفيات في عتيبة، واعتقالات مذهلة في الكارولينتين، ويبلغ أوجه في مونتريال بمواجهة مروّعة: اختبار يحطم الأعصاب لكل من خبرتها العلمية وأمنها الشخصي.

[illegible]











1

إذا كانت الجثث هناك، فلن يكون في مقدوري العثور عليها.

كانت الرياح تعصف في الخارج، فيما ترددت داخل دار العبادة القديمة أصداء الكشط بالمناجل، وارتفعت أصوات مولّد ومسخّان على نحو غريب في أرجاء المكان الفسيح. في الأعلى، كانت أغصانٌ تحتكُّ بالنوافذ مثل أصابع يابسة تحتك بألواح خشبية.

وقف أفراد المجموعة متقاربين، ولكن من دون تلامس، وأصابعهم مكوّرة في جيوبهم. كنت أسمع نقل ثقل الأجسام من جانب إلى آخر، ورفع إحدى القدمين ثم الأخرى. أصدرت الأحذية صوتاً على الأرض المتجمدة، ولم ينبس أحد ببنت شفة، إذ أصابنا البرد بالخدر وجعلنا نصمت تماماً.

راقبت مخروطاً من التراب تنتفض عبر شبكة يبلغ قطر فتحاتها ربع بوصة، في حين كنت أوزّعه ببطء باستخدام مالج. كانت التربة الخبيئة تحت السطح مفاجأة سارة. إذ نظراً لطبيعة التربة السطحية، كنت قد توقّعت تجمّد كل الطبقة التي سنحفرها. فلقد مرّ الأسبوعان الماضيان بدفء غير معتاد في مثل هذا الفصل من السنة في كيبيك. على كل حال، ذاب الثلج وبات سطح الأرض، إنه حُسن طالع لم نعتد. وبالرغم من أن بشائر الربيع قد اختفت نتيجة جبهة عاصفة قطبية أخرى، إلا أن مدة الدفء تلك كانت قد تركت التربة طرية، فأصبح الحفر سهلاً، وهو أمر جيد. ولكنّ الحرارة في الليلة الماضية كانت قد انخفضت إلى سبع درجات فهرنهايت، وهذا أمر سيئ. وبالرغم من أن

عظام الموتى

DEATH DU JOUR

رواية

تأليف

كاثي رايكس

Kathy Reichs

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





الأرض لم تتجمد بعدُ، إلا أن الهواء كان قارساً، وكنت أشعر ببرد شديد في أصابعي وأكاد لا أستطيع ثنيها.

كنا نحفر الحفرة الثالثة، وبالرغم من ذلك لم تظهر سوى حصى وقطع صخور في الصلصال. لم أكن أتوقع الكثير على ذلك العمق. ولكن، لا أحد يعرف ما الذي سيحصل. كان يجب المضي قدماً في إخراج الجثة كما هو مخطط له.

استـدرت إلى رجل يرتدي باركا (معطف من الفرو متصل بقلنسوة) أسود، ويعتمـر قبعة صوفية، فيما ينتعل حذاءً جلدياً يصل إلى الركبتين، ويلبس حزاماً يلتفّ عند أعلى الحذاء. كان وجهه ملون حساء الطماطم.

"بضع بوصات إضافية فقط". أشرت براحة كفي إلى الأسفل وكأنني أداعب قطاً. "ببطء، احفر ببطء".

أومـأ الرجل، ثم دفع مجرفاً طويل اليد في الحفرة الضحلة، وهمهم مثل مونيكا سيليش لدى قيامها بتلقية أول إرسال.

صرخت وأنا أمسك الرفش: "بوصة واحدة في كل مرة!". بوصة إثر أخرى! كرّرت الحركة التي كنت أعلمه إياها منذ الصباح. "يجب أن نـزيل طبقات رقيقة من التراب". قلت ذلك هامساً بالفرنسية، ببطء وحرص شديد.

كان واضحاً أن الرجل لا يشاطرني الرأي نفسه، وربما يُعزى ذلك إلى طبيعة تلهفه للعمل، أو إلى فكرة نبش قبور الموتى. كان حساء الطماطم يريد فقط الانتهاء من العمل ومغادرة المكان.

سمعت صوت رجل خلفي يقول: "من فضلك يا هاويه حاول مجدداً".

همهم: "نعم يا أبي".

استأنف غاي عمله وهو يهزّ رأسه، لكنه كشط التراب كما كنت قد علّمته ثم رماه في الغربال. نقلت بصري من التراب الأسود إلى الحفرة نفسها، وانتظرت ظهور علامات تشير إلى اقترابنا من قبر.

كـنا نعمـل هناك منذ ساعات، وشعرت بالتوتر خلفي، إذ كانت حركة الأصـوات قـد ازدادت نشاطاً. استدرت لأمنح أفراد المجموعة ما كنت آمل أن تبدو نظرة مُطمئنة. ولكن، كانت شفتاي متيبستين، ولم أقوَ على أن أنبس ببنت شفة.

نظرت ستة وجوه إليّ، وهي تعاني من البرد ويخربها القلق، وظهرت سحابة صغيرة من البخار واختفت أمام كل منها؛ ست ابتسامات موجهة نحوي. شعرت أن هناك الكثير من الابتهالات في ذلك المكان.

بعد تسعين دقيقة وصلنا إلى عمق خمس أقدام. ولكن، كالمرة الأولى، لم تخرج مـــن تلــك الحفرة سوى التراب. كنت واثقة من أنني أعاني قضمة صقيع في كل أصابعي، واستعد شابي لردم الحفرة. لقد حان وقت اتخاذ إجراء آخر.

"أبي، أظن أننا يجب أن نتفقد سجلات الدفن مجدداً".

تردّد لحظة، ثم قال: "نصب طبعاً، بالطبع. ويمكننا جميعاً احتساء القهوة وتناول الفطائر".

مـــشى عبـــر مجمـــوعة من الأبواب الخشبية في الطرف البعيد من دار العبادة المهجـــورة وتبعته الأخوات، وهن يطأطئن رؤوسهن، ويختزن بحذر شديد الأرض الوعـــرة. كانـــت أغطية رؤوسهن البيضاء تتدلى على شكل أقواس متمائلة فوق معاطفهن الصوفية السوداء. بطاريق. من قال ذلك؟ الإخوان ماروز.

أطفـــأتُ الكشافات المتنقّلة، وبدأت المشي. كانت عيناي على الأرض، وأنا مـــشدوهة مـــن بقايـــا العظام المطمورة في الأرض الترابية. رائع، حفرنا في البقعة الوحيدة من دار العبادة التي لا تضم قبوراً.

فـــتح الأب مينار أحد الأبواب وخرجنا واحداً تلو الآخر إلى حيث سطع ضوء الـــنهار. واحتاجت عيوننا إلى بعض الوقت لتعتاد على الضوء. كانت الـــسماء مكفهرة وكأنهـــا تعانق سطوح كل الأبنية وأبراجها في منشأة دار العبادة. وكانت ريح شديدة تعصف في أروبتين (جبال جنوبـــي كيبك)، وتحمل الياقات وأغطية الرؤوس كذلك.

انحنـــت مجموعتنا الصغيرة تحت تأثير الرياح، وسرنا حتى وصلنا إلى بناء مجاور مـــبني مـــن حجارة رمادية مثل دار العبادة، لكنه أصغر حجماً. صعدنا درجات أوصلتنا إلى رواق خشـــبي مزخرف منقوش، ودخلنا عبر باب جانـــبي.

في الـــداخل، كان الهواء دافئاً وجافاً ولطيفاً بعد البرد القارس. شممت رائحة شاي وكرات شفالين، وسررت من تحضير الطعام تلقائي.

ومن دون أن ينبسن ببنت شفة، خلعت الصبايا أحذيتهن، وانغمسن في واحدة تلـــو الأخرى، واختفين عبر باب إلى اليمين، في حين دخلت أخت ضئيلة الحجم

ترتدي كنزة تريكو كبيرة متدلية إلى الركبة. وظهرت رنّة (نوع من الأيائل) بنيّة منقوشة إلى صدرها واختفت تحت غطاء رأسها المتدلّي فوق كتفيها. غمرتني من خلال عدسة سميكة، ومدّت يدها لتأخذ الباركا. تردّدت خائفة من أن يُفقدها الثقل توازنها ويجعلها تسقط على الأرض، فلوّحت محتدّة وحقّقت بحركة من أصابعها، وهكذا علّقت المعطف، ووضعته على ذراعيها، وأخذتُ القبعة والقفاز. كانت أكبر النساء سناً رأيتها على قيد الحياة.

تبعت الأب مينار عبر ممر طويل خافت الإضاءة إلى مكتب صغير. كانت تنبعث من المكان رائحة ورق قديم وصلصال بلد مدرسي. وفي الداخل، لاح لي ومر الصحارى الدهني فوق طاولة كبيرة جداً تساءلت كيف قاموا بإدخالها عبر الباب. كانت ألواح داكنة من خشب السنديان ترتفع إلى السقف تقريباً، وهنالك فوق رف عالٍ في الغرفة، كانت قد وضعت تماثيل تحدّق إلى الأسفل ووجوهها كئيبة.

جلس الأب مينار على أحد الكرسيين الخشبيين أمام الطاولة، وأشار إليّ بالجلوس على الآخر. تحت حفيف ردائه، وطقطقة حبات مسبحته. للحظة، عدت إلى دار عبادة سان برنابا، في مكتب رجل الدين، حين كنت أعاني من المتاعب. توقفي عن ذلك يا برنان، فقد تجاوزت الأربعين، وتشغلين منصباً مرموقاً، وأنت متخصصة بعلم الإنسان الشرعي. استدعاك هؤلاء الأشخاص؛ لأنهم بحاجة إلى خبراتك.

أمسك رجل الدين مجلداً ذا غلاف جلدي كان على الطاولة، وفتحه على صفحة محدّدة بشريط أخضر، ووضع الكتاب بيننا ثم أخذ نفساً عميقاً، وزمّ شفتيه، وأخرج زفيراً من أنفه.

كنت معتادة على الرسوم البيانية، وتمكنت من رؤية شبكة ذات خطوط أفقية مقسّمة إلى مستطيلات صغيرة، بعضها يحمل أرقاماً، وبعضها أسماء. كنا قد أمضينا ساعات بالأمس ونحن نتأملها، ونطابق أوصاف القبور وأرقامها مع مواقعها على الشبكة، ثم نحدد أماكنها بدقة.

كان يجب أن تكون الأخت إليزابيث نيكول في الصف الثاني من جدار دار العبادة الشمالي، وفي المستطيل الثالث من الطرف الغربي إلى جانب الأم أوريلي؛ لكنها لم تكن هناك. ولم تكن أوريلي أيضاً حيث يجب أن تكون.

أشرت إلى قبر في ربع الدائرة نفسه، لكن على بعد صفوف عدة إلى الأسفل وإلى جهة اليمين. "حسنٌ، يبدو أن رفاقنا هناك". ثم في صف إلى الأسفل، "وأغاسي، وفرونسكه، وكليمانه، ومارث، وإيلينور. تلك هي مدافن أربعينيات القرن التاسع عشر، صحيح؟".

"صحيح".

نقلت إصبعي إلى جزء من الرسم البياني الذي يمثّل الزاوية الجنوبية الغربية من دار العبادة. "وهذه هي القبور الأحدث. العلامات التي عثرنا عليها تتوافق مع سجلاتكم".

"نعم، كانت تلك هي القبور الأحدث قبل أن تُهدم دار العبادة".

"أُغلقت في العام 1914".

"ألف وتسعمئة وأربعة عشر. نعم، 1914". كانت لديه عادة غريبة بتكرار الكلمات والعبارات.

"توفيت إليزابيث في العام 1888؟".

"هذا صحيح، عام 1888. وتوفي نُورلي في العام 1894".

لم يبدُ ذلك منطقياً بالنسبة إليّ. كان يجب أن تكون علامات القبور هناك، فقد كان من الواضح أن هناك آثاراً من مدافن عام 1840. لم ينجم عن اختبار تم إجراؤه في تلك المنطقة سوى شظايا خشبية وأجزاء من توابيت. ولكن، في البيئة المحمية داخل دار العبادة، ومع ذلك النوع من التربة، كنت أظن أن الهياكل العظمية يجب أن تكون بحالة جيدة جداً. فأين إليزابيث ونُورلي؟

دخلت الأخت المسور وهي تحمل صينية عليها كوبا قهوة وشطائر. كان البخار المتصاعد من الكوبين قد غطّى نظارتها، ولهذا كانت تتحرك بخطوات بطيئة ومترددة، ولا ترفع قدميها أبداً عن الأرض. فنهض الأب مينار ليأخذ الصينية منها.

"شكراً يا أخت برتاي. هذا لطف كبير منك، لطف كبير".

أومأت الأخت، وخرجت من الغرفة، من دون أن ترفع نفسها بتنظيف نظارتها. راقبتها فيما كنت أسكب لنفسي كوباً من القهوة. كانت كمثلها بعرض مصمصي تقريباً.

سألت، وأنا أمد يدي نحو الكرواسان، وسلطة السلمون، والخس الذابل:

"كم عمر الأخت برنارد؟".

"لا نعرف بالتحديد. كانت في دار العبادة عندما بدأت آتي إلى هنا في أثناء طفولتي قبل الحرب، أعني الحرب العالمية الثانية. ثم ذهبت للتدريس في الرعيات الخارجية، وبقيت في اليابان وقتاً طويلاً، ثم ذهبت إلى الكاميرون. نظن أنها في العقد التاسع من عمرها". وارتشف قهوته بصوت مسموع.

"ولدت في قرية صغيرة في سافوي، ونقول إنها انضمت إلى الأخوات عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها". ارتشف القهوة بصوت مسموع. "في الثانية عشرة من عمرها. لم تكن السجلات موثّقة جيداً في تلك الأيام في أرياف كيبك، لم تكن موثّقة جيداً".

قضمت لقمة من شطيرة، ثم ثبت أصابعي بعضاً حول كوب القهوة الذي كان دافئاً.

"أبتي، هل هناك سجلات أخرى؟ رسائل أو وثائق قديمة، أي شيء لم تره بعد؟". ثبت أصابع قدمي، لكنني لم أشعر بها.

أشار الأب مينار إلى الأوراق المتناثرة على الطاولة وهزّ كتفيه. "هذا كل ما أعطتني إياه الأخت جولبان. إنها المسؤولة عن الأرشيف هنا كما تعرفين".

"نعم".

كنت قد تكلمت مع الأخت جولبان وتراسلنا وقتاً طويلاً، وكانت أول من اتصل بي بشأن المشروع، فاشتركت به فوراً. كانت هذه القضية مختلفة جداً عن عملي المعتاد في الطب الشرعي الذي يتضمن حالات وفاة وقعت أخيراً، وينتهي بها الأمر إلى قاضي التحقيق. كان أكثر رجال الدين مرتبة يريد مني نبش بقايا سانت وتحليلها. حسنٌ، لم تكن سانت حقاً، لكنّ ذلك هو بيت القصيد. كانت إليزابيث نيكول مرشحة للتطويب، وكان مطلوباً مني العثور على قبرها، وإثبات أن العظام عائدة لها، في حين كان الجزء المتعلق بالتطويب بيد الفاتيكان.

كانت الأخت جولبان قد أكّدت لي أن لديها سجلات موثّقة، وأن كل القبور في دار العبادة القديمة مفهرسة مع خريطة تبين مواقعها. كانت آخر عملية دفن قد جرت في العام 1911، لأن دار العبادة هُجرت وأُغلقت في العام 1914 بعد

أن تعرضت لحريق، وبُنيت دار عبادة أكبر بدلاً منها، ولم يُستعمل البناء القديم قطّ. ظننت عندها أن الأمر غاية في السهولة لأن الموقع مغلق والتوثيق جيد.

إذاً أين هي إليزابيث نيكول؟

"لن يغيّر السؤال. ربما هناك شيء لم تعطِني الأخت سوليان إياه؛ لأنها ظنت أنه غير مهم".

شرع في قول شيء ما، لكنه غيّر رأيه: "أنا واثق تماماً أنها أعطتني كل شيء، لكنني سأسألها. فلقد أمضت الأخت سوليان وقتاً طويلاً وهي تتحرى أحياناً في هذا الأمر، وقتاً طويلاً".

راقبته يخرج من الباب، وأنهيت تناول قطعة كرواسان، ثم أخرى. وضعت ساقاً على أخرى، ودفعت قدميّ تحتي وحركت أصابعي. حينئذ كنت أستعيد الشعور بها، ارتشفت قهوتي، ورفعت رسالة عن الطاولة.

قرأت تلك الرسالة من قبل وهي مؤرخة في 4 آب عام 1885. مع خروج الجدري عن السيطرة في مونتريال، هذا ما كتبته إليزابيث نيكول إلى أكبر رجال الدين مرتبة إدوار فابر تــرجوه فيها أن يأمر بتلقيح أبناء الرعية الفرنسي، وإرسال المصابين بالعدوى إلى مستشفيات مدنية. كانت الكتابة بخط اليد أنيقة، وبلغة فرنسية غريبة وقديمة.

أطبق صمت مطلق على دار عبادة نوتردام، وتحول ذهني إلى شيء آخر، وفكّرت في حالات نبش جثث أخرى: الشرطي في سانت غابرييل، وتلك المقبرة التي دُفنت فيها توابيت على عمق ثلاث أقدام. كنا قد عثرنا في نهاية المطاف على قبور السيد بويري الأربعة من موقعه الموثّق، في الأسفل لا في الأعلى. وهناك الرجل في وينستون - سالم (بلدة في كارولينا الشمالية) الذي لم يُعثر عليه في تابوته، وإنما عُثر في التابوت على امرأة ترتدي فستاناً طويلاً مطرزاً، مما أوقع القائمين على المقبرة في مشكلة مزدوجة: أين الفقيد؟ ومن تكون الجثة الموجودة في التابوت؟ لم يكن في مقدور الأسرة أن تعيد دفن الجد في بولندا، وكان المحامون يستعدون لخوض معركة قانونية عندما غادرت المكان.

بعيداً، سمعت ناقوساً يُقرع، ثم حركة بطيئة في الممر. كانت الأخت العجوز تتجه نحوي.

وعقبت "مساعدي" معترضة، وأرفف القهوة على زندي، كيف يمكن لذلك الصوت الجهور أن يخرج من فم تلك المرأة الصغيرة؟

"شكراً" مددت يدي نحو الفنجان

تجاهلتني، واقتربت مني وبدأت تتفحص رقبتي. تمكّنت من رؤية حلقة صغيرة في أذنها اليمنى، واستطعت سماع أنفاسها ورؤية شعرات بيضاء ناعمة في ذقنها وكانت تفوح منها رائحة صوف وماء الورد

"آه، عزيزي. الحشرة حتماً تؤدي إلى ... بلا برد"

قلت بشكل تلقائي "نعم أيتها الأخت".

وضعت عينيها على الرسالة بيدي، ولمست عنقي، لم تكن ملطخة بالقهوة فاعتدلت واقتربت مني.

"كانت البرايت ميكول شركة رائعة، ولاحظت شعار الورق والغلاف. كانت نقية ورصينة" كانت مراسلاتها تبدو كما تحدثت أن رسائل البرايت ستكون عبئاً إذا قرأها شخص ما.

"نعم أيتها الأخت" شعرت أنني في الخامسة من عمري مجدداً.

"ستصبح ساخنة"

"نعم أيتها الأخت لقد عبرت الجسور عبر عظامها، كي تتلقى معاملة لائقة" لم أكن واثقة مما تعنيه معاملة لائقة في ما يتعلق بسالب، لكن، بعد ذلك سحبتها سحبت المخطط، وأريتها إياه. "هذه هي دار العبادة القديمة" مرّرت إصبعي على الصف كمحاذاة الجدار الشمالي، والمرسب إلى مستطيل "هنا قبوها"

أمعنت الأخت المحور النظر في شبكة الخطوط وقتاً طويلاً جداً، وظلت تحدق حتى بعد ... فقط من الصفحة

قالت بحدة: "ليست هنا"

"عفواً؟"

"ليست هنا". نقرت بإصبع متينة على المستطيل. "ذلك المكان خطأ".

عاد الأب ميار في تلك اللحظة، ومعه أخت جديدة، حاجباها سوداوان وكثيفان يتصلان معاً فوق أنفها عرّفني ... بالأخت جوليان، التي رفعت يديها المضمومتين معاً وابتسمت

لم يكن ضرورياً تصور ما كانت الأخت برنو قد قالته. فلا بد أنها سمعا المرأة العجوز عندما كانا في عمره، إذ كان سيسمعانها على الأرجح في أوبودا.

كررت: "هناك المكان خطأ، يحدث في المكان الخطأ"

سألت الأخت حوبيلا: "ماذا تعنين؟"

كررت: "إنهم يحدثون في المكان الخطأ. إنها ليست هناك"

تبادلت والأب عينار النظرات

سألتُ: "إذاً، أين هي أيتها الأخت؟"

انحنت فوق المخطط مرة أخرى، ثم نقرت بإصبعها على الزاوية الجنوبية الشرقية من دار العبادة. "إنها هنالك مع سري الرمل".

"لكن، أيتها الأخت -".

"دفنوها، وضعوها في تابوت حديدي وتحت مصبح خاص، هناك".

عندما أشارت إلى الزاوية الجنوبية الشرقية.

سألنا معاً: "متى؟"

أغمضت الأخت برنار عينيها، وتحركت شفتا العجوز المتغضنتان بصعوبة.

"عام ألف وتسعمئة وأحد عشر. في العام الذي جئت فيه إلى هنا كأخت مبتدئة. أتذكر ذلك لأنه بعد سنوات عندما احترقت دار العبادة وأغلقوها، كانت مهمتي الذهاب إلى هناك لأضع الورود. لم أحب ذلك، إذ كان الذهاب إلى هناك وحدي مرعباً، لكنني قمت بذلك العمل"

"ماذا حدث بالضبط؟"

"يمكنك في وقت ما من الاقتراب منه في دار العبادة المهدومة الآن" طرفت المسنة، وبدأت بتنظيف القهوة بعمق. "كانت هناك لوحة تعريف لتحدد مكان دفن القبر، لكنها لم تعد موجودة. ولم يعد أحد يذهب إلى هناك الآن. اختفت اللوحة منذ سنوات"

نظرت والأب عينار إلى بعضنا، فهز كتفيه قليلاً.

قلت: "أيتها الأخت، هل تظنين أنه في مقدورك أن تدلينا على القبر بالتحديد؟"

"بكل تأكيد"

"الآن؟"

"لم لا؟" دقّ الحديد وهو ساخن.

قـال الأب مـير: "لا تقلقي بشأن الأطفال. من فضلك، ارتدي معطفك واحتذي حذاءك أيتها الأخت؛ لأننا سنذهب إلى هناك"

بعد عشر دقائق عدنا جميعاً إلى دير العبادة القديمة. لم يكن الطقس قد تحسن، بل أصبح أبرد وأكثر رطوبة مما كان عليه في الصباح. كانت الريح لا تزال تعصف، والأغصان لا تزال تحتك بالنوافذ.

اخترقت الأخت برنار درباً مطوياً عبر دار العبادة، وقد أمسك بها الأب مير من جهة، فيما أمسكتُ بها من الجهة الأخرى. وبالرغم من الثياب التي ترتديها، إلا أنها كانت تبدو ضعيفة وخفيفة الوزن.

تبعنـا الأخوات مثل مجموعة من المتفرجات، وكانت الأخت جوليان على أهبة الاستعداد وهي تحمل دفتراً صغيراً وقلماً، فيما بقي هاني في الخلف.

تـوقفت الأخت برنار خارج عطفي في الزاوية الجنوبية الشرقية. كانت قد اعتمرت قبعة عصفور، فاتحة مصنوعة يدوياً فوق غطاء رأسها، وربطت شريطها تحت ذقنها. رافعة رأسها بقوة وبحثت عن علامات في أرجاء المكان، وتركّزت كل العيون على القبعة الوحيدة الملونة داخل دير العبادة الكئيبة.

اقتربت إلى حائط أن يكون موقع المصباح، ولم تعر الأخت برنار أي اهتمام لذلك. بعد مضي بعض الوقت، ابتعدت عن الجدار، وأدارت رأسها إلى اليسار واليمين، ثم إلى اليسار مجدداً، وإلى الأعلى ثم إلى الأسفل. تأكدت من موقعها مرة أخرى، ثم رسمت خطاً في التراب بكعب حذائها، أو حاولت القيام بذلك.

"إنه هنا" ترددت أصداء صوتها المرتعش بين الجدران الحجرية.

"هل أنتِ واثقة؟".

"إنه هنا" لم تكن الأخت برنار تفتقر إلى الثقة بالنفس.

نظرنا جميعاً إلى العلامة التي رسمتها

"أقسم في مستشفى صغيرين، ليس مثل التوابيت العادية. كانت ومالهم عظام، لذا وضعوا عظام كل منهما في صندوق صغير" حتى دراعيها الصغيرين إلى

الأمـــام لتشـــو بن مسافة قريبة منها، وانتصب إحدى الفرائيين، فيما ركّز غاي ضوءه على البلطة بين مخالب قدميها

شكر الأب ميار الأخ العصور وطلب من أخيه مساعدتنا على العودة إلى دار العبـــادة. راقبتُ عودتهم. كانت تبدو مثل صلة بينهما. ضميره حتى إلى شرحة من حاشية معطفها لا تكاد ترتفع عن الأرض الرملية

طلب من غاي أن يُحضر الكشّاف الأحمر إلى الموقع الذي ثم حفر لفحص من الموقع الســـابق، ووضعت علامة حيث أشار الأخ برندر، وخططت على مقطع ثالث (بشكل حرف T)، فلم يسر إلى الأسفل. وكانت تلك البقعة أقل لمعاناً، وكانت تستعمل كما لنا لتفادي الإعصار بأي شيء تحت الأرض. ولكن، لم نخترق الطرف المكوّر بسهولة القطعة التي المتصلة حرفياً. حاولت بمعول ونحوه أكثر

ضرس بالرمال، من مكونة مسعدة إن قطعت العمق، لو احدثت شقاً في منصة الأخت العلية

تـــرعب شقّاري، وثب سلمي حول الفتحة، ودفعتها إلى الأسفل الفتحة، هذه المرة أسفل السطح، وشعرت بنفس بسرتي إلى الأسفل في التراب، فكبحت الرغبة في الاستعجال، وفحصت الأرض وعيناي معلقتان، وتحسست منه دلالة الاختلافات في التربة. كانت علامة تشير إلى وجود تجويف هوائي حيث تحلل شيء ما، فيما تشير علامة أكثر إلى وجود عظام أو شيء من صنع الإنسان تحت الأرض. ولكن، لم يكن هناك شيء سوى الصخر والكرب العصبية

في المحاولة الثالثة، شعرت بوجود شيء ما، فسحبت الفتس، وحرمته بعد شيء بعد ست بوصات إلى الأسفل. هنا، شعرت بوجود شيء ما. كان هناك شيء صلب غير بعيد عن سطح التربة

وقعـــت إبهامي وشرحت بين رجلي التحس والأخوات، وطلبت من غاي إحضار الغربال، وضعت الغس جانباً، وأمسكت المرفق عريض النصل، وبدأت بكشط طبقات رقيقة من التراب. أزلت التربة، ووضعة إثر أخرى، ووضعتها في الغربال، وعيناي تنتقلان من الكومة إلى الحفرة. وخلال ثلاث دقائق، رأيت ما كنت أبحث عنه. كانت المكسيات العلية الأعوج من تراب سوداء حالكة، مقارنة بالتربة الحمراء – البنية في الغربال.

استبدلت الفرشاة بمالج، ونحتت فوق الحفرة، وكشطت الأرض بحرص. أبعدت الشوائب، ومهّدت السطح، واستطعت مباشرة تقريباً رؤية شكل بيضوي داكن اللون. كانت البقعة تبدو بطول يقارب ثلاث أقدام، ولم يكن في مقدوري إلا تخمين عرضها، لأنها كانت مطمورة تحت التراب.

قلت وأنا أمدّ قامتي: "يوجد شيء ما هنا". وعقدت أنفاسي أمام وجهي

تقترب رحيل الفتى والأخوات، ونظر الجميع معاً إلى الحفرة. فاقتربت إلى الشكل البيضوي بطرف مالج لدى أحده. في تلك اللحظة، لمست الأسنان الثلاث والتفتا الأخت برمل إلى المجموعة العقد.

"قد يكون مدفناً، بالرغم من أنه يبدو صغيراً قليلاً. يجب أن أحفر قليلاً إلى اليسار، هنا يجب أن أشرع في هذا القسم إلى الأسفل". أقترب إلى البقعة التي كنت أعمل فيها بالفرشاة. "سأقوم بإخراج التراب من القبر نفسه، وشق طريقي إلى الأسفل، وبتلك الطريقة سنكون لدينا صورة جانبية عن الشكل في أثناء الحفر، وسيصبح الحفر بتلك الطريقة أكثر سهولة. وستسمح حفرة خارجية أيضاً بإجراء الفحص من الجانب إذا اضطررنا إلى ذلك".

سألت أخت شابة، وجهها مثل وجه فتاة كشّافة: "ما هذه البقعة؟".

"عندما يتحلل شيء يضم نسبة كبيرة من المادة العضوية، فهو يجعل لون التربة داكناً. قد يكون ذلك بسبب التابوت الخشبي، أو الورود التي دُفنت معه" لم أرغب في شرح عملية التحلل. "البقع هي دائماً أول علامة على وجود مدفن".

أشارت أختان إلى علامة رمز الصليب التي على صدريهما.

سألت أخت أكبر سناً: "هل هي إليزابيث أم موي أورلي؟" ولعلها أحد حلفيها السابقين.

هززت كتفيّ بإشارة "لا أعرف". ورفعت مجرفتي، وبدأت استخدم مالج لكشط التربة عن النصف الأيسر من البقعة، وتوسيع الحفرة إلى الخارج لكشف الشكل البيضوي وشريط بعرض قدم إلى يمينه.

عندما كانت أصوات الكشط والغربلة هي الوحيدة المسموعة، ثم...

أشارت أحد الأخوات إلى الغربال: "هل هناك شيء ما؟"

انتصبت لأنني تذكرت الفرصة التي ضيعت في بلدة ملتق.

■

كانت الأخت تشير إلى شظية صغيرة مغروسة في الحفرة.

"بكل تأكيد ذلك سوف يكون أيتها الأخت. تبدو مثل قطعة من خشب التابوت".

أخرجت مجموعة من الأكياس الورقية من صندوق أدواتي، وكتبت على بعضها التواريخ والمواقع ومعلومات أخرى ذات صلة بالموضوع، ووضعته على الغربال، فيما تركت الأخرى على الأرض. كانت أصابعي متعرقة تماماً آنذاك.

"حسناً، وقت العمل أيتها السيدات. أخت مرغريت، سنحتاج كل ما نعثر عليه، اكتبيه على الأكياس، وثبتيه في السجل، تماماً كما ناقشنا ذلك من قبل - نظرت إلى الحفرة - على عمق نحو قدمين. أخت مرغريت، ستلتقطين بعض الصور؟"

أومأت الأخت مرغريت، ورفعت آلة التصوير التي تحملها.

انطلقت الأخوات تنقص وحزّ متوهجات بعد ساعات طويلة من الترقب.

استخدمت سكيني وفرشاة الأسنان، وبحذر بالغربلة. ظهرت المزيد من الشظايا، وقبل مضي وقت طويل رأينا شكلاً في التربة الداكنة. كان خشباً وتالفاً وبحالة يرثى لها.

لتهيب الكشف عنه كما كنت آمل أنه نعش، باستخدام الملاج ويدي فقط. وبالرغم من أن الحفرة كانت تحت درجة التجمد ولم أعد أشعر برجلي وبأصابع قدميّ آنذاك، إلا أنني كنت أتعرق داخل الباركا. أرجو أن يكون هذا التابوت هنا، كما فكرت، من كان يتضرع آنذاك؟

عندما وسّعت الحفرة قليلاً، كشفت مزيداً من الخشب، وازداد عرضي لذلك الشيء، وظهرت بعده هذا الشكل المخروطي سداسي الأضلاع؛ إنه شكل نعش. تطلب الأمر مني بعض الجهد كي لا أصرخ: "الحمد لله!" كان قولي ذلك دينياً، ولكنّ صراخي ليس مهنياً، كما المعروف عني.

كشطت التراب، حفنة إثر أخرى، حتى انكشف سطح ذلك الشيء. وكان تابوتاً صغيراً. انطلقت من القلق نحو الرضى، ووضعت نتائج حقائبي، وأمسكت فرشاة تعال النقب حيثي بعض إحدى الأخوات التي كانتا تنتصلان الغربال، فاستسمحت لها، وانتسبت به واعتز حطها الأيمن.

كنست السطح مكتسي بالفرشاة مراراً وتكراراً، وأبعدت عنه التراب الذي شكّل قشرة فوقه على مرّ عقود. توقف الجميع يشاهدون ما أقوم به. ابتق شيء

مرتفع تدريجياً على غطاء التابوت، فوق المرض مساحة، تماماً حيث يجب أن تكون لوحة التعريف، فخفق قلبي بسرعة.

مسحت التراب عن ذلك الشيء، حتى ظهر واضحاً للعيان. كان مصري الشكل ومعدنياً وذا حافة مزخرفة. وحين نظّفت سطحه بهدوء باستخدام فرشاة أسنان، ظهرت حروفه.

"أيتها الأخت، هل يمكنك أن تأتيني بالمشعل الكهربائي من فضلك؟"

عندما، انحنوا جميعاً كشخص واحد كطارق على حافة الحفرة، وجّهت شعاع الضوء إلى لوحة التعريف. "إليزابيث سيكور - 1846-1888 أختي الغالية"

قلت من دون أن أوجه كلامي إلى شخص محدد: "لقد عثرنا عليها".

صرخت الأخت التي تشبه بنت الكشافة "الحمد لله!" كان ذلك بدافع من الآداب.

وفي أثناء الساعتين اللاحقتين، أخرجنا رفات إليزابيث. انهمك الأخوات، وكذلك الأب ميلر، في العمل مثل طلاب جامعيين في أول عمل حفر لهم. كان رجال الدين والأخوات يتبادلون مغرفة بصمت كونهم حولي وهم يغربلون، ويملأون الأكياس، ويضعون عليها لصاقات، بعضها فوق بعض. وتم تصوير العملية كلها على فيلم. كما ساعد عاي في العمل، بالرغم من تردده في ذلك. كان ذلك الأمر الأكثر غرابة الذي فعله يوماً.

لم يكن رفع التابوت سهلاً، فبالرغم من صغر حجمه، إلا أن الخشب كان مهترئاً على نحو كبير ومشبعاً بالتراب، مما زاد الوزن لنحو عشرة أطنان. كانت الحفرة الجانبية فكرة سديدة، بالرغم من تبين أنني أسأت تقدير المساحة التي نحتاج إليها، إذ كان يجب أن نوسع إلى الخارج بعرض قدمين؛ لنتمكن من وضع ألواح خشبية تحت التابوت. ولكن، لحسن الحظ، استطعنا رفع التابوت كله باستخدام حبل مصنوع من البولي بروبلين.

وبحلول الساعة الخامسة والنصف، كنا نشرب القهوة في مطبخ دار العبادة ونحن مسرورون، على شعور بالدهشة في أصابع أيدينا وفي أرواحنا وروحها. وُضعت إليزابيث سيكول وتابوتها في الحاوية، ملقى في شاحنة صغيرة مغلقة تابعة للرعية، إلى جانب

مسكني. وكان علي مباشرتها في اليوم التالي إلى مختبرات الطب الشرعي في مونتريال، حيث أعمل كمختصة بعلم الإنسان الشرعي لمصلحة مقاطعة كيبك. ونظراً إلى عدم اعتبار الوفيات التاريخية حالات شرعية، فقد تم حصولي على إذن خاص من مكتب قاضي التحقيق لإجراء الحفر هناك. كنت سأعمل على العظام مدة أسبوعين.

نظفت أغراضي بهدوء، وودعت الجميع، والقلعة، شاكرين الأموات وهي ترسم الابتسامات على وجوههم للذكرى، ومتمردة بالقلق مما كنت قد اكتشفته؟ كانت الابتسامات رائعة.

ومشى الأب ميلر إلى سيارتي. كان الظلام قد عمّ، والثلج الناعم يتساقط على المكان، فشعرت أنه يهبط ساخناً على وجهي.

سألني وحل القس مرة أخرى إن كنت أفضل المبيت في دار العبادة وتلألأ الثلج عالقه تحت ضوء الرواق. فرفضت ذلك مجدداً. وبعد حصولي على إرشادات أخيرة بشأن الطريق، انسحبت في طريق عودتي.

وبعد عشرين دقيقة على الطريق ذي المنعرج، بدأت أندم على قراري. إذ أصبح الثلج الذي كان يتساقط ببطء أمام مصابيح سيارتي كثيفاً جداً، وكانت الأشجار على جانبي الطريق مغطاة بطبقة بيضاء تزداد سماكة كل ثانية.

أمسكت المقود بقوة بكلتا يديّ، وكانت راحتا كفيّ رطبتين، ... فقاري. هبطت السرعة إلى أربعين ثم إلى خمس وثلاثين، وكنت كل بضع دقائق أضغط على المكابح. وبالرغم من أني كنت أعيش لفترة قصيرة في كيبك منذ سنوات، إلا أني لم أعتد قط على قيادة السيارة في الشتاء. كنت أظن أني صعبة التعود، لكني إن وضعني حسب معود في أثناء تساقط الثلج، فسأصبح أمره بالخوف. كنت لا أزال أتأثر برد الفعل الجنوبي التقليدي حيال عواصف الشتاء. أما الثلج! حينها لن نخرج بالطبع. وكان أهل كيبك يطربون لذلك ويضحكون.

كبلني الخوف، فعضتني على لعبة الاستعداد، وهيمنتني من الإجهاد. وبالرغم من أني كنت متعبة، إلا أني بقيت متيقظة، فيداي تمسكان بعصبية، ورقبتي مشدودة، وعضلاتي مشدودة. كان طريق الضفة الشرقية أفضل حالاً من الطرقات الخلفية، لكنه ليس كثيراً. وكانت الرحلة بالسيارة من لالاك عبر ... إلى مونتريال تستغرق عادة ساعتين، لكنني أمضيت نحو أربع ساعات على الطريق.

بعد العاشرة بقليل، وقفت في حقيق لمظلمة مرهقة وسعيدة بعودتي إلى المنزل، في كيبك. وكنت قد بقيت في كارولينا الشمالية نحو الشهرين كاملاً بمفردي. كانت همهمة تفكيري قد تحولت آنذاك إلى الفرنسية.

شغلت التدفئة، وتفقّدت الثلاجة التي كانت مفرغة، وأخرجت بوريتو (وجبة مكسيكية) مستعملة وابتلعتها مع شراب مطور (شراب نكهة الفاكهة المطور) بحرارة الغرفة. لم يكن وجبة شهية، لكنها مغذية.

كانت الحقائب التي جهزتها مساء الثلاثاء مغلقة وموضوعة في غرفة النوم. لم أفكّر في إفراغ أمتعتي منها، بل قررت القيام بذلك حتى ذهبت إلى السرير، وأن أضطجع للنوم مدة تسع ساعات على الأقل. ولكن، أيقظني الهاتف بعد أقل من أربع ساعات.

تمتمت. "حسناً نعم" ولم يكن الانتقال من لغة (فرنسية) إلى أخرى (إنكليزية) متقناً.

"برينان، أنا بيير لاماش. آسف جداً لإزعاجك في هذه الساعة"

انتظرت، فمنذ أثناء سبع سنوات من العمل معه، لم يتصل مدير المختبر بي قط عند الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل.

"آمل أن الأمور قد جرت على ما يرام في لاك مجر يلاميغ" تنحنح. "لقد تلقيت للتو مكالمة من مكتب قاضي التحقيق. شبّ حريق في منزل في سانت - جوفايت، ولا يزال رجال الإطفاء يحاولون السيطرة عليه. سيذهب المحقق الحرائق إلى هناك في الصباح الباكر، ويريد القاضي أن تكوني هناك". تنحنح مجدداً. "قال أحد المحققين إن السكان في السرير وسياراتهم قرب المدخل"

سألت بالإنكليزية. "لماذا تحتاج إليّ؟"

"من الواضح أن الحريق كبير جداً ويبدو كأنه هناك حيث، فستكون متفحّمة. ربما لم يبق سوى العظام والأسنان. قد يكون حالة صعبة"

تبّاً. ليس لهذا.

"في أي وقت؟"

"سآتي إليك عند السادسة صباحاً"

"حسن".

"فيرانس، قد يكون الوضع سيئاً بعض أطفال في مثل مكان".

ضبطت نفسها على الملامسة والعنف.

أهلاً بعودتك.

2

كنت قد عشت في الجنوب طوال حياتي كراشدة، لذا لا يمكن أن يصبح الجو حاراً جداً بالنسبة إليّ. كنت أحب الشمس في آب، والملابس الصيفية، والمراوح السقفية، ورائحة شعر الأطفال المبلل بالعرق، وصوت الحشرات عند الغروب. وبالرغم من ذلك، كنت أمضي فصل الصيف والعطلات المدرسية في كيبيك وفي معظم شهور العام الدراسي، كنت أطير من شارلوت في كارولينا الشمالية حيث أدرّس علم الإنسان في الجامعة، لأعمل في مختبرات الطب الشرعي في مونتريال. وكانت المسافة تبلغ ما يقارب ألفاً ومئتي ميل شمالاً.

أمّا عندما يحل الشتاء، فكنت أتحدث غالباً مع نفسي قبل أن أغادر الطائرة، وأذكّر نفسي أن الجو سيكون بارداً بل سيكون شديد البرودة. لكنك ترتدين شيئاً مناسباً له وستكونين مستعدة جيداً. سأكون مستعدة. لا، لن أكون مستعدة أبداً. أشعر دائماً بصدمة عندما أغادر قاعة المطار وأسحب الشهيق الأول للصقيع ذاك.

عند الساعة السادسة صباحاً، في اليوم العاشر من آذار، كان مؤشر الحرارة في فناء منزلي يشير إلى درجتين فهرنهايت، أي سبع عشرة درجة مئوية تحت الصفر. وكنت أرتدي كل ما يمكنني ارتداؤه: ملابس داخلية طويلة، وجينز، وكنزتين صوفيتين، وجوربين صوفيين، وانتعلت حذاء طويل الساق. ودسست الجوارب، كنت أضع بادتين عازلتين للحرارة مصممتين لإبقاء قدمي دافئة، وقد مضاء دفئتهن على سواد. كانت الملابس التي أرتديها هي نفسها التي ارتديتها بالأمس، وسأستمتع على الأرجح بالقدر نفسه.

وعندما ناداني لامانش، أغلقت صحف البارك، وارتديت قفازي، وخرجت لمعة ثلج، وخرجت سريعاً من الردهة. لم أكن متحمسة للخروج في ذلك اليوم، إلا أنني لم أرغب في جعله ينتظر، وكنت أشعر بالدفء.

كنت أتوقع رؤية سيارة سياحية ما كالعادة، لكنه قاد بي ما يمكن تسميته مركبة رياضية، سيارة دفع رباعي حمراء فاقعة، مع خطوط عليها

قلت وأنا أصعد إلى السيارة: "سيارة جميلة".

"شكراً" أشار إلى رف مركزي وضع عليه كوبين حافظين للحرارة وكيساً من المعجنات. فقلت في نفسي: بوركت. ثم حركت قطعة بطعم التفاح

في الطريق إلى ساحات جولات، أخبرني لامانش ما يعرفه. لم يكن هناك أكثر مما كنت قد سمعته عند الساعة الثالثة صباحاً. رأى زوجان من الجوار سكان في طريقهما لمقابلة سكان يخرجون للتجول عند الساعة التاسعة مساء، وغادر الطارق بعد ذلك لزيارة أصدقاء في مكان بعيد عن منطقته حيث بقي حتى وقت متأخر. وعندما عادا قرابة الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، لاحظا وهجاً من أول الطريق. ثم التفتا حسب خرج من المنزل. ظننته جمرة أخرى قد سحب أسلوب دوي في وقت ما من بعد منتصف الليل، لكنها لم تكن واثقة من ذلك، وعادت إلى النوم. كانت المنطقة منعزلة، وكان عدد سكانها قليلاً. وصل فرج إطفاء للتحقيق عند الساعة الثانية والنصف، واستدعوا مساعدة عندما رأوا ما يجب أن يتعاملوا معه. استغرق الأمر من فرقتين أكثر من ثلاث ساعات لإخماد الحريق. كان لامانش قد تكلم إلى المحقق عند الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، فأخبره بوجود حالة وفاة مؤكدة، وأخرى محتملة. كانت بعض الأجزاء لا تزال ساخنة جداً أو خطرة كلياً للبحث فيها. وكان الإجراء المعتمد سيأخذ وقتاً

انطلقنا شمالاً في ظلمة ما قبل الفجر، عبر سفوح جبال لورنتين. لم يتكلم لامانش كثيراً، وكان ذلك يناسبني لأنني لا أحب تبادل أطراف الحديث في الصباح. وكان الرجل مولعاً بالموسيقى على كل حال، وأبقى محطة شرائط تعمل على نحو متعاقب. موسيقى كلاسيكية وشعبية وجوهر، وكانت تطرب الآذان. ربما كان القصد منها تهدئة الأعصاب، مثل الموسيقى الهادئة التي نسمعها في المصاعد وغرف الانتظار، ولكنها جعلتني أتوتر

"كم تبعد سانت – جوفايت؟" أمسكتُ بلوح شوكولاته مغطّى بالعسل.

"ستستغرق الرحلة نحو ساعتين. يبعد سانت – جوفايت نحو خمسة وعشرين كيلومتراً عن هذا الجانب من جبل ترمبلانت". "هل تعرف هناك من أحد؟". كان يرتدي باركا يصل إلى ركبتيه، بلون أخضر عسكري مع قلنسوة مكسوّة بالفرو ومن حيث أجلس إلى جانبه، لم يكن في مقدوري رؤية سوى وجنة أنفه.

"نعم. جميل"

كنت أصعد بقمة منحدر على جبل ترمبلانت، إذ كانت تلك أول مرة أتزلج فيها في كيبك، وملابسي تناسب جبال نيو إنجلاند (الجبال الزرقاء)، وكانت الريح على القمة باردة بما يكفي لتجميد عشرين سائل.

"كيف جرت الأمور في تلك عمر جلفوريج؟".

"لم يكن الفوز حيث توقعنا. لكن ما المقصود بهذا الشأن؟ من الواضح أن جدتها قد تُبنّت وقُتلت عمداً في العام 1911 والغريب أنه لا توجد أي وثيقة عن هذا الأمر" غريب حقاً، كم هكذا، وتناولت رشفة من قهوة فاترة. "ولدت في الولايات المتحدة" حاولت التوقف عن ذلك. "على كل حال، عثرنا عليها، وسيتم نقل الرفات من بتنغتون اليوم"

"أمر موسف حقاً وقوع هذا الحريق. أعرف أنك كنت ترغبين في التفرّغ منذ أسبوع لتركيز على ذلك التحليل"

في كيبك، يمكن أن يصبح فصول الشتاء محنة للأطباء الشرعيين، إذ تعدو ما ترتفع درجة الحرارة فوق درجة التجمّد. فيكسو الجليد سطوح الأنهار والبحيرات، وتصبح الأرض قاسية مثل الصخر، ويغطي الثلج كل شيء، وتختفي الحشرات، ويختفي العديد من حيوانات القمامة (التي تعيش على الجثث أو الجيف) إلى باطن الأرض. ويكون النسيج أن الجثث لا تتحلل في البيئة الخارجية الراكدة، ولا يتم استنشاقها، مستنشقين من مناسب نوراس، ويلزم الناس أيضاً منازلهم، ويتوقف الصيادون ويحصرون رياضة المشي والخروج في سيرهات عن الشعوب في الغابات والحقول. ولا يتم العثور على بعض الذين لقوا حتفهم في موسم الشتاء حتى حلول فصل الربيع. ونتيجة لذلك كلّه يتراجع عدد الحالات الغامضة التي يجب العمل عليها والتي يتم تكليفي بها، بين تشرين الثاني ونيسان.

والاستعداد هو مراكز متنزلة التي تزداد في شهور البرد. إذ تُوجد معظم ملفات الطريقة إلى طبيب أسنان ويتم التعرف إليها عبر السجلات السنية، إذ يكون للعنوان واسم للقسم معروفين عادة، هنا يمكن الاستعانة بسمات ما قبل الوفاة للمقارنة. وعندما تتحسس الحالة غرباء متحضين، تصبح مسائل ضرورية.

كان لامالش محقاً. عند كتب العمد على حقول لعمال مفتوح، ولم يمضي اضطراري إلى السحاب قبل ساعات حرجات.

"ربما من أشارك في التحليل" بقال تكانو كتوه تراوحني. أنا أحسس على قمة العام. "ستكون لديهم على الأرجح سجلات عن الأسرة"

"على الأرجح".

وصلنا إلى سانت - جيروفايت في أقل من ساعتين، وكانت الشمس قد أشرقت وغطت البلدة والريف بالوان قمر حقيقي باهت. استدرنا غرباً نحو طريق ملتوٍ ذي مسربين، فتجاورنا مباشرة تقريباً شاحنتان من دون جوانب تسيران بالاتجاه المعاكس، إحداهما تحمل خوصاً ومادية متهالكة، والأخرى بليموث هوباجر حمراء.

قال لامالش "أرى أنهم يقودون السيارات إلى المحجز"

راقبت المركبتين تختفيان من خلال المرآة الجانبية. وفي الشاحنة الصغيرة المغلقة كانت هناك كرسي أطفال حلو مقعد الخلفي، ووجه أصفر مرتسم على الرفوف الخلفي. تصوّرت طفلاً سقف شاحنته يمدّ لسانه، وقد وضع إصبعيه في أذنيه، وهو يسخر من العالم. وكتب أعتو أنا وشيقي مثل هذا الطفل مهاد حدسطفالة. ربي كان حدث الطفل مستلقي مضمضماً ولا يستطيع أحد التعرف إليه في إحدى غرف العامل العلوي.

وبعد ملاكس، رأينا ما كنا نبحث عنه. سيارات شرطة، مركبات إطفاء، شاحنات نقل، وحملات إعلامية متنقلة، سيارات إسعاف، سيارات لا تحمل إشارات تميزة مصطفة على جانبي درب حوبل مفروش بالحصى.

كان الراصدون يقفون في مجموعات، معظمهم يتكلم، وبعضهم يتفقد معداته، في حين انتظر آخرون في سياراتهم وهم يستمتعون بالدفء بانتظار القصة. وبفعل البرد والوقت مبكر، لم يكن هناك الكثير من المتفرجين. وبين هؤلاء والآخرين، كانت

سيارة لم تعد بطء لم تلقَّ من قبل نظرة ثانية سريعة. وكان هؤلاء الأشخاص يبدون كممثلين وهم يحتكون بلامبالاة. ولاحقاً، سيكون هناك المزيد منهم.

شغّل لاماش محركه، وانعطف نحو الغرب المؤدي إلى المنزل، حيث لوّح لنا شرطي يرتدي زياً رسمياً لكي نتوقف. كان يرتدي سترة خضراء بلون الزيتون ذات ياقة من الفرو الأسود، ويضع شالاً أخضر داكناً، ويعتمر قبعة خضراء، فيها عصابتان للأذنين مرفوعتان نحو الأعلى. كان أنفه ولحيته حمراء بلون الجنزبيل، وعندما تكلّم خرجت سحابة بخار من فمه. أردت أن أطلب منه أن يعطي لاماش مخالفة، وشعرت مباشرة أنني حتى لكي، لكنني لم أنس إنه رجل وحيد، وإذا شعر بالبرد في منتصف الليل، فسينصرف بعد ذلك.

ليظهر لاماش بطاقة هويته، فلوّح لنا الشرطي بتابع طريقنا مشيراً إلى أننا يجب أن نركن السيارة خلف شاحنة استكشاف مسرح الجريمة الزرقاء، التي كتب عليها بأحرف سوداء واضحة مشكلة: شعبة التحقيق الجنائي. وكما توقعت، كانت وحدة استكشاف مسرح الجريمة هناك أيضاً، وعربة قسم الحرائق المتمثّلة كذلك.

اعتمرت ولاماش قبعتينا، وارتدينا قفازينا، وخرجنا من السيارة. كانت السماء أسفلنا زرقاء صافية، فيما جعلت أشعة الشمس ثلج الليلة الماضية يبهر الأبصار. كان الجو صافياً جداً، وبعض كل شيء يبدو جلياً وواضحاً. أما الصنوبر والشجر والأشجار وأعمدة الإنارة فكانت تلقي بظلال داكنة على الأرض التي يغطيها ثلج نظيف تماماً، مثل صور في معرض ممتاز.

نظرت حولي، ورأيت بقايا منزل محروقة بالإضافة إلى مرآب وبناء خارجي صغير سليمين في ناحية الغرب، وكلها مبنية بطراز ألبي (نسبة إلى جبال الألب). كانت جدران منزله تشكّل ملتفاً في الثلج، وتفصل بين الأبنية الثلاثة. أما أشجار الصنوبر فكانت تحيط بما بقي من المنزل، وأغصانها مثقلة بالثلج الذي جعل أطرافها تنحني إلى الأسفل. راقبت سحابة تمرّ على أحد الأغصان، وبعدها إلى أمام المدخل وخلفه، تساقطت كميات من الثلج أرضاً، وظهرت آثاره على البياض في الأسفل.

كان سطح المنزل محطماً ومنهاراً من الآجر الأحمر الترابي، وجزء منه لا يزال قائماً لكنه قاتم اللون ومتفحم بعض الشيء؛ فيما تحطّمت تلك القسم من السطح

■

الخارجي – الذي لم يحترق – ألواح خشبية صفراء بشعة. وظهرت مكان النوافذ فتحات سوداء بسبب تحطّم الزجاج، وصارت الزخرفة الفيروزية محترقة أو متآكلة بالسخام.

كان السقف الأسود من سنتيوس متفحماً، وقد تعرض القسم الخلفي منه لدمار كبير. وعلى الجانب الأيمن، رأيت ألواحاً خشبية محروقة، حيث كان السطح والجدران تلتقي في ما مضى. وكانت خيوط رفيعة من الدخان لا تزال ترتفع من مكان ما في الداخل.

كانت الواجهة أقل تضرراً، وكانت رواق خشبي على طرفها، في حين جدر شرفات صغيرة من قواعد الطابق العلوي. كان الرواق والشرفات مبنية من أوتاد رمادية اللون مستديرة في الأعلى، مع أشكال قوس على مسافات منتظمة.

نظرت مطلقي إلى الطرف المقابل من الطريق حيث يوجد حاجز صغير مطلي باللونين الأحمر والأزرق. وكان هناك رجل وامرأة يقفان أمامه، وجرحنا كل منهما مشير كتفاه، وأيديهما تحمل مشاعل تحت إبطيهما. كانا يراقبان بصمت. جويهما نصف معطفة من وهج الصباح، ووجهاهما متجهمان تحت قبعتي صيد برتقاليتين فلورسنتية. وكان هنالك الأشجار تعاريض طلقتين لم تنما عن الطريق. نظرت إلى الطريق، ولم تكن هناك منازل أخرى في مرمى البصر، ولا بد أن المرأة التي سمعت أصوات ذوي مكتوم تطلع بسمع موقعه.

مضيت ولاحظت نحو المنزل، واجتزنا عشرات رجال الإطفاء الذين يتحركون بحيوية في بزاتهم الصفراء وخوذهم الحمراء اللامعة، وأحزمتهم الزرقاء وأحذيتهم المطاطية السوداء. كان بعضهم يحمل قوارير أوكسجين مربوطة إلى ظهورهم، وبدا أن معظمهم يحملون بلطات.

اقتربنا من شرطي برتقالي ربّاً وسيماً يقف إلى جانب الرواق، مثل حارس شخصي. كان من مديرية شرطة كيبك، وعلى الأرجح من مخفر سانت – جونايت أو بلدة قريبة. تتمتع شرطة مقاطعة كيبك بسلطة قضائية في كل مكان خارج جزيرة مونتريال، ما عدا بعض المدن التي لديها قوة شرطة خاصة بها. ولأن سانت – جونايت صغيرة جداً، فقد تم استدعاء شرطة مقاطعة كيبك ربما من قبل قائد فرق الإطفاء أو غيرهم. وقام هؤلاء بالقدوم، باستدعاء محققي الحرائق

المنصة من الجثث، وفحصة المراكز والمعضرات. تساءلت عن الشخص الذي اتخذ القرار بإعلام الناس الحقيقي، وعن عدد الضحايا الذين سنعثر عليهم، وعلى أي حال سيكونون. كنت واثقة أن حالتهم لن تكون حسنة، وازداد إيقاع خفقان قلبي.

عندما أظهر لاسمي شارته، فحصتها الرجل

قال وهو يرفع يداً داخل قفاز: "لحظة واحدة أيها الطبيب، من فضلك" نادى أحد رجال الإطفاء، وقال له شيئاً، وأشار إلى رأسه. وخلال ثوانٍ كانت لدينا خوذتان صلبتان وكمامتان. اعتمرنا الخوذتين، ووضعنا القناعين حتى ذراعينا

قال الشرطي وهو يحني رأسه نحو المنزل: "تفضلا". لم نمشِ خطوتين لنصبح [illegible] أنه نصف [illegible] احترق

كان الباب الأمامي مفتوحاً على مصراعيه، وعندما عبرت العتبة وأصبحت خارج ظلال أشعة الشمس، انخفضت الحرارة عشرين درجة. كان الهواء في الداخل خانقاً، وتنبعث من المكان رائحة الخشب المتفحّم ورائحة القماش والجص المشبعين بالماء، وكانت هناك مادة لزجة داكنة تغطي كل شيء.

أمامنا مباشرة، كانت هناك سلالم ترتفع بين الطابق الثاني، وعن اليسار واليمين قنطرتان كانتا سابقاً عبارة عن غرفتي معيشة والطعام. أمّا كل ما تبقّى من المطبخ فقد كان في الخلف.

وبالرغم من أنني ذهبت إلى مواقع حرائق أخرى، إلاّ أنّ قلّة منها تعرضت لدمار مماثل. لقد كانت هناك ألواح خشبية متفحّمة في كل مكان - مثل حطام قذفته الأمواج فوق سور بحري - ومكدّسة حول هيكل كرسي وأريكة محترقين على السلالم، ومتشابكة بين الشرفات والأبواب. كانت بقايا أثاث المنزل مكدّسة في أكوام مسودّة، فيما تتدلى الأسلاك من الجدران والسقف، والتفّ الأنابيب نحو الداخل عند حائط الصالة. طالت النيران أطر النوافذ وحاجز السلالم، وألواح الجدران الخشبية كلها.

كان المنزل يعجّ بأشخاص يحفرون عبر كومة صلبة، ويكنسون وينخلون ويلتقطون صوراً، ويصوّرون بكاميرات الفيديو، ويجمعون أدلة، ويكتبون على ألواح الكتابة. ومن بينهم تعرّفت إلى محققَي حرائق متمرّسَين من مختبراتنا. كانا

يفصلان شريط قماش بينهما، ولعدهما تظل الترحسات في موقع ثابت، عبرها الآخر بنور، ويسحل الهاتف كل مضع أقدام.

رأى لامستي عضواً في كادر قاضي التحقيق، واتخذ سبيله نحوه، فتبعته، وتفحصت بحرص بين أشياء معدنية ملتوية، وزجاج مكسور، وما بدا لي كتلة سوداء تنتظر تحويلها على جثة متفحمة.

كان قاضي التحقيق يافعاً جداً ومتورد الوجنتين. شدّ قامته قليلاً عندما رآنا، وانتصب، ثم عض شفته السفلى، وأشار إلى الدمار حولنا.

"إذاً يا سيد هوبرت، هل مات شخصان؟"

كان لامانش وهوبرت على طرفي نقيض، مثل قطبي مغناطيس على طرفي السوق. إذ كان متخصص علم الأمراض (التشريح المرضي) طويلاً ومشوق القامة، ووجهه الطويل بلون صحة، فيما كان قاضي التحقيق ممتلئاً. كنت أفكر في هوبرت أفقياً، ولامانش عمودياً.

أومأ هوبرت قائلاً "في الطابق الأعلى"

"شخصان آخران؟"

"لا أعرف بعد، لكنهم لم ينتهوا من الطابق الأرضي. كان الحريق أقوى كثيراً في الخلف. يظنون أنه ربما اندلع أولاً في غرفة قبالة المطبخ إذ احترقت تلك المنطقة كلها، وانهارت الأرضية إلى القبو".

"هل رأيت الجثتين؟"

"ليس بعد، أنتظر أن ينتهي الاطفائيون من عملهم لأصعد إلى الطابق الأعلى، إذ يريد قائد فوج الإطفاء التحقق من أن المكان آمن"

كـ الـخاطر قائد فوج الإطفاء رأيه

وقفنا صامتين، نحول بأبصارنا على الفوضى. فتصلبت بعض الرطوبة، فتقيت أصابع يديّ وقدميّ وسطتها في محاولة للحفاظ على مرونتها. وأخيراً، برز ثلاثة رجال بانجاه كابر، يعتمرون خوذاً صلبة ويضعون أقنعة غاز، وكلهم كانوا يحملون من أسلحة كيميائية.

قال رجل الإطفاء الأحمر، وهو يفك شفته ويسرحه. "المكان آمن. يمكنكم الصعود إلى الأعلى الآن. ولكن انتبهوا إلى خطواتكم، واعتمروا الخوذ الصلبة،

فقد يسقط السقف فلعوب كله، لكنّ الأرضية تبدو متماسكة" تابع طريقه نحو الباب، ثم استدار "اتبعنا في الغرفة إلى اليسار"

صعدت مع هوبرت ولامانش السلالم، وسحقت أقدامنا قطعاً من الزجاج والأنقاض المتفحّمة. انبعثت رائحة معدن، وشعرت بضيق في صدري آنذاك. فبالرّغم من أنها صبغة عملي، إلا أنني لم أعتد قط على رؤية جثة متفحّمة

في الأعلى، كان هناك باب مفتوح إلى اليسار، وآخر إلى اليمين، وحمام في نهاية الممر. وبالرغم من تضررها الكبير بالدخان، إلا أن الأشياء كانت تبدو لدى مقارنتها بتلك الموجودة في الطابق الأرضي سليمة إلى حدٍّ ما

عبر الباب الأيسر رأيت كرسياً، ومكتبة، وطرف سرير مزدوج عليه جثة بدت منها الساقان. دخلت مع لامانش الغرفة إلى اليسار، في حين ذهب هوبرت ليتفقد الغرفة إلى اليمين.

تعرض الجدار الخلفي لحروق جزئية، وزال ورق الجدران المزين بالورود عن قسم منه. كانت العوارض سوداء متفحّمة، أمّا سطوحها متشققة ومخططة مثل جلد تمساح القاطور (تمساح أميركي) كما سيكتب غيري. الجرائد المتفحّمة كانت هناك أنقاض متفحمة ومتكسّرة تحت الأقدام، فيما السخام يغطي كل شيء.

ألقى لامانش نظرة متفحّصة في أرجاء المكان، ثم أخرج مسجلة صغيرة من جيبه، وسجّل التاريخ والوقت والمكان، وبدأ بوصف الضحيتين.

كانت الجثتان مستلقيتين على سريرين مزدوجين بشكل حرف L في الزاوية البعيدة للغرفة، وبينهما طاولة صغيرة. والغريب أن الشخصين كليهما كانا يرتديان ملابسهم كاملة، بالرغم من أن الدخان والتفحّم قد أخفيا كل دليل عن الصفات المميزة أو الجنس. كانت الضحية على طول الجدار الخلفي تتصل عنقاً، فيما الأخرى على الجانب قد مالت وهي تنظر حوراً في فمها. لاحظت أن إحدى فردتي الجورب الرياضي قصر قليلاً، ويكشف عن كاحل ملطخ بالدخان، وأنّ طرف الجورب يتدلى رخواً حول أصابع القدم. كانت الجثتان لشخصين راقدين وبدت بنية إحداهما أقوى من الأخرى.

تابع لامانش: "الضحية الأولى "

أرغمت نفسي على إلقاء نظرة متفحصة. كانت الضحية الأولى قد رفعت يداها جانباً، وتشنجت ركبتاها وكأنها تستعد للقتال في وضعية ملاكمة. وبالرغم من أن الحريق لم يكن كبيراً جداً ولم يستمر وقتاً طويلاً بحيث يلتهم كل الجسد، إلا أن حرارة النار التي مسّت في الهواء الخلفي كانت كافية لحرق الدهون وتقليص العضلات. كان الساعدان تحت مرفقين وكأنهما مثل عصوين، وتحمصت كتل من نسيج متفحمة على طول العظام، وأصبحت اليدان مثل مخلبين متورمين مسودّين.

وكان الوجه مشوهاً ومسحوقاً، إذ كانت الشفتان قد احترقتا تماماً، وظهرت الأسنان متآكلة ومتشققة في حين كان أحد القواطع (الأسنان) مغطى بالكعكة، وكان الأنف محترقاً ومهشماً، والشعر متجهاً إلى الأعلى مثل حطام عفاريت حاكية. رأيت ألياف عضلة وحيدة تحيط بالمحجر وتمتد إلى عظمي الوجنتين والفك السفلي، مثل خط مرسوم في كتاب تشريح. وفي كل محجر كانت هناك مُقلة عين جافة وذابلة. لم يكن هناك شعر، ولو قرونة رأس.

كانت الضحية الثانية، بالرغم من موتها، أفضل حالاً، إذ كان بعض جسدها محروقاً ومتشققاً، ولكنه في معظم الأماكن لم يتعرض سوى للدخان. وكانت خطوط بيضاء رفيعة تخرج من أطراف العينين، فيما كانت الأذنان شاحبتين من الداخل وأسفل الشحمتين. أما الشعر فتحول إلى قمة متجمدة. كانت إحدى الذراعين منبسطة إلى جانب الجثة، فيما الأخرى ممتدة وكأنها تحاول الوصول إلى شريكها في الموت، وقد تحولت اليد الممدودة إلى مرقش عظمية سوداء.

تابع لاماتش كلامه الرتيب الكئيب، ووصف الغرفة ومحتوياتها. لم أعد أستمع جيداً لما يقوله، وشعرت بالراحة لأنهم لن يكونوا بحاجة إليّ. لم أفهم لماذا يحتاجون إليّ؟ كان يُفترض أن يكون هناك أطفال. أين هم؟ عبر النافذة المفتوحة كان في مقدوري رؤية أشعة الشمس، وأشجار الصنوبر، والثلج الأبيض المتلألئ في الخارج. كانت حياة تمضي قدماً.

قاطع صمتَ أفكاري، إذ كان لاماتش قد توقف عن الحديث، واستبدل بقفازه القطني آخر مطاطياً، وبدأ بفحص الضحية الثانية، فرفع الجفنين، وأمعن النظر في الأنف والفم من الداخل، ثم قلب الجثة نحو الجدار، ورفع ذيل القميص.

كانت الطبقة الخارجية من الجلد قد تفككت وتقشّرت، وبدت البشرة المتقشرة نصف شفافة مثل الغشاء الرقيق داخل بيضة. تحتها، كانت الأنسجة حمراء حالكة ومنقّطة بالأبيض في أماكن التقائها بالملابس المتصمغة. ضغط لاماش بإصبعه على العضلة الملتهبة فظهرت بقعة بيضاء في اللحم القرمزي.

انضم جوبرت إليه مجدداً عندما كان لاماش يعيد الجثة لتستلقي على ظهرها، فنظر كل منا نحوه مستفسراً

"قارحة".

لم تتغير تعابير وجهيّ أنا ولاماش

"يوجد سريران صغيران هناك. لا بد أنّ غرفة الأولاد. يقول الجيران إن هناك صبيين" كان يتنفس بصعوبة. "صبيان توأم، ولكنهما ليسا هناك"

أخرج جوبيرت منديلاً، ومسح وجهه المتعب، ولم يكن العرق والهواء الفطيس بشكّلان مزيجاً جيداً.

"هل يوجد شيء هنا؟".

أجاب لاماش بصوته الكئيب. "بالطبع سيتطلب هذا تشريحاً كاملاً. ولكن، بناءً على ملاحظاتي الأولية، يمكنني القول إن هذين الشخصين كانا على قيد الحياة عندما شبّ الحريق. على الأقل، هذا الشخص كان حياً"

وأشار إلى الجثة الثانية.

"سأبقى هنا ثلاثين دقيقة أخرى أو نحو ذلك، ثم يمكنكم نقلهما".

أومأ جوبيرت وانصرف ليخبر فريق النقل.

سحب لاماش إلى حيث الجثة الأولى، ثم عاد إلى الأخرى. راقبت ما يجري بصمت، وأنا أتفحص الغطاء الساقط بين أصابعي داخل القفاز. أخيراً، انتهى. لم أكن مضطرة إلى سؤاله.

قال. "دخان حول المنخرين، وفي الأنف والقصبات الهوائية". ثم نظر إليّ. "كانا لا يزالان يتنفسان في أثناء الحريق"

"نعم. أي شيء آخر؟"

"امتقاع الكبد (تغير لون البشرة بعد الموت)، لون كرزي. يشير ذلك إلى وجود أول أكسيد الكربون في الدم".

"و...؟".

"الاستحاض عند عطش ضحط معوي يظهر أن لون الموت غير ثابت بعد" يظهر اللون الأبيض بعد ساعات فقط على انفتاح البشرة.

"نعم" نظر إلى ساعته. "تجاوزت الساعة الآن الثامنة. ربما بقي هذا الشخص حياً حتى الساعة الثالثة أو الرابعة". سرع القطار المطاطي. "ذلك ممكن، لكنّ فوج الإطفاء وصل إلى هنا عند الساعة الثانية والنصف، فلو حصلت الوفاة قبل ذلك، لتغير انتفاخ الموت بشكل كبير مع الوقت. ماذا أيضاً؟"

بقي السؤال من دون جواب. صمتاً حتى في الأسفل، ثم وقع خطوات تصعد السلالم، وظهر رجل إطفاء عند الباب، متوتراً ويختنق بصعوبة

"متخصص علم الإنسان الشرعي!".

بحثت عن العبارة في معجمي لغة كيبيك، لكنها لم تكن موجودة هناك.

نظرت إلى لاماتش، ولكن قبل أن يترجمها تابع الرجل كلامه

سأل الرجل لاماتش: "هل يوجد أحد هنا يدعى برنان؟"

سرت قشعريرة باردة في جسدي.

"عثرنا على جثة في القبو، ويقولون إننا بحاجة إلى هذا الرجل برنان"

"أنا تمب برنان".

نظر إليّ وقتاً طويلاً وهو يمسح خوذته تحت إحدى ذراعيه ورأسه مائل، ثم مسح أنفه بظاهر يده وأعاد بصره إلى لاماتش.

"يمكنك النـــزول إلى الأسفل عندما يقرر قائد فوج الإطفاء الطريق، والأفضل أن تجلبي معطفك فلم يبق الكثير من تلك الجثة"

3

فذهب رجل الإطفاء المتطوّع مسرولاً على السلالم إلى المنطقة الخلفية من المنزل. هناك، كان معظم السطح مدمّراً، وأشعة الشمس تضيء الناس تحته وحزمات من السخام والغبار معلّقة في هواء الشتاء.

توقفنا عند مدخل المطبخ. إلى اليمين، استعصت تحت بقايا منضدة، ومغسلة، وعدّة أجهزة منزلية كبيرة. كانت الحلاية مفتوحة، ومحتوياتها سوداء ومنصهرة. رأيت ألواحاً خشبية متفحّمة في كل مكان من النوع نفسه الذي كنت قد رأيته في الغرف الأمامية.

قال رجل الإطفاء مشيراً بذراعه من خلف إطار الباب. "ابقيا في الخلف إلى جانب الجدران"

ثمّ ظهر مجدداً بعد ثوانٍ، وهو يتحرك على طول الطرف الغربي من الغرفة وخلفه، ظهر سطح المنصة منزوياً إلى الأعلى مثل باب عرائش سوس صلاك، وفي داخله قطع من قوارير شراب مرسي محطّمة وكثير غير متعاوره من أجسام مختلفة

لنبحث ولاتتبع رجل الإطفاء، وتحركنا على طول الجدار الأمامي، ثم حول السرقوبة وصولاً إلى المنصة حيث يمكن منه نستطيع من وسط الغرفة، واخترق طريقنا عبر ألواح متزلة، وقوارير معدنية ملتوية، واسطوانات بروبين (غاز) محروقة

وقف إلى جانب رجل الإطفاء وظهري إلى المنصة، وعليه الأحجار كان سطح والغرفة المجاورة قد تحولا إلى رماد، فاحترق سقفاهما تماماً، ولم يبق من الجدار الفاصل بينهما سوى بضعة ألواح خشبية متفحّمة، مهما الحرس الأرضية إلى

حفــرة سوداء واسعة آنذاك، وكان هناك سلم يمكن منه النزول منها بالضغط. ومن خــلال الفتحــة اســتطعت رؤية رجال يضعون خوذاً صفراء، ويرفعون الأنقاض ويرمونها جانباً، أو يحملونها بعيداً عن الأنظار.

قــال ديني وهو يشير برأسه إلى الفتحة: "هناك جثة في الأسفل. عثروا عليها عندما بدأنا بإزالة الأنقاض الناجمة عن انهيار الأرضية"

سألت: "واحدة فقط أم أكثر؟"

"اللعنة عليّ إن كنت أعرف. لا تبدو جثة إنسان".

"هل هي لراشد أم طفل؟".

رمقني بنظرة وكأنه يقول: "يا سيدة، هل أنت غبية؟"

"من يمكنني الســؤال إذاً هناك؟"

انقلبت عيناه إلى الأعلى، وعادتا إليّ: "تلك مسرح الجريمة. لا يزالون يفتشون المنطقة، ولا نريد أن يحطم شيء رأسك الجميل"

ارتســمت على وجهه ما كان يشعر من دون شك أنها ابتسامة جذابة والتي يبدو أنه تدرب عليها على الأرجح أمام المرآة.

راقبنا ما يجري في حين كان رجال الإطفاء في الأسفل يزيلون ألواحاً خشبية ويمشــون متثاقلين معاً وربما عملين بكثير من الأنقاض، من مكان خارج مرمى البصر، استطعت سماع مزح وأصوات وخرخشة أشياء وسحبها.

سألت: "هل باعتقادك بحسبان أنهم ربما يعثرون دليلاً؟"

نظر رجل الإطفاء إليّ وكأنني قلت إن مزحاً قد ينظم بالمنــزل.

"إنها مجرد ألواح رضية خشبية وأنقاض سقطت من سقف الطابق"

قال بصوت بارد مثل الكلس لتحمسه على فلسفته حقت: "تلك الأنقاض قد ساعدنا على اكتشاف شيء ما، أو على تحديد وضعية الجثة"

أصبحت تعابير وجهه قاسية

"ربما لا تزال هناك نقاط ساخنة في الأسفل أيتها السيدة. لا تريدين أن تلقي النار في وجهك، أليس كذلك؟".

كان يجب علي أن أعترف أنني لا أرغب في ذلك

"وذلك الرجل لا يتوخى الحذر في ما يفعله"

شعرت بوخز ألم على طول جانب رأسي داخل جوف الصالة.

"إذا كانت الضحية متفحمة كما تقول، فقد يطمس زملاؤك أعضاء من الجسد".

انحسرت عضلة فكّه في حين كان ينظر عنقي طلباً للدعم، لكنّ لاماتش لم ينبس ببنت شفة.

قال: "لن يسمح لك القائد على الأرجح بالدخول إلى هناك، بأي شكل من الأشكال".

"يجب أن أحصل الآن على ما يوجد هناك. صاحبة "الأسنان" مكرّس في الطفيليين، وتلتهب الجذور على أسنان، الكثير منها، وكلها للشمس. "إذ بقي منها شيء"

نقل رجل الإطفاء عينيه من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ، وقدّر طولي البالغ خمس أقدام ووزني البالغ مئة وعشرين رطلاً. وبالرغم من أن الرداء المقاوم للحرارة كان يُخفي شكلي، والخوذة الصلبة تحجب شعري الأحمر، إلا أنه رأى ما يكفي ليقتنع أني أنتمي إلى مكان آخر

"هل ستنزلين حقاً إلى هناك؟". ونظر إلى لاماتش طلباً للعون.

"ستقوم د. برينان بتفحص المكان"

"أليس هذا عمل الرجال؟"

هذه المرة لم أكن بحاجة إلى ترجمة. كان رجل الإطفاء الفحل يظن أن ذلك العمل يتطلب أعضاء ذكورية.

قلت وأنا أنظر مباشرة في عينيه. "النقاط السوداء ليست مشكلة. في الواقع، أفضّل هذا العمل بين ألسنة اللهب، لأني أحبها دافئة"

عندما أنهيت كلامي، أمسكت بالحاجز الحاجز، وتأرجحت على السلّم ثم انسللت إلى الأسفل من دون أن يمسّ نهداً الفرجات بجسمي

رأيته يلوح بحركات طفولية أيضاً وتخيلت ما كان يقوله للعائلة.

قال لاماتش وهو يكاد يبتسم. "هؤلاء مطبوعون" كان يبدو مثل السيد إد (بطل مسلسل كوميدي أمريكي) بخوذته الصلبة. "يجب أن ألقي العمل في الأعلى، لكني سأنضم إليك في وقت قصير".

رفيقه وهو يشق طريقه إلى الباب، ويحك رأسه الذي غطّى عرقه وهو مستغرق بالتفكير. وبعد ثوانٍ ظهر القائد على السلم. كان الرجل نفسه الذي أرشدنا إلى المخيّم في الأعلى.

سأل باللغة الإنكليزية "أنتِ د. برمان؟".

أومأت مرة، وأنا مستعدة للشجار.

"لوك جريو. أقود فوج إطفاء المتطوعين في سانت - سوفاييت" ظلّ حزام خوذته عند ذقنه، وتركه يتدلى. كان أكبر سناً من رجاله الذي بكره النساء.

"سنحتاج إلى عشر أو خمس عشرة دقيقة أخرى لتأمين القبو، إذ إنّ قسم خلفي من هذه الحريق، بل ربما لا تزال هناك نقاط ساخنة" كان الحزام يهتز عندما يتكلم. "كان دمث الطبقة، ولا نريد أن تشتعل النيران مجدداً" أشار إلى المكان خلفي. "هل ترين كيف تشوّه ذلك الأنبوب؟"

استدرت لأكتشف نظرة.

"ذلك نحاس، وهو ينصهر في درجة حرارة ألف ومئة مئوية" ثم هزّ رأسه، وتأرجح الحزام تحت وسعه. "كان ذلك قطعة حقاً".

سألت "هل تعرف كيف اندلع الحريق؟".

أشار إلى أسطوانة بروبان قرب قدمي. "حتى الآن عددنا اثني عشرة أسطوانة. إما أن شخصاً ما كان يعرف تماماً ما يقوم به، أو أنه قام فعلاً بشواء الأسرة" احمرّ وجهه قليلاً. "آسف".

"حريق متعمد؟"

هز القائد جريو كتفيه ورفع حاجبيه قائلاً "هذا ليس من شأني" ثم أولى حزام خوذته واستلك كلا حاجبي السلم. "كل ما سمعته هو إزالة الأنقاض لنفسي بإخماد الحريق تماماً. كان هذه الطابع عليها بالتحديد التي كانت وقوداً للحريق الذي احترق الأرضية. سنوعي نظرة حول المكان، وسأصدر عندما يصبح الوضع آمناً".

قلت "لا ترشوا أي ماء على الرفات".

رفع يده موقعاً، واختفى مسرولاً على السلم.

استغرق الأمر ثلاثين دقيقة قبل أن يُسمح لي بالنزول إلى القبو. في أثناء تلك الوقت، فعدت إلى شاحنة استكشاف مسرح الجريمة لأجلب معدّاتي،

وأطلب المعونة. وجدت بيو عيوب، وطلبت أن يأتي بغربال وأن يضع كشافاً في الأسفل.

كان القبو مكاناً واسعاً ومفتوحاً، ومظلماً ورطباً، وأبرد من بلومنهف (بلدة كندية) في كانون الثاني. في الطرف البعيد برز للعيان فرن ترتفع أنابيبه السوداء ملتوية مثل أغصان شجرة سنديان كبيرة يابسة. ذكّرني المكان بسرداب آخر كنت قد رأيته قبل وقت قصير، وكان يأوي قاتلاً متسلسلاً.

كانت جدران القبو مبنية من آجر خفيف الوردية وقد تم تجميع معظم الأغراض الكبيرة وتكديسها فوق بعضها، فانكشفت الأرضية المتسخة التي جعل الغبار لونها بنياً محمراً في بعض الأماكن، وأسود حالكاً في أماكن أخرى، مثل قطع خزفية تُركت في فرن. وكانت عفنة ورطبة بعدة تغطي كل شيء.

أخذني القائد غريتم إلى بقعة عند الطرف الأبعد من المكان الذي انهارت عنده الأرضية. وقال إنه لم يتم العثور على ضحايا في أي مكان آخر، وكنت آمل أن يكون على حق. كانت فكرة غربلة كل ما يوجد في القبو تجعلني أنتحب. تمنى غريتم لي حظاً طيباً، وتركني لينضم إلى رجاله مجدداً.

لم يكن ضوء الشمس القادم من المخرج يصل إلى تلك البقعة البعيدة في الخلف، فقد أخرجت كشافاً قوياً من صندوق معداتي، وشغلته ليضيء المكان حولي. كانت نظرة واحدة كافية لرفع مستوى الأدرينالين في جسمي وجعلي أتحمّس للعمل، لأني لم أكن أتوقع ما رأيته.

كانت العظام منتشرة على مساحة طولها عشر أقدام على الأقل، ولم يكن قد بقي منها سوى الهيكل العظمي، الذي تعرّض لدرجات متفاوتة من الحروق.

في إحدى المجموعات رأيت رأساً محاطاً بأشلاء من أشكال وأحجام مختلفة كان بعضها أسود ومصقولاً مثل الفحم، في حين كان بعضها الآخر أبيض كالطباشير ويبدو على وشك أن يتفتت، وهو بالضبط ما ستؤول إليه حالة الجثة إذا لم يتم التعامل معها على نحو ملائم. فالعظام المتكلّسة ضعيفة جداً وهشّة جداً. لهذا ستكون هذه حالة صعبة.

اصطفت على بعد خمس أقدام جنوب الجمجمة مجموعة من الفقرات، والأضلاع، والعظام الطويلة بوضعية تشريحية مختلفة، وكانت أيضاً بيضاء

ومتكلّسة تماماً. لاحظت ترتيب الفقرات ووضعية عظام الذراعين. كانت اليد اليمنى تستلقي على ظهرها، وإحدى ذراعيها على صدرها، فيما الأخرى مرفوعة فوق رأسها.

تحت عظام الذراعين والصدر، كانت هنالك كتلة سوداء على شكل قلب وعظمتان طويلتان مكسورتان بورك من طرفيهما الحوض. عندما فعلت ذلك، استطعت رؤية عظام الساقين والقدمين المتحجّرة والمحطمة.

ضربت بالرمح والمسحاح، وبكى بارسال أيضاً. كانت تلك صحيحة وإحدى، كاملة تستدعي إن بدت وكأنها كانت؟ عظام الأطفال صغيرة وهشة جداً، ويمكن أن تتوارى بسهولة تحت تلك الطبقة. تضرعت إلى الله كي لا أعثر على أي منها تحت الطين الرماد والرواسب.

سحبت ملاحظات، ثم التقطت صوراً فوتوغرافية، وبعد ذلك بدأت بإبعاد التراب والرماد باستخدام فرشاة دهان طويلة ببطء، كاشفاً عن المزيد من العظام. فحصت بقية الأشخاص التي أزحتها من مكانها، وجمعتها لغربلتها لاحقاً.

جاء لامباش عندما كنت أزيل آخر الأوساخ الملتصقة بالعظام. راقب بصمت، في حين كنت أقوم بإخراج أربعة أوتاد، وكرة خيوط، وثلاثة أشرطة قياس من صندوق أدواتي.

غرزت وتداً في الأرض خلف جمجمة الجثة، وربطت طرفي شريطين إلى المسمار الذي كنت سأثبته في الأعلى، ثم سحبت شريطاً على بعد عشر أقدام جنوباً، وغرزت وتداً آخر.

أمسك لامباش ذيل الشريط عند الوتد الثاني، وعندما أن بين الأول، ومرّرت الشريط الآخر بشكل مستقيم مسافة عشر أقدام نحو الشرق. وباستخدام الشريط الثالث، شكّلت وتر طوله أربع عشرة قدماً، أي مربعة وثلاثة أرباع البوصة من الوتد الجنوبي بفحص عند لامباش بين الزاوية السالبة المترقبة. وعند نقطة التقاء الشريطين الثاني والثالث، غرزت وتداً ثالثاً. بفضل فيثاغورث (عالم رياضيات إغريقي)، كنت أعرف أن لدي مثلثاً قائم الزاوية ومتساوي الضلعين، إذ يبلغ طول كل منهما عشر أقدام.

ســرحت الشريط الثاني عن الوتد الأول، ومدّته على الوتد الشمالي الشرقي، ومددته عشر أقدام جنوباً، فيما مدّ لامانش شريطه عشر أقدام شرقاً وعند نقطة التقاء الشريطين غرس الوتد الرابع.

سيشدت خيطاً حول الأوتاد الأربعة وأحطت الرفات بمربع طول ضلعه عشر أقدام، وقياس زواياه سعمود مرحة. كنت سأرسم مقطعات من الأوتاد عند أحد القياسات، وإذا تطلّب الأمر يمكنني تقسيم المربع إلى أرباع، أو تجزئته إلى شبكة متساحتة (ذات خطوط أفقية وعمودية متساوية الأبعاد) للتقدم بحفر أكثر دقة.

وصـل فـريق الأدلة عندما كنت أضع سهماً من ناحية الشمال قرب المجموعة الشمسية. كانـا يرتديان بذلتين روطوين عصصيين للمناطق النطفية، وقد كتب علـى ظهريهما شعبة التحقيق الجنائي. فحسدفصلا إذ كان البرد والرطوبة في القبو مثل سكين يقطع ملابسي وصولاً إلى جسمي.

كـنت قد عملت مع كلود مارتينو من قبل، في حين كان الفني الآخر جديداً بالنسبة لي. تعرّفنا إلى بعضنا، بينما كانا يسحبان غربالاً وكشّافاً عمودياً.

قلت وأنا أشير إلى المربع المحدد بالأوتاد "ستستغرق غربلة هذه الرواسب بعض الوقت، أريد تحديد موقع أي أسنان قد تكون موجودة، وتبيينها في أماكنها إذا كـان ذلـك ضرورياً. ويجب أن نفحص معظم العانة وأطراف الأضلاع أيضاً إذا عثرت على أيٍّ منها. من سيلتقط الصور؟"

قال ميتشيـر الفني الثاني "هاتوراي أنت"

"حسن، يقول القائد غريبو إنه لن يستطيع أحد نقلها إلى هنا، لكن لن يتم إغلاق القبو"

قـال مارتينـو ووجهـه متجهم "يفترض أن هناك طلباً يبحثان في هذا المنزل". كان نفسه ضبابياً.

"اقترح النهار يحث مطابع"

نظرت إلى لامانش الذي أومأ موافقاً.

قال مارتينو. "كنت قلت" شكل وشريكه للصباحين في حومتيهما الصغيرتين، ثم انتقلا إلى الطـرف البعيد من القبو. كانا سيسويان قريباً بخطوات متوازية

ويمر كان أولاً من الشمال إلى الجنوب، ثم من الشرق إلى الغرب، وعندما انتهيا، سيكونان قد فتشا كل بوصة من الأرضية مرتين.

التقطت المزيد من الصور الضرورية، ثم جلبت منظف الزجاج، وباستخدام ماسح وأداة السحب المسطحة، وبمجرفة بلاستيكية لجمع الغبار، أزلت الأوساخ التي تغطي الهيكل العظمي من دون أن أحرك أي عظمة من مكانها، وسحبت كل مجرفة وكانم إلى الغربال، حيث كنت أفصل الغبار والرماد والأنسجة والأظافر والخشب والحصى من عظام الجثة. وكنت أضع الأجزاء على القماش مراعياً في أكياس بلاستيكية محكمة الإغلاق، وأسجل محتوياتها على دفتر ملاحظاتي. في مرحلة ما، وصل مالوري وبدأ يلتقط الصور.

أحياناً كنت ألقي نظرة خاطفة على لامانش الذي كان يراقب بصمت، ووجهه رزين كالعادة. خلال الوقت الذي عرفته فيه، نادراً ما رأيته يُظهر أي مشاعر. كان لامانش قد شهد الكثير عبر السنين، وربما تكون المواقف مكلفة جداً بالنسبة إليه. بعد مضي بعض الوقت، تكلم.

"إذا لم يكن هناك شيء أفعله هنا يا تمبرنس، سأصعد إلى الأعلى"

أجبت وأنا أفكر في الشيء التالي: "بالتأكيد. سأمضي بعض الوقت هنا"

ثم نظرت إلى ساعتي التي كانت تشير إلى الحادية عشرة وعشر دقائق. خلف لامانش رأيت سيمبسون وماربينو يتقدمان ببطء جنباً إلى جنب ورأساهما إلى الأسفل، مثل عاملي منجم يبحثان عن ذهب.

"هل تريدين شيئاً؟"

"سأحتاج إلى كيس جثث مع ملاءة بيضاء نظيفة بداخله. أطلب منهم أن يضعوه على لوح خشبي عريض أو على نقالة. بعد الانتهاء من إخراج هذه الشظايا من هنا لا أريد أن تختلط الأشياء ببعضها خلال عملية النقل."

"طبعاً"

عدت إلى العمل باستخدام المناخل والغربال. كنت أشعر بيوم شاق، وكان جسمي كله يرتعش. واضطررت إلى التوقف بين الفينة والأخرى لمدة دقيقة. في إحدى المراحل، أحضر فريق نقل المشرحة النقالة وكيس الجثث، عند غادر آخر رجال الإطفاء، وأطبق الصمت على القبو

أخيراً، كنت قد كشفت عن الهيكل العظمي كله، فسحبت الملاحظات، ورسمت مخططاً توضيحياً في حين كان هالورا يلتقط الصور.

وسأل عندئذ لكينا: "هل تمانعين إذا جلبت قهوة؟".

"لا. سأصرخ إذا احتجت إليك. سأمضي بعض الوقت في نقل العظام".

وما إن غادر حتى بدأت أنقل الرفات إلى كيس جثث، بدءاً من القدمين ووصولاً إلى الرأس. كانت الجمجمة في حالة جيدة، فرفعتها ووضعتها على الطاولة. أمّا عظم العانة فكان ملتصقاً بنسيج متصلب جداً لم يكن هناك داعٍ لتحته.

تركت عظام الساقين والذراعين مكسورة بترسبات كانت متشققة متماسكة معاً، حتى أتمكن من تنظيفها وفرزها في غرفة التشريح. وفعلت الشيء نفسه مع منطقة الصدر، وسحبت عرض كتلاً منها برفش عريض النصل. لم يكن قد لحق شيء ما بالقفص الصدري، حتى لم يكن هناك داعٍ للقلق بشأن سلامة الضرر بالأعضاء. وكنت قد تركت الجمجمة في مكانها حتى ذلك الوقت.

عندما انتهيت من رفع الهيكل العظمي، بدأت أغربل على ست بوصات من الرواسب، بدءاً من الوتد الجنوبي الغربي ووصولاً إلى الشمالي الشرقي. كنت جاثية، وشدّ انتباهي من الزاوية الأخيرة للمربع عندما رأيته، على بعد ما يقارب القدم والنصف شمال الجمجمة، وعلى عمق بوصتين. فانقبضت معدتي قليلاً، نعم المعدة. عملت بشدة، أزلت التراب والرماد لأكشف عن عظم فك أكثر كاملاً وشظية من العظم الأيسر، وقطعة من الفك السفلي تضم سبع أسنان.

كانت شبكة من الشعر تظهر على العظم الخارجي رفيعة وبيضاء، وبدا الداخلي الإسفنجي الشكل شاحباً وهشاً، وكان عنكبوتاً قرب عينه بكل جزء منه ثم تركه ليختفي في الحواف، فيما ظهرت بين الأسنان مهشمة. وأدركت أنه سيفقد كله إذا حركته.

أخرجت قارورة سائل من صندوق أدواتي، وهززتها، ثم تفحصتها لأتأكد من عدم وجود بلورات في المحلول بعد. أخرجت المجموعة من الأنبوب لنقل السوائل سعة خمسة مليمترات ومحقنة للاستخدام مرة واحدة.

وباستخدام يديّ وركبتيّ، خضضت القارورة، وحركت غلاف الأنبوب، ووضعت فيها، ضغطت على الأنبوب لأملأه بالمحلول، ثم تركته يسيل على العظم، نقطة إثر

أخيرى بنّب الشظايا كلها، وراقبت ما يجري لأكون واثقة من إنجاز العمل كما ينبغي، وفقدت كل إحساس بالزمن

"رؤية جميلة". قال باللغة الإنكليزية.

ارتعشت يداي، فارتطمت الشبالك (مزيل قصل الكحول) على ركبتي سترتي، وتستر ظهري، وانسكب كحلاي وركبتاي. لم يكن سحق موحي مسرعة حمراء، وسقطت حبيبات على ركبتي. لم أكن مضطرة إلى النظر نحو الخلف.

"شكراً لك أيها المحقق ريمان"

سار إلى الطرف البعيد من الشبكة، ونظر إليّ حتى في ضوء الفجر الخافت، وأيقنت أن عينيه لا تزالان زرقاوين كما أتذكر. كان يرتدي معطفاً من الكشمير (صوف ناعم) أسود، ويضع شالاً صوفياً أحمر

قال، "لم يمضِ وقت طويل منذ رأيتك آخر مرة"

"نعم، لم يمضِ وقت طويل، متى كان ذلك؟"

"في قصر العدل"

"محاكمة موريس" كان كل منا بانتظار أن يدلي بشهادته

"ألا زلت تواعدين مري ماسود؟"

تجاهلت السؤال. وكنت في الخريف الماضي قد واعدته لفترة قصيرة عامي دفاع كنت قد التقيت به في دورة ماي مشي (فن صيني للدفاع عن النفس).

"أليس ذلك ناجحاً مع الجميع؟"

لم أجب بالرغم من دهشتي. وكان من الواضح أن حياتي العاطفية موضوع مثير للاهتمام بالنسبة إلى شعبة جرائم القتل

"كيف حالك؟"

"بخير، وأنت؟"

"لا يمكنني أن أشتكي لأنني إن فعلت ذلك فلن يصغي إليّ أحد"

"أظن جواباً لبقاً"

"يمكنني أن أجرّب ذلك" سأل وهو يشير بإصبعه للكرة بالقرب من يدي.

"ماذا يوجد في الأنبوبة؟".

"فيناك: إنه محلول رانيج (مادة صمغية) حلاب فينول وإيثانول. الفك السفلي بحالة يرثى لها وأحاول الحفاظ عليه من التلف".

"وسيفي ذلك بالغرض؟".

"ما دام العظم جافاً ستتشرب هذه المادة فيه وتجعله متماسكاً جيداً".

"وإذا لم يكن جافاً؟".

"لا تمتزج السوائل بحلله وهذا يبقى على السطح ويصبح لونه أبيض، سيغدو العظم وكأنه مطلي بمادة مطاطية"

"كم يستغرق جفافها؟"

شعرت بأني مثل السيد ماجيك (برنامج تلفازي أمريكي يقدم تجارب علمية للأطفال).

"تجف بسرعة نتيجة تبخر الكحول، وتستغرق عادة ما بين ثلاثين إلى ستين دقيقة إلا أن وجودنا في جو شبه قطبي قد يسرّع الأمور".

تفحّصت شظايا الفك وسكبت على إحداها بضع قطرات إضافية، ثم وضعت المرشح على غطاء قارورة المحلول. فاقترب مني رايان ومدّ يده، فأمسكت بها ووقفت، وضعت ذراعيّ حول خصري ودسست يديّ تحت إبطيّ. لم أكن أشعر بأصابعي، وظننت أن أنفي يسيل.

قال وهو ينظر إلى النهر "المكان هنا أبرد من وكر مشعوذة" وضع ذراعاً خلفه بزاوية غريبة. "منذ متى وأنت هنا؟"

نظرت إلى ساعتي. لا عجب أن حرارة جسمي قد انخفضت، إذ كانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع.

"منذ أكثر من أربع ساعات"

"يا إلهي! ستحتاجين إلى نقل دم".

اتضح الأمر تدريجياً فقد كان رايان يعمل في شعبة جرائم القتل

"إذاً، هو حريق متعمد؟".

"على الأرجح"

سحب كيساً أبيض من خلف ظهره وأخرج منه كوباً حافظاً للحرارة وشطيرة، وهزّهما أمامي.

انتفض غموض لكنه تراجع إلى الخلف.

"ستنبهني لي"

"سأتذكر ذلك"

سحق وقهوة فائرة. كانت القهوة رائعة، تكلمنا وأنا آكل.

قلت وأنا أمضغ "المحرق لماذا تظن أنه حريق متعمد"

"المحرقين هنا وحدث هنا"

حسنٌ كان يتمتع بسلطة أعلى.

"وجدت شخصاً واحداً، قد يكون بقعة، لكنه ليس عملاً صغيراً"

"لا يوجد أطفال؟"

"لا يوجد أطفال حورك"

"يبدو أن أحدهم قد استخدم طريقة قديمة مجربة وموثوقة. اشتعلت النار في خطوط بين ألواح الأرضية لو حيث كانت ألواح الأرضية موجودة. وذلك يعني وقوداً سائلاً، قد يكون على الأرجح بنزين، إذ عثرنا على عشرات علب البنزين الفارغة"

"بعين؟". قلبت الشطيرة.

"هناك أكثر من مصدر واحد للنار عندما اندلعت النار انتشرت بسرعة كبيرة لأنها اشتعلت في أكبر مجموعة منزلية من أسطوانات الغاز في العالم، مما أدى إلى دوي هائل كلما انفجرت إحداها أسطوانة أخرى، دويٌ هائل آخر".

"كم عددها؟"

"أربع عشرة أسطوانة"

"هل بدأ الاشتعال في المطبخ؟"

"في المستودع المجاور بغض النظر عن ناحية استخدامها، لأنه من الصعب تحديد ذلك الآن"

لمحت التفكير في الأمر

"ذلك يفسر ما حل بالرأس والعنق"

"ماذا بشأن الرأس والعنق؟"

"كانا يبعدان ما يقارب خمس أقدام عن بقية الجسد. إذا وقعت أسطوانة غاز مع الجمجمة من الأعلى وتحطمت لاحقاً، ربما سيدفع ذلك الرأس بعيداً بعد أن احترق وانفصل عن الجسد. والشيء نفسه ينطبق على الفك"

أنهيت احتساء القهوة وتمنيت لو كانت هناك جرعة أخرى.

"هل يمكن أن تكون الأسطوانات قد انفجرت عرضاً؟"

"محتمل، لا يمكننا استبعاد هذا الاحتمال"

تفحصت منديلاً من سترتي، ومكوّب في كمنت لامانش تعلّق. مدّ رايان يده داخل الكيس، ثم أخرجها وناولني منديلاً

"حسنٌ، كان ثمة مصادر متعددة. وهناك دليل على وجود وقود سائل. إنه حريق متعمد. لماذا؟"

"لا أعرف" أشار إلى كبير المحققين. "من هذا؟"

"لا أعرف."

صعد رايان إلى الأعلى، وعدت أنا إلى ما كنت أقوم به. لم يكن الفك قد جف تماماً بعد، فانصبّ اهتمامي على الجمجمة.

تحتوي الدماغ على كمية كبيرة من الماء وعندما يتعرض للنار، يغلي ويتمدد، فيزداد ضغط السائل داخل الرأس. وعند حرارة معينة، قد تتفكك عظام القحف أو تتحطم. كان ذلك الشخص بحالة جيدة جداً. فبالرغم من اختفاء الوجه وتفحّم العظم الخارجي وتشققه إلا أن أجزاء كبيرة من الجمجمة بقيت سليمة. وأعتقد ذلك بسبب شدة الحريق.

عندما نظفت العظام من الطين والرماد، وألقيت نظرة متفحصة أدركت السبب. لحظة، حدقت فقط، ثم قلبت الجمجمة بين يدي، وتفحصت العظم الجبهي.

يا إلهي!

سمعت السلالم، ورفعت رأسي إلى المطبخ. كان رايان يمشي إلى جانب المحقق ويتكلم مع المصوّر

قلت: "الأفضل أن تنزلا إلى الأسفل".

رفع كل منهما حاجبيه وأشار إلى صدره

"كلاكما"

وضع ريان الكوب الحافظ للحرارة الذي كان يحمله جانباً.

"ماذا؟"

"ربما لم يكن هذا الشخص على قيد الحياة عندما اندلعت النار".

4

كان الوقت متأخراً عندما وُضعت آخر عظمة في صندوق، وأصبحت جاهزة للنقل. راقبت رايان من مجريه في حين كنت أستخرج شظايا الجمجمة وألفّها وأضعها في أوعية بلاستيكية. إذ كنت سأحلل الرقاقات في المختبر، في حين سيكون باقي التحقيق مسؤوليته.

كان الشفق قد بدأ يحلّ عندما خرجت من القبو. والقول إنني كنت أشعر بالبرد يشبه القول إن الليدي جوديفا (سيدة أنغلو ساكسونية مشت عارية في شوارع كوفنتري احتجاجاً على ضرائب فرضها زوجها) قد مشت من دون ملابس. لليوم الثاني على التوالي منذ النهار، وقد فقدت الإحساس بأصابعي، وكنت آمل ألا يكون بترها ضرورياً.

كان لاماش قد ذهب، لذا عدت إلى مونتريال مع رايان وشريكه، جان برتران. جلست في الخلف وأنا أرتجف، وأطلب المزيد من الحرارة، فيما جلس الرجلان في الأمام، ينضحان عرقاً، وينزعان بين الحين والآخر قطعة من ملابسهما الخارجية.

تخلل حديثهما كلام عن وعيي. كنت منهكة تماماً، وأريد فقط أخذ حمام ساخن والاسترخاء بثوب نومي الصوفي الناعم طوال شهر. شرد ذهني، وفكّرت في السهرة، مضطربة في فكرة أن أتكوّر وأنام حتى الربيع.

توالت صور في رأسي. الجمجمة في القبو، جورب يتدلى فوق أصابع محروقة ومتيبّسة، لوحة اسمية على تابوت صغير، ملصق وجه سعيد.

"ترتان"
"ماذا؟".
"صباح الخير بالثلج، الأرض تقول مرحباً"
"ماذا؟".
"وصلت إلى المنزل"
يبدو أنني كنت نائمة
"شكراً، سأتكلم معك يوم الاثنين".

خرجت من السيارة متثاقلة، وصعدت سلالم المبنى الذي أسكن فيه. كان ثلج خفيف يغطي كل شيء مثل طبقة بيضاء رقيقة تغطي كعكة دبقة. من أين جاء كل هذا الثلج؟

لم يكن وضع السلّة قد تحسّن، لذا تناولت البسكويت مع زبدة الفول السوداني وحساء العدس، ووجدت علبة قديمة من تويكس في خزانة المؤونة، وهي الشوكولاته الداكنة المفضّلة لديّ. لم تكن طازجة وطرية، ولكن لم يكن لديّ خيار آخر.

كان الحمام كل ما تمنيته حقاً. وبعد ذلك قررت إشعال النار، فسرى الدفء في أوصالي أخيراً. لكنني شعرت أنني متعبة جداً ووحيدة تماماً. جعلتني الشوكولاته أشعر بارتياح، لكني كنت بحاجة إلى المزيد.

اشتقت إلى إيستون. كان عام كيتي الدراسي مقسّماً إلى أرباع، في حين أنني أعمل في جامعة بنظام الفصلين، لذا لم تكن عطلاتنا تتزامن مع بعضها. حتى يسوءني بقاؤه في المكتب هذه المرة. فقد كان يكره السفر جواً، ويعبّر عن رأيه بأصوات عالية كلما صعد على متن طائرة. وبالنظر إلى أنني سأمضي في كيتي أقل من أسبوعين هذه المرة، كنت قد قررت ترك القط عندي والمضي عن السفر جواً.

عندما كنت أهمّ بإشعال الحطب، فكّرت في النار. كان هومو إيركتوس (الإنسان المنتصب أحد أسلاف البشر الحاليين) أول من طوّعها. فطوال آلاف السنين كان يستخدمها للصيد والطهي والتدفئة وإبعاد الوحوش. كانت تلك آخر خاطرة لي في العطلة. فكّرت في خلافي في كارولينا الشمالية، حيثما كنت أبحث عن

إليـــزابيث سـيكوب، كانـــوا يخضعون لامتحاناتهم النهائية. ستحصل الدفاتر الزرقاء الصحوة بين هنا غداً مساءً وسيذهب الطلاب إلى الشواطئ.

أطفـــأت الضوء، ورقبت ألسنة اللهب تتصاعد وتتلوى بين الحطب. كانت الظـــلال تتـــراقص في أنحاء الغرفة، وكان في مقدوري شمّ رائحة الصنوبر وسماع صوت طـقطـقـة النيران وغليان ماء يصعد إلى السطح. لهذا السبب تستمتع النار بعناية كبيرة؛ فهي تثير العديد من الغموض.

تذكّـــر النارُ دوماً بالمناسبات المفرحة وعطلات الصيف خلال العطلة، وهي مهمة محيرة. إذ يمكن أن تُحدث السلوان، وتثير ذكريات جميلة، ولكنها قد تشعل أيضاً. لم أكن أريد التفكير في سانــ جوهانسن عند تلك الليلة.

راقب الثلج يتجمّع على حافة النافذة، وفكرت بطلابي الذين سيحتفلون بالعطلة أول أيامهم على الشاطئ، وبينما أعرف أنا قصة صديقي، سيكونون عرضة لحروق الشمس. لم أكن أريد التفكير في ذلك أيضاً.

فكّـــرت في إليزابيث سيكوب، التي كانت مشكلة أنثى تمثّل كما تعيد اللوحة العقلية، بكتـــبها لم تقم بأي تحصيل تتوق منه أكثر من قرب. ماذا لو كانت تدعي فتستعيد مختلطاً؟ كان ذلك شيئاً آخر لا أريد التفكير فيه. على الأقل الليلة، كان لدي وإليزابيث شيء مشترك.

نظـــرت إلى الساعة فوجدت أنها تشير إلى التاسعة وأربعين دقيقة. في عامها الجامعـــي الثاني، غدّت كيي إحدى طالبات موهوبة. وبالرغم من حصولها على علامة معدل بمعدل 3.8 في مادتي اللغة الإنكليزية وعلم النفس، إلا أنها لم تكن قط فرفاء اجتماعياً وكان احتمال وجودها في المنـــزل مساء الجمعة معدوماً. ولأنني متفائلة دوماً، جذبت الهاتف إلى جانب الموقد، وطلبت تلفونها المحمول.

أجابت كيي عند الرنة الثالثة

وكنت أتوقع أن يخيب تحديدها الصوتي، فسمعت شيئاً غير مفهوم.

"ماما؟ هل هذه أنتِ؟"

"نعم، مرحباً. ماذا تفعلين في المنـــزل؟"

"هناك بثرة على ذقني بحجم همستر (حيوان من القوارض). شكلي قبيح جداً ولا يمكنني الخروج. ماذا تفعلين أنتِ في المنـــزل؟"

"عليك أن تكوني لبيبة، ولا تعلقي على البشرة" استندت إلى وسادة، ووضعت قدميّ من جانب سريري. "لقد أمضيت يوماً في مشي قبور الأولى، وأنا مرهقة ولا يمكنني الخروج".

"لن أكلّف نفسي عناء السؤال". صحت هاتفاً حلواً برد. "هذه البشرة كبيرة جداً"

"ستزول هذه أيضاً. كيف سيوابو؟" تلك كنيتي حرفي، كمكون وسوابو دو بوسري.

"إنه لطيف حالاً. اشتريت له دونة من متجر الحيوانات الأليفة، وكنت أعطيه إياه بقطعة عنب. لقد توقف عن التطير"

"جيد لك. كان دائماً ينعطش مدى"

"أظن أن عكوب يهرب دائماً".

"سأحاول أن أكون أكثر عطفاً. ما جديد هو ذلك؟"

"ليس الكثير. خرجت مع رجل يدعى لوبريد. كان لطيفاً جداً، وأرسل لي وروداً في اليوم التالي. وسأخرج في سهرة غداً مع ليودة ليود ديكوف. إنه طالب حقوق في السنة الأولى".

"هل تخاطبهم بتلك الطريقة؟".

"ماذا؟"

"الأسماء"

تجاهلت ذلك. "أفتقدت الحالة حالتي"

"آه؟" يحملني اسم شمعون الرحس سمة قليلاً، مثل دلو مي، بالمسامير توازناً على طرف حافة.

"ستبيع المنظقة أو شيئاً من هذا القبيل. كانت تحصل في الواقع لتسأل عنك، وتبدو غريبة الأطوار بعض الشيء"

"غريبة؟" في يوم عادي تبدو شقيقتي غريبة الأطوار بعض الشيء.

"أعتقد أنك في كيلك. ستحصل منك على الأرجح حقاً"

"حسن". هذا ما كان ينقصني.

"آه! اشتريت قميص مازدا أر إكس 7 إنها رائعة! لن يسمح لي بقيادتها"

"نعم، أعرف". كان صديقي يمرّ بأزمة منتصف العمر

شعرت بترددها للحظات. "في الواقع سنخرج لتناول بيتزا"

"ماذا عن البيرة؟"

"سأرسم عليها أذني وهل وأزعم أنها وشم"

"يجب أن يمضي ذلك بالغرض. إذا اكتشف أحد الأمر، ستصبحين اسماً مستعاراً"

"أحبك أمي."

"أحبك أيضاً، سأكلمك لاحقاً".

شربت ما تبقى من نوركتر، ونظّفت أسناني مرتين، ثم أويت إلى السرير، ونمت إحدى عشرة ساعة.

أمضيت باقي عطلة نهاية الأسبوع وأنا أفرّغ محتويات حقائبي وأنظف وأتسوّق وأصحح أوراق الامتحان. اتصلت شقيقتي مساء الأحد لتقول إنها ستبيع مستطاعم. شعرت بالارتياح لأنني كنت قد أمضيت ثلاث سنوات وأنا أفكر أصدر لإبقاء كنبي على الأرض، خائفة من اليوم الذي ستطير فيه أخيراً على متن الطائرة. يمكن تحويل تلك الطاقة الإبداعية الآن إلى مكان آخر

سألتُ: "هل أنت في المنزل؟"

"نعم".

"هل الجو دافئ؟" ونظرت إلى الثلج الذي كان لا يزال يرتد على حافة النافذة.

"الجو دافئ دائماً في هيوستن"

ب هنا.

"إذن، لماذا ستبيعين المظلات؟"

لماذا كانت هاري تسعى إلى التحديد بالرغم من أن عمها كان ينتظر دائماً إلى التركيز في السنوات الثلاث الماضية كانت مصممة جداً بشأن القفز. وعندما لم تكن تطير في رحلات حول مكسيكو، كانت وأفراد طاقمها يضعون أغراضهم في شاحنة صغيرة ويتنقلون عبر البلاد للمشاركة في مسابقات للقفز.

■

"لقد انفصلت عن ستراتيكر"

"آه".

كانت شقيقة المحامية لستراتيكر التقيا في سباق في ألبوكيرك (أكثر مدن نيومكسيكو) وتزوجا بعد ستة أيام؛ حدث ذلك قبل سنتين.

بقيت كل منا صامتة وقتاً طويلاً، ثم تكلمت أنا أولاً

سائلةً: "وماذا ستفعلين الآن؟"

"قد ألتقي استشارة".

فاجأني ذلك؛ لأن شقيقتي نادراً ما تفعل الصواب.

"قد تساعدك على تخطي ذلك".

"لا، لا. لقد خرج ستراتيكر من حياتي، ولا أبكي عليه. يجعلني ذلك أشعر بالسرور" سمعتها تشعل لفافة تبغ وتسحب نفثة كبيرة ثم تزفرُ الدخان. "هناك دورة كنت قد سمعت عنها، إذ بعد أن تشتركي فيها تصبح بإمكانك إسداء النصائح إلى الناس بشأن الصحة والتخلص من الضغط النفسي وأشياء من هذا القبيل. كما أقرأ عن الأعشاب، وطرائق تأمل ما وراء الطبيعة، وهي رائعة جداً. أظن أنني سأبرع في ذلك".

"هاري، يبدو ذلك غريباً قليلاً". كم مرة كنت قد قلت ذلك؟

"آه، بالطبع ستفكرين عن الأمر بسلبية"

لا، لم تكن سلبية. ولكن، عندما تريد هاري شيئاً، فهي تسعى إليه بقوة ولا يمكن إقناعها بالعدول عنه.

أغلقت السماعة، وأنا أشعر بالخوف قليلاً. كانت فكرة قيام هاري بإسداء نصائح إلى الناس بشأن مشاكلهم تثير الأعصاب.

عند الساعة السادسة، حضّرت لنفسي عشاء من صدور الدجاج المقلي، والبطاطا المحمرة المسلوقة مع الزبدة والكراث، والخبز المحمّص. إن كأساً من الشراب الفرنسي الأبيض سيجعل الوجبة ممتازة، لكن ليس لي. كان ذلك المفتاح على وضعية الإغلاق منذ سبع سنوات وسيبقى حتى تلك اللحظة. فأنا لست ثملة على الأقل، بل وأنا صاحية. كانت الوجبة لا تزال فاخرة مقارنة ببسكويت الصودا الذي تناولته في الليلة الماضية

بينما كنت آكل، فكّرت في شقيقتي الصغرى. لم تكن هاري والتصميم الرسمي
علـى وفـاق قط. فقد تزوجت حبيبها في مدرسة الثانوية قبل يوم من التخرج،
وتزوّجت ثلاثة آخرين بعد ذلك. كما ربّت صالب برنار (كلاب من جبال الألب
السويسرية المتخصصة بالإنقاذ)، وأدارت فرع بيتزا هات، وباعت مظارف شمسية
لخمسمين معروفين، وعملت كدليل سياحي لرحلات في يوكاتان، وشغلت منصب
مديرة علاقات عامة في شركة هوسار نيتروس، واكتسبت عملاً لتنظيف السجاد
وحسـرته، وباعـت عطـورات، وأخيراً اصطحبت سائحين في جولات على متن
مناطيد طراز الساحلي.

عندما كان عمري ثلاث سنوات وكانت هاري تبلغ من العمر سنة واحدة،
سبّبت لها كسراً في الساق عندما دست عليها بمزّاجتي ذات العجلات الثلاث. و لم
يتعافَ ذلك من مرحلتها قط. فقد تعلّمت هاري المشي حين كانت تجر جبيرة
وكانت مرعبة على نحو لا يُحتمل، ومحبوبة جداً. جرّبني شعيني بطاقتها الكبيرة
ما تضطر إليه بالتدريب أو التركيز، وأصبحت مراهقة ثملاً.

عند التاسعة والنصف شغّلت التلفاز، وتابعت مباراة هوكي. كانت المباراة قد
وصـلت إلى نهاية الشوط الثاني، وكان فريق هانز متأخراً بفارق أربعة أهداف أمام
سـانت لويس. تحدّث دون ميشوري عن عدم كفاءة إدارة كنديانـز (فريق هوكي
مونتـريال)، كان وجهه متقبضاً ويتورد غضباً فوق قميصه ذي الياقة العالية.
كـان يبـدو مثل عمي في فرقة ربعية وليس محللاً رياضياً. أصغيت إلى ما يقوله
وتملكني الحزن لأن الملايين يصغون إليه كل أسبوع. وعند الساعة العاشرة والربع،
أطفأت التلفاز ورميت في السرير.

نهـضت باكراً في صباح اليوم التالي، وقدت سيارتي إلى المختبر. كان يوم
الاثنـين يـوماً حـافلاً بالنسـبة إلى معظم العاملين في المجال الطبـي. إذ تزداد
الأعمـال العشوائية الوحشية، وتخاطر الكلاب بالشجاعة، وكراهية الشخص
وحدته. كما يزداد التوقيت السيئ البالغ، وينجم عن ذلك ازدياد عدد الجرائم
في عطلـة نهاية الأسبـوع، فتصل الجثث وتوضع في البرّاد بانتظار تشريحها يوم
الاثنين.

لم يكن هذا الأمر مستغرباً، شربت القهوة، وشاركت في الاجتماع الصباحي في مكتب لامانش. كانت ستي بيرو تعلق بسهادتها في محاكمة جنائية في غال - دو - أور، لكن الأطباء الشرعيين الآخرين كانوا حاضرين. كان جان بلونيه قد عاد للتو من الإدلاء بشهادته في كوجوفك («أكثر بلدة بلاسكيمو في برفانك»، في أقصى شمال كيبك. ويعرض صوراً على إيمي سانت - أنجلو وسيسل موريون. فاقتربت لإلقاء نظرة عن قرب.

بدت كوجوفك ركاماً قطعياً فوق الثلج وقد جرى تجميعها قبل ليلة.

سألت وأنا أشير إلى مبنى ساطع الضيح مع طبقة خارجية بلاستيكية: "ما هذا؟"

"مركز الألعاب المائية" أشار بلونيه إلى لافتة حمراء ستاسية الأضلاع تحمل حروفاً غير مألوفة في الأعلى، وكلمة موقف بالأسفل بأحرف بيضاء كبيرة. "كل اللافتات بالفرنسية والإنكتيتوت (مجموعة من لهجات الأسكيمو)" كانت لهجته الشمالية ثقيلة جداً، وبالنسبة لي بدا أنه ربما كان يتكلم باللغة الثالثة. كنت أعرفه منذ سنوات، وبالرغم من ذلك كنت أواجه المتاعب في فهم فرنسيته.

شار بلونيه إلى مبنى آخر ساطع الضيح "ذلك هو قصر العدل".

بدت منازل مسطحة وبكل من غير صفحة بلاستيكية، وحفف البلدة، امتدّ سهل رمادي، وقفر مبني بالصخور والطحالب. كان هناك هيكل عظمي لأيل كبير على جانب الطريق.

سألت إيمي وهي تتفحص الأيل: "هل ذلك شائع؟"

"فقط عندما لكون نافقة"

قال لامانش وهو يوزع الجدول: "هناك ثماني حالات تشريح اليوم" لم استعرضها كلها: سحق لعمر يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، وشطر سلاحه إلى نصفين، حدث ذلك في منطقة مرتادها الرياضيون.

وانقلبت مركبة ثلجية عبر الثلج في لاك ميمانتيك، وتم العثور على جثتين، ويُعتقد بعملية تسمم كحولي.

كتب عُثر على رضيع ميت ومضغوط في سريره. وقالت الأم التي كانت في الطابق الأرضي تشاهد برنامج مسابقات عندما وضعت السلطات، إن مصدراً حنياً طلب منها قبل عشرة أيام أن تتوقف عن تغذية الطفل

وعُثر على رحم أبيض مجهول الهوية خلف حاويات قمامة في حرم مكغيل (جامعة في مونتريال) الماضي، كما اكتشفت ثلاث جثث من المنزل الذي تعرض لحريق في سانت - جوفايت.

سول ملوبه حالة الرضيع، وأشار إلى أنه ربما يطلب استشارة متخصص بعلم الإنسان. وبالرغم من أن هوية الطفل لم تكن موضع تساؤل، إلا أن سبب الوفاة وملابساتها كانا كذلك.

تولت سانت - أنجيلو أمر المحقق من لاك ميغانتيك، فيما اهتم موريون بتحقيق رص القطار ورحل حاويات القمامة. وكانت حقًا المسحتين اللتان عثر عليهما في غرفة نوم منزل سانت - جوفايت سيحتين بما يكفي لإجراء تشريح عادي لهما، ورأى لاماش ذلك. لذا فكنت سأفحص العظام التي عثر عليها في القبو.

بعد الاجتماع، ذهبت إلى مكتبي، وفتحت ملفاً لنقل المعلومات من جدول الفحص الطبيعي إلى نموذج يختص بعلم الإنسان. الاسم: مجهول. تاريخ الولادة: فراغ. رقم مختبرات الطب الشرعي: 31013. رقم المشرحة: 375. رقم واقعة الشرطة: 89041. متخصص علم الأمراض: بيير لاماش. قاضي التحقيق: جان - كلود هوبرت. المحققان: أندرو رايان وجان بيرتراند، شعبة مكافحة الجريمة، مديرية أمن كيبك.

كتبت التاريخ، ووضعت النموذج في حافظة ملفات. كان كل منا يستخدم لوناً مختلفاً. الوردي لمارك برغرون، طبيب الأسنان، أو الأخضر لمارتن ليفسك، طبيب الأشعة، بينما يستخدم لاماش الأحمر، والملفات الصفراء الفاقعة تعني علم الإنسان.

أوصدت الغرفة بالمفتاح، واستخدمت المصعد للنزول إلى القبو. هناك، غيرت من زي تشريح ووضع الملف *31013 مختبرات الطب الشرعي* في الغرفة رقم ثلاثة، ثم ذهبت لارتداء ملابس معقّمة.

كانت غرف التشريح الأربع في مختبرات الطب الشرعي مجاورة للمشرحة، وتعلو بالخصوص غرف التشريح، في حين يعلو مكتب قاضي التحقيق بالمشرحة. كانت غرفة التشريح الثالثة واسعة وتحتوي ثلاث طاولات، في حين تضم كل من الغرف الأخرى طاولة واحدة فقط. أمّا الغرفة الرابعة فكانت مزوّدة بنظام تهوية خاص، وكنت أعمل هناك غالباً، لأن العديد من القضايا التي أتولاها ليست جديدة. لكنّ اليوم فقد تركت الغرفة الرابعة بموتيه والطفل، لأنّ الجثث المتفسّخة لا تصدر عنها رائحة كريهة

عندما وصلت إلى الغرفة الثالثة، كان هناك كيس جثث أسود وأربعة أوعية بلاستيكية قد وضعت على طاولة. سحبت الغطاء عن وعاء، وأخرجت الجمجمة القحفية، وتفقدت قطع الجمجمة التي كانت قد قطعت الرحلة من دون أن تصاب بأي ضرر.

سلّمت بطاقة تعريفي، ثم فتحت سحّاب كيس الجثث، وأخرجت الملاءة التي تغلّف العظام والشظايا. التقطت عدة صور فوتوغرافية ثم أرسلت كل شيء لتصويره بالأشعة السينية لأرى إن كان فيها أسنان أو أشياء معدنية. كنت أريد تحديدها قبل أن أعمل على تلك القطع.

في أثناء انتظاري فكّرت في البرغوث بكوب. كان معظمه في ركن على بعد عشر أقدام مني، ولكنني اضطررت لرؤية ما يوجد داخله. كانت إحدى الرسائل التي وصلتني هذا الصباح من الأخت جوليات، وتقول فيها إن صوم الأحوات قد تمّ أيضاً.

بعد ثلاثين دقيقة أعادت لورا العظام من التصوير الإشعاعي، وسلّمتني مغلف صور. وضعت العديد منها في جهاز عرض، بدءاً من القدم إلى نهاية كيس الجثث.

سألت لورا: "هل الصور جيدة؟ لم أكن واثقة من الوضعية المثلى التي يجب استخدامها مع كل تلك الأوساخ، لهذا التقطت لكل قطعة عدة صور".

"إنها جيدة"

كنت أنظر إلى كتلة غير متساوية (محتويات الكيس) عالقة بخطوط رفيعة (السحّاب المعدني). كانت الكتلة عبارة عن أنصاف عظام، وهنا وهناك تظهر قطع صغيرة من العظام الملبّدة بالثقوب مثل قرص عسل أمام خلفية بيضاء.

أشارت لورا إلى شيء أبيض. "ما هذا؟"

"يبدو مثل ظفر".

استبعدت بالصور الأولى ثلاثاً غيرها. تراب، حصى، قطع خشب. أظافر استطعنا رؤية عظام الساقين والوركين مع الفحم المتفحّم الملتصق بها. وبدا الخوض سلبياً.

لفتّ، وأنا أشير إلى عدة نقاط بيضاء في عظم العضد. "تبدو مثل شظايا معدنية في عظم العضد الأيمن. لنخرج هذا عندما نفحص هذا العظم، سنلتقط صورة أخرى لاحقاً"

أظهـرت الصور التالية الأضلاع عطّبة كما أتذكر. كانت عظام الذراعين أفضل حـالاً، على الرغم من الكسور التي أصابتها واختلاطها معاً، وبدت عظام الفقرات سليمة. وكانت هناك قطعة معدنية أخرى ظاهرة للعيان في الجهة اليسرى من الصدر، ولم يكن شكلها يبدو مثل ظفر

"أشبه إلى حد ما أيضاً".

أومأت ليزا

فحصت بعد ذلك صور أشعة محتويات الأوعية البلاستيكية. ولكن، لم يكن فيها شيء غير معتاد. كان الفك السفلي متماسكاً على نحو جيد، وجذور الأسنان الطويلة لا تزال ثابتة في العظم، وحتى التيجان كانت سليمة. استطعت رؤية بقعتين لامعتين في الأضراس. سيكون برهون سعيداً، فإذا كانت هناك سجلات سنية، فستكون الحشوات مفيدة في تحديد هوية الشخص.

ثم لاحظت العظم اللامي. كان منقطاً ببقع بيضاء، صغيرة، كما لو أن شخصاً رشّه بالملح.

قلت بهدوء وأنا أحدق إلى الكريات التي حجبت الأشعة السينية قرب الخصر الأيسر: "سأحتاج إلى صورة أخرى لهذه أيضاً"

نظرت ليزا إليّ باستغراب.

قلت: "حسن. لنخرج ذلك الرجل"

"أو امرأة".

"أو امرأة".

مدّت ليزا ملاءة فوق طاولة التشريح، ووضعت غربالاً فوق البالوعة. فيما أحضرتُ مئزراً ورقياً من أحد أدراج الخزانة الفولاذية، ووضعته فوق رأسي، وربطته حول خصري. ثم وضعت قناعاً فوق وجهي، وارتديت قفازاً، وسحبت سحّاب كيس الجثث.

سحبت من القدمين وصعوداً نحو الأعلى. خرجت أكثر الكتل وقطع العظام التي يمكن التعرّف عليها بسهولة، ثم عدت إلى الخلف، وغسلت بقيته للعثور على أي مواد صغيرة أو شظايا عظمية قد تكون موجودة. وفيما نخلت ليزا كل مجموعة تحت ماء يتدفق فوقه، وسحبت القطع، ووضعتها على منضدة، كنت رتّبت عناصر الهيكل العظمي بتنظيم تشريحي على الملاءة

عند الظهر، خرجت ليزا لتتناول الغداء وتابعت العمل، وعند حلول الساعة الثانية والنصف لفّت نتف الضحية فلستيه. استخلصت مجموعة من الأظافر، والقطع المعدنية، بالإضافة إلى مصنوف واحد على شكل ... من حاجب قارورة بلاستيكية صغيرة تحتوي ما كنت أظن أنه جمجمة متفحمة. ثمة هيكل عظمي متفحم غير مترابط على الطاولة، وكذلك عظام متفحمة متفككة التي بدت مثل توقعات الصحراء.

استغرق الأمر أكثر من ساعة لإعداد لائحة بالفوتوغرافيا، ولتعريف كل عظمة وتحديد مكانها إن كان من الجانب الأيسر أو الأيمن. وقفت أتمعن بعد ذلك في الأسئلة التي طرحتها رايان. العمر، الجنس، العرق، من هذا الشخص؟

رفعت الكتلة التي تحتوي الحوض وعظام الفخذين، وكانت النار قد شوّهت الأنسجة الرقيقة، وجعلتها سوداء وقاسية كالجلد وهي ضعيفة ورقيقة في الآن ذاته. فقد بدت العظام سليمة، لكنَّ إخراجها سيتطلب جهداً كبيراً.

أمرت بخصوص من يتلوّث كان المحرم من جهة اليسار قد زال بفعل الاحتراق، مما أدى إلى كسر عظم الفخذ. رأيت قسماً محطماً في مفصل الورك، ولمحت بعض قطر رأس عظم الفخذ، كان صغيراً ويمنع ضمن مجال قياسات الأنثى.

درست البنية الداخلية للرأس. أسعى السطح المتفكك، وأظهرت تموجات العظام نمط قرص عش نموذجي لدى شخص راشد بكن لم يكن هناك حد فاصل يدل على عروة رأس كاملة السن المحترقة. حيث كان ذلك متوافقاً مع التطور السنية الكاملة التي لاحظتها سابقاً في الفك. لم تكن هذه الضحية طفلاً.

نظرت إلى الحواف المقارنة للمنطقة التي تشكل تجويف الورك، وإلى المنطقة السفلية من رأس عظم الفخذ وفي كل منهما كان العظم يختبر متحجر عبر الأسفل مثل طبع دائب يبعض عن الشمعة. وكان ذلك ناتجاً عن التهاب مفاصل. لم يكن ذلك الشخص يافعاً.

كنت أمسك أسنانك في أن الضحية امرأة لأن قطر ما بقي من عظام طويلة كان صغيراً، مع أربطة عضلية رقيقة. نقلت تحساسي إلى خطابة الجمجمة.

مطلعة عند، (عظم ناتئ خلف الأذن) صغيرتان ونهية ناتئة، وحواف محجرين حادة. كان العظم أملس في المنطقة الخلفية من الجمجمة، في حين تكون عظام الذكر قاسية وخشنة في كل الأماكن.

فحصت العظم مليًا. كان الطرفان العلويان لعظمي الأنف لا يزالان في مكانيهما، ويلتقيان بزاوية حادة في الأعلى، مثل برج دار عبادة. وسحبت قطعتين من الثلث العلوي، وكان الطرف السفلي من الصفحة الأنفية ينتهي بنتوء بارز مع قطعة عظمية ترتفع إلى الأعلى في منتصفها. كان الأنف رفيعًا وبارزًا، والوجه مستويًا عند النظر إليه من جانب. وسحبت شظية من العظم الصدغي، ووضعت ضوءًا في فتحة الأذن، فرأيت ثقبًا دائريًا صغيرًا عبر النافذة الدهليزية إلى الأذن الداخلية. وكلها صفات لامرأة قوقازية.

أنثى، بيضاء، ومتقدمة عمر

عدت إلى عظم الحوض على أمل أن يسمح لي بتأكيد الجنس وتحديد العمر بدقة أكبر. كنت مهتمة خاصة بالمنطقة التي يلتقي بها الشطران في الأمام.

كشطت الأنسجة المتفسخة بهدوء، وكشفت الوصل بين عظمي العانة والارتفاق العاني. كان عظما العانة عريضين، فيما الزاوية أسفلهما واسعة، ولكل منهما نتوء بارز على طول زاويته. كان القسم السفلي من كل عظم عانة عريضاً ومقوّساً قليلاً، وعليه ميزات أنثوية مطلقة سجّلتها في نموذج الحالة والتقطت المزيد من الصور الفورية.

كانت الحرارة الشديدة قد حرقت الغضروف الصلب، وأبعدت عظمي العانة عن مفصلهما في المنتصف. قلّبت الكتلة المتفحّمة وأدرتها، وحاولت إمعان النظر في الشق، فسطوح السطوح الارتفاقية (منطقة التحام عظمي العانة) سليمة لكني لم أستطع تمييز أي تفاصيل.

قلت بلوزة: "سأخرج عظمي العانة"

تحسست والحمد لم تحترق عضلة احترق الكثار الملتصقة التي تصل عظمي العانة بباقي الحوض، ولم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ.

كان السطح الارتفاقي مسودّاً لكنه واضح للعيان. لم تكن هناك نتوءات أو تلال على السطحين. في الواقع، كان كلا السطحين مسامياً، وكانت حوافهما الخارجية متشققة بشكل غير منتظم فيما تطلع قطع عظمية صغيرة من مقدمة كل عظم عانة، وتصل إلى الربع الأعلى. كانت السيدة قد عاشت حياة طويلة.

أدرت عظمـــة العانة بين يدي، ولاحظت نتوءاً على الجانب الوحشي لكل منهما، كانت قد رزقت بأطفال أيضاً.

أمسكت عندئذٍ بالعظم اللامي. للحظة وقفت هناك، وقشعرير الساطع بحرص بكـــل وضوح ما حاضرني الشك مثله في القبو، وما أكده تحطم الشطع للعشبة في صور الأشعة السينية.

كان قد حيّ إبعاد المشاعر عن العمل، لكني شعرت تتمتعي أنتك بالمؤلم على الإصابات الثابتة الموجودة على طاولتي، وبالتفكير مليا في ما كان قد حدث لها

كانـــت ســـيدة في العقـــد السابع على الأقل، ومن دون شك وحيدة على الأرجح.

لماذا أطلق أحدهم رصاصة على رأسها وتركها تحترق في منـــزل في لوريتس؟

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

5

بحلــول ظهر يوم الثلاثاء أنهيت تقريري. كنت قد عملت في الليلة الماضية إلى مــا بعد الساعة التاسعة، وكنت أعرف أن رجالك بعد تجربة، وللمفعول أنني كنت متأكدة تحديداً.

قــرأت ما كنت قد كتبته ودققت فيه بحثاً عن أخطاء. أحياناً أظن أن التذكير والتأنيث وعلامات الوقف لعنات مرتكبة مخصصة لتعذيبي. فأنا أبذل قصارى جهدي، لكني أرتكب دائماً بعض الأخطاء.

بالإضــافة إلى الملف البيولوجي (الإحيائي) للمجهولة، تضمن التقرير تحليلاً للإصــابات في التحليل وعدد من الشظايا التي حجبت الأشعة السينية في عظم الفخذ تحدث عن فعل وقع بعد الوفاة. فلقد اعترفت بجمع صغيرة من المعدن المعظم على الأرجح نتيجة انشطار أسطوانة الغاز وكانت معظم الأضرار الأخرى مرتبطة أيضاً بالحريق.

ولم يكن لبعضها أي علاقة بالنار قرأت تقريري الموجز

الجــرح (أ) دائري الشكل، لم يبق منه سوى نصفه الأعلى، وهو متواجد في المنطقة الجبهية العظمى، ويقع على مسافة سنتيمترين فوق الثلمة (نقطة التقاء الحاجبين فوق الأنف) و1.2 سنتيمتر إلى اليسار من الخط الذي يتوسط الوجه. يبلغ قطر الجرح 1.4 سنتيمتر، ويتميز بزاوية ميل نحو الداخل التحتم موجود على كل حواف الجرح، ويتوافق الجرح (أ) مع ثقب دخول طلق ناري.

■

مخرج (ب) دائري الشكل ويتميز بزاوية ميل نحو الخارج مع قطره 6،
سنتيمتر على السطح الداخلي للجمجمة، و4 سنتيمترات على السطح الخارجي للجمجمة. ويوجد مخرج على العظم الجداري (القحوي، مؤخر الرأس)، ويبعد 2.6 سنتيمتر عن وسط العظم و0.9 سنتيمتر إلى اليسار من الشطر الطولي (الخط الذي يقسم الجسم طولياً). هناك حروق لعظم على الطرفين الأيمن والأيسر من المخرج وإلى أسفله. ويتوافق المخرج (ب) مع ثقب خروج طلق ناري

بالرغم من أن الأضرار التي تسبب بها الحريق جعلت إعادة البناء حتى لو كانت مستحيلة، إلا أنني استطعت جمع ما يكفي من قطع العظام لتحديد المسار بين ثقبي الدخول والخروج.

كان النموذج تقليدياً، وقد عانت المرأة المحروقة من جرح ناجم عن طلق ناري في الرأس، فقد دخلت الرصاصة من منتصف جبينها، واخترقت دماغها، ثمّ خرجت من الخلف. وهذا يفسّر سبب عدم تحطّم جمجمتها في لسعة اللهب، فقد كان هناك ثقب لتخفيف الضغط قبل أن تصبح النار مشكلة.

سلّمت التقرير إلى أمانة السر، وعدت لأجد رايان جالساً قبالة طاولتي، وهو يحدّق عبر النافذة خلف مقعدي، ويمدّ ساقيه على طول مكتبي.

تكلم بالإنكليزية قائلاً: "منظر جميل".

يصبح مبنى مؤلف من خمسة طوابق قرب جسر جاك كارتيه على نهر سانت لورانس. ورأيت خمس سيارات صغيرة تجمعت حوله كأنه منظراً جميلاً

"إنه يستعرف اتباعي عن التفكير في جمال هذا المكتب". تجاوزته ثم درت حول الطاولة ووصلت إلى مقعدي.

"شروق الشمس أمر خطير".

"تصيبني القصبتان (عظمتا الساق الأماميتان) للصاعد بنفوص إلى الواقع".
استدرت جانباً، ووضعت قدميّ على الإفريز تحت النافذة، كاحلاً فوق آخر. "إنها امرأة صغيرة يا رايان، تلقت رصاصة في رأسها".

"كم عمرها؟".

"يمكنني القول إنها تبلغ السبعين على الأقل، وربما كانت في الخامسة والسبعين من عمرها. يوجد على الارتفاق العلوي الكثير من الندوب. يمكن الناس يختلفون في ذلك العصر. كانت مصابة بالتهاب المفاصل وهشاشة العظام"

أمسك بدفه ورفع حاجبيه. "تحدثي بالفرنسية أو الإنكليزية يا برنان، وليس بكلام أبله." كانت عيناه بورقة شفافة وبخور 95

"هنا - ها - هنا - م" قلت كل مقطع بمفرده. "يمكنني القول من الأشعة السينية إن عظمها الشحاني رقيق. لم أر أي تشققات لكن ليس لدي سوى أجزاء من عظام طويلة. يتعرض الورك عند النساء المعمرات إلى كسور بسبب الثقل الكبير الذي يتحمله. كان وركها في حالة جيدة."

"كونفازا؟"

أومأت.

"أي شيء آخر".

"ثلاث من الأرجح أنها حملت أولاداً" كانت العظام الزرقاوات الكوريكيات مثقّبتين [illegible]. "لديها شق بحجم قرينوكو (قد في أميركا الجنوبية) في كل من عظمي العانة".

"رائع".

"شيء آخر، أظن أنها كانت تمثل في الفم عندما اشتعلت النار".

"وكيف عرفتِ ذلك؟".

لم تكن هناك أي شظايا من الأرضية تحت الجثة على الإطلاق، ووجدت بعض قطع الشظايا المصمرة محشورة بينها وبين الظهر، لا بد أنها كانت تستلقي مباشرة على الأرضية"

فكّر في ذلك لحظة.

"إذاً، تقولين لي إن أحدهم قد أطلق النار على الجثة، وسحبها إلى القبو وتركها هناك لتحترق"

"لا أقول إن الجثة تلقت رصاصة في رأسها. لا أملك دليلاً على أن شخصاً ما قد أطلق النار عليها، فربما فعلت ذلك بنفسها. هذا عملك يا راين"

"هل وجدت سلاحاً ناريا؟"

٦٧

ظهر برتران آنداك عند الباب. وبينما كان ريابك يبدو أنيقاً وثيابه مكويّة، فوق قياس ثياب شريكه حاده ى يكفي لقطع أحجار كريمة. كان يرتدي قميصاً بنفسجياً يتناسب مع ربطة عنقه الزهرية، وسترة صوفية أرجوانية ورمادية، وبنطالاً صوفياً رمادياً.

سأل ريابك شريكه: "ماذا لديك؟"

"ليس لدينا شيء لم نكن نعرفه. يبدو الأمر وكأن هؤلاء الناس قد محوا من القصة. لا أحد يعرف حقاً من كان يعيش هناك. وما زلت تحاول القضاء أثر المالك المتسرول في أوروبا. رأى الجاران عند الطرف الآخر من الشارع السيدة المحسور حسن وقت إلى آخر، لكنهما لم تتكلم معهما قط. وقالا إن الزوجين يسكنان هناك مع الطفلين منذ بضعة شهور فقط. ونادراً ما رأياهم ولم يعرفا أسماءهم قط. تظن مرأة تقطن في آخر الشارع أنهما عضوان من جماعة أصولية (متعصّبة)."

"تقول برتان إن الضحية أنثى، وفي السبعين من عمرها"

نظر برتراند إليه.

"في السبعين؟"

"سيدة عجوز؟".

"مع رصاصة في رأسها؟"

"من دون مزاح".

"من دون مزاح"

"أطلق أحدهم النار عليها وأحرق المكان!".

"أو أن الملكة سقطت الرماد بعد أن أضرمت النار. لكن، في هذه الحالة أين السلاح؟"

بعد أن محا تعقّب طلبات المشتراتي. كان مرطبان مني، بالرماد قد وصل إلى مدينة كيبيك، وهو بعنا رجل محصور عقل في سيارته. كانت الأسرة تتهم عرفنا منشك بالاحتيال، وقد أحضرت الرماد إلى مكتب قاضي التحقيق، الذي أراد الاستفادة من رأيي

كما عُثر على جمجمة في وهدة (واد صغير شديد الانحدار) خارج مقبرة كوت دي بيجس (حي الطبقة العاملة في مونتريال)، كانت حليقة وشمعية، وقد أحضرت على الأرجح من قبر قديم، وكان مدعي التحقيق بحاجة إلى تأكيد.

أراد بتوجيه مني إلقاء نظرة على الطفل من أجل الحصول على دليل يثبت موته مخنوقاً وكان الأمر يتطلب فحصاً مجهرياً إذ يجب تحضير مقاطع رقيقة من العظم، وتلوينها، ووضعها على شرائح؛ كي أتمكن من فحص الخلايا تحت العدسة المكبّرة وكسب مساعدة من علامات على مسامية غير معتادة، وتغيرات بنيوية شائعة في التشريح المجهري.

أرسلت عينات إلى مختبر الأنسجة، فيما كنت سأدرس صور الأشعة السينية والهيكل العظمي الذي كان لا يزال منزوعاً بغلاف النسيج من اللحم متعفن إذ إن عظام الطفل هشة جداً ولا يمكن المخاطرة بغليها

إذاً، لم يكن هناك شيء عاجل وكان في مقدوري فتح نعش الراهب ميكول

بعد تناول سطوة ولبن مبرّد في المطعم الصغير هبطت إلى المشرحة وطلبت إحضار الرفات إلى الغرفة الثالثة، ثم ذهبت لتبديل ملابسي.

كان النعش أصغر مما أتذكر، ويبلغ طوله أقل من ثلاث أقدام، وكان الجانب الأيسر منه بالياً، مما تسبب بانهيار السقف نحو الداخل، شققته مما علق به من تراب لم التقطت له صوراً.

"هل تحتاجين إلى مساعدة؟"، كانت ليزا تقف عند الباب.

نظراً إلى أنها يجب إحدى قضايا مختبرات الطب الشرعي، كان يجب أن أعمل بمفردي. ولكني كنت أتمنى الكثير من عروض المساعدة، من الواضح أنني لم أكن الوحيدة المفتونة بالراهبة.

"رجاءً"

استغرق الأمر أقل من دقيقة لشرح الغطاء. كان الخشب هشاً وينفسخ بسهولة، وكانت المسامير تخرج بيسر. أخرجت التراب من الداخل لأكشف عن بطانة رصاصية تحوي نعشاً خشبياً آخر.

سألت ليزا: "لماذا صنعوه صغيراً جداً؟".

"هذا ليس التابوت الأصلي. أُرسلت جثة إيزابيث تيكول، ودُفنت مجدداً في مطلع القرن، بعد أن لم يكونوا بحاجة إلا إلى نعش يتسع لعظامها؟"

"هل تظنين أنها هنا؟".

رمقتها بنظرة ثاقبة.

"أعلميني إذا احتجت شيئاً".

تابعت إخراج التراب حتى كشفت غطاء التابوت الداخلي. لم يكن يحمل لوحة تعريف، لكنه كان مزخرفاً أكثر من النعش الخارجي، مع خط مطرقي يوازي الحافة الخارجية السداسية الشكل مثل النعش الخارجي، كان النعش الداخلي قد تحطّم وامتلأ تراباً.

عادت ليرا بعد عشرين دقيقة.

"لا عمل لديّ لبعض الوقت إذا كنت بحاجة إلى التقاط صور بالأشعة السينية"

قلت. "لا يمكنك فعل ذلك بسبب البطانة الرصاصية، لكنني مستعدة لفتح التابوت الداخلي"

"ليست هناك مشكلة".

بما أن الخشب كان هشاً، وعرضة للتحطم بسرعة

للمزيد من التراب. أخرجت حفنتين من التراب فقط قبل أن أرى الجمجمة.

تماما كان شخص ما هنا!

بعدها، ظهر الهيكل العظمي. لم تكن العظام بتركيب تشريحي، لكنها مصفوفة بالتوازي مع بعضها بعضاً، وكأنها رُبطت بإحكام عند وضعها في النعش. ذكّرني الترتيب بمواقع أثرية كنت قد نقّبت فيها في وقت مبكر من حياتي المهنية في كوسوفو، كانت بعض جماعات السكان الأصليين تعرض موتاها حتى لا يبقى شيء على العظام، ثم تحزمها معاً لتدفنها. وكانت عظام إيزابيث مربوطة بتلك الطريقة.

كنت أحب الآثار، ولا أزال كذلك. ولقد ندمت لأنني لم أتابع العمل في ذلك الميدان، لكن حياتي المهنية كانت قد اتخذت طريقاً مختلفاً في العقد المنصرم والآن، يستنفد التدريس والعمل الشرعي كل وقتي. وتسمح لي إيزابيث بكون بعودة قصيرة إلى جذوري، وكنت أستمتع بذلك تماماً.

أخرجت العظام ورتّبتها تماماً كما فعلت قبل يوم. كانت جافة وهشّة، لكنّ العظام كانت بحالة جيدة مقارنة بسيدة الأمس من جانب – حرفياً.

تفحّصت بحرص الهيكل العظمي واكتشفت أن معظم المشط (القدم) وست سلاميات (عظام الأصابع) مفقودة. لم تظهر عندما غربلت التربة، ولكني عثرت على عدّة مواطئ وثاب، ومسحتها في أماكنها.

التزمت بالإجراءات المعتادة، ومِلت تدريجاً مثلما أفعل في قضية تابعة للطاقم المستقبل. بدأت بالجنس، وكانت العظام خاصة تأتي من ذكر أمن شك، وكان الارتفاق العاني يشير إلى أنّ عمر البرايت يتراوح ما بين خمس وثلاثين وخمس وأربعين سنة؛ ستكون الأمورات القطنيات مصحّبات بذلك.

في أثناء تسجيلي قياسات العظام الطويلة لاحظت تسطحاً غير معتاد في أعلى الظنبوب (أطول عظام الساق)، تحت الركبة تماماً. تعقّدت عظام المشط وكانت هناك علامات على حصول التهاب مفاصل حيث تتصل الأصابع بالقدمين. ياله! نتاج متكرر من الحركة تترك آثارها على الهيكل العظمي. كان يُفترض أن تكون البرايت قد أمضت سنوات في الصيد على الأرضية الحجرية لغرفتها في دار العبادة، وأدّى ركوعها إلى حصول ضغط على الركبتين وإلى ثني الأصابع الأمر الذي كنت أراه أسفلها.

تذكّرت شيئاً لاحظته عندما أخرجت سنّاً من الغربال، فأمسكت بالفك. كان يوجد على كلٍّ من القواطع الوسطى السفلية ثلم صغير ولكنه ملحوظ على حافة القص وعثرت على الأثلام نفسها على القواطع العلوية. عندما لم يكن تحديد أن ذلك ممكن رمالي. كانت البرايت تعمل في الخياطة ولا تزال مطرقاً معلّقة في دار العبادة في لاك بعمر كانعرّاج. وكانت أسنانها عزّزه ممتدة سنوات من سحب الخيط أو الإمساك بإبرة بيمنة أحبّ هذه.

أدرت الجمجمة بين يديّ وتفحّصتها مجدداً وكنت أفكر هناك أحملق إليها، عندما دخل لاماش الغرفة.

سأل: "إذاً، من هذه هي؟"

اقترب إلى جانبي، ونظر إلى الجمجمة.

"يا الله".

"نعـم، التحلل قائم على قدم وساق" كـنت في مكتبـي، أتحدث مع الأب مينار والسماعة بين كتفي وأذني في طرف من الغابة على طاولة العمل.

"النظام سليمة تماماً"

"هل يمكننا تأكيد أن الرامست؟ البرميث ميكون؟".

"أردت أن أطرح عليك بضعة أسئلة أخرى"

"هل هناك مشكلة؟".

ربما قد تكون هناك مشكلة.

"لا، لا. أود فقط الحصول على مزيد من المعلومات".

"نعم؟"

"هل سمعت أي وثيقة رسمية تعقد هوية والدي البرميث؟".

"كـان والده آلان ميكون، ووالدته يوجين بلانشار، وهي عائلة مشهورة في ذلك الوقت. وكان جدّها، تورس - جيب بلانشار، عضو المجلس مقيماً وطبيب بارزاً جداً"

"نعم هل توجد شهادة ولادة؟".

التزم بالصمت لبعض الوقت، ثم قال: "لم نستطع العثور على شهادة ولادة"

"هل تعرف أين وُلدت إليزابيث؟"

"أظن أنها وُلدت في مونتريال. فقد كانت أسرتها هناك طوال عقود. لتنحدر إليـزابيث مـن جـين بلانشار، الذي جاء إلى كندا في العام 1758، في آخر أيام فرنسا الجديدة (مستعمرات فرنسا في أمريكا الشمالية)، لطالما كانت أسرة بلانشار ذات شأن مرموق في المدينة"

"نعـم، هـل هـناك سجل مستشفى، أو شهادة، أو أي شيء يثبت رسمياً ولادتها؟"

صمت.

"وُلدت قبل أكثر من قرن ونصف"

"هل كانت توجد سجلات آنذاك؟"

"نعـم لقد أُحرقت الأشياء حولنا، لكنّ الأشياء قد تضيع خلال تلك المدة الطويلة".

"بالطبع"

للحظة صمتت كلانا. كنت علي وشك أن أشكره عندما قال: "لماذا تطرحين هذه الأسئلة د. برنان؟"

ترددت في إخباره عند آكون عطلة أو عطف، ولم يكن الوقت مناسباً لإخباره.

"أرغب فقط معرفة المزيد عن سابقتها"

كنت قد وضعت السماعة للتو عندما رنّ الهاتف

"تمبي، د. برنان"

"رايــان" استطعت سماع توتر في صوته. "كان طريق مسدوداً، ومن خطط لــذلك أراد تدمير المكان كله. طريقة بسيطة، ولكنها فاعلة. ربطوا سلكاً حرارياً بقضيب من النوع نفسه الذي ستستخدمينه لتشغيل مصابيح منــزلك عندما تذهبين إلى المنتجع"

"لا أذهب إلى منتجعات يا رايان"

"هل تريدين سماع هذا؟"

لم أرد.

"شــغّل الموقت الســلك الحراري الذي أشعل ناراً طالت أسطوانة غاز. دُمّرت معظــم الموجودات، لكننا عثرنا على بعضها. يبدو أنها كانت مهيأة لتعمل بأوقات متعاقبة. ولكن، عندما انتشر النار دمّرها بالكامل"

"كم أسطوانة؟"

"أربــع عشرة. عثرنا على موقت واحد سليم في القمامة ولا بد أنه كان هدم القذائف. إنــه مــن النوع الذي نشتريه من أي متجر عرديات. سنحاول رفع البصمات، لكنّ احتمال النجاح ضئيل"

"ومن الذي سرّع عملية الانصهار؟"

"البنــزين، كما توقعت"

"لماذا كلاهما؟"

"لأن شخــصــاً مجهولاً أراد تدمير المكان ومرافقه كلها، ولم يكن يرغب في أن يفشل في ذلك. كان يظن على الأرجح أنه لن تسنح له فرصة أخرى"

"كيف تعرف ذلك؟"

"استطاع لاماش سحب عينات سوائل من العينين في غرفة النوم، وعثر تحصيص علم السموم على مستويات ضخمة من روهيبنول"

"روهيبنول؟"

"سأخبرك بخصوصه. إنه يدعى عقار الاغتصاب أو شيئاً من هذا القبيل، لأن الضحية لا تتمكن من اكتشافه، إذ إنه يجعلها تغيب عن الوعي لساعات"

"أعرف ما هو روهيبنول يا رايان. أنا مندهشة فحسب، لأن الحصول عليه ليس سهلاً"

"نعم. قد يقتل ذلك احترافاً. إنه محظور في الولايات المتحدة وكندا وكلانا نعرف ذلك، كما تعرف"

"إليك شيئاً غريباً آخر. لم يكن وود وصوت كليم (شخصيتك في مسلسل للقدري) في غرفة النوم تلك. يقول لاماش إن الرجل على الأرجح في العشرينيات من العمر، والمرأة في الخمسينيات"

كنت أعرف ذلك، فقد سألني لاماش عن رأيي في أثناء التشريح

"ماذا الآن؟"

"سنعود إلى هناك لفحص المبنى الأخرى. ما زلنا بانتظار خبر من الثالثة. إنه ماسك من نوع ما متوارٍ عن الأنظار في البراري الصخرية"

"حظاً طيباً"

روهيبنول. أضرم ذلك شيئاً في مكان مخفي من خلايا ذاكرتي. ولكن، عندما حاولت اكتشافه، سقطت الخطافات المغموة

اعتقدت إن كانت هذه قصة سوء معاملة الطفل التي يتداولها ملويه قد انتهت، فأخبروني حتى عدم الأسبحة أنها ستكون حاضرة عند

بعد ذلك، سحبت صفحة من لوحة وأنا أفحص رماد الجثة المحروقة. كان موضوعاً في مرطبان حلوى بلاستيكية مع لصاقة مكتوب عليها بخط اليد اسم المرحوم، واسم غرفة الدفن، وتاريخ الحرق. لم تكن تلك طريقة تخفيف نموذجية في أمريكا الشمالية، لكنني لم أكن أعرف شيئاً عن الإجراءات المتبعة في الكاريبي

لم يكن حجم أي جسيم يزيد عن السنتيمتر نموذجياً. إذ لا تحوي سوى بقع شظايا عظمية فقط من أجهزة السحق التي تستعملها المحارق الحديثة. وباستخدام

طريقة تشريحية، استطعت تحديد عدّة أشياء بينها عظمة أذن كاملة، وعثرت أيضاً على بعض القطع المصنوعة من معدن ملتوٍ ظننت أنها ربما تكون أجزاء من تركيبات سنية، وتركت مهمّة تأكيد ذلك لطبيب الأسنان.

عادةً، تتحوّل جثة الكبير البالغ بعد حرقها بالنار وطحنها إلى نحو 3500 سنتيمتر مكعب من الرماد. ولكنّ هذا الرطمان يحتوي على 350 سنتيمتراً مكعباً تقريباً. موجز القول إنه بين الرماد المحروق لإنسان بالغ، وإنه ناقص. ستقع مهمّة تحديد هوية الشخص على عاتق برجرون.

عند الساعة السادسة والنصف، توقفت عن العمل، وذهبت إلى المنزل.

6

أثـار هيكل إليزابيث العظمي قلقي. فلم يكن ما رأيته ممكناً، ولكنّ لا مناص أيضاً لاحظ الأمر، وكنت متشوقة إلى تبرير ذلك. ولكن، في صباح اليوم التالي استرعت مجموعة عظام صغيرة قرب المفصلة في عظم علم الأنسجة اهتمامي. كانت الشرائح ليفية متغيرة، فقد أمضيت عدة ساعات وأنا أعمل على قصبة طفل ملوية.

وعندما لم أجد جديداً آخر على طاولتي، اتصلت عند الساعة العاشرة والنصف بالأخت جوسلين لأكتشف أكبر قدر ممكن من المعلومات عن إليزابيث ويكرل. طرحت عليها الأسئلة نفسها التي وجهتها إلى الأب ميور، وحصلت على الأجوبة نفسها. كانت إليزابيث إحدى أهل كيبيك من دون شك، ولكن، لا توجد وثائق تثبت على نحو قاطع تاريخ ولادتها أو هوية أبويها.

"ماذا عن مصادر خارج دار العبادة يا أختاه؟ هل سألت في أماكن أخرى؟"

"آه، نعم. لقد بحثت في كل أرشيف الرهبنة. يا إلهي، لدينا مكتبات في كل مكان في الإقليم كما تعرفين. وتلقيت مواد من عدد من دور العبادة والصوامع"

وأمضيت أفحص تلك المواد، ومعظمها على شكل رسائل ويوميات شخصية تحوي مراجع للأسرة. كان عدد قليل منها عبارة عن محاولات لتقديم سرد تاريخي، لكنها ليست من بحوث عميد كلية رهبنة نظر مرتّبة، وكان كثير منها سجلات قصصية تستند إلى كلام منقول شفهياً.

جرّبت طريقة مختلفة. "حتى وقت قريب كانت دار العبادة مسؤولة عن كل شهادات الميلاد في كيبيك، صحيح؟" كان الأب مينار قد شرح لي ذلك.

"نعم، إلى ما قبل بضع سنوات مضت"

"لكن، لا يمكن العثور على أي وثيقة تخص إليزابيث؟"

"لا" توقفت قليلاً عن الكلام "تعرف لعله حريق مأساوية مرور السنين. في العام 1880 بسبب أعمال نوتردام دو جهة على سفح جبل رويال، والموقف لم يتحول كله بعد ثلاثة عشر عاماً. ثم احترق مجدداً في العام 1897، وضاعت معه الوثائق المهمة في ذلك الحريق".

للحظة لم نتكلم أي منا

"أحسنت، هل يمكنك التفكير في مكان آخر قد أعثر فيه على معلومات عن ولادة إليزابيث؟ أو عن والديها؟"

"أنصحك بالبحث في أرشيف المكتبات العامة كما تعلم، أو الجمعية التاريخية، أو ربما إحدى الجامعات. كانت أسرتنا بيكول وبالأخص قد قدمتا العديد من الشخصيات المهمة في التاريخ الكندي الفرنسي، لذا واثقة من أنهم مذكورون في السجلات التاريخية"

"شكراً أيتها الأخت. سأفعل ذلك"

"هناك أستاذة في مكتبة لمجرد بحثاً في أرشيفنا، ابنة شقيقي تعرفها. إنها تدرس مقررات الفيزياء، لكنها مهتمة أيضاً بالتاريخ كذلك. لا أتذكر إن كانت متخصصة بعلم الإنسان أو مؤرخة أو شيء آخر" ترددت. "طبعاً ستكون مراجعها مختلفة عن مراجعنا".

كنت واثقة من ذلك، لكني لم أقل شيئاً.

"هل تذكرين اسمها؟"

سوفت جوليان وقتاً طويلاً عن الكلام، وسمعت مجاميع أجراس على البعد، بعيد، مثل أصوات تتنقل عبر غيوم. ضحكت أستحيي "لقد مرّ وقت طويل. آسفة، يمكنني سؤال ابنة شقيقي إذا أردت"

"شكراً يا أختي. سأتابع ذلك."

"د. برينان، متى تظنين أنك ستنتهين من العظام؟"

"قريباً. إنه لم يظهر أي جديد. سألقي تقريري يوم الجمعة وسأكتب للفيروالي للعمر، والجنس، والعرق، وأي أشياء أخرى قد ألاحظها، وأعلق على

النتائج مقارنة بالمناطق المعروفة عبر الإنترنت. يمكنك تفحص كل ما تريده مناسباً في ملفات الفاتيكان"

"وهل ستفحص ذلك؟".

"طبعاً، حسبما أشتهي" في الواقع، كنت قد أنهيت عملي، ولم يكن يخامرني الشك في ما يجب أن يتضمنه تقريري. فلماذا لا أخبرهم الآن؟"

تبادلنا التحيات، ثم صببت شرابي، وانتظرت سماع النغمة، ثم طلبت رقماً آخر. ردّ هاتف في مكان آخر من البلاد.

"ميشال دينوت"

"مرحباً ميشال، معك برماند. أما زلت رئيس القسم في كيبك؟"

كان ميشال رئيس قسم علم الإنسان الذي وظّفني كمعلم بدوام جزئي عندما وصلت للمرة الأولى إلى مونتريال. ولقد أصبحنا صديقين منذ ذلك الوقت. كان اختصاصه العصر الحجري الفرنسي

"لا أزال عالقاً في مكاني. هل ترغبين في تدريس مقرّر تعليمي لدينا هذا الصيف؟"

"لا، شكراً. لديّ سؤال لك"

"اسأل"

"هل تذكر القضية التاريخية التي أخبرتك عنها؟ القضية التي أعمل عليها لصالح الرهبنة؟".

"القديسة المفترضة؟".

"صحيح"

"بالتأكيد. لا يشبه ذلك أي شيء عملت عليه سابقاً. هل عثرت عليها؟".

"نعم، لكنني لاحظت شيئاً غريباً قليلاً، وأود أن أعرف المزيد عنها"

"غريب؟"

"غير متوقع. اسمع، قالت إحدى الأخوات لي إن أستاذة في مكغيل قد أجرت بحثاً عن أديان كيبك وتاريخها. فهل يذكرك ذلك بشيء ما؟"

"بالتأكيد! لا بد أنها ديزي جين"

"ديزي جين؟".

"د. جيــوت بالنســبة إليك. إنها أستاذة الدراسات الدينية وأفضل صديقة للطلاب"

"التفاصيل يا ميتش".

"اسمهــا ديــزي جيوت، وهي ربما إحدى أساتذة كلية الدراسات الدينية، لكنها تدرّس أيضاً بعض مقرّرات التاريخية. الحركات الدينية في كيبك، مجتمعات الثقة ومعاصرة، هذا النوع من الدروس"

كرّرت سالي. "ديزي جيو؟".

"إنه اسم غريب مختلول جداً، لكني لا تمكنت مخاطبتها به مباشرة"

"لماذا؟"

"يمكن أن تكون غريبة قليلاً، أستعمل كلمتك حسنها".

"غريبة؟"

"لا يمكن توقع تصرفاتها. إنها من ديكسي".

تخلصت ديزي كانت ميتش من مونتريال وانتقل للعيش في كيبك، ولم يتوان يوماً عن زيارة موطني الجنوبي

"لماذا تقول إنها أفضل صديقة للطلاب؟"

"تمضي ديزي كل وقت فراغها مع الطلاب. فهي تصطحبهم في نزهة، وتسدي إليهم النصائح، وتسافر معهم، وتدعوهم إلى منزلها لتناول العشاء. هناك مجتمعاً صغيراً من الأشخاص المتحلقين حولها خارج نطاقها، وهم يسعدون للحصول على السلوان والاستشارة".

"تبدو رائعة"

شرع في قول شيء ما، لكنه كبح زمام نفسه "أظن ذلك"

"هل تعرف د. جيوت أي شيء عن البوابيت نيكول أو أسرها؟"

"إذا كان في مقدور أحد أن يساعدك فستكون ديزي جيو"

روّقني برقمها، ووعدنا بعضنا بلقاء قريب.

أخبرتني لجنة السر أن د. جيوت ستكون في المكتب بين الواحدة والثالثة، وهذا قررت أن أعرّج عليها بعد الغداء.

يتطلب الأمر مهارات عملية تستحق درجة الإجازة في الهندسة المدنية لفهم
سوق ولبس يمكن للمرء أن يترك سيارة في مونتريال. تقع جامعة مكغيل في قلب
وسط المدينة تماماً، حتى إذا استطاع المرء معرفة المكان الذي يُسمح له فيه بإيقاف
السيارة، إلا أنه سيتعين عليه غالباً العثور على حيز فيه. وجدت مكاناً فارغاً عند
ستانلي حيث يُسمح بإيقاف السيارات هناك من الساعة التاسعة وحتى الخامسة،
بين 1 نيسان و31 كانون الأول، باستثناء ستة بين الساعة الواحدة والثانية ظهراً
يومي الثلاثاء والخميس، ولم يكن ذلك يتطلب إذناً من الجوار.

بعد تغيير وجهة السيارة خمس مرات ومناورة منظومة استطعت حشر المزدا بين
سيارة تويوتا مجوّفة ولوندو مرين كلاس. لم يكن ما قمت به عملاً سيئاً على
أرض منحدرة، وعندما خرجت من السيارة كنت قد تصببت عرقاً بالرغم من البرد.
تفقّدت الرقاب؛ كانت هناك على الأقل أربع وعشرون بوصة إضافية، بالفعل.

لم يكن الطقس قارساً كما كان من قبل. لكنّ الارتفاع الطفيف في درجة
الحرارة ترافق مع ارتفاع في الرطوبة. كان الهواء بارداً ورطباً في المدينة، ولون
السماء قصديرياً. بدأ ثلج كثيف يتساقط عندما وصلت إلى شيربروك واستدرت
شرقاً. وذابت الكِسف (كل رقعة من ثلج متساقط) الأولى عندما مسّت
الرصيف، ثم استقرت فوقها أخرى، وبدا لنا على وشك أن تتراكم فوق بعضها.

صعدت بإجهاد مكتيش، ودخلت الحرم الجامعي لمكغيل من البوابة العربية،
وكان الحرم الجامعي عبارة عن قسمين أحدهما أعلى من الآخر. أما المباني الحجرية
الرمادية فعديدة وكلها تسيل التل من شيربروك إلى دوكتور بينفيلد. حثّ الناس
الخطى، والحشر في معاطف لاتقاء البرد والرطوبة، والحماية كتبهم وحقائبهم من
الثلج. حاورت ملكيته، ومررت من خلف متحف ريدباث. ثم خرجت من البوابة
الشرقية، واستدرت يساراً وتابعت طريقي صعوداً في شارع الجامعة آملى
متحملات ساقيّ، وشعرت وكأني حطمت ثلاثة أميال على دواسات آلة تمارين
رياضية بوكس. كدت أصطدم بشاب طويل يمشي مطأطئ الرأس، فيما نظارته
وشعره مغطيان بكسف ثلج بحجم حشرات العث.

كانت جامعة مكغيل مثل وكثير من زمن مضى، طرازها الخارجي القوطي،
وجدرانها، وأثاثها المصنوع من خشب السنديان المزخرف، وكذلك نوافذها

الكاتدرائية الضخمة إنها مكان للهمس، لا للدردشة وتبادل المحاضرات كما يحدث في معظم الجامعات. وكانت ردهة الطابق الأول تشبه الكهف، وقد علّقت على جدرانها صور لرجال وقورين ينظرون إلى الأسفل باعتداد بالنفس.

انعطفت يساري إلى صف من الأحذية التي يسيل منها ثلج ذائب على الأرضية الرخامية، وتقدمت إلى الأمام لإلقاء نظرة أقرب على الأعمال الفنية الرائعة *توماس كرانمر، أكبر رجال الدين مرتبة في كانتربري. اعتنِ يا توم. حيث تمثاله العظيم الخالد*. لقد تغير الزمن، عندما كنت طالبة كان الاستغراق في أحلام اليقظة يؤدي - إذا لم تنتبه - إلى سنحاقك وتوبيخك على غفلتك.

صعدت على سلالم ترابية، وتجاوزت بابين خشبيين في الطابق الثاني، يفضي أحدهما إلى المصلّى، والآخر إلى مكتبة. ثم تابعت طريقي إلى الطابق الثالث، حيث ينسى المرء أبهة الردهة ويكتشف علامات مرور الزمن. فقد تكسّرت بقع الدهان عن الجدران والسقف، ولاحظت بلاطة من هنا وأخرى من هناك.

عند أعلى السلالم توقفت قليلاً لأحدد وجهتي. كان المكان هادئاً وكئيباً على نحو غريب. وإلى يساري رأيت ردهة مع باب مزدوج يُفتح على غرفة مصلّى. وكان يحيط بالردهة رواقان، وتوجد أبواب خشبية مبقّعة وعلى مسافات متساوية على طول كل قاعة. تجاوزت المصلّى، ومشيت على طول الرواق.

كان مكتب الأحمر في الممر مفتوحاً لكنه خالٍ، وعلى بابه لوحة تعريف مكتوب عليها حروف بخط أنيق. مقارنة مع مكتبي، بدت الغرفة مثل مصلّى مالت حروفه. فهي طويلة وضيقة، فيها نافذة على شكل جرس في نهايتها. ومن خلال الزجاج المثبّت بإطار من الرصاص، استطعت رؤية مبنى الإدارة والدرب الذي يقود إلى المتنزه المتشابك المطلي بالثلج. كانت الأرضية من خشب السنديان، وألواحها مصقولة وبرتقالية بفعل سنوات من وطء الأقدام المستمر عليها.

كانت الرفوف مليئة بكتب ومجلات ودفاتر ملاحظات وأشرطة فيديو وأجهزة عرض شرائح، وكانت أكوام من الأوراق والمطبوعات تشغل الجدار كله، فيما وضعت منصة خشبية أمام النافذة، وحاسوب إلى يمينها.

نظرت إلى ساعتي التي كانت تشير إلى الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، حضرت قبل الموعد. عدت إلى القاعة، وبدأت أمضي النظر في الصور المعلّقة في

السروال. كلية العلوم الدينية، صفصف التخرّج في الأعوام 1937، 1938، و1939 وقفات متكلّفة، ووجوه كئيبة.

كنت قد وصلت إلى صورة جريجي عام 1942 عندما ظهرت سالة ترتدي جنسراً وكنسرة ذات ياقة عميقة وسترة صوفية تصل إلى ركبتيها. كان شعرها الأشقر يصل إلى كتفيها، أمّا عركة الكهمة مكاتب نعطّي حاجبيها، ولم تكن تضع على وجهها أي مساحيق تجميل.

سألت بالإنكليزية "هل يمكنني مساعدتك؟" ولمالت رأسها، فتحرّكت الغرّة جانباً.

"نعم أبحث عن د. جيبوت"

"د. جيبوت ليست هنا بعد، لكني أتوقع وصولها في أي وقت. هل يمكنني مساعدتك بشيء؟ أنا مساعدتها" وبإيماءة سريعة، رفعت شعرها عن أعلى العينين.

"شكراً لك، أود طرح بعض الأسئلة على د. جيبوت. سأنتظر، إذا سمحت"

"أه، نعم، حسن. لعل أنه لا بأس بذلك. ولكنني لست واثقة من ذلك. فهي لا تسمح لأحد بدخول مكتبها" نظرت إليّ، وألقت نظرة خاطفة عبر الباب المفتوح، ثم نظرت إليّ مجدداً "كنت عند آلة النسخ"

"لا بأس، سأنتظر هنا"

"حسنٌ، قد تتأخر قليلاً. إنها تتأخر دائماً. أنا ... ستدوب، ونظرت إلى الممر خلفها.

"يمكنك الجلوس في مكتبها" مجدداً حركة الشعر "لكني لا أعرف إن كانت ستحب ذلك"

بدت غير قادرة على اتخاذ القرار

"أنا بخير هنا. حقاً"

انسحبت بسرعة عبر، لكنها عادت لتنظر إليّ، ومطّت شفتيها، وردّت شعرها إلى الوراء مرة أخرى محركة رأسها. لم تكن بحاجة كبيرة لكي تكون طالبة جامعية، وإنما كانت تبدو كفتاة في الثانية عشرة من عمرها.

"ما اسمك مجدداً؟"

"د. بريانت. طبيب بريانت"

"هل أنت أستاذة؟"

"نعم، لكن ليس هنا. أعمل في مختبرات الطب الشرعي"

"هل هي تابعة للشرطة؟" تقطّب حاجباها بين عينيها

"لا، إنها مؤسسة الطب الشرعي"

"آه" تعقّب شفتيها، ثم نظرت إلى ساعتها التي كانت قطعة الحلي الوحيدة التي تلبسها

"حسنٌ، ادخلي واجلسي. أنا هنا، وهذا أظن أنه لا بأس بذلك. كنت عند آلة النسخ"

"لا أريد أن أسبب لكِ..."

"لا، ما من مشكلة" أشارت إليّ برأسها أن أتبعها ودخلت المكتب. "تفضلي"

دخلت وجلست على أريكة صغيرة أشارت إليها. أمّا هي فتجاوزتني إلى الطرف البعيد من الغرفة، وبدأت تعيد ترتيب المجلات على الرفوف.

كان في مقدوري سماع صوت محرك كهربائي، تكييف أو ثور للعصير. نظرت حولي؛ لم يحصل لي أن رأيت كتباً تحتلّ مثل تلك المساحة في غرفة واحدة. نظرت إلى العناوين التي تقع حيالي مباشرة.

بعض المقالات بعد. كان هنالك دفءاً لا حدّ هو مريح، وشعرت أنني أصبت بصداع في قاعدة جمجمتي فخلعت سترتي.

تعب.

أمعنت النظر في لوحة معلّقة على الجدار إلى يميني، يظهر فيها أطفال عراة يطلّون برؤوسهم من جانب مركب وشراعه توهج في ضوء النار. وقد كتب في الأسفل بخط صاحبه روبرت سول 1892. ذكّرتني اللوحة بأمري في غرفة موسيقى جدتي.

نظرت إلى الساعة فوجدت أنها تشير إلى الرابعة وعشر دقائق.

"منذ متى تعملين مع د. جيمس؟"

كانت تلمح فوق الصحف، لكنها شتّتت نظرتها بسرعة عندما سمعت صوتي.

قالت متعجلة: "منذ متى؟"

"هل أنت من بين طلابها المفضلين؟".

"لم أتخرج بعد". كانت تحجب الضوء الآتي من النافذة فتشكّل ظلاً أمامه، ولم أتمكن من رؤية ملامحها، لكن صوتها بدا مشرقاً.

"يبدو أن علاقتها بطلابها طيبة حقاً".

"لماذا تسألينني؟".

جواب غريب. "أشعر بالفضول فحسب. لم يكن لدي قطّ وقت كافٍ لرؤية زملائي خارج الصف. أنا معجبة بها".

بدا أن ذلك أرضاها.

"د. جيمس أكثر من أستاذة بالنسبة إلى الكثيرين منا".

"كيف اخترت التخصص في الدراسات الدينية؟".

بعض الوقت لم تجب. وعندما ظننت أنها لن تجيب، تكلّمت ببطء.

"عرفت د. جيمس عندما التحقت بالكلية الدراسية. لقد..." توقفت فجأة عن الكلام. كان من الصعب رؤية تعبير وجهها بسبب الضوء من خلفها. "... أعمى".

"كيف حصل ذلك؟".

أطبق الصمت عليها لبعض الوقت.

"أرادت مني أن أفعل الصواب، وأتعلم كيف أفعل الصواب".

لم أعرف ماذا أقول. ولكن، هذه المرة لم يكن التحفيز ضرورياً لحثّها على متابعة الكلام.

"جعلتني أدرك أن الكثير من الإجابات موجود مسبقاً، وأنه علي فقط العثور عليها". أصدرت صوتاً عميقاً، وأطلقت زفرة. "الأمر صعب، إنه صعب حقاً، لكنني أصبحت أفهم الفوضى التي أثارها البشر في العالم، وأن الله منزّه فقط."

استدارت قليلاً، واستطعت رؤية وجهها لمحاً. كانت عيناها قد اتسعتا، وكان فمها مشدوداً.

"د. جيمس... كنت محظوظة فحسب".

كانت تقف عند الباب امرأة لا يتجاوز طولها خمس أقدام. شعرها داكن ومشدود بإحكام إلى الخلف ومربوط خلف رأسها. كان جلدها بلون قشرة البيض مثل الجدار خلفها.

"كنت عند آلة النسخ، ولم أغادر المكتب سوى لثوانٍ معدودة"

بقيت المرأة ساكتة تماماً من دون حراك

"لم تستحل من تلقاء نفسها ما كنت لأصبح بنتك" عقصت الطالبة شعرها وانخفضت بصرها.

لم تتحرك دوري جيبسون إطلاقاً

"د. جيبسون، نريد أن نطرح عليك بعض الأسئلة عند ظننت أنه لا ضير من دعوها لتنتظرك هنا، إنها طبيبة شرعية" كان صوتها يرتعش لتقترب

لم تنظر جيبسون نحوي ولم تكن لدي فكرة عمّا يجري.

"أنت... أنت أحسنتِ الكلام عن الرفوف، وكنا نحاول أطراف الحديث" استطعت رؤية قطرات عرق على شفتها العليا

للحظة استمرت جيبسون في التحديق إليها، ثم استدارت ببطء نحوي.

"لقد اخترت وقتاً غير مناسب كما أنسة...؟" لمسة رطبة [illegible] صوتها.

"د. برنان" وقصته

"د. برنان"

"أعتذر عن مجيئي من دون موعد مسبق. أخبروني أنه سيسرك أنك تكونين في المكتب في هذا الوقت".

لم تمضِ وقت طويلاً وهي تمعن النظر إليّ. كانت عيناها حائرتين، والتوجيهات [illegible] تبين جداً حتى يكاد يحيل إلى المرء أنها من دون لون. وكانت جيبسون تور [illegible] ذلك بجعل أهدابها وحاجبيها داكنة اللون

"حسنو" قالت. "حسنٌ بما أنك هنا. ما الذي ستعون إليه؟" بقيت ساكنة من دون حراك عند الباب. كانت دوري جيبسون إحدى أولئك الأشخاص الذين يلمعون بهدوء شديد.

أوضحت علاقتي بالأحداث حوليك، وتعلقي بالبوابة بيكوب، من دون أن أكشف عن أسباب اهتمامي

فكرت جيبسون للحظة، ثم جلت بصرها إلى مساعدتها. ومن دون أن تبس ببنت شفة وضعت الشابة الغلاف جانباً، وخرجت مسرعة من المكتب

"أرجـو أن حضوري مساعدتي. إنها حساسة جداً" وأطلقت ضحكة رقيقة ثم هزت رأسها "لكنها طالبة ممتازة"

حركت جسوب كرسياً حتى أصبح أمامي قصداً

"أخصص هذا الوقت من بعد الظهر عادة للطلاب، لكن يبدو أن أحداً منهم لم يحضر اليوم، هل يوقفني احتساء الشاي؟" كان كلامها معسولاً، مثل سيدات النادي الريفي في الوطن

"لا، شكراً. لقد تناولت الغداء للتو"

"هل أنت طبيبة شرعية؟"

"ليس تماماً. أنا متخصصة بعلم الإنسان الشرعي، في إحدى كليات جامعة كارولينا الشمالية في تشارلوت. وأتفقد سجلات لقاضي التحقيق هنا"

"تشارلوت مدينة جميلة. لقد زرتها مرة"

"شكراً لك. جامعتنا مختلفة تماماً عن مكتبك. إنها عصرية جداً. وأنا أحسدك على هذا المكتب الجميل".

"نعم، إنه رائع. يعود تاريخ ميركس إلى عام 1931 وكانت تدعى أصلاً قاعة العلوم الطبية. كان المبنى ملكاً لكلية علوم الطب المشتركة حتى اشترته مكغيل في العام 1948 هل تعرفين أن كلية علوم الطب واحدة من أقدم الكليات في مكغيل؟".

"لا، لم أكن أعرف"

"بالطبع، اليوم تدعوها كلية الدراسات الطبية. إذاً، أنت مهتمة بأسرة سيكول" وجذبت كاحلاً فوق آخر، واسترخت في كرسيها. وجدت أن غياب اللون من عينيها أمر غير مريح.

"نعم. أودّ على وجه الخصوص أن أعرف لمَ وُجدت إليزابيث، وماذا كان والداها يفعلان في ذلك الوقت. لم تتمكن الأخت جولييان من العثور على شهادة ميلاد، لكنها واثقة أن الولادة تمت في مونتريال. وتعتقد أنك ربما تستطيعين تزويدي ببعض المراجع".

"الأخت جولييان" ضحكت مجدداً، بصوت يشبه ماءً يترقرق فوق الصخور، ثم استعاد وجهها رزانته "هناك معلومات كثيرة مكتوبة عن هذا الشأن ومن قبل أفراد

من أسرتي بيكول وبالانتظار. تحتوي مكتبتنا على أرشيف غني بالوثائق الكندية، وأنا واثقة من أنك ستعثر على العديد من الأشياء هناك. يمكن أن تجرّب أيضاً أرشيف مقاطعة كيبك، الجمعية التاريخية الكندية، والأرشيف العام لكندا."
اكتست اللهجة الحنونة لرفيقتنا نوعاً ما ميكانيكية. كنت طالبة سنة ثانية في حلقة بحث.

"يمكنك الاطلاع على مجلات مثل تقرير الجمعية التاريخية الكندية، والتقرير السنوي الكندي، وتقرير الأرشيف الكندي، والتاريخ الكندي، ومحاضر جمعية التاريخ والأدب في كيبك، تقرير أرشيف مقاطعة كيبك، أو محاضر الجمعية الملكية في كندا. بحث مثل شريط. "وبالطبع هناك مئات الكتب. لا أعرف أنا شخصياً الكثير عن تاريخ تلك الفترة."

لا بد أن وجهي قد عكس أفكاري.

"لا تجعلي ذلك يُحبط همتك. الأمر يتطلب فقط بعض الوقت."

لن أجد أية ساعات كافية لتصفّح تلك المجلات. لذا قررت أن أجرّب طريقة مختلفة.

"هل تعرفين الظروف التي رافقت ولادة إليزابيث؟"

"ليس حقاً. فكما قلت، لم أقم بأبحاث عن تلك الفترة. أعرف ما هي بالطبع، وما حدث في أثناء انتشار وباء الجدري في العام 1885". توقفت عن الكلام لحظة لتختار كلماتها بعناية. "كان عملي قد ركّز على حركات تبشيرية ومعتقدات حقيقية لا على أحداث تقليدية".

"في كيبك؟".

"ليس حصرياً" عادت إلى آل بيكول. "كانت الأسرة معروفة في تلك الأيام، لذا قد تجدي معلومات مثيرة للاهتمام إذا قرأت تفحصاً في صحف قديمة. كانت هناك أربع جرائد تصدر يومياً باللغة الإنكليزية آنذاك، غازيت، ستار، هيرالد، ويتنس"

"ستكون تلك الصحف في المكتبة؟"

"نعم، وبالطبع، كانت هناك مطبوعات فرنسية: لامينرف، لوموند، لاباتري، لينتمار، لابريس. كانت الصحف الفرنسية أقل تنوعاً نوعاً ما من الإنكليزية، لكني أظن أنها كلها تقتضي بإعلانات ولادة"

لم أفكّر في الأرشيف الصحفي من قبل، وكان يبدو مصدراً يمكن الاعتماد عليه.

خرجَتْ جينوت إلى المصنف كانت تحوّل على فيلم (فيلم مصغّر عليه صور مصغّرة)، ووعدتني بإعداد لائحة بالمصادر. تكلمنا لبعض الوقت عن أشياء أخرى وأصبحت معرفتنا بشكل عملي فأنا سمعنا عن الأستاذين في عام جامعي يحبس الرجال. بعد مضي بعض الوقت، ظهرت طالبة عند الباب، فنظرت جينوت إلى ساعتها، ورفعت خمس أصابع فاختفت الشابة.

ولما حان الوقت حييتها شاكرة لها، وارتديت معطفي، ثم اعتمرت قبعتي، ووضعت شالي. كنت في منتصف الطريق إلى الباب عندما أوقفتني بسؤال.

"هل أنت مؤمنة د. برنان؟".

"ترعرعت ككاثوليكية رومانية".

نظرت العينان المحيطتان بي

بعد أن غادرت، عرّجت على المكتبة، وقضيت ساعة هناك وأنا أتصفّح كتب التاريخ وأستعرض الفهرس بحثاً عن سيكوبي أو بلانتار. وجدت عدداً منها تضم بين دفتيها اسم إحدى الأسرتين، وقرأت ما تحويه عنهما، ثمة لأني لا أزال أتتبع بأسلوب فطنة.

عندما خرجت من المكتبة، كان الظلام قد بدأ يخيم والثلج يتساقط مما أرغم المشاة على السير في الشارع أو سلوك دروب ضيقة على الأرصفة، وعلى أن يضعوا بحرص قدماً أمام الأخرى للابتعاد عن الثلج العميق. شاهدت على مسافة مني ثنائياً. كانت الفتاة تسير في المقدمة فيما يسير الفتى خلفها وهو يضع يديه على كتفيها. كانت أحزمة الحقيبة التي يحملها كل منهما على ظهره تتأرجح ذهاباً وإياباً مع حركة أوراكهم لاعباء أقدامهم داخل الممر الخالي من الثلج. وأحياناً كانت الفتاة تتوقف لتلتقط كمشة ثلج تسلقها.

كانت الحرارة قد انخفضت مع تلاشي ضوء النهار. وعندما وصلت إلى السيارة كان الجليد يغطي الزجاج الأمامي، فأخرجت مكشطة، وأزلت الجليد ولعنتُ غريزة الحشرية لأن أي شخص عاقل سيكون على الشاطئ في مثل هذا الوقت.

في أثناء الرحلة القصيرة إلى المنزل استعدت ما جرى في مكتب جيمس، وحاولت فهم سلوك مساعدها الغريب. هل كانت عصبية حقاً؟ بدت لها كطالب جيمس، وهذا أكثر من الاحترام المعتاد بالنسبة إلى طالب لم يتخرج بعد. تذكرت دخانها إلى آلة النسخ ثلاث مرات، إلا أنها عندما التقت بها في الرواق لم تكن تحمل شيئاً في يديها. وتذكرت أنها لم تعرف اسمها.

فكّرت في جيمس. كان لطيفاً جداً، ورصيناً جداً، وكان معتاداً على التحكّم بأي جمهور. غلبت عليها الكآبة، مقارنة بعدم التخيل وضيق الرؤية مصادفةً. حصتي لتشعر أنها طالبة جامعية. تذكرت في آخر حديث، لم يبارك نظر عينيها عن وجهي، ولم يشح بنظره عني ولو مرة واحدة. كان نظرها إليّ بتلك الطريقة مرعباً.

وصلت إلى منزلي لأجد رسالتين هاتفيتين. كانت الأولى أقلق قليلاً، إذ كانت هاري قد سجّلت في دورتها الدراسية، وأصبحت عضواً بالصحة الذهنية المعاصرة.

أما الرسالة الثانية فقد جعلت القشعريرة تسري في أوصالي. أصغيت السمع وأنا أراقب الثلج يتراكم على سور حديقتي. كانت الكُتَل البيضاء الجديدة تستقر فوق الكُتَل الرمادية القديمة، مثل برامة مولودة حديثاً فوق آلام عام مضى.

"مرحباً، إني كنت موجودة لأرضي المستطاعة ثلاثة مهمة" وكان "طوراً آخر مهم في العملية ستارت – جوقات"، كان صوت رايان مشوباً بالأسى. "عندما أتت الفيس للخارجية، عثروا على أربع جثث أخرى خلف السلالم". استعدت صوته يمج دخاناً إلى رئته، ويطلقه بعد. "الأشلاء وأطلال، لكنه ليس عنواناً، لكن الأمر مروّع. لم أر قط شيئاً مماثلاً. لا أرغب في الخوض في التفاصيل، ولكن لدينا وضع خطير برمّته، وهو رهيب، لو قلت حقاً"

7

لم يكن رايان وحده من عثر على الجثة. كنت قد صادفت أطفالاً تأذوا وصُوِّروا جموعاً من قبل، ولكنهم بعد أن تعرضوا للضرب والاغتصاب والخنق والتعذيب حتى الموت. ولكني لم أر قط شيئاً مماثلاً لما حلّ بالجثث في سانت - جرفايس.

كان آخرون قد تلقوا اتصالات في الليلة الماضية. وعندما وصلت عند الساعة الخامسة والربع كانت شاحنات مغلقة وصهاريج مجهزة لوسائل إعلام عديدة موجودة خارج مديرية أمن كيبيك. كانت صحونها وهوائياتها العالم تبحث عن أنيابها الخلفية.

وبالرغم من أن العمل يبدأ عادة عند الساعة الثامنة والنصف، إلا أن غرفة التشريح الكبيرة كانت تعج نشاطاً. كان برران هناك، مع عدة محققين آخرين من مديرية الأمن ومصوّر من شعبة التحليل الجنائي، ولم يكن رايان قد وصل بعد.

كان الفحص الخارجي قائماً على قدم وساق، وكان عدد من الصور الفورية مرتباً على طاولة جانبية. كانت الجثة في قسم التصوير بالأشعة السينية، ولاحظت بعض ملاحظات. وحينما دخلت، توقف ونظر إليّ.

"بونجور، أنا سعيد برؤيتك. قد نحتاج إلى مساعدة في تحديد عمر الطفلين"

لوماب

"وقد تكون مشكلة - بحثت عن الكلمة والتوتر بادٍ على وجهه الطويل والرفيع .. مسألة غريبة".

أومأت، وذهبت لارتداء ملابس معقمة. انقسم رفاقك وسلّمني بإشارة من يده عندما تجاوزته في ممر. كانت عيناه دامعتين، وأنفه ووجنتاه محمرة بلون الفكر، وكأنه مشى مسافة طويلة في البرد.

في غرفة الملابس تجنبت أن أرى مرآتي لمواجهة ما هو قادم؛ لأن رؤية طفلين مقتولين منظر تقشعر له الأبدان. ما الذي كان لامانش يعنيه بقوله لحالة غريبة؟

كانت القضايا التي تخص أطفالاً صعبة دائماً عليّ. وعندما كانت ابنتي صغيرة، وبعد كل حركة قتال طفلاً، كنت أقاوم رغبة في تقييد كل سني لإبقائها في مرمى بصري.

لكن رافقه الآن مكتبي لا أزال أعرج من صور الأطفال الأموات. فمن بين كل الضحايا، الأطفال هم الأكثر تأثراً بالأخرين والأكثر ثقة بهم، والأكثر براءة. وكنت أتألم في كل مرة يحين فيه طفل إلى مشرحة. إذ كان الأمر كحقيقة صارخة عن الخطر البشري، ولم يكن ذلك يحقق بأي عزاء لو سلوان.

سلب بي حرمة التشريح، وأنا أظن أنني مستعدة للفحص، ثم رأيت الجسد الصغير مسجّى على الطاولة الفولاذية.

دمية – كان ذلك انطباعي الأول – محاطة بالحجم الطبيعي، أصبحي بوها كالقلب مع مرور الوقت. كانت لدي دمية في طفولتي هيئة طفل حديث الولادة زهرية اللون تفوح منها رائحة مطاط، وكنت ألمسها عن فتحة صغيرة دائرية بين شفتيها، وأقبّل خدّيها عندما ينتقل بلالها.

لكنّ هذه ليست دمية. كان الطفل مسجّى على ظهره، وذراعاه إلى جانبيه، وأصابعه ملتفة على راحتي كفّيه الصغيرتين. وكان ردفاه مرتفعين، وتظهر خيوط بيضاء على جلد مؤخرته الأرجوانية، وكتلة من شعر أحمر رفيع تغطي رأسه الصغير. كان الجسد عارياً باستثناء سوار صغير يحيط بمعصمه الأيسر، واستطعت رؤية جرحين قرب عظم كتفه اليسرى.

كان هناك ثوب نوم صغير على طاولة مجاورة، وشاحنات زرقاء وحمراء تبتسم من السروال الذي وضع إلى جانبه حفاض متسخ، وقميص داخلي قطني، وكنزة طويلة الردنين، وجورب أبيض. كان كل شيء ملطخاً بالدماء.

سجّل لامانش.

"الطفل من العرق الأبيض، كامل النمو والتغذية .."

كامل النمو والتغذية لكنه ميت، كما فكّرت، وقد بدأ الغضب يتصاعد في داخلي

"إنها في حالة سيئة مع سحجات خفيفة.."

حسكنت إلى الجثة المصورة حيث كانت في حالة جيدة مع سحجات خفيفة على البدن.

قال برترام: "أظن أنه لا داعي لمسحه بحثاً عن جروح خفاضية"

ثم تقدم حسين أصبح قريباً مني، فلم أجبه لأنني لم أكن بحاجة لجهد انتباه للدعابات في المشرحة.

تابع: "هناك طفل آخر في الوكر"

قلت بالعصاب. "هذا ما قيل لنا"

"معه لكن يا الله، إنهما طفلان".

نظرت إلى عينيه وشعرت بالغضب. لم يكن برترام يحاول إلقاء دعابة، بل بدا وكأن عمله قد مات.

"طفلان، تفهما لسحبهم وأصبحا في القبر بكل برودة أعصاب، بل أسوأ، كان الوعد يعرف على الأرجح عقين الطفلين"

"لماذا تقول ذلك؟"

"هذا يبدو منطقياً طفلان، والشبلان هما على الأرجح الوالدان. لقد قضى أحدهم على الأسرة برمتها"

"وحرق المنزل ليخفي جريمته؟".

"هذا محتمل".

"قد يكون غريباً".

"ربما، يكسبني أملك في ذلك، تعاطيه وسحري". وركّز مجدداً على عملية التشريح، ويداه مشبوكتان خلف ظهره.

توقف لأناقش حتى التسجيل، وتكلم إلى لمة التشريح، وأخرجت إليّ شريطاً من الدرج ومدّته بطول جسم الطفل

طوله ثمانية وخمسون سنتيمتراً

وراقب براين ما يجري من الطرف الآخر للغرفة، وهو يضع إحدى ذراعيه فوق الأخرى، وإبهامه الأيمن تحت النسيج الصوفي على عضلة ذراعه اليسرى، وأحياناً كنت أرى فكّه يضطرب وتفاحة آدم ترتفع وتنخفض.

لقد بدأ التشريح حول رأس الطفل وصدره وبطنه، ثم ذكرت كل قياس. وبعد ذلك حملت الجثة ووضعتها في ميزان. عادة يتم استخدام الجهاز لوزن أعضاء وحسننا، ترجرجت السلة قليلاً، فوضعت يداً لتثبيتها. كان منظر يفطر الفؤاد: طفل ميت في مهد فولاذي.

"وزنه ستة كيلوغرامات"

كان الطفل قد لقي حتفه ووزنه ستة كيلوغرامات فقط، أي ثلاثة عشر رطلاً.

سجل لامانش الوزن، وحملت ليزا الجثة الصغيرة ووضعتها على طاولة التشريح. وعندما رجعت إلى الطفل، تحشرجت أنفاسي في حلقي. نظرت إلى براءته لكنّ عينيه كانتا تأبيان انتباهي على حدته.

كانت جثة الطفل صغير مستلقي على ظهره، وساقاه ويداه تبسط على استقامتها. وكانت عيناه واسعتين والزرقة مثل روزي، فيما بدت الفراخيتان وخاويتين داكنتين. أمّا رأسه فكان يميل إلى جانبه وإحدى وجنتيه ملتصقتين مستند إلى معظم الترقوة الأيسر.

تحت الوجنة مباشرة رأيت شقاً في الصدر بحجم قميص تقريباً كان مجرح ذا حواف حززة ومحاطة بخط أرجواني داكن عقد عقيدة، وكانت هناك شقوق محفورة الشكل يبلغ طول كل منها سنتيمتراً أو اثنين. كان بعضها عميقاً، فيما كان بعضها الآخر سطحياً. وفي بعض الأماكن تتقاطع شق مع آخر، مشكلين حرف X أو رقم 7.

وتقلصت يدي في صدري وشعرت بحلقي تنكمش، و ستديرت إلى براين وأنا غير قادرة على صياغة سؤالي.

قال بكآبة: "هل تصدقين هذا؟ أشرح الوغد القلب من صدره؟".

"هل هو مفقود؟".

نعم

اجفل ريلي. "والطفل الآخر؟"

أومأ بحدة. "عندما تظنين أنك رأيت كل شيء، تكتشفين خلاف ذلك".

"يا الله!" ضربت بقشعريرة في كل أنحاء جسمي، وتمنيت بشدة ألا يكون الطفلان قد شعرا بما حصل عندما تم انتزاع أعضاء منهما.

نظرت عبر الغرفة إلى ريغان الذي كان يحدق إلى الجثة على الطاولة، ووجهه خالٍ من أي تعبير.

"ماذا عن الراشدين؟".

هزّ برستون رأسه. "يبدو أنهما تعرّضا لطعنات عنيفة، وتُركت جثتاهما كاملة ولكن، لم تُنزع أي أعضاء منهما".

استمر صوت لاماتش الرتيب وهو يصف الظاهر الخارجي للجروح. لم أكن مضطرة إلى الاستماع عن كثب لأعرف ما يعنيه وجود ورم دموي؛ إذ يصبح لون الأنسجة أزرق فقط إذا كان الدم يصل إليها، ما يعني أنّ الطفل كان على قيد الحياة عندما شُقّ صدره؛ بل إنّ الطفلين كانا على قيد الحياة.

أغلقت عينيّ، وقاومت الرغبة في الخروج من الغرفة. تمالكي نفسك يا برنان، وقومي بعملك.

اقتربت من الطاولة في الوسط لأتفحص الثلاثي. كان كل شيء صغيراً جداً، ومألوفاً تماماً. نظرت إلى ثوب النوم وإلى الملاءة القطنية المربوطة به، وإلى الياقة وحواف الزهور الصوفية. كانت كيتي قد ارتدت عدداً منه، ولا أزال أتذكر قمع الأذرع وإطلالتها لأعلى حمالتيها، وساقيها الصغيرتين المحشوتين اللتين ركلتا بقوة. ماذا ندعو هذه الأشياء؟ كان لها اسم معين. حاولت أن أتذكر لكنّ دفعني رفض التركيز على ذلك. ربما كان يحاول حمايتي، ويخشى عليّ التوقف عن إضفاء طابع شخصي على الوضع، وعلى العودة إلى العمل قبل أن أبدأ بالبكاء أو ببساطة قبل أن أفقد رشدي.

حصل معظم التسريب عندما كان الطفل مستلقياً على جانبه الأيسر. إذ كان الردف الأيمن والكتف الأيمن من ثوب النوم ملطخين، لكنّ الدم كان يغطي الجانب الأيسر، ويجعل لون السروال داكناً بين الأحمر والبني، وكان القميص الداخلي ملطخاً وكذلك الكنزة.

قلت من دون أن أوجّه كلامي إلى شخص محدد: "ثلاث طعنات، وهروب".

اقترب برارد من الطاولة.

"كوخي لمعصم محترس كي يبقى الطفل دافئاً"

وافق برارد: "إنه كما قلت"

استخدم رايان إبرة ومرر خيطاً إلى الملابس؛ كان في كل قطعة منها ثقب مجزّز بحجم الشكل، يطابق الجروح على صدر الطفل. تكلّم رايان أولاً

"كان الطفل الصغير مرتدياً ملابسه"

قال برارد: "نحن نعلم أن الملابس لم تمنع القاتل من تنفيذ طقسه الشرير".

لم أنبس ببنت شفة.

قال لامانش: "كوراس، من فضلك أحضري عدسة مكبرة وتعالي إلى هنا لقد وجدت شيئاً"

تجمّعنا حول متخصص علم الأمراض، فأشار بإصبعه إلى اليسار وعند أسفل الثقب في صدر الطفل. حينما سلّمته العدسة المكبرة، انحنى مقترباً، وتفحّص الكدمة، ثم أعاد العدسة إليّ.

عندما حان دوري تطلّب الأمر لحظة. لم تظهر على البقعة نقاط غير منتظمة للكدمة العادية. فتحت العدسة المكبرة ضعفين رؤية نموذج محفور في جلد الطفل يحتوي رمز الصليب الذي مع عقدة عند أحد طرفيه وفي أعلاه حروف، أو رمز الصليب المطلي. كان الشكل ضعيفاً يصعب تمييز ملامحه بشكل صحيح. سلّمت العدسة إلى رايان، ونظرت مستفسرة إلى لامانش.

"كوراس، من الواضح أن هنا جرحاً من نوع ما. يجب الحفاظ على النسيج، ولكنّ د. برغرون ليس هنا اليوم، لذا سأكون شاكراً لك مساعدتك".

كان مارك برغرون طبيب الأسنان في مختبرات الطب الشرعي قد طوّر تقنية لأخذ طبعات، وترميم جروح النسيج الرخوة في البداية. كان قد استخدمها لرفع علامات العض عن أجساد ضحايا الاعتداءات الجنسية العنيفة. كانت الطريقة قد أثبتت نجاحها أيضاً في رفع شكل الوشوم والجروح الغريبة عن الجلد وحفظها. رأيت مارك يطبّقها في حالات قضايا، وقد ساعدته في عدد منها.

أخرجت مسكات برغوت من خزانة في غرفة التشريح الأولى، وعدت إلى الغرفة الثانية، ووضعت الأدوات على عربة فولاذية. وفي الوقت الذي ارتديت فيه قفازي، كان المصور قد أنهى عمله وكان لامانش جاهزاً، جاثماً في الأقصى تماماً. وراقب رايان وبرتراند ما يجري.

أخرجت خمسة مقاييس من مسحوق وردي اللون من إناء بلاستيكي، ووضعتها في قارورة زجاجية، ثم أضفت 20 سنتيمتراً من سائل شفاف وخلطت المزيج. وخلال دقيقة أصبح قوامه كثيفاً مثل طين وردي. جعلت العجينة تأخذ شكل دائرة، ووضعتها على الصدر المفتوح، وجعلتها تغطي الكلمة تماماً. كانت الخلطة الكيميائية ساخنة عندما ربتُّ عليها بيدي لأثبتها في مكانها.

لتسريع عملية القساوة، وضعت قماشة رطبة حول الدائرة، ثم انتظرت. في أقل من عشر دقائق كانت الخلطة الكيميائية قد بردت. أمسكت أنبوباً، وصببت بحذر سائلاً شفافاً حول حواف الدائرة.

سأل رايان: "ما هذا؟"

"سيانواكريليت (مادة لاصقة)"

"رائحته مثل غراء كريزي"

"إنه كذلك"

عندما اطمأننت أن الغراء قد جفّ، اختبرته بشدّ الدائرة بلطف. بعد بضع ضربات خفيفة، والمزيد من الانتظار، أصبحت الدائرة قاسية. فكتبت عليها التاريخ، ورقمي القضية والمشرحة، ووضعت عليها إشارات إلى الأعلى، والأسفل، واليمين، واليسار نسبة إلى صدر الطفل.

قلت: "إنها جاهزة" وتراجعت إلى الخلف.

استخدم لامانش مشرطاً لقص الجلد خارج دائرة العجينة، وشقّه عميقاً بما يكفي لتحمل معها النسيج الدهني تحتها. عندما سُحبت الدائرة أخيراً، كانت تحمل الجلد الملتصق بكلمة وقد التصق بها بإحكام، مثل لوحة مصغّرة داخل إطار دائري وردي. وضع لامانش العيّنة في مرطبان يحتوي سائلاً شفافاً كنت أحمله.

سأل رايان عندئذ: "ما هذا؟".

"تحول يحتوي عشرة بالمئة فورمالين مُخفّف. خلال عشر إلى اثنتي عشرة ساعة سيتصلّب النسيج، وستصبح العينة عند تركه. وهكذا، إذا حصلنا على سلاح لاحقاً، سيكون في مقدورنا أن نقارنه بالجرح لنرى إن كان يتوافق معه. وبالطبع، سنلتقط له صوراً."

"لماذا لا تستخدمون الصور فحسب؟"

"باستخدام هذه العينة يمكننا تقديم إثارة شرعية إذا اضطررنا إلى ذلك"

"إثارة شرعية؟".

لم يكن مزاحي بسبب حقاً بإقامة حلقة دراسية، عند أجيب الأمر ببساطة

"يمكنك ببساطة ضوء عبر النسيج ورؤية ما يجري تحت الجلد. ويكشف ذلك غالباً عن تفاصيل لا تكون ظاهرة للعيان على السطح"

قال برتراند: "ما السبب برأيك؟"

قلت وأنا أغلق الوعاء بإحكام وألصقه بلاصقة: "لا أعرف"

بينما كنت أستدير شعرت بعرق عميق، ولم أستطع مقاومة الرغبة في رفع اليد المصغرة. كانت طرية وباردة بين أصابعي. أدرت السوار الذي يحيط بالمعصم.

"م - ا - ر - ي - ا - ن"

أنا آسفة يا ماريان.

رفعت بصري لأرى لامانش يحدق إليّ. كانت عيناه كمكان الأسى الذي أشعر به. ثم رجعت إلى خلفه، وبدأ الفحص الداخلي. كان لامانش سيشرح كل العظام التي كسرها القاتل ويرسلها إلى الأشعة، ولكني لم أكن متفائلة وبالرغم من أنني لم أبحث قط عن علامات تدل على الأداة التي استعملها القاتل على ضحية بمثل هذا العمر، إلا أنني كنت أعلم أن أضلاع الطفل ستكون صغيرة جداً ومن غير المرجح العثور على التفاصيل.

نزعت قفازي وتوجهت إلى رالف، في حين كانت لوسيل تصور صدر الطفل بطريقة تشريحية

"هل صور المكان هنا؟"

"النسخة النهائية فقط"

سلّمني مغلفاً بنياً كبيراً يحتوي مجموعة من الصور الفورية، فأخذتها إلى طاولة جانبية

أظهرت الصورة الأولى أكبر البيت الخارجيين في شالية سانت – جونايت.
كان الطراز المعماري مماثلاً للمنزل الرئيسي، فهو ألبي. كانت الصورة التالية تظهر شيئ من القاعين، وكانت قد التقطت من غرفة السلالم نحو الأسفل. كان السلم مظلماً وضيقاً، وسوجد حبلان على جانبيه، وعوارض خشبية على جدران، وأقفاص مكدسة على غرف كل درجة.
كانت هناك عدة صور مأخوذة للقبو من زوايا مختلفة. كانت الغرفة معتمة، والضوء الوحيد يأتي من نوافذ مستطيلة صغيرة وعريضة في السقف. أما الأرضية فكانت مفروشة بالحصى. وظهرت كذلك جدران مصنوعة من خشب الصنوبر، وأجزاء خشبية، وصناديق ملح، والمزيد من الأقفاص.
شاهدت عدة صور مقربة لصندوق الماء أو للحيز الذي يخصصه عن الجدار. كانت هناك كوة في الجدار مبنية مما يبدو أنها سلاسل قديمة وأكياس نايلون. وأظهرت الصور التالية تلك الأشياء معلقة على مشجع الأرضية وهي غير مفتوحة أولاً، ثم ممسوحة وتكشف عن محتوياتها.
كان الراشدان قد غطيا شطحتين كبيرتين من نايلون شفاف، ثم تم لفهما بساطين ووضعهما خلف صندوق الماء وظهر على كل من الجثتين انتفاخ في البطن وبقع على الجلد لكنهما كانتا بحالة جيدة.
حك رابك ووقف إلى جانبي.
قلت وأنا أناوله الصورة: "لا بد أن صندوق الماء لم يكن يعمل، فلو كان يعمل لكانت الحرارة قد عجلت التحلل كثيراً"
"لا نظن أنهم كانوا يستخدمون ذلك المبنى"
"ماذا كانوا يفعلون إذاً؟"
هزّ كتفيه.
عدت إلى الصور التالية.
كان الرجل والمرأة يرتديان ملابسهما، بالرغم من أنهما حافيان، وكانا قد ذُبحا من عنقيهما، والغرق القدم ملابسهما، وانتفخ الظلام للمفتوحين من النايلون. كان الرجل مسنّاً، وإحدى يديه مرتفعة إلى الخلف. واستطعت رؤية شقوق عميقة في راحة كفه، جروح دفاعية. إذ يبدو أنه قد حاول الدفاع عن نفسه، أو عن امرأته.

آه يا الله. لحقت عينيّ الشفقة

في ما يخص الطفلين، كان العمل أبسط. فقد تم لفّهما بالنايلون، ووضعهما في كيس قمامة، ثم تكبيلهما حول الرأسين.

نظرت إلى الأجساد المصفوفة والمقابض البارزة. كان بوراند محقاً، لم تكن هناك جروح دفاعية على جسدي الطفلين. وشعرت بالأسى والغضب الشديد.

"أريد هذا الحقير". رفعت بصري إلى عيني رايان.

"نعم".

"أريدك أن تقبض عليه يا رايان. أعني ذلك. أريد هذا الشخص، قبل أن نرى طفلاً أحمر مُذبح. ما الفائدة التي نقدمها لأي شخص إذا لم نستطع إيقاف هذا المجرم؟"

حدّقت العينان الزرقاوان اللامعتان إليّ. "سننال منه يا برينان. لا شك في ذلك."

أمضيت ما تبقى من اليوم وأنا أستقل المصعد متنقلة ما بين مكتبي وغرفة التشريح. كان الأمر سيتطلب على الأقل يومين للانتهاء من ذلك؛ لأن لاماناش كان يشرّح الضحايا الأربع. هذا إجراء معتمد في جرائم القتل التي تمس أكثر من ضحية. إذ عمل متخصص واحد في علم الأمراض يمنح القضية ترابطاً، ويحمي المالك الشهادة إذا وصلت إلى المحكمة.

عندما ألقيت نظرة إلى الساعة كانت تشير إلى الواحدة. كان ماتياس قد أعيد إلى برّاد المشرحة، وكان تشريح الطفل الثاني جارياً على قدم وساق. كان المشهد الذي أتممته في الصباح يتكرر مجدداً، مع اختلاف أحجامهم وفي التكاك نفسه. ولكن مع ضحية أخرى تصبح سوار تعمل [illegible]

وبحلول الساعة الرابعة والنصف تم إغلاق بطن ملاس، وإعادة وجهه كما كان. وبالرغم من الشقين التشريحيين والتشوه في صدريهما، إلا أن الطفلين كانا جاهزين للدفن، مع أننا لم نكن نعرف أن أي منهم ذلك، أو من سيقوم به.

كان رايان وبرتراند قد أمضيا اليوم أيضاً وهما يحللان ويبحثان. أصبحت بصمات قدمي كلا الطفلين، لكنّ لو وضعاً على سجلات ولادة استحقل حالت دون ترابطها. ولم يكن رايان متفائلاً بشأنها.

كانت العظام في البطن والحوض تمثّل ما يزيد على 25 بالمئة من الهيكل العظمي. يوجد لدى الراشد سبع وعشرون عظمة في كل يد ولدى الطفل هذا القدر، وفقاً لعمره. كنت أحدّق إلى صور الأشعة السينية، لأرى العظام الموجودة وإلى أي حدٍّ تشكّلت. وفقاً للتقديرات، كان عمر ماتياس وملاخي نحو أربعة شهور عندما لقيا حتفهما.

لم تقدّم هذه المعلومات لوسائل الإعلام. ولكن، بالنسبة لبعض المحققين، لم تكن هناك مفاجأة كبيرة. كانت أفضل آمالنا مبنيّة على عظام الراشدين في التأكد كـذا والتضمين معنى أنه عند التعرّف إلى هوية الراشدين، سنتمكّن من معرفة هوية الطفلين اللذين بقيا معروفين مؤقتاً بالرضيعين: الطفل ملاخي والطفل ماتياس.

8

يوم الجمعة لم أرَ رايان أو برترام. وأمضيت اليوم بكامله في الأساس مع جثث الراشدين من صاف - جوجايب. صوّرتُ أضلاع الطفلين بلنداه ضمن فواوير وحمحية في القبر عسر الأسحف بد أن الشقوق أو تغلموس عليها ستكون صغيرة جداً ولا أريدها أن تتأذى من الصقيع أو الكشط. ولم يكن في مقدوري المخاطرة بإحداث آلام نتيجة لتحصيني جبصاً أو مقصّات. هذا كل ما استطعت فعله هو تغيير الماء بشكل دوري ونزع الفحم.

كنت سعيدة بفتور مؤقت في مستوى النشاط، لأستفيد من الوقت في إنهاء تقريري عن إبراهيث ميكوبيه التي وجدته بإنقاذه في جثث اليوم. ونظراً إلى أني كنت سأعود إلى تشارلوت يوم الأحد، فقد خصصت لفحص الأضلاع في عطلة نهاية الأسبوع. عندها لم يطرأ أمر بعد كل لنا في مقدوري الانتهاء من كل ما يجب إنجازه قبل الأحد ولم يكن ضمن المكالمة التي تلقيتها عند الساعة العاشرة والنصف.

"أنا سعيدة حقاً جداً للاتصال بك على هذا النحو د. برينان" كانت المتحدثة تتكلم ببطء بلغة إنكليزية وتختار كل كلمة بعناية.

"أحسنت جوليان، يسرني سماع صوتك"

"أرجوك، أحضر في الكلمات"

"الكلمات؟" قلبت القصاصات الوردية على مكتبي. كنت أعرف أنها ستعود للاتصال بي يوم الأربعاء بكوني ... أن تتابع حديثنا السابق. كانت هناك قصاصتان تحويان عليهما اسمها ورقمها.

"أنــا مــن يجــب أن يعــتذر. كنت مشغولة طوال يوم الأربعاء ولم أتفقد رسائلي. آسفة"

لم تجب.

"أنا أكتب التقرير الآن".

"لا، لا، ليس ذلك. أعني، نعم ذلك مهم جداً، وكلنا مشغولون."

تــردّدت، واســتطعت تخيّل حاجبيها الداكنين يرتفعان من عبوس حبيبها؛ إذ كانت الأحداث حولها، تبدو قلقة دائماً.

"أشعر أني حمقاء تماماً، لكني لا أعرف أحداً آخر أتجه إليه. لقد تضرعت إلى الله بالطبع، وأعرف أن الله يسمعني، لكني أشعر أني يجب أن أفعل شيئاً. ضرب عمي لعملي لكن، حسنٌ لدي أمره في الذهاب أيضاً." كانت تصرخ كلماتها بدقة، وتشكّلها كما يشكّل الحار الصغير.

توقفت عن الكلام وقتاً طويلاً، وانتظرتُ أن تتكلم.

"إن الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم".

"نعم"

"الأمــر متعلق بابنة شقيقي، آنا ميريب. إنها الفتاة التي تكلمت عنها يوم الأربعاء".

"ابنة شقيقتك؟". لم أستطع تذكّر أي من محادثتنا تلك

"إنها ابنة شقيقي"

"فهمت"

"إنها... لا أعرف مكانها"

"هه - آه"

"إنها ابنة بارة يمكن الاعتماد عليها، ولا تبيت أبداً خارج المنزل من دون أن تتصل"

"هه - آه". كنت قد بدأت أفهم المغزى.

أخبرتُ، ببطء. "لم تعد آنا إلى المنزل في الليلة الماضية، وشقيقي ... طلب منها أن تتضرّع بالطبع لكن، حسنٌ". تلاشى صوتها.

لم أكن أعرف ما أقول. لم يكن ذلك هو الموضوع الذي توقعت أن تتناوله المحادثة

ابنة شقيقتك مفقودة؟".

"نعم"

"إذا كنت قلقة، فربما يجب أن تتصلي بالشرطة"

"اتصلت شقيقتي بهم مرتين، وأخبروها أنه لن يتم التحقيق بشخص بمثل عمر آن لأن سياساتهم تقتضي أن ينتظروا من أربع وعشرين إلى اثنتين وسبعين ساعة"

"كم عمر ابنة شقيقتك؟"

"آن في الخامسة عشرة"

"هل هي الابنة التي تدرس في مكتبي؟"

"نعم". بدا صوتها متوتراً جداً

"لعنة، ليس هناك حقاً...".

سمعتها تجمع نفسها عبر الهاتف "أعرف، أعرف، وأعتذر عن إزعاجك د. برنان" خرجت كلماتها من بين أنفاس تلتقطها بصعوبة وكأنها مصابة بحازوقة "أعرف أنك مشغولة لمعرفة ذلك. لكنّ شقيقتي مصابة بهستيريا ولا أعرف ماذا أفعل. لقد فقدت زوجها قبل سنتين ومنذ الآن أن آن كل ما لديها. تتصل كل نصف ساعة، وتصرّ على أن أساعدها في العثور على ابنتها. أعرف أن هذا ليس عملك، ولم أكن لأتصل بك قط، ما لم أكن أشعر باليأس. لقد تضرعت، لكن، آه."

فزعت عندما سمعتها تجهش بالبكاء ونشيجها يطمس كلماتها. انتظرت وذهني مشوش. ماذا يجب أن أقول؟

ثم خمد النشيج، وسمعت صوت منديل تسحب من علبة ثم صوت تنظيف أنف.

"أنا... أنا... سامحيني رجاءً" كان صوتها يرتجف.

لم يكن إسداء النصائح إحدى نقاط قوتي. أحقق مع أولئك المقرّبين مني، أشعر بارتباك واضطراب لدى مواجهة العواطف، فأنا أركز على النواحي العملية.

"هل حاولت أنا هي ترسل من قبل؟".

"لا، ليس ذلك. تكبي وتشقى لا. تواصل دائماً كما يجب" كانت قد هدأت نوعاً ما وتنتقي كلماتها بحرص.

"هل تعاني من مشاكل في الدراسة؟".

"لا أظن ذلك".

"مع أصدقاء؟ حبيب ربما؟".

"لا أعرف".

"هل لاحظت أي تحولات في سلوكها مؤخراً؟".

"ماذا تعنين؟"

"هــل تغيّرت عاداتها الغذائية؟ هل تنام أكثر أو أقل من المعتاد؟ هل أصبحت أقل تواصلاً مع الآخرين؟"

"أنــ... أنــا آسفة. منذ التحقت بالجامعة لم أعد أراها كما اعتدت من قبل".

"هل تحضر دروسها؟".

"لســت واثقة من ذلك". تلاشى صوتها مع آخر كلمة، وبدا أنها متهالكة تماماً.

"هل علاقتكما أنت ووالدتها جيدة؟".

أطلق الصمت وقتاً طويلاً جداً.

"هناك الكثير للحديث لكني أعرف أنها تحب والدتها"

وحدتها

"أعتــقد، ربما كانت ابنة شقيقتك بحاجة إلى فسحة بعض الوقت بمفردها. أنا واثقة من أنك إذا انتظرت يوماً أو اثنين فإنها ستظهر أو تتصل"

"نعم أظن أنك محقة. لكني أشعر بأسى شديد على موضوع. إنها حرية جداً، ولا يمكنني فقدانها. ولكن أظن أنني إذا قلت ما إن الشرطة تتولى الأمر، فربما ستطمئن"

سمعت صوت منديل آخر يُسحب، وخشيت من عودة بكاء جديد.

"سأجري مكالمة. لست واثقة إن كانت ستجدي نفعاً، لكني سأحاول"

شــكرتني وأنهــت المكالمة للحظة. جلست هناك أقلب هاتفي في يدي، فكّرت في إبلاغه لكن مكميل تقع على حدود مونتريال. إذاً لا بد من الاتصال بقسم شرطة مدينــة مونتــريال. سحبت نفساً عميقاً، واتصلت بالرقم. عندما أجابت موظفة الاستقبال، قلت: "السيد شاربونو، من فضلك"

"لحظة من فضلك"

بعد قليل، قالت إن شاربونو ليس موجوداً بعد الظهر

"هل تريدين السيد كلوديل؟"

"نعم" وكأنني أريد جرعة حشيش مثلاً.

قال الصوت الآلي "كلوديل"

"سيد كلوديل، أنا تمب برنان".

بينما كنت أصغي إلى السكون، تخيلت أنف كلوديل المعقوف، ووجهه البيضاوي الذي ينظر إلى هاتفه باستنكار. كنت أستمتع بالحديث إلى هذا المحقق مستخفاً بالشرطي. ولكن، نظراً إلى أنني لا أتعامل مع قضايا تعاونية ملحة، فلم أكلّف نفسي أن أعرف أحب أعرّ لأسأله. كنت وكلوديل قد عملنا على قضايا تتعلق بشرطة مدينة مونتريال من قبل، وقد أبدى صحة صحو تجوي؛ لهذا كنت آمل أن يصغي على الأقل إلى من أيام

"نعم؟"

"سيد كلوديل، لديّ طلب غريب. أدرك أن هذا ليس من –".

"ما الأمر د. برنان؟" حظاً، كان كلوديل واحداً من أشخاص قلائل يجعلهم حمل اللغة الفرنسية يبدو باردة.

"تلقيت للتو مكالمة من امرأة قلقة على ابنة شقيقتها. الفتاة طالبة في مكفيل، ولم تعد إلى المنزل الليلة الماضية. كنت أتساءل –"

"يجب أن يتقدموا بشكوى عن اختفاء شخص"

"قيل للأم إنه لا يمكن فعل شيء قبل مضي ثمانٍ وأربعين إلى ... ساعة"

"العمر؟"

"عمرها تسعة عشر عاماً"

"الاسم؟".

"آنا جويت"

"هل تعيش في المدينة الجامعية؟"

"لا أعرف. لا أظن ذلك. أعتقد أنها تعيش مع الأم"

"هل حضرت مرسيدها يوم أمس؟"

"لا أعرف."

"أين شوهدت آخر مرة؟"

"لا أعرف."

توقف قليلاً عن الكلام، ثم قال "لا تعرفين أشياء كثيرة، كما يبدو لك لا تكون هذه قضية تخص قسم شرطة مدينة مونتريال. وفي هذه المرحلة هي بالتأكيد ليست قضية جنائية" كان في مقدوري تخيله وهو يمرر يديه على شعره أعلى وجهه متوتراً من تلك صوره.

"نعم، أود ببساطة أن أعرف عن ممكني الاتصال" قلت ذلك أسهو كان يحسن أشعر بأنني غير مستحقة مما يحسبني بالتوتر القلقة على قواعدي، فكما هو معتاد، لم يُحرج كلوديل أقصى ما عندي، خاصة عندما كان انتقاده أسلوبي يحمل شيئاً من الصحة.

"حرّرني فلسوولين عن ملفقودين".

أصغيت إلى نغمة انتظار هاتفي.

كانت لا تزال غاضبة عندما رنّ الهاتف مجدداً.

صرخت: "د. برنان".

"هل التوقيت غير مناسب؟". كانت الإنكليزية الجنوبية الرقيقة تتناقض بشكل صارخ مع فرنسية كلوديل الحادة.

"د. هيتوت؟".

"تعب نادتني دوري وحالة"

"اعذريني من فضلك يا دوري. أنا كنا نومي صعب. ماذا يمكنني أن أسمعك؟"

"حسن، لقد عثرت على بعض المواد تلزمه للاهتمام بخصوص ميكول. أكره أن أبعثها إليك مع أحدهم لأن بعض المواد قديمة وهشة على الأرجح. هل يمكنك المجيء لأخذها؟".

نظرت إلى ساعتي، فكانت تشير إلى ما بعد الحادية عشرة. تبّاً، لم لا؟ عندما أصبح في الحرم الجامعي يمكنني السؤال عن أناه وسيكون لدي على الأقل شيء أقوله للأخت جوليانا.

"يمكنني المجيء بعد الظهر. هل سيكون ذلك مناسباً؟"
"سيكون ذلك رائعاً".

عندما وصلت باكراً، وجدت الباب مفتوحاً، ولم يكن يوجد في المكتب سوى شابة ترتب مجلات على الرفوف. تساءلت إن كانت الكومة نفسها التي كانت مساعدة جيبسون رتبتها يوم الأربعاء.

"مرحباً. أبحث عن د. جيبسون"

استدارت الشابة، فلمع قرطاها الكبيران وعكسا الضوء. كانت عريضة القامة، ربما ست أقدام، وكان شعرها داكناً وقصيراً جداً.

"تسللت إلى الأسفل قليلاً. هل لديك موعد؟".

"جئت مبكرة قليلاً. لا مشكلة"

كان المكتب دافئاً، وتعجبت من الفوضى كما كانت الحال خلال زيارتي الأولى. خلعت معطفي، ووضعت قفازي داخل جيبي، فأشارت الشابة إلى مشجب خشبي علقت عليه سترتي. وراقبتني الشابة من دون أن تنبس ببنت شفة.

قلت وأنا أشير إلى كومة على الطاولة "لديها فعلاً الكثير من المجلات"

"أظن أنني أصبحت خبيرة في تصنيف هذه الأشياء" ومدّت يديها ووضعت مجلة على رف فوق رأسها.

"الطول مفيد، كما أظن"

"مفيد في بعض الأمور"

"التقيت مساعدة د. جيبسون يوم الأربعاء وكانت تعيد ترتيب الرفوف أيضاً"

"نعم - نعم". التقطت الشابة مجلة أخرى ونظرت إلى الغلاف.

قلت "أنا د. برينان"

وضعت المجلة على رف بمستوى العينين.

قلت بلطف: "وأنت...؟"

قالت من دون أن تستدير: "ساندي أوريلي". تساءلت إن كانت ملاحظتي عن الطول قد جرحت مشاعرها.

"تشرّفت بمعرفتك يا ساندي. بعد أن غادرت يوم الأربعاء أدركت أني لم أسأل الصحفية الأخرى عن اسمها"

هزّت كتفيها. "أنا واثقة أن آنا لم تكترث للشك".

هزّني الاسم بقوة. لا يمكن أن أكون محظوظة إلى هذا الحد

سألت: "آنا؟ آنا جريت؟".

"نعم". ثم استدارت لتواجهني. "أتعرفينها؟"

"لا، ليس حقاً. فقريبة إحدى معارفي طالبة عندكم وهي مفقودة الأسبوع وأتساءل إن كانت الشخص نفسه. هل هي هنا اليوم؟"

"لا. أظن أنها مريضة، وهذا سبب أعمل هنا. لا أكون موجودة أيام الجمعة، لكنّ آنا لم تستطع المجيء، لهذا طلبت د. جيفورث مني أن أحل محلها اليوم"

"مريضة؟".

"نعم، كما أظن. في الواقع، لا أعرف. كل ما أعرفه هو أنها غائبة. بصراحةً لا بأس بذلك إذ يمكنني الاستفادة من ذلك"

"بصدق؟"

"حسنٌ. نعم، تغيب كثيراً في الآونة الأخيرة، وأنا أحل مكانها عادة. فالمال الإضافي جميل، لكنّ ذلك لا يساعدني على كتابة أطروحتي". أطلقت ضحكة قصيرة لكنني شعرت بالانزعاج في صوتها

"هل تعاني آنا من مشاكل صحية؟"

أمالت ساندي رأسها ونظرت إلي. "لماذا أنت شديدة الاهتمام بآنا؟".

"لست كذلك حقاً. أنا هنا لأحصل على بعض الأبحاث من د. جيفورث لكني صديقة عائلة آنا، وأعرف أن أفراد أسرتها قلقون لأنهم لم يروها منذ صباح الأمس"

هزّت رأسها، ومدّت يدها فأمسكت بصحيفة أخرى.

"يجب أن لا يقلقوا بشأن آنا. إنها غريبة الأطوار"

"غريبة الأطوار؟"

وضعت مجلة على الرف، ثم استدارت لتواجهني، واستقر بصرها عليّ لوقت طويل وهي تتأملني

"أنت صديقة الأسرة؟"

"نعم" نوعاً ما.

"ألست خائفة أو مرتاعة أو شيئاً من هذا القبيل؟"

"أنا متخصصة علم الإنسان" كان ما قالته صحيحاً، بالرغم من أنه ليس دقيقاً تماماً لكنه صورة مرغوبة عنه (متخصصة سوكيا بعلم الإنسان ومؤلفة) أو حتى عوال (متخصصة بعلم الإنسان) قد يكون أكثر رحبا "أسأل فقط لأن الناس بيني هذا الصباح، ثم عندما تبين أننا نتكلم عن الشخص نفسه..."

احتازت مستندي الغرفة، ونظرت إلى الرواق، ثم استندت إلى الجدار إلى جانب الباب مباشرة. كان من الواضح أن طوله لا يحرجها، إذ كانت ترفع رأسها عالياً وتتحرك بخطوات واسعة وبهيبة.

"لا أريد صوتي أي شيء قد يكلف آنا عملها، أو يكلفني عملي. لو أجبر لن تخبري أحداً من أين سمعت هذا، خاصة د. سيموت. إنها لا تحب أن أتكلم عن إحدى طالباتها"

"أعدك بذلك".

سحبت نفساً عميقاً "أظن أن آنا في ورطة وبحاجة إلى مساعدة. ولا يتعلق الأمر فقط بحوزي مكانها في العمل. كنت وآنا صديقتين، أو على الأقل خرجنا معاً كثيراً في السنة الماضية. ثم تغيرت، وابتعدت عني. كنت أفكر في الاتصال بالشرطة منذ بعض الوقت، إذ يجب أن يعرف أحدهم ما يجري"

ابتعدت رفيقها، ونقلت ثقل جسمها إلى القدم الأخرى.

"تمضي آنا نصف وقتها في مركز تقديم الاستشارات لأنها تعيسة جداً، ولا تأكل، وعندما تظهر تبدو وكأنها قد فقدت كل إحساس بالحياة، وتبقى هنا طوال الوقت، وتبدو مقتنعاً مذعورة، وكأنها تستعد لتعبر عن حصر"

توقفت. وتسمّرت بصرها على عيني ثم قالت. "أتعتقدين صديقة أن آنا متورطة في شيء ما".

"نعم؟"

"ليست لدي أدنى فكرة إن كان هذا صحيحاً، أو إن كان يجب أن أقول ما سمعته فليس من عادتي أن أنقل الأقاويل. ولكن إذا كانت آنا تعاني مشكلة فلن أسامح نفسي أبداً إذا التزمت الصمت"

انتظرته.

"وإذا كان ذلك صحيحاً فقد يكون في خطر."

"ما الذي تظنين أن أنا متورطة فيه؟"

"يبدو ذلك غريباً حقاً" هزّت رأسها ونقر القرطان على كتفيها. "أعني، سمعوني عن تلك الأشياء، لكن الأمر لا يخص أبداً شخصاً حرفياً"

ابتلعت ريقها بشدة، ونظرت من فوق كتفها إلى خارج الباب.

"أخبرني صديقي أن أنسا انضمت إلى عصابة من دوري الاعتقادات غير القويمة. لا أعرف إنها."

ولدى سماعها طقطقة ألواح الأرضية الخشبية، عادت مقعدي إلى الطرف الآخر من المكتب، وأمسكت بحفنة مجلات، وتظاهرت بترتيب الرفوف عندما ظهرت دوري عبوس عند الباب.

9

قالت ديبري وهي تبتسم بحرارة. "آسفة جداً. يبدو أنني أجعلتك تنتظرين طويلاً. هل تعرفت ومساعدي على بعضكما؟" كانت تسريحة شعرها على حالها.

"نعم، لقد تعارفنا. كنا نتكلم عن مباهج ترتيب الرفوف."

"أتطلب منهم عادةً القيام بذلك الأمر كثيراً: التصوير ووضع مجلات على الرفوف؛ عمل ممل جداً، أعرف. إذ إنّ مقداراً كبيراً من الأبحاث الحقيقية مملّ جداً، ولكنّ طلابي ومساعديّ صبورون جداً معي."

أدارت ابتسامتها نحو مساعدي الذي انسحب بهدوء للحظة، ثم عاد إلى الطلاب. دُهشت من الاختلاف الكبير الذي تتعامل به ديبري مع هذه الطالبة مقارنة بما كنت قد رأيته مع آنا.

"الآن دعيني أريكِ ما كنت قد عثرت عليه. أظن أنكِ ستحبين ذلك" وأومأت نحو أريكة.

جلسنا جنباً. رفعت كومة من المواد عن طاولة نحاسية صغيرة إلى جانبها ونظرت إلى الأسفل على مطبوعة من صفحتين. كانت إحدى جهتيها مشطورة عند الأعلى بخط أبيض.

"هذه عناوين كتب عن كيمياء في القرن التاسع عشر. أنا واثقة أنكِ ستجدين معلومات عن أسرة نيكول في العديد منها."

ناولتني إياها، فالتمست نظره على اللائحة لكنّ ذهني لم يكن مشغولاً بالتوابيت بيكون.

"وهـذا الكـتـاب عن وباء الجدري في العام 1815. ربما يحتوي على بعض المعلومات عن إلرابيث أو عملها. ولكن لم يمسك بشيء فسيمنحك إحساساً بالبؤس وحجم المعاناة في تلك الأيام"

كـان الكتاب حديثاً وبحالة ممتازة، وكأن أحداً لم يقرأه من قبل. قلّبت بعض صفحات، لكنني لم أرَ شيئاً. ما الذي كانت ساندي على وشك أن تقوله؟

"لكـني أظـن أنك ستحبين هذه على وجه الخصوص" ناولتني ثلاثة كتب قديمة، ثم مالت إلى الخلف والابتسامة لا تفارق شفتيها. كانت تراقبني بعناية

كانت الأغلفة رمادية، مع تجعيد وزركشة حرفية الطراز. الحبر خفيف، فتحت الكـتـاب الموجود في الأعلى وقلّبت صفحات عدة. كانت رائحته عفنة، مثل شيء بقي سنوات في قبو أو خزنة. لم يكن دفتراً، وإنما مفكرة كتب عليها بخط يد واضح وأنيق. ألقيت نظرة على أول تاريخ. 1 كانون الثاني 1844 ثم انتقلت إلى الأخير 23 كانون الثاني 1846

"كتبها لويس، عليب بلانتمار، خال إلرابيث. فمن المعروف أنه كان جامع مجلات استثنائية، حدا تفقدت قسم الوثائق النادرة، نسيت على عمل. هناك سكمل بالتأكيد جزءاً من المجموعة، ولا أعرف مكان باقي المجلات، أو إن كانت موجودة. ولكـن، بمكـر أن أحاول اكتشاف ذلك. كان يجب أن أرهق نفسي للحصول عليها" ضحكت. "استعرت المجلات التي يعود تاريخها إلى مدة ولادة إلرابيث وطفولتها المبكرة"

قلّبت، وقد نسيت المكتلة أنا حريت. "هذا لعشق من أن يكون حقيقياً. لا أعرف ما يجب أن أقوله".

"قولي إنك ستهتمين بها"

"هل يمكنني حمل بعضها معي؟"

"نعم أثق بك، وأثق أنك ستدرسين البعض وستعاملين معها وفقاً لذلك"

"فيزي، أنا مندهشة. هذا أكثر مما كنت آمل"

رفعت يد لتوحي، ثم أعادتها بسرعة إلى حضرها. للحظة، لم تتكلم أي منا لم أكن أطيق صبر للخروج من هناك وتصفح المجلات. ثم تذكرت ابنة شقيقة الأخت جويانه وكلمات ساندي

"ديزي، أتساءل إن كان في مقدوري أن أطرح عليك سؤالاً عن آنا جوبت"

"نعم" كانت لا تزال تبتسم، لكن عينيها اعتراهما القلق.

"كما تعرفين تعمل مع الأخت جوبات، خالة آنا".

"لم أكن أعرف أنهما قريبتان"

"نعم، أخبرتني الأخت جوليان البارحة أن آنا لم تعد إلى المنزل منذ صباح الأمس، ووالدتها قلقة جداً"

في أثناء حديثنا كنت أراقب حركات ساندي في أثناء تصفيفها الملابس ووضعها إياها على الرفوف. كان الصمت قد أطبق أثقاله على الطرف الآخر من الغرفة، ولاحظت جيبوت ذلك أيضاً.

"ساندي، لابد أنك متعبة جداً. يمكنك الذهاب الآن للاستراحة قليلاً"

"أنا فقط ـ".

"الآن، من فضلك"

انتقلت عينا ساندي نحوي عندما كانت تتجاوزني لتخرج من باب المكتب، لم يكن من الممكن تفسير تعبير وجهها.

تابعت جيبوت: "آنا شابة ذكية جداً، وبالرغم من أنها عصبية قليلاً، إلا أنها شخص فطن. أنا واثقة أنها بخير" اعتقاد راسخ.

"تقول خالتها إنه ليس من شيم آنا أن تتغيب عن منزلها هكذا"

"آنا بحاجة على الأرجح إلى بعض الوقت لتفكر. أعرف أنها كانت على خلاف مع والدتها مؤخراً، ربما كانت تريد الابتعاد بنفسها عدة أيام"

كانت ساندي قد أشارت لي أن جيبوت تخفي خلافاً. هل كان ذلك ما تراه؟ هل كانت الأستاذة تعرف شيئاً لا تقوله؟

"أظن أنني متوجسة أكثر مما ينبغي. في عملي أرى الكثير من الشابات اللواتي لسن على ما يرام"

نظرت جيبوت إلى الأسفل إلى يديها وتنحنحت، بقيت ساكنة من دون حراك، ثم مع الابتسامة نفسها قالت: "تحاول آنا جوبت إبعاد نفسها عن تأثير وضع لا يُحتمل في منزلها. هذا كل ما يمكنني قوله، لكني أؤكد لك أنها بخير وسعيدة".

لماذا هي واثقة إلى هذا الحد؟ هل أصدّقها؟ وهبّت الفكرة في منعها لأرى ردة فعلها.

"ميري، أعرف أن هذا يبدو غريباً. لكنني سمعت أن آنا متورطة مع مجموعة ذات معتقدات غير تقليدية".

اعترضت الابتسامة. "كم أسألك من أين جئت بتلك المعلومة، لأن ذلك لا يعجبني". هزّت رأسها. "منحرفون بالأعمال، جنة مضطربون عقلياً، متعصبون فاسدون أخلاقياً، مثل الشرير الذي يدسّ الزرنيخ في الحلوى التي يعطيها للأطفال في الهالوين".

"لكنّ تلك المخاطر قائمة فعلاً" رفعت حاجبيّ متسائلة.

"هل هي كذلك؟ أو أنها مجرد أساطير حضرية؟ أوهام للفزع المرضي؟"

"أوهام؟" تساءلت عن سر اهتمام آنا بذلك.

"تعبير يستخدمه المختصون بالفلكلور ليصفوا كيف يعالج الناس مخاوفهم بأساطير شعبية. إنها طريقة لتفسير تجارب محيّرة".

أشعرها وجهي بحيرة مشوّشة.

"توجد في كل ثقافة قصص وأساطير شعبية تعبّر عن مخاوف شائعة. الخوف من الغيلان والغرباء والأجانب، والخوف من خسارة الأولاد. عندما يحدث شيء لا يمكن فهمه، يجد حكايات قديمة. كحكاية المشعوذة في اختطاف هانسل وغريتل (حكاية خرافية ألمانية)، والرجل الذي اختطف طفلاً كان يتجوّل في السوق. إنها طريقة لتفسير تجارب محيّرة بدون محكمة. ولهذا يسرد الناس قصصاً عن عمليات اختطاف من قبل كائنات فضائية، ومن رواياتهم أقفاص (رواية للفن الأمريكي)، وعن السم في الهالوين. يحدث هذا دائماً لصديق صديق، أو قريب، أو ابن عم".

"أليس لسمّهم حلوى الهالوين حقيقة؟"

"وجمع علماء اجتماع تقارير صحفية من الستينيات إلى الثمانينيات، ووجد أنه في ذلك الوقت لم تقع سوى حالتين وهاتان يمكن أن تكونا سمهما مدبّر من قبل أفراد في الأسرة. لا يمكن توثيق سوى بضع حوادث أخرى، لكنّ الأسطورة تكبر لأنها تعبّر عن مخاوف حقيقية بخسارة الأطفال، الخوف من الغير، ومن الغرباء".

تركتها تتابع كلامها، وانتظرت إشارة إلى آنا

"لقد بحثت عن الخرافات المتكاملة؟ يحب متخصصو علم الإنسان مناقشة تلك الأمور".

استمتعت بما أتذكره من حلقة بحث دراسية عن هدم الأساطير

"إنه اليوم على الأخص، وخصوصاً تجد كيف هذه مشاكل معقّدة"

"بالضبط. يكون كبش الفداء عادة غرباء، مجموعات عرقية، أو إثنية، أو دينية لجعل حياة الآخرين مضطربة. اتّهم الرومان النصارى الأوائل بسفاح القربى والتضحية بالأطفال. ولاحقاً اتّهمت الطوائف النصرانية بعضها بعضاً، ثم أشار النصارى بالأصبع نفسها إلى اليهود. مات الآلاف بسبب تلك المعتقدات. تذكّري محاكمة الساحرات. ولا يقتصر الأمر على الأحداث القديمة فقط، فبعد ثورة الطلاب في فرنسا في أواخر الستينيات اتّهم أصحاب المتاجر اليهود باختطاف فتيات مراهقات من غرف تبديل الملابس في المتاجر"

لم أكن أتذكر ذلك بوضوح.

"أتصوره. طال الأمر المهاجرين الأتراك والقادمين من شمال إفريقيا. قبل سنوات عدّة ادّعت بعض الأسر الفرنسية أن أطفالاً تعرضوا للاختطاف والقتل، وأنه تم نزع أعضائهم بالرغم من أنه في الواقع لم يتقدم أحد بشكوى عن اختفاء أطفال في فرنسا.

تملكت الحيرة ستيفن، وحدق عابساً في مونتريال. يوجد الآن قول جديد بقتل الأطفال في طقوس غريبة". انحنت إلى الأمام، وانتصب عنقها، وهمست تقريباً بالكلمة الأخيرة "عفاريت".

كانت مفعمة بالحيوية والنشاط على نحو لم أره من قبل، حطت كلماتها صورة تتشكل في ذهني، صورة ملاحي وهو مستلق على الفراش.

"تعجبت كيف ليس أمراً مضحكاً، حقاً. تزداد حدّة نفوس الناس في أوقات التعثر الاجتماعي، وفي نهاية الألفية. لكنّ الخطر القادم الآن هو من جماعة المعتقدات غير الشرعية".

"ألم تتذكر هوليوود الكثير من ذلك؟"

"ليس عمداً بالطبع. لكنها أسهمت في ذلك بالتأكيد. تريد هوليوود إنتاج أفلام ناجحة تجارياً. لكنّ ذلك سؤال قديم جداً: هل يشكّل الفن الجمهور أم

بمكسيكا فقط؟ حقل روزماري، التلال الصخرية (أفلام)، ما الذي تعلمه هذه الأفلام؟ توضّح أسباب قلق اجتماعية عن الاستفادة من صور عن قوة، والجمهور يرى ويسمع".

"لكن أليس ذلك جزءاً من اهتمام متزايد بالسحر الروحي في الثقافة الأمريكية خلال العقود الثلاثة الماضية؟".

"طبعاً. وما هي الشرعة الأخرى التي ظهرت مع تلك الأمور؟"

شعرت أني أخضع لامتحان. فما علاقة كل هذا بأنا؟ هززت رأسي.

"ازدياد شعبية النصرانية الأصولية. إنّ للاقتصاد علاقة وثيقة بذلك، بالطبع. كما أنّ البطالة، والانحلال العائلي، وانخفاض الدخل، والفقر، وعدم الاستقرار الاقتصادي عوامل مهمة جداً. لكنّ ذلك ليس المصدر الوحيد للقلق. إذ يشعر الناس من كل المستويات الاقتصادية بالقلق نظراً لتغير المعايير الاجتماعية. فلقد تغيرت العلاقات بين الرجال والنساء، ضمن الأسر، وبين الأجيال"

نقرت بأطراف أصابعي على بعضها.

"التفسيرات العلمانية تنهار والجماعات لم تتطور بعد. تحُل المذاهب الأصولية سلواناً عبر تقديمها إجابات بسيطة عن أسئلة معقدة"

ومن خوف مسبق إنذار ارتعشت، ثم صوتها وضحكه، ما جعلني أفزع.

"ديهندا هل هذا أنت؟".

لم أكن قد سمعت صوتاً

فقال صوت خافت. "نعم يا سيدتي"

وظهر شخص طويل عند الباب. كان وجهه متوارياً تحت قلنسوة البركا التي ترتديها والشال الضخم الذي يلتف حول عنقه بهذا الشكل المضطرب مألوفاً قليلاً.

"اعذريني لحظة"

انسحبت جيسوب ثم انعطفت عبر الباب. لم أسمع سوى القليل من حديثهما، لكنّ الرجل بدا غاضباً جداً، وكان صوته يعلو وينخفض مثل طفل يتذمر. قاطعته جيسوب مرات عدّة، وتكلمت بجمل قصيرة وسريعة. كانت نبرة صوتها ثابتة في حين أنّ صوته كانت تتخلله تعابير استعصى تمييز كلمة واحدة. "لا" كرّرتها مرات عدّة، ثم أطبق الصمت. بعد لحظة، عادت جيسوب، لكنها لم تجلس.

قالت وهي تضحك وتهزّ رأسها: "طلاب".

"تخمين آخر. نحتاج إلى المزيد من الوقت لإنجاز عرضه."

"لا شيء يستحق لمسة" نظرت إلى ساعتها. "إذاً عجب، آمل أن تكوني قد استمتعت من الزيارة ستحين بالذكريات؟ إنها نسمة حقاً" كانت تطلب مني الانصراف.

"طبعاً سأحضر يوم الاثنين على أبعد تقدير" وقفت، ووضعت مواد سينوت في حضني، ثم أمسكت بمعطفي ومعطفي.

وابتسمت لي عندما كنت أخرج من الغرفة

في الشتاء ستصبح سماء مونتريال بتموجات متعددة من اللون الرمادي، وتتحول من الفاتح إلى الحديدي فالرصاصي ثم إلى لون الزنك. عندما خرجت من قاعة بوكس كانت سحب داكنة قد حولت السماء إلى لون قصديري باهت.

لففت معطفي وحقيبة أوراقي على كتفي، ووضعت يديّ في جيبيّ وسرت صعود التل حيث كانت الريح الرطبة تصفعني. وقبل أن أمشي عشرين خطوة، ملأت الدموع عينيّ، مما جعل الرؤية صعبة. في أثناء سيري، خطرت في ذهني صورة جزيرة قريب (قبالة ولاية كارولينا الجنوبية)، ونخيل البلميط (قصير ومروحي السعف)، وضوء الشمس يتلألأ على الماء.

توقفي عن ذلك يا برينان. آذار عاصف ويترد في العديد من أصقاع الأرض. توقفي عن استخدام كارولينا كأساس لمقارنة الطقس في أنحاء العالم. قد يكون الأمر أسوأ، فيتساقط الثلج. وعند ذلك، ستضرب أول كتلة كبيرة على وجنتي.

عندما فتحت باب السيارة، وصب بصري فرأيت شاباً طويلاً يتنقل إليّ من الطرف البعيد من الشارع. وعرفت الباركا والشال. كان الشخص المدعو هايد، رالف جينوت الخميس.

تلاقت نظراتنا لحظة، ولاحظت الغضب العارم في عينيه. ثم، ومن دون أن ينبس بكلمة، استدار الطالب وحثّ الخطى مبتعداً عني. ركبت السيارة متوترة، وأوصدت الأبواب كلها لأنه مشكلة جينوت وليس مشكلتي.

في طريق عودتي إلى المحور، فكّرت في ما كنت قد سمعته. ركّزت على الأمور العالقة، وقلقت بشأن الأشياء التي لم يتم إنجازها. أين كانت آنا؟ هل يمكن لعيد الميلاد أن يتعدى بشأن تحدي المجموعات التنبيه على محمل الجد؟ هل كانت جيسون محقة؟ هل كانت المجموعات ذات الاهتمامات غير القويمة أكثر قليلاً من سواد شبابية؟ لماذا لم أطلب من جيسون أن توضح ملاحظتها حين قالت إنّ آنا ماهمات؟ كانت محادثتنا قد اتخذت مساراً رائعاً إلى درجة أنني نسيت طرح أسئلة أخرى عن آنا. هل كان ذلك منصفاً؟ هل كانت جيسون تخفي شيئاً؟ إذا كان الأمر كذلك فماذا كانت تخفي ولماذا؟ هل كانت الأستاذة تقوم فقط بحماية طالبتها من غرباء يسيرون تحركهم في مسألة شخصية؟ ما الموضوع الذي لا يُقال في المنزل في ما يخص آنا؟ لماذا كان سلوك جيهيد يبدو غريباً جداً؟

كيف سأتمكّن من الانتهاء من تحرّكات بحلول يوم الاثنين؟ كانت رحلتي عند الخامسة من بعد الظهر. هل يمكنني إعداد تقرير مكتوب اليوم، وإعداد تقريري الطقسي غداً، والعمل على التحرّكات الأحد؟ لا عجب أنه لم يكن لديّ حياة اجتماعية.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى شارع باوتنه (ممر التغيرات العجيب الشرجي في كيبك)، كان الثلج الذي يتساقط من دون توقف قد بدأ تراكم على الأرض. وجدت مساحة أركن فيها سيارتي قرب الباب، وتضرّعت إلى الله كي لا أجد الثلج قد غمر سيارتي حينما أعود.

كان الجو في الردهة حاراً وتفوح منه رائحة صوف. ضربت حذائي بالأرض، وأسهمت في زيادة بركة الثلج الذائب قرب الباب والوحلة التي تنتشر هنالك. ثم اتجهت عبر السلم. خلال عملية الصعود حاولت إزالة مستحضر التجميل عن جفنيّ السفليين.

كانت هنالك ورقتان وردية اللون موضوعتان على مكتبي. كانت الأخت جوليان قد اتصلت، ولا بد أنها تريد تقريري عن آنا وغوليت، ولم أكن مستعدة لتزويدها بأي منهما. أما الأخرى فكانت من رايان.

طلبت الرقم فرد رايان.

"نهار طويل".

نظرت إلى ساعتي وكانت تشير إلى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة
"يتصلون بي بالساعة. ما الأخبار؟".

"عرفنا أخيراً مالك المنزل في سانت - جوفيت. إنه رجل اسمه جاك عيلان، من مدينة كيبك لكنه انتقل إلى جامايكا منذ سنوات. لا نعرف مكانه بعد. لكن جارة جامايكية تقول إن عيلان يؤجر منزل سانت - جوفيت لسيدة عجوز تدعى بالسيدة سيمونز. وهي تظن أن المستأجر مكسيكي، لكنها ليست واثقة من ذلك. وتقول كذلك إن عيلان يزوّد المستأجر بالسيارات أيضاً لكننا لا نزال ندقق في ذلك"

"صرنا نعرف الكثير"

"من الواضح أنهما كانتا مقرّبتين"

"الجثة المحترقة في القبو قد تكون سيمونز".

"ربما"

"حصلنا على صور أشعة سينية جيدة للأسنان خلال التشريح، ويعملون عليها".

"لقد أرسلنا الاسم إلى الشرطة الملكية الكندية. إنهم يعملون مع الإنتربول، وإذا كانت مكسيكية، فسيعثرون عليها"

"ماذا عن بقية الأغراض التي عثر عليها في المنزل الرئيسي، وحقائب الراشدين اللذين عثر عليهما مع الطفلين؟"

"نعمل على ذلك".

استغرق كلانا بالتفكير لحظة.

"مكان كبير جداً بالنسبة إلى سيدة عجوز"

"يبدو أنها لم تكن وحيدة هناك".

أمضيت الساعتين التاليتين في مختبر علم الأنسجة أشرح آخر الأنسجة من أضلاع الطفلين، وأتفحّصها تحت المجهر. وكما كنت أخشى، لم تكن هنالك آثار أو أنماط فريدة في العظم. ولم يكن في مقدوري قول شيء سوى أن القاتل قد استخدم سكيناً حادة جداً ذا نصل غير مُسنّن (منشاري). كان ذلك سيئاً للتحقيق، ومخيباً لي. إذ سيكون التقرير موجزاً

كنت قد عدت للتو إلى مكسيكي عندما اتصل رايان مجدداً

سأل: "ما رأيك بكأس شراب الشعير؟"

"لا أحتفظ بشراب شعير في مكسيكي يا رايان، هذا لطف منك مع ذلك"

"أنت لا تشربينه"

"إذن، لم تسألني عن رأيي بشراب الشعير؟"

"أسأل إذا كنت ترغبين في احتساء الشراب من دون كحول".

"لماذا؟"

"ألست إيرلندية يا برينان؟"

ألقيت نظرة على الروزنامة المعلقة على جدار مكسيكي. 17 آذار، إنها ذكرى بعض نعم إنجازاتي. لم أكن أرغب في أن أتذكر

"لا يمكنني القيام بذلك بعد الآن يا رايان"

"إنها طريقة الاحتفال المتوارثة"

"هل تطلب مني الخروج في موعد؟"

"نعم"

"معك؟"

"لا. مع رجل جن وحشي"

"ماذا! هل يتخلص من وعوده؟"

"برنان، هل ترغبين بالتالي لاحتساء شراب هذه المناسبة شراب خالٍ من الكحول؟"

"وإيابي أنا –"

"إنها ذكرى سانت باتريك. إنها ليلة أتحمسها والثلوج تتساقط بكثافة، هل لديك عرض أفضل؟".

في الواقع، لم يكن لديّ عرض أفضل. لم يكن لدي عروض أخرى. لكنني أتواصل مع رايان غالباً على القضايا جميعها، وقد اقترحت دائماً سياسة الفصل بين العمل والتسلية.

حسناً، صحيح. كنت متعبة وأعيش وحيدة منذ أكثر من سنتين، ولم تكن كانت السنتان مميزتين في ما يتعلق بصحبة الرجال.

"لا أظن أنها فكرة سديدة".

اطبق الصمت لبعض الوقت، ثم قال "طرأ أمر جديد يتعلق بسيدة ظهرت في بحث الإنترنت. ولدت في بروكس، وعاشت هناك إلى ما قبل السنتين الماضيتين، ولا تزال تدفع ضرائب على عقار في الريف. إنها امرأة عجوز وحيدة. فقدت عقب بين حبيب الأستاذ معه طوال حياتها. كان الرجل يدرس المهنة منذ العصر الحجري، ويحتفظ بكل شيء. إنهم يرسلون الوثائق عبر الفاكس، وإذا كان هناك تطابق، سنحصل على النسخ الأصلية"

"ما تاريخ ولادتها؟"

سمعت صوت ورقة تقلب.

"عام ألف وتسعمئة وثمانية عشر"

"ذلك معقول. والأسرة؟".

"نتحرى عنها"

"لماذا غادرت بلسيكا؟".

"ربما كانت بحاجة إلى تغيير المنظر. اسمعي، إذا قررت أنك متحمسة لذلك، سأكون في حجرتي بعد التاسعة. وإذا كان هناك فرصة، استخدمي اسمي"

جلست بعض الوقت أفكر في أسباب رفضي. كنت وريت قد توصلنا إلى اتفاق. نحن لا نزال نحب بعضنا، ولكن لا يمكننا العيش معاً. فبعد أن أصبحنا منفصلين، استطعنا مرة أخرى أن نصبح صديقين. لم تكن علاقتنا مبنية على هذا النحو منذ سنوات. لقد كان ريت يواعد، وكنت حرة لفعل الشيء نفسه. آه، يا ربي، مواعدة، تعيد الكلمة إلى ذهني صور حب الشباب والنشاطات.

لأكون صادقة، كنت أحد أمور رايان جذاباً جداً. فليس هناك بثور على وجهه، ولا يضع جهاز تقويم الأسنان. لكنني أجده أيضاً مزعجاً جداً، ولا يمكن توقع تصرفاته. لا، رايان مشكلة.

كنت أنهي تقريري عن ملاحظاتي وملاحظتي عندما رنّ الهاتف مجدداً. اللعنة حسنٌ يا رايان، لقد فزت.

أعلمني صوت حارس الأمن أن لديّ زائرة في ردهة الطابق الأرضي. نظرت إلى ساعتي فإذا بها تشير إلى الرابعة وعشرين دقيقة. من سيأتي في مثل هذا الوقت المتأخر؟ لا أتذكر أنني حددت أي موعد.

فسألت عن الاسم، وعندما أخبرني به، صفق صدري.

"آه، لا" لم أستطع كبح جماح نفسي

"هل هناك مشكلة؟".

"لا، ليس هناك مشكلة. أخبره أنني سأتصل على الفور"

لا مشكلة؟ من كنت أخدع؟

قلتها عمداً في الصحف.

آه، لا

10

"ماذا تفعلين هنا؟"

"حسنٌ، يمكنك إبداء السعادة لرؤيتي يا شقيقتي الكبيرة."

"آه، طبعاً. أنا سعيدة لرؤيتك طبعاً ولكنني مندهشة فقط." لن أكون أكثر ذهولاً حتى لو أعلن الحارس عن وصول ستيفي روزفلت.

تأففت. "لا يبدو ذلك صادراً من القلب."

كانت شيلبي تجلس في ردهة مبنى مديرية أمن كيبلك، وهي محاطة بأكياس تسوق من نيمان ماركوس (مصمم أزياء)، وبعلب مغلّفة بالقش من أشكال وأحجام مختلفة. كانت تنتعل حذاء رعاة بقر أحمر مرقّط بفضات ودوائر سوداء وبيضاء، وسروالي سترة مطابقة من اللون نفسه مع حاشية (الطرز على حافة الثوب). عندما وصلت رأيت جيشاً صغيراً يكفي لإشعال الثورة المكسيكية.

حانقتي مسرتي وهي تدرك تماماً - لكن غير متصابية أبداً - تأثيرها في الآخرين، خاصة في أولئك الذين يحملون صبغي الواي(*)

"يبدو الجو بارد حقاً هنا! أشعر ببرد يكفي لتجميد الشراب المكسيكي" دفعت كتفيها إلى الأمام، وضمّت ذراعيها حول قفصها الصدري.

"نعم". لم أفهم ما ترمي إليه.

"كان يفترض أن تحط طائرتي ظهراً، لكنّ الطقس الكثيف أخرنا. حسنٌ، ها أنذا يا شقيقتي الكبيرة."

(*) من المعلوم أن الجينات التي تحدد جنس الذكور والإناث تكون إما واي أو إكس.

حصحصت كتفيها ومدّت ذراعيها إلى الأمام، كما حمل حاملة السترة تحتزه
بست هنري قريبة من المكان على نحو سريالي. مدينة أماريلو(*) يكسوها الغدل
ست باتجاه الشجرة(**)

"حسنٌ، رائع. يا له من مفاجأة. حسنٌ، أنا - ما الذي جاء بك إلى مونتريال؟"

"سـأخبرك كل شيء عن الأمر. إنه رائع. عندما سمعت عنه لم أصدّق أذنيّ، أخي، إنه هنا في مونتريال"

"ما هذا الأمر عزيزتي؟".

"الحلقة الدراسية التي سأشارك فيها. أخبرتك عنها يا لمي، عندما اتصلت بك في عطلة الأسبوع الماضي. اشتركت في تلك الدورة التدريبية في تورنتو وأنا الآن أدرس هذه المادة. لم أكن متحمسة هكذا من قبل. لقد تجاوزت المستوى الأول، أخي، حسنـًا في الدورة. يستغرق الأمر من بعض الناس سنوات ليدركوا حقيقتهم وقد اختصرت ذلك في بضعة أسابيع. أخي، إنني أتعلم بعض استراتيجيات العلاج القوية، وأسيطر على حياتي. ولهذا عندما دعوني إلى ورشة عمل بمستوى الذي عليه، وهنا حيث نعيش شقيقي الكبير، حزمت حقائبي واتجهت حالاً"

أشرق وجه هنري بابتسامة عريضة، واتسعت عيناها الزرقاوان الصافيتان الخاليتان بكثير من مستحضرات التجميل.

"أنت هنا من أجل حضور ورشة عمل؟"

"بالضبط. كل النفقات مدفوعة. حسناء معظمها".

قلت وأنا آمل أن تكون الدورة قصيرة. "أريد سماع كل شيء عن ذلك" لم أكن واثقة إن كان بإمكانيّ كبتك وجدتي يمكن أن يتحملا بعضهما

قالت وهي تعيد صياغة تفكيرها الأولى، وتضيف معلومة صغيرة أخرى. "هذا الأمر رائع".

"لنصعد إلى الأعلى، وسأعد شيئـًا، أو تودّين الانتظار هنا؟"

"كـلاّ، لا. أريد رؤية المكان الذي تعمل فيه متخصصة البحث الرائعة. أختي أمامي"

(*) ...
(**) ...

قلت، وأنا أشير إلى الحارس عند مكتب الأمن: "يجب أن تلتقطي صورة من الهوية لتحصلي على بطاقة زيارة"

كان الحارس يراقب المشهد، وشبه ابتسامة مرتسمة على وجهه، ويكلم قبل أن تتمكن أي منا من القيام بأي خطوة.

"كنتاك؟" يرتد صوته عبر الردهة، ويتبادل نظرات مع حرّاس آخرين. ويبتسمون. كان واضحاً أن الجميع يعرفون أنه الآن أن هاري ضيفتي، ويجعلون الأمر صعباً مداً.

أشار الحارس باتجاه سريعة نحو المصعد.

تمتمت: "شكراً" ورمقته بنظرة عتاب.

تشدقت هاري، وهي تنظر إلى كل حارس بابتسامة عريضة: "شكراً"

جمعت أغراضها، وصعدنا إلى الطابق الخامس، حيث كدّست كل شيء في الردهة خارج مكتبي إذ كان من المستحيل وضعها في المدخل، ورفدت كمية ملابسها تلقي من سنة محتملة لإقامتها.

"آه، يبدو هذا لمكتب وكأن إعصاراً قد عصف به" وبالرغم من أن طولها لم يكن يتجاوز خمس أقدام وست بوصات وبالرغم من كونها نحيلة مثل عارضة أزياء، إلا أن هاري ملأت المكان الصغير.

"المكان بحاجة إلى بعض الترتيب الآن. دعيني أغلق الحاسوب وأتي بمعطفي، أشيائي ثم سنخرج من هنا"

"جيدي ولست فقط لست على عجلة من أمري. سأتحدث مع أصدقائك"

كانت تنظر من الأعلى إلى صف من المصابيح ورأسها مائل إلى الخلف، وأطراف شعرها تصل إلى الحاشية السفلية لسترتها. كان شعرها يبدو أطول أكثر مما أتذكر.

قالت للأول: "سلام، قررت أن تستطيع وأنت لا تزال على رأس عملك، أليس كذلك؟"

لم يسمعني سوى الابتسام، في حين لم يفعل صديقها التعبير ذلك. وبينما كانت هاري تنتظر بصعوبة الرد، أطفئ الحاسوب، وجمعت المفكرات والكتب التي أحتاجها من دون حيرة. وخططت للعودة باكراً في الصباح، وهذا لم أحط التقرير غير المنجزة.

تكلمت هـاري بن الجمجمة الرابعة: "إذاً، ما علاقتك في ما يتعلق بك؟ لا تكلمين؟ آه، أنت مثيرة حقاً عندما تكونين مكتئبة"
"إنها دائماً كذلك" كان أندرو رايان يقف عند الباب.
استدارت هاري، ونظرت إلى المحقق من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه بحذاء ثم التقت العينان الزرقاوان بالقميص الزرقاوي.
"في للعصب؟"
لم تكن ابتسامة شلبفي عرس الأمس شيئاً مقارنة بابتسامتها العريضة لرايان في تلك اللحظة، عرفت أن الكارثة واقعة لا محالة.
قلت وأنا أشدّ سحّاب حقيبة حاسوبي. "كنا على وشك الانصراف"
"حسن؟"
"حسنٌ ماذا يا رايان؟"
"رقعة من مطرح البطة؟"
"المحقق الجيد يلاحظ دائماً ما هو واضح"
قالت شقيقتي وهي تمدّ يدها: "هاريت لامور. أنا شقيقة تمب الصغرى". كالعادة، شدّدت على ترتيب الولادة.
تشابك رايان. "أدركت أنك لست من هذه الأنحاء". ارتفعت حاشية الشفرة كثيراً عندما تصافحا.
سألتُ مشكّكة: "لامور؟".
"هيوستن في تكساس. هل ذهبت إلى هناك من قبل؟"
كرّرت. "لامور؟ ماذا حدث لكرودن؟"
"تحسب مسرة أو شيء. إنها بلدة جميلة جداً" كان رايان لا يزال يبدو مثل برت ماغريك (مثل مسدس نظاري)
"أو داوود؟"
استرعى ذلك اهتمامها.
"لماذا سأعود إلى استخدام ذلك الاسم مجدداً؟ هل تتذكرين إستيبان؟ الإنسان الوحيد الذي تعرض للطرد لأنه كان غبياً جداً؟"
كان إستيبان داوود زوجها الثالث. ولم يكن في مقدوري تذكر وجهه.

"هل تحب وسترفيكر معلقتان الآن؟"

"لا. لكني اضطربت حقاً، وتقلّبت على ذلك الاسم السخيف. كرود (كهنوم)؟ بحق الله كيف أفكر؟ من يختار اسماً مثل كرود؟ أي اسم ذاك الذي ستسميه لمربيتك؟ سيدة كرود؟ القريب كرود؟ العمة كرود؟"

ابتسم رايان بين الحديث. "ليس سيئاً إن كنت كرود غريباً!"

قهقهت هاري. "صحيح لكني لا أريد أن أصبح أبداً العجوز كرود"

"انتهى الموضوع؟ سنخرج من هنا". صعدت بطني نحو سترتي

قال رايان. "يقول برطرود إن الأمر مؤكد"

ترقفت، ونظرت إليه. كان وجهه رزيناً

"سيمونيه؟"

أومأ.

"هل من معلومات عن ساكني الكهف وجثتنا في الأعلى؟".

"يظن برطرون أنهما على الأرجح أوروبيان أيضاً، أو على الأقل كبرت أسنانهما ووُضعت لها حشوات هناك. طلبنا من الإنتربول البحث في بصمتيهما نظراً لـ وضع سيمونيه. ولكن لم يتمخض عن ذلك شيء. ليس لدى السيدة العجوز اسرة لقد وصلنا إلى طريق مسدود. لم تحصل الشرطة الملكية الكندية على أي معلومات في كندا والأمر نفسه في ما يتعلق بالمركز الوطني لمعلومات الجريمة. لا يوجد تطابق في الولايات المتحدة".

"لا يزال علماء روحيتون صعب جداً هنا، وهذان الشخصان مقتولان بعد ووجود أي صلة أوروبية قد يفسّر ذلك".

"ربما"

"يقول لاسالاي إن الجثث في العلية مخدرتين كانت عالية من المنومات والكحول. أما سيمونيه فكانت مخنوقة بشدة ولا يمكن فحصها للتأكد من ذلك"

كان رايان يعرف ذلك. لكنني كنت أفكر في صوت عال

"بحق الله يا رايان، لقد مرّ أسبوع وليست لدينا أدنى فكرة عن هوية هؤلاء الأشخاص"

"نعم" وابتسم لهري التي كانت تسعى السمع. كان توقفهما قد بدأ يزعجني

"ألم تجد أي أدلة في المنزل؟"

"ربما تكونين قد سمعت عن الحادثة البسيطة التي وقعت على الجزيرة الغربية يوم الثلاثاء؟ فتح أفراد من دوك هاملتون (عصابة مراهقات ملونة) النار على اثنين من هيلسر الحمر (عصابة مراهقات ملونة)، في الأحمر على الدار بالكاد وقتلوا طفلاً من ماضيهم وأصابوا ثلاثة آخرين بجراح بليغة. لهذا كنت مشغولاً جداً".

"تلقت باتريس سيموريه رصاصة في الرأس."

"قتل عصابة المراهقات أيضاً طفلاً يبلغ عمره اثني عشر عاماً في طريقه لممارسة الركض".

"آه يا الله، حسناً، لا أظن أنك متباطئاً في عملك. ولكن، لا بد أن أحداً اتصل بهؤلاء الأشخاص بالتأكيد. نحن نتكلم عن أسرة بأكملها بالإضافة إلى شخصين آخرين. يجب أن يكون هناك شيء في ذلك المنزل يمكن أن يكون دليلاً".

"أمضيت وحدة استكشاف مسرح الجريمة سبعة وأربعين صندوقاً مليئة من هناك ونحن الآن نفحص ما يوجد فيها، لكننا لم نعثر على شيء بعد. لم نعثر على رسائل، أو صكوك أو صور، أو لوائح سوق، أو دفاتر عناوين. وتدفع سيموريه فواتير الحسابات والهاتف ورسم إيصال وقود التدفئة إليها مرة في السنة وتدفع نقداً. لا نكتشف العثور على أي شخص دخل المنزل منذ أن استأجرته سيموريه".

"ماذا عن ضرائب العقار؟".

"يسددها فيليب توريه بشيك مصدق صادر عن مصرف ستيكروب في بوروك".

سألت. "هل تم العثور على أي أسلحة؟"

"لا"

"يبدو أنه التحضر".

"نعم، وليس من المستبعد أن تكون العائلة قد دعت الأسرة."

"هل أجريت بحثاً عن الهوية؟"

"كان صعباً فلم يتم استخدام الطريقة بل هناك أيضاً"

"هل حصلت على سجلات الهاتف؟"

"إنها في طريقها إلينا"

"ماذا عن السيارة؟ أليست مسجلة؟"

"كلها تعليك، على عنوان سانت — جونفيث. يدفع ليماً لشركة التأمين من خلال حساب مصرفي"

"هل لدى سيمونه شهادة قيادة؟"

"نعم بمحكمة. والسجل خالٍ من المخالفات"

"بطاقة تأمين صحي؟"

"لا"

"أي شيء آخر؟"

"لم يظهر شيء بعد"

"من يعمل على صيانة السيارات؟".

"من الواضح أن سيمونه تأخذها إلى محطة في البلدة. الوصف مطابق، وتدفع نقداً"

"ولشرل؟ امرأة بمثل عمرها لا يمكن أن تقوم بإجراء إصلاحات بنفسها"

"من الواضح أن أشخاصاً آخرين كانوا يعيشون هناك. يقول الجيران إن الرشدي مع الطفلين كانوا هناك منذ بضعة شهور. ويقولون إنهم شاهدوا سيارات أخرى تتوقف أمام الشرل، وأحياناً بأعداد كبيرة"

"ربما كانت سيمونه تستقبل نزلاء"

استنار كلانا أنجو هاري.

"كعرفان ذلك. ربما كانت تؤجر غرفة"

تركتها وراياد يتابعان كلامهما

"يمكنكما تفقد الصحف بحثاً عن إعلانات، أو نشرات دار العبادة"

"لا يبدو أنها كانت من اللذين يرتادون دار العبادة باستمرار".

"ربما كانت تنظّم حلقة لتناول المشروبات مع عدد قليل للدهر طيلة، وهذا السبب لنصمت جميعاً. وليست هناك وثائق أو أي شيء من هذا القبيل" كانت عيناه منتهيتين إثارة، ومحب قدماً في ذلك "ربما كانت تختبئ هناك"

سألتُ: "من يختبئ هنا؟"

"ليس هناك شيء نعرفه عنه في أي مكان. تقوم الشرطة الملكية بالتحري عنه. كان الرجل منعزلاً، فلا أحد يعرف الكثير عنه".

"مثل السيدة العجوز"

حدّقت ريان إليها، رأيت تصميم هاري

رنّ هاتفه بنغمة حادة مشيراً إلى أن المخطوط قد تحولت بين المقدمة الأنيقة فألقى ريان نظرة خاطفة إلى ساعته.

"حسناً، آمل أن أراكما هذه الليلة" كان محركك قد عاد مجدداً

"في بالي على الأرجح يجب أن ألقي نظرة بيكول"

فتحت هاري فمها، ولكنها عندما رأت نظرتي، أطبقته

"شكراً على كل حال، ريان".

قال لهاري، "تشرّفت" ثم استدار واتجه نحو الردهة.

"ذلك رائع بقدر حسن المظهر"

"لا تضعيه في نطاق أهدافك يا هاري. تحظى كتابه الأسود الصغير بأرقام أكثر من دليل هاتف أوماها (مدينة في نبراسكا)"

"انظري فحسب يا عزيزتي. إن ذلك لا يزال مجانياً"

بالرغم من أنّ الساعة كانت لا تزال الخامسة فقط، إلا أننا خرجنا إلى عتمة حالكة. كانت السيارات ومصابيح الشارع تلقي بأضوائها عبر الثلج المتساقط، وكبت السيارات والمارة، الطرقات ثم انسحبت حفنة منهم في تنظيف المواقد والزجاج الأمامي. في حين كانت هاري تستحضر ميزات محطة الإذاعية. وعندما أنهيت ما أقوم به، كانت قد تم استقبال إذاعة فورموسة العامة لمحطة موسيقى روك عتيقة "هذا رائع جداً". غرّدت هاري من بعدها بهمس (إن هاري محبة كلاسيك).

قلت وأنا أغيّر ناقل الحركة من وضعية التوقف للأمام إلى الخلف لإبعاد الكاراج عن الطريق المكسو بالثلج. "إنها من كلاسيك وتحظى بشهرة واسعة منذ عدة سنوات"

"أتعني روك آند رول بالفرنسية. هذا رائع جداً"

"نعم". أصبحت المساحات الأماميتان على الطريق، وانضممت إلى حركة السير

أصمت هنري السمع إلى الأغنية، في حين كنا نشق طريقنا غرباً نحو سنتر فيل

"هل نفى عن رأسي بخر؟ رأسي الفكر حسي؟"

قلت وأنا أنعطف نحو هيمبر "تعجبني لعلني أنك تحب الرجل".

انطفى صوت مينسر عندما دخلنا ماس ميل – ملوي.

بعد عشر دقائق، فتحت باب شقتي وأرشدت هاري إلى غرفة النوم الإضافية، ثم ذهبت إلى المطبخ لأتفقّد ما يوجد لدي من طعام. ولأنني كنت قد عقدت العزم علــى الـتوجه إلى مـسـول لوكـلـر (سوق سنرلوعي في مونتريال) في عطلة نهاية الأسبوع، فلم يكن هناك الكثير. وعندما فتحت هنري بابي كنت أتفقّد ما يوجد داخل بالبرادة الصغيرة التي أدعوها حجرة الأطعمة.

"سأدعوك إلى العشاء خارج المنزل ما تحب"

"حقاً؟"

"في الواقــع، إنّ جمعيــة الكرة الماطبة ستدعوك إلى العشاء. فهم يدفعون كل نفقاتي. حسن، حتى الأكل ما يصل إلى عشرين دولاراً للعشاء في الليلة وستتكفل بطاقة هنري الائتمانية بالباقي"

كان هنري روحي الفاني، وعلى الأرجح مصدر كل ما هو موجود في آكيس ليمان ماركوس

"لماذا تدفع جمعية الكرة الماطبة تكاليف هذه الرحلة؟"

"لأنني أبيب حسناً في الواقع إنه اتفاق خاص". غمزني بطريقة مبالغ فيها، إذ فـتحت فمها، وحركت الجانب الأيمن من وجهها "إنهم لا يفعلون ذلك عادة، لكنهم أرادوا حقاً أن أمضي قدماً".

"حسن، إذا كنت واثقة. ماذا تحبين؟"

"الإثارة!"

"أعني بالنسبة إلى الطعام"

"أي شيء عدا الفطور"

فكّرت لحظة. "صينية؟"

"شوي لو بايوت (إيفانات للهنود الحمر في أميركا)؟"

صرخت هاري فرحاً فقد كانت تحب دائماً دعاباتنا

"بحسة الهند (مطعم هندي في مونتريال) يقع على بعد بضعة مبانٍ من هنا، وهم يقدّمون حورس (وجبة هندية) لذيذة"

"رائع، لا أظن أنني تناولت طعاماً هندياً من قبل، وأعرف أنني لم أتناول طعاماً فرنسياً قط على كل حال، لا أظن أنك تأكلين محروماً"

لم يكن لي وسعي سوى هز رأسي.

قالت هاري وهي تختار عدة حصلات طويلة لتتفحّص: "أبدو بحالة سيئة جداً، سأقوم ببعض التحويرات"

ذهبتُ إلى غرفة نومي والتقطتُ جيرارد ثم جلبتُ قلماً وورقة، واستندت إلى وسادته على سريري. فتحت المذكّرة الأولى ولاحظت تاريخ أول تدوين فيها هو 1 كانون الثاني 1844. اعترت أحد الكتبة، وقلّبت الصفحات إلى أن وصلت إلى الفصل الذي يتحدث عن إليزابيث بيكون وتوقفت من تاريخ ولادتها: 18 كانون الثاني 1846. كان عمّاها قد بدأ كتابة مذكّراته قبل عامين من ولادتها.

بالرغم من أن برمس – فيمب بلاشعار كان يكتب بيد قوية، إلا أن الزمن ترك بصماته على صفحته. كان الحبر متيأ بلهتاً، وفي بعض المواضع كانت الكلمات مشوّشة ولا يمكن قراءتها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الفرنسية قديمة وفيها تعابير غير مألوفة. بعد ثلاثين دقيقة أخذ رأسي يؤلمني ولم أكن قد سجّلت سوى بضع ملاحظات فقط.

استلقيت على ظهري، وأغلقت عينيّ. كان لا يزال في منظوري صوت الماء يجري في الحمّام. كنت متعبة ومشتتة، وكانت هزيمتي محبطة. لن أستطيع إنهاء ذلك خلال يومين. وكان من الأفضل لو أمضي بضع ساعات عند آلة النسخ، ثم أعمل على المذكّرات في وقت فراغي. لم يكن جيمس قد ذكر شيئاً عن موعد تسليم المادة. وربما كان ذلك أفضل للمواد الأصلية، كما فكّرت.

لم أكن مضطرة إلى العثور على أجوبة فوراً. إذ لا يحتاج تقريري إلى شرح، رأيت ما رأيته في المظلم. كنت سأصيغ تقريراً عن النتائج التي توصلت إليها، وأترك الأبحاث العلميات بعض النظريات، أو يطرح من الأسئلة

وربما لست مهمة الأمر وربما لي مصطفى من إلي لي يوحي على الأرجح بالنسيان، لم سيحصل حدث؟ هل سيؤثر ذلك في علاقتي بين الملتيكات؟ لم يكن في وسعي مساعدتي في حدث. كنت واثقة من أنني محقة بشأن إيرانيت، لكن لم يكن في مقدوري أن أتخيل ما يحبه ذلك.

11

بعد ساعتين، أيقظتني هدري من النوم. كانت قد أخذت حمامها وجففت شعرها، وفعلت كل ما كانت تتطلبه عملية التعبير. ارتدينا ملابسنا وخرجنا من المنزل، وشققنا طريقنا إلى مسرح سانت كاثرين. كان تساقط الثلج قد توقف، لكنّ طبقة منه كانت تغطي كل شيء، وتخفف قليلاً من ضجيج المدينة. كانت الإشارات الطرقية والأشجار وصناديق البريد والسيارات المركونة تعتمر كلها قبعات بيضاء رفيعة.

لم يكن المطعم مزدحماً فجلسنا مباشرة. وبعد أن طلبنا الطعام، سألتها عن ورشة العمل.

"إنها رائعة. لقد تعلّمت طرائق جديدة تماماً في التفكير والسلوك. لا أعني سحب بالطبع عرقاً من برج ما، ولا أتكلم عن عرض مواد أو قطع كريستال أو تلك الأشياء المضحكة. بل أعني أنني تعلمت كيف أتحكم بحياتي".

"كيف؟".

"كيف؟".

"كيف؟".

"العلم هس دي، وأمرّ بمرحلة تصيير جو وقعته روحانية. أعطي بسكينة داخلية تعمر الصحة والعلاج الكلي (فلسفة تقول إن الكل أكبر من مجموع الأجزاء)".

"يقظة روحانية؟"

"لا تستطيع فهمي يا أمي. هذا ليس شيئاً حديثاً مثل عطلات الكريسماس في الوطن. فليس للأمر علاقة بمضايقة الزوار بأصوات هيستيرية، وبالسير على نحو مستقيم عبر أكسفة الذهب وما بين ذلك"

"كيف يختلف هنا؟"

"الأمر كله يتعلق بالإضاءة والتنهيدة وقهوة وضحك كأنها، ووضع نفسك تحت تصرف سول لتبوؤك بالعناية والاهتمام. لم تقبل تلك الفكرة من الأصوات، كما أن ثمانية وثلاثين عاماً من حياتي لم تُعطني لتغيير رأيي"

كنت وهاري قد أمضيا أيام طفولتك المبكرة في مدارس كاثوليكية

"هذا يتعلق باحتمالي نفسي". تُشارب بإصبع مصبوغ أظافرها بل صبرها

"كيف؟"

"كيف، هل تحاولين أن تسخري مني؟"

"لا. أود أن أعرف كيف يفعل المرء ذلك"

"إنها مسألة تتعلق بفهم عقلك وجسدك، ثم تطهير جسدك"

"هاري، لا أسمع منك سوى رطانة. كيف تحقق ذلك؟"

"حسنٌ، تتناولين طعاماً صحياً وتحسين، كما ينبغي. هل لاحظت أنني تركت عن شراب الشعير؟ ذلك النوع من التطهير".

"هل دفعت مالاً كثيراً لهذه الحلقة الدراسية؟"

"قلت لك إنهم يكلفون بعضاً، واشتروا لي تذكرة الطائرة؟".

"ماذا حدث في هيوستن؟"

"حسنٌ، بعضها بالطبع دفعت بعض الرسوم. يجب أن يحصلوا على شيء، إنهم أشخاص يمتلكون حقاً".

وصل صاحبنا في تلك اللحظة. كنت قد طلبت جورما شاي، في حين طلب هاري عصيراً بالكاري وأرزاً

"كاري؟" أشارت إلى طبقها "لن يكون هناك المزيد من اللحوم، لقد تخلصت من حاجتي إليها"

"أين وجدت هذه الدورة الدراسية؟"

"في كلية ماونتن هاريس الشمالية"

بعد ذلك منطقياً.

"من سيقلني هنا؟"

"طبعاً، تستمر الحلقة الدراسية خمسة أيام، سأحضرك كل شيء عندما سأكمل حتماً. سأعود إلى المنزل كل ليلة وأحضرك مما حصلته بالضبط. لا بأس بأن أقيم مسكنه أليس كذلك؟"

"طبعاً، أنا سعيدة جداً برؤيتك هاري، والحزن خوفاً حقيقة ما تنوي به. نكسي سأغادر إلى شارلوت "الاثنين" لأخرجت من جيب الخلفي المفاتيح الإضافية التي أحتفظ بها هناك، وأعطيتها إياه. "أهلاً وسهلاً بك، ويمكنك البقاء طالما كنت بحاجة إلى المكان"

قالت وهي تميل إلى الأمام وتشير بإصبع نحوي. "لا حفلات صاخبة لدي سيدة تراقب المنزل".

أجبت "نعم سيدتي" وكما كانت حلوة الطفولة. أقبّل قدم دعمات أسرته. أعطتني بابتسامة هاري الرائعة ووضعت المفاتيح في جيب بنطاله الجينز.

"شكراً. الآن، يكفي حديثاً عني دعيني أخبرك بما يجري كيت فعله"

وخلال بضع ساعة تكلمنا عن آخر خطط من شميتي. كان كريستوفر كيب هاورد ابنها من زوجها الثاني قد بلغ لتوه الثامنة عشرة من العمر، وحصل على مبلغ كبير من المال من والده، لذا فقد اشترى مركباً شراعياً يبلغ طوله ثماني وأربعين قدماً ويقوم بتصليحه. لم تكن هاري واثقة مما سيفعله به.

"أتسمعين بتحدد كيف حصل هوي على اسمه؟" كنت أعرف القصة، لكني أحب مداعبة منها

"تخلى والده هوي عنه بعد ولادته، وكان والده قد هجرها قبل ذلك. تركه على درج منزل في بيسك في تكساس مع ملاحظة مثبتة ببطانيته تفيد بأنها ملفوف، وأن اسم الطفل هاورد. لم يكن المسؤولون عن الميتم واثقين ما إذا كانت الأم تشير إلى اسمه الأول أو اسم أسرته، ولهذا لم يجازفوا، وسموه باسم هاورد هاورد"

"ماذا يعمل هوي الآن؟"

"لا يزال يعمل في حقل النفط ويطارد كل فتاة في غرب تكساس، لكنه كريم معي ومع كيت".

عندما انتهينا من تناول الطعام ورفع النادل الأطباق، طلبت القهوة بلا سكر فقط لأن المشهيات تتعارض مع حمية تطهير هاري الدائمة.

جلست صامتتين بعض الوقت، ثم قالت: "إذاً، أي بريد وحي الهجر ذاك أن يأتي بك؟"

توقفت عن تحريك قهوتي، وبحثت ذهني عن صلة بما تقوله؛ رباه، عمَّ تتكلّم؟

"المرطب صاحب القوام الجميل"

"رايانه سيذهب بل مكانك بعيني هولي. اليوم هو ذكرى صداقته بنا –"

"تبّاً، صحيح". أصبح وجهها وردياً. "أشعر بأننا نحن لا نملك مشاركة في الاحتفال بهذا اليوم حقاً، بأي طريقة نستطيعها"

"هاري، لقد كان يوماً –"

"حسب، لكن لولا صلحت بأنويك لكانت الأغاني قد التهمت أسلافنا ولما كان لنا وجود"

"لا تقول –"

"والآن، في وقت يشهد فيه الشعب الإيرلندي تحولاً مهماً –".

"ذلك ليس بيت القصيد وتعرفين هذا"

"كم تبعد هولي عن هنا؟"

"بضعة أميال".

"من دون مزاح" مطّت شفتيها ورفعت كتفيها إلى الأعلى. "لنذهب إلى هناك، ونستمع إلى بعض الأغنيات، ونغادر المكان. لسنا ملتزمتين بالسهرة في دار الأوبرا"

"لقد سمعت ذلك من قبل".

"لا، أعدك. عندما ترغبين، سنخرج من هناك. هيه، لقد استيقظت باكراً أيضاً"

لم تقنعني تلك الحجة، إذ كانت هاري من النوع الذي يستطيع بضعة أيام من دون نوم.

"حسب، يجب أن تبذلي جهداً في ما يتعلق بحياتك الاجتماعية"

أقنعتني تلك الحجة.

"حسنٌ، لكن"

"مرحى، أدعو الصاحبين المباركين لحقوقك أيتها المزعجة"

وبينما كانت تلوح عنداً للفاتورة، شعرت بغصة في صدري. إذ مضى وقت كنت أحسب فيه مشارب الإبرسمية، أو المشارب من أي نوع كانت. و لم أكن أرغب في أن أفتح ذلك الباب، و لم تكن لدي النية الآن علاقة جديدة.

اتهمتني بما برنانه ما الذي تخاف منه؟ فقد مضيت بك هولي من قبل و لم تتلمسي باحتساء شراب الشعير. صحيح. لماذا التحمّر إذاً؟

تحدث هاري بلطف في أثناء سيرنا عبر شارع سانت كاترين وصولاً إلى شارع الهلال. عند الساعة التاسعة والنصف كانت حركة المرور التي تمتد على رصيف ملتاثة كثيفة، والأزواج والأفراد يختلطون بالمتسوقين والسائحين، وكان الجميع يرتدون معاطف ثمينة، ويعتمرون قبعات، ويضعون شالات. بدا الناس مُتعباً وضعافاً، مثل شخوصات منفخة ومربوطة في الشتاء.

كان ممرٌ من الهلال بعد منعرج سانت كاترين هو أشبه شارع الأحلام، وتصطف على جانبيه مشارب صغيرة ومطاعم أنيقة: مقهى هارد روك، تورونتو، السيرو وسيتون سترتيل في الصيف، تكتظ الشرفات بمتفرجين يرتشفون المشروبات ويشاهدون المراقص في الأسفل. أما في الشتاء فينتقل النشاط إلى الداخل

قلة من الناس، ما عدا أولئك الذين يصعدون إلى حيوي بانتظام، يرتادون شارع الهلال بصدد شارع سانت كاترين، بمناسبة يوم ذكرى مقتل بالإرنك عندما وصلناه كان الصف يمتد من سلم المدخل إلى الدرج وينتهي عند منتصف الطريق إلى الزاوية

"آه، آسفةٌ يا هاري. لا أريد الوقوف في الخارج حتى التجمّد" و لم أكن أرغب في ذكر عرض رايان.

"لا تعرفين أحداً يعمل هنا؟"

"لا أبي لي حد بالمطعم"

اندمجنا إلى الطابور، ووقفنا صامتين، ولمس هاري أقدامنا لنبقى دافئين، ذكّرتني حركة الأقدام في لاك ممفرماغوغ، ما جعلني أفكّر في شريج سكرول عبر النهر، والمكرّمات على طاولات الجانب، والتقرير عن الطفلين الميتين، والمقتوف

التي يجب أن أدرسها في تشارلوت الأسبوع القادم، وورقة عمل كنت أعتزم تقديمها في اجتماع علم الإنسان الطبيعي. شعرت أنني أفقد الإحساس بوجودي من هذه الهوة. كيف سمحت لهاري أن يكلّمني عن هذه المواضيع؟

كان خروج الرجال من المشرب عمداً عند الساعة العاشرة مساءً بعد خمس عشرة دقيقة كما لو تقدمت ساعة النحو.

قالت هاري: "أشعر أنني في إحدى تلك الجواري التي يحتشد فيها أمرء. هل أنت واثقة أنك لا تعرفين أحداً في الماضي؟"

"تساءل رايمان إن في مقدوري استخدام اسمه إذا كان هناك ازدحام." كانت مستوى الضوضاء التي أعتقد هنا تعرض لاختبار تقني شبيه اختصاص درجة حرارة جسمي.

"يا شقيقتي الكبيرة، ما الذي تفكرين فيه؟" لم تكن هاري بعد حريصاً في استغلال أي فرصة سانحة.

مشت على طول الرصيف وانعطفت في مقدمة الصف، وبعد خطوات رأيتها تمسك بقبعة جانبية، وإلى جانبها تقف ضخم مجسم تابع لنادي كرة القدم الوطني الإسرائيلي. كان كلاهما يلوّح لي. تحاشيت النظر إلى عيون أولئك الذين بقوا في الصف، وأسرعت للتحقق على الدرج ودخلت المبنى.

بحث هاري وحارسها عبر مساحة من الغرف تشكّل مشرب هولي الإيرلندي. كان كل كرسي، وطاولة ومقعد مشرب، وبوصة مربعة من الأرضية مكتظة بمرتدي الأخضر وكلف اللافتات وطراز لعبي من مشروبات باس وغينيس، وكيلكيني كريم. وكانت رائحة شراب الشعير تفوح في المكان، والدخان كثيفاً بما يكفي لحجب الرؤية.

حسب محادثة حضوره صخرية، بين طاولات وكراسي خشبية وبراميل مطمورة وأعمدوا حول ساحة ومشرب خاص. كان مستوى الصوت يتجاوز ذلك المسموح به على مدرج مطار.

وبينما كنت أسير حول المشرب الرئيسي رأيت رايان جالساً على مقعد خشبي مرتفع خارج غرفة خلفية. كان يسند ظهره إلى جدار آجري، ويضع إحدى قدميه على واحدة للقدم السفلية في حين امتدت ساقه الأخرى على

مقعـدين فـارغين إلى جنبه، وكانت تحيط برأسه شعة مربعة من الآجر، مؤطرة بخشب أخضر منقوش.

عبـر الصالة، رأيت ثلاثة أشخاص يعزفون على الكمان والصوت والتنبولي (آلـة شـبيهة بالعـود). كانت الطاولات تصطف في محيط الغرفة، وكان خمسة راقصين يلبون فرحاً في مساحة صغيرة جداً في الوسط. كانت ثلاث نساء يرقصن الجيج (رقصة سريعة مفعمة بالحيوية)، أما الشابان فكانا يتبادلان ضحب من قدم إلى أخـرى، ويـرمقان شراب الشعير من أي شيء ضمن دائرة نصف قطرها خمس أقدام ولم يكن يبدو أن أحداً يهتم بذلك.

هاتفـ هـاري لاحب كرة القدم الذي أمضي بعد ذلك بين الحشود، فيما تساءلت كيف استطاع رايان بقاء مقعدين شاغرين، ولكنني لم أستطع تحديد ما إذا كانت ثقته بنفسه تزعجني أو تسعدني.

قـال رايان عندما رآنا "حسنٌ، لستما تلبسين. أنا مسرور لأنكما جئتما أيتها الجميلتان. اجلسا واستمتعا" وكان يصرخ كي نستطيع سماعه.

أسند رايان عقب قدمه الأخرى على أحد المقعدين الشاغرين، وسحب نحوه وربت على الوسادة. ومن دون تردد خطفت هاري سرقتها، ورمتها على المقعد وجلست صرخت: "بشرط واحد"

رفع حاجبيه وركّز عينيه الزرقاوين عليّ

"ألا تتكلم بالموضوع نفسه".

"دعـك لطيف مثل الحلوى على حصى في ربة هبتي" تكلم رايان بصوت عالٍ اختلطت معه أوهامه.

"لعني ذلك يا رايان" لن يكون في مقدوري أبداً تحمل ذلك.

"حسنٌ، حسنٌ، اجلسي"

تحركت نحو المقعد الأخير.

"وسأشتري لك شراباً غازياً، ماما"

صرخت هاري باستهجان.

شـعرت بأنني أفتح فمي. ثم انحنى رايان ووضع سحاب سترتي، ووضعها على المقعد فجلست

لـــوّح رايان لنادلة، وطلب ويسكي لنفسه وكولا حمية لي. وفجأة، شعرت بالاكتئاب. هل يمكن توقع تصرفاتي إلى ذلك الحد؟

نظر إلى هاري.

"سأطلب الشراب نفسه"

"كولا للحمية؟".

"لا، المشروب الأحمر"

ابتعدت النادلة.

صرخت في أذن هاري: "ماذا عن التطهير؟"

"ماذا؟"

"التطهير؟".

"زجاجة شراب شعير واحدة لن تقتلني يا حب. أنا لست متشددة"

ونظــراً إلى أن المحادثة كانت تتطلب صراخاً، ركّزت على الفرقة. كنت قد ترعرعت وأنا أستمع إلى الموسيقى الإيرلندية، وستحضر الأغاني القديمة دائماً ذكريات الطفولة إلى ذهني: مسرح محلي، السيدات العجائز، اللهجة الإيرلندية، لعب الورق، السرير الذي يمكن طيه، داني كاي (كوميدي ومغني أميركي) على التلفاز بالأبيض والأسود، النوم في أثناء الاستماع إلى أسطوانات جون هاري (مغني أميركي). أظن أن تلك الموسيقى كانت صاخبة قليلاً بالنسبة إلى ذوقي حتى. كان هناك تصميم مبالغ فيه للصوت.

بـــدأ المطرب الرئيس يغني عن فرسان غجري. كنت أعرف الأغنية وشعب أروي. كـــان أعضاء الفرقة يصفقون بأيديهم خمس مرات متقطعة. بام! بام! بام! بام! بام! وصمت الناس مع التصفيق الأخير.

تحـــدّث هـــاري ورايان مع بعضهما، وضاعت كلماتهما في الضوضاء، فيما ارتشفت مشروبي وحدقت حولي. عالياً على الجدار، رأيت صفاً من الدروع الخشبية المنقوشة، ورموز لأسر قديمة. أو كانت عشائر؟ نظرت إلى واحدة تدعى برنان، لكنّ المكان كان معتماً ومملوءاً بالدخان ولم أستطع قراءتها. كرون؟ لا.

شرعت الفرقة في عزف مقطوعة موسيقية كانت حتى سمعتها، وكانت هي شابة تربط شعرها بشريط مخملي أسود.

نظـرت ياسمـان إلى مجموعة من الصور الموضوعة في أطر بمضاويه الشكل، وكانت لرجال ونساء يرتدون أفضل ملابسهم. متى تم التقاطها عام 1890؟ 1910؟ يجب تلك الوجوه كثيبة مثل تلك الموجودة في ماهة موكتبي. ربما لم تكن البالغات الحالية مريحة.

كانـت سـاعتان حماربتان تشيران إلى الوقت في دبلن ومونتريال: العاشرة والنصف. تفقّدت ساعتي، سبع.

بعـد أداء عدّة ندار لعب هاري تساعي جلوكيها بكلت درعيها "كاف تبدو مثل حكم يشير إلى هدفاً في مباراة. وكان رايان يرفع كوبه الفارغ.

هروب واسع. تكلم رايان إلى هاري، ثم وضع بصبعين حول رأسه

هل تمي هذا كما فكّرت.

عندما بدأت الفرقة تعزف موسيقى رقصة شعبية، لاحظت أن رايان يشير إلى الأنماء الذي دعننا منه. سرلت هاري عن مقعدها واختفت بين ملاشف. إنما تنعم في رنديتها بالسير القصير. لم أكن أريد التفكير في المدة التي ستمضيها بالانتظار؛ علم مساواة أخرى على أساس دهنس.

وضع ريـان سترة هاري وجلس على مقعدها، ووضع السترة حيث كانا يجلس ثم انتهى مقترباً مني وصرخ في أذني.

"هل أنت واثقة من أنكما من الأم نفسها؟"

"والأب" كانـت والحجة رايـان تشبه شيئاً مثل رائحة الشراب وبودرة الأطفال

"منذ متى تعيش في تكساس؟".

"تسـعة عشر عاماً". استعدرت وحلكت إلى قطع الثلج في الكولا في كأسها كان ريان كل الحق في التكلم مع هاري. وكان يحاول أطراف حديث مستمجلاً حتى كل حال، إن هذا مضايقت؟

"من أنا حيث تلك؟"

"ماذا؟"

"مس آسـا جويـ؟" توقفت الفرقة عندما كان رايان قد وصل إلى منتصف الجملة ودوّى الاسم في الهدوء النسبي.

"يا إلهي يا رايان، ألا تأخذ استراحة؟"

"نحن متوترون قليلاً الليلة. الكثير من الكاثوليك؟". ابتسم جيك إليه

"هذا ليس جيداً في عمرك".

"إنه ليس جيداً في أي عمر. كيف عرفت بشأن "ما حدث؟"

أحضرت السادة المشروبات، واجتمعت زمرة مناضلة عريضة مدنيا تلعل شقيقتي مع أعز الناس لديها، فتجمع لها النقود وحصرها

وقـال بعد أن وضع إحدى زجاجتي شراب الشعير على المقعد فوق سترة هاري "صحتك ليست جيدة"

"سأعمل على ذلك. كيف عرفت بشأن ما حدث؟"

"التقيت بكلوديل من أجل قضية المراهقين تلك، وتكلمنا عن الأمر"

"ماذا تفعل ذلك بحق السماء؟"

"هو سائقي".

لم يكن في مقدوري فهم كلوديل قط، فهو يتعلق ثم يناقش مكالماتي الهاتفية مع رايان

"إنّه من هي؟".

"أنا طالبة في مكغيل، طلبت مني عائلتها أن أعثر عليها. إنها ليست قضية عرضاً (أعظم جريمة قتل في التوزيع الأميركي)"

"يقول كلوديل إنها شابة مثيرة جداً للاهتمام"

"ماذا يعني ذلك بحق السماء".

اختارت هاري تلك اللحظة لتنضم إلينا مجدداً

"هيه يا راعي البقر الصغير، إذا أراد أحدكما قضاء حاجته يجب عليه أن يخطط لذلك مسبقاً".

انصرفت بقية الأماكن وجلست على المقعد إلى يسار رايان، وكأنها كانت بانتظار تلك الإشارة في حين بدأت الفرقة تعزف من جديد في الركن. عادت هاري وصفّقت حين اقترب رجل يعتمر قبعة محلّقة بريشات ويرتدي حمّالة بنطال خصره، وأمسكها من يدها، فضرب عن المقعد وسحبها إلى الغرفة الخلفية حيث

كـان شابان يقومان مرة أخرى بتصعيد حركات عائم المشوش. كان يطلي شريك هنري كبوا ووجهه متعصباً ودائرياً، والتفت الا تنقل الرجل.

نظـرت إلى ساعتي التي كانـت تشير إلى الحادية عشرة وأربعين دقيقة. كانت عيناي تؤلماني من الدخان وحلقي مجروحاً من الصراخ.

كنت أستمتع بوقتي، وأردت تناول الشراب.

"اسمع، أعدني من فضلك. عندما يصعد جنجر روجرز (راقصة وممثلة أمريكية) في حلبة الرقص سنخرج من هنا"

"أتمنى ما تطلبينه يا حلوة. لقد أمضيت ثلاثة عشر سنة في ندوة الأوبرا"

"يا بني يا ريان، لقد جئت إلى هنا من قبل".

"للاستماع إلى الفلكلور؟"

"لا" كنت قد تدربت في شبابي. أحب الفولكلور الإيرلندي.

راقبت هنري تثب وتتأرجح وشعرها الأحمر الطويل يطير حولها. وكان المسيح يرافقها. وبعد مضي بعض الوقت صرخت في أذن ريان. "هل يعرف كلوديل مكان آنا؟".

هز رأسه

ــــ كان احتمال فتح حوار معدوماً.

تابعت هنري والرجل الغريب الرقص، فأصبح وجهه أحمر وتصبب عرقاً، وصارت ربطة عنقه ملتفة إلى قميصه تتدلى بزاوية غريبة. عندما جعلت الرقصة هاري تواجهني مررت إصبعي على طول حنجرتي. كنت سأقطع حلقها من الأذن إلى الأذن.

فلوّحت بابتهاج.

أشرت بإبهامي نحو المخرج، لكنها كانت قد دارت أنذاك وأصبحت خارج التواصل البصري.

آه يا إلهي.

والتفت ريان، والابتسامة ساخرة على وجهه

رمقته بنظرة يمكن أن تجمد الشيء (ظاهرة مناخية تحدث حول القطب)، فتراجع إلى الخلف، ورفع كفا يديه وراحتي كفيه إلى الأعلى

وفي المرة الثانية التي تقترب فيها هاري عوي أقترب بجدداً، لكنها كانت تحدّق إلى شيء خلف كتفي، ونظرة غريبة على وجهها.

عند الساعة الثانية عشرة والربع استجاب الله لابتهالات عندما توقفت الفرقة لنيل قسط من الراحة. عندها، عادت هاري متورّدة تلهث وهي تمسح قبة كان شريكها يمثو بحماسة بن إصطفل.

"ما أروع تلك. لم أشعر بحرارة ورطوبة شديدة".

مرّرت إصبعاً حول ياقتها، ووثبت إلى مقعدها، وجرّعت شراب شعير كان رايان قد قدّمه إليها. وعندما حطّ القريب الخلوص إلى جانبها، ربتت على لحيته

"شكراً أيها الرجل الكريم. ساراكم جميعاً لاحقاً"

أمال رأسه ورمقها بنظرة تمالي

"مع السلامة"

ثم هاري أصابعها، وهزّ الرجل كتفيه وعاد ليختلط بالحشد

انحنت هاري من أمام رايان "حسب، من ذلك الذي هناك؟" وأشارت برأسها نحو المشرب خلفنا.

بدأت أستدير

"لا تنظري الآن"

"ماذا؟"

"الرجل النحيل الطويل الذي يضع نظارة"

حركت عينيّ وهو شيء لم ينفع حسدعي. كانت هاري ستستخدم تلك الطريقة في المدرسة الثانوية عندما كنت أريد المغادرة وترغب في البقاء.

"أعرف، إنه وسيم ومهم بسي حقاً، ولكنه خجول. كنت موجودة عندما فعلت ذلك يا هاري".

بدأت الفرقة تعزف موسيقى رقصة أخرى، فوقفت وارتديت سترتي

"حان وقت النوم".

"لا، حقـاً. كان ذلك الرجل ينظر إليك طوال الوقت وأنا أرقص. رأيته عبر النافذة"

نظرت بالاتجاه الذي أشارت إليه، ولم يكن هناك أحد ينطبق عليه الوصف

"لي؟".

نظرت إلى الوجوه حول المشرب، ثم من فوق كتفي بالاتجاه الآخر

"حقاً لست" هززت كتفيها "لا أراه بعدها"

"إنسه على الأرجح أحد طلاسي يقوم بتلحنون مالستُ عنه. إنهي في أماكن عامة، ومن دون مرافق"

"نعم هذا محتمل. يبدو الرجل يافعاً جداً بالنسبة إليك"

"شكراً"

راقب رايان ما يجري باهتمام شديد.

"هل أنت جاهزة؟" أطبقت أزرار سترتي وترقبت قدّري.

نظرت هاري إلى ساعتها الرولكس، ثم قالت بالضبط ما كنت أتوقعه

"إنّ الوقت بعد منتصف الليل بقليل، ألا يمكنك "

"سأخرج يا هاري. الشقة على بعد أربعة ميلاً من هنا ولديك مفتاح. يمكنك المجيء إذا أردت"

لحظة بدت مترددة، ثم استدارت إلى رايان

"هل ستبقى هنا بعض الوقت؟"

"لا مشكلة يا حلوة"

رمقني بنظرة الغرور التي كان الرجل الغريب قد رمقها بها

"هل أنت واثقة أنك لا تمانين؟"

"بالطبع لا".

وبعد أن سحبت لها مفاتيح المصمّمة لكل باب عانقتني.

فقال رايان وهو يمد يده إلى سترته. "سأسير معك في طريق عودتك" حارسي.

"لا، شكراً أنا امرأة راشدة"

"إذن، دعيني أطلب لك سيارة أجرة".

"رايان، يمكنني السير من دون مرافقة"

"كما تشائين" وجلس على المقعد وهو يهز رأسه.

بدا الهواء البارد منعشاً بعد الحرارة والدخان في الشرب جزء من الثانية فقط، إلا كانت الحرارة قد انخفضت، وازدادت سرعة الرياح، كي تجعل البرودة تنخفض إلى مليار درجة تحت الصفر.

بعد لحظات، غامت عيناي بالدموع، وشعرت بالجليد يتشكّل حول محجريّ، وضعت شالي حول فمي وأنفي، وربطته بعقدة كبيرة خلف رأسي، وبدوت مثل مهووس. وبكل، مثل الأبله في يحدق وجهي.

دفعت يديّ عميقاً في جيبيّ، وأحنيت رأسي، ثم أسرعت الخطى لأصبح أكثر دفئاً، لكن كنت بالكاد أرى أمامي. عبرت التقاطع عند نهاية شارع هلال ودخلت شارع سانت كلارس. لم يكن هناك أحد في مرمى البصر.

بمحاذاة سوق ماكسي، عندما شعرت بالشال يشتد حول وجهي، ويقطع تنفسي. في البداية ظننت أني علقت على الجليد، لكني أدركت بعد ذلك أن شخصاً يسحبني إلى الخلف. كنت قد تجاوزت مسرح بورك القديم والمدخل يجري عبر طرف البناء. قاومت بعنف ودحرجت وهنا تمكنت برأسي نحو الجدار. كانت يداي لا تزالان عالقتين في جيبي وعندما ارتطم وجهي بالآجر انزلقت إلى الأسفل، واصطدمت ركبتاي بالأرض، وانكفأ وجهي نحو الأسفل في الثلج. تلقيت ضربة ثقيلة على ظهري، وكأن شخصاً ضخماً كان قد سقط بركبتيه أولاً على عمودي الفقري. شعرت بألم شديد في ظهري وسارع شخص تحت شيء. كنت مثبتاً إلى الأرض ووجهي نحو الأسفل. لم يكن في مقدوري أن أرى، أو أتحرك، أو أتنفس. شعرت بالخوف وبحاجة شديدة إلى الهواء وبضخ العروق في أذنيّ.

أغلقت عينيّ وركزت على دفع نفسي نحو الجانب، ثم سحبت نفساً ضعيفاً، ثم آخر، وآخر. خفّ الألم وبدأت أتنفس كما يجب.

شعرت بألم في فكي ووجهي إذ كان رأسي محصوراً بزاوية صعبة، وكانت عيني اليمنى تنضغط على الثلج المتجمد. وشعرت بشيء يمرّ، وعرفت أنها عظامي التي وقعت مني في أثناء سقوطي.

أعطني المفتاح!

حاولت لأحرر نفسي، لكنّ معطفي وشالي كانا لا يزالان يقيدانني مثل سترة المجانين. شعرت بجسمه يتحرك، وبدا أنه يبسط جسده فوقي، ثم سمعت أصوات

تنفّسه في أذني. ورغم أنها كانت مكتومة بسبب الشال، إلا أنها بدت ثقيلة وبائسة وحيوانية في شدّتها.

لا تفقدي الوعي، إنّ فقدانك الوعي يعني الموت في هذه الشتاء لمركزي! انتبهي جيدًا!

تحت ثيابي الثقيلة كنت أتصبّب عرقًا. حرّكت يديّ داخل جيبيّ وأنا أبحث عن شيء ما. وشعرت بأصابعي تنزلق داخل القفّاز الصوفي.

هناك!

أمسكت مفاتيحي. في اللحظة التي سينهض فيها حتى سأكون مستعدة. انتظرت الفرصة وأنا عاجزة.

همسٌ صوت في أذني: "تخلّي عن ذلك"

لا بد أنه قد لاحظ تحركاتي!

تحدّث

"لا مهرب من قضيتنه، توقفي عن قتالنا".

أتوقف عن ماذا؟ ماذا كان يظنني؟

كرّر بصوت يرتعش بالعاطفة: "تخلّي عن ذلك"

لم أقوَ على الكلام، ولم يكن يبدو أنه يتوقع جوابًا. هل كان مجنونًا ويائسًا؟

انطلقنا هناك إلى الأبد على ما يبدو، فيما تجاوزتنا السيارات بسرعة. فلفحت كتل الصقيع بوجهي، وبما أن قبضته على رسغي حالت دون أن تتحطم، وتنفّست عبر فمي المفتوح، والصقيع الناعم على شالي.

حافظي على هدوء تفكيري!

فكّرت في الاحتمالات، هل كان ثملًا؟ أم كان تحت تأثير مخدّر؟ أم كان مشرّدًا؟ هل كان يعاني أوهامًا مرعبة ستدفعه إلى القيام بعمل ما لاحقًا؟ خفق قلبي بقوة خشيت معها أن يكون ذلك حافزًا له.

لم تتساقط رقع صغيرات، ولا بد أنه سمعها أيضًا، لأنه شدّ قبضته على شالي ووضع يدًا بكسوف تقريبًا على وجهي.

اصرخي! افعلي شيئًا!

لم يكن في مقدوري رؤيته وقد دفعني ذلك إلى الجنون.

صرخت: "ابتعد عني أيها المخلوق اللعين!"

لكن صوتي بدا وكأنه قادم من مسافة مليون ميل، إذ كتمته طبقة الصوف السميكة.

أحكمت شد قبضتي على مفاتيحي، وكانت يدي دقيقة داخل القفاز فقررت دفعهما في عينيه إذا سنحت لي الفرصة. فجأة شعرت بالقماش يشتد حول عنقي وبجسده يتحرك خلفي على ركبتيه محنياً، مركزاً كل ثقله على وسط ظهري. كان وزنه وضغطه يضغطان على رئتيّ، ويجعلني ذلك ألهث طلباً للهواء.

رفع رأسي باستخدام الشال، ثم دفعه إلى الأسفل بشدة فارتطمت أسناني بالجليد والحصى. ولمعت حزمة من الشرر خلف عينيّ. ثم رفع رأسي وضربه بالأرض مجدداً. تلك الشرارات تلمع. شعرت بدم يسيل على وجهي وتذوقته بلساني. وظننت أني شعرت بشيء يتحطم في عنقي، وحتى قلبي بدوره داخل قفصي الصدري.

ابتعد عني أيها المخلوق المجنون!

شعرت بدواره، وتوقّع دماغي المعذّب تقرير التشريح. تشريح جثتي؟ *لا شيء تحت أظافرها لا جروح دفاعية*

لا تقتلني أرجوك!

تلوّيت وحاولت أن أصرخ وأبكي، مجدداً لم يكن صوتي مسموعاً.

فجأة توقف الضرب وأحس الرجل الذي يهاجمني مقترباً مني مجدداً لكني لم أسمع سوى أنفاسه مشوشة عبر أذني.

ثم ضغط بيديه تضغطان على ظهري وكله يرتفع، وسحب وقع حذائه على الحصى، ثم اختفى.

مذهولة، سحبت يديّ من جيبيّ، ودفعت نفسي لأرتكز على يديّ وقدميّ، ثم جلست. شعرت بنوبات دوار، فوضعت ركبتيّ وأمسكت رأسي بيديّ. كان أنفي يسيل، والدم أو اللعاب ينزّ من فمي. ارتعشت يداي عندما مسحت وجهي بطرف شالي، وعرفت أني حية وتلك المكافأة.

عصفت الرياح بالنوافذ المكسورة في المسرح المهجور. ماذا كان الاسم؟ بورك؟ بدا ذلك مهماً جداً. كنت أعرفه من قبل، فلماذا لا أتذكره الآن؟ شعرت

أنفسي فقدت الإحساس بالمكان والزمان، وبدأت أرتعش على نحو لا يمكن السيطرة عليه، من البرودة والخوف، وربما من الارتياح.

عندما توقف الدوار تمامًا، وتقلصت بعدها محاولة لسيري، ونظرت من خلف الزاوية. ولم يكن هناك أحد في مرمى البصر.

منتحبًا وأنا أنظر بين الشارع على قدمين مرتعشتين، ورحت أنظر من فوق كتفي مع كل خطوة. أشباح الظلال التي تجاوزتهم بنظراتهم بعيدًا وأفسحوا في الطريق. كنت بالنسبة إليهم مجرد شخص آخر ثمل.

وبعد عشر دقائق جلست على حافة سريري، وتفقدت نفسي بحثًا عن إصابات. كان يؤلمني عنقي متورمًا ومتخلطًا، ولم أكن أشعر بالخدر أو الغثيان.

كان القتال سريعًا وقصيرًا في الوقت نفسه. وبالرغم من أنه وفّر للشخص الذي هاجمني طريقة مناسبة للإمساك بي، إلا أنه كان قد ضعف أيضًا من تأثير الضربات. كنت مصابة ببعض الخدوش والسحجات على الجانب الأيمن من رأسي، لكني أظن أنني لم أصب بارتجاج.

لم يكن الوضع سيئًا بالنسبة إلى ناجية من محاولة سرقة، كما فكّرت عندما استلقيت بين ملاءاتي. لكن، هل كانت تلك محاولة سلب؟ إذ لم يسرق الرجل أي شيء. لماذا هرب؟ هل فزع وكفّ عن ملاحقتي؟ هل كان ثملًا مخمورًا؟ هل اكتشف أنني لست الشخص الذي كان يظنه؟ إنّ درجات الحرارة الأدنى من الصفر غالبًا ما تدفع بالمرء لتهيئة افتتاحيات حسنية. ماذا كان سيأخذه؟

حدوث أي أمام لكنّ ذهني كان لا يزال يعمل بشدته. أم كانت تلك مخاوف إجهاد ما بعد الصدمة؟ كانت يداي لا تزالان ترتعشان وكنت أفزع عند سماعي أي صوت.

هل أتصل بالشرطة؟ لماذا؟ لم أتعرض لأذى أو يُسرق مني شيء، ولم أتمكن حتى من إلقاء نظرة على الرجل. هل أخبر رايان؟ محال بعد محاضرتي الليلة بتلك الطريقة. هاري؟ مستحيل.

آه يا إلهي. ماذا لو مشت هاري إلى الشارع وحدها؟ هل لا تزال موجودة هناك؟

استدرت ونظرت إلى الساعة وكانت الثانية وسبعًا وثلاثين دقيقة. أين هاري؟

مسست شعري بالمشوقة، هل ستلاحظ؟ على الأرجح. تمتلك هاري غرائز مثل قطة برية، ولا يفوتها شيء. فكّرت في قصص تحويه الأبراج دائماً حبيبة، أو السقوط إلى الأمام عبر المحيط وبدائه في حياتك.

أحمضت عيني ثم فتحتهما عندما شعرت بالركبتين على ظهري وسمعت الأنفاس المزعجة.

نظرت إلى الساعة مجدداً وكانت تشير إلى الثالثة والربع. هل يبقى هولي مفتوحاً حتى هذا الوقت المتأخر؟ هل ذهبت هاري مع ريان بل مع سوزيه؟

قلت للأرقام الخضراء اللامعة "أين أنت يا هاري؟"

ثم استلقيت هنالك وتمنيت أن تعود إلى الصالون؛ لأنني لم أكن أرغب في البقاء وحدي.

12

استيقظت على ضوء شمس ساطع وصخب مطبق، بعد أن نمت على نحو متقطّع. كانت خلايا دماغي قد دعت إلى اجتماع ليلي لتنظيم خلاصة عمّا جرى في الأيام القليلة الماضية. طلاب مصعوقون، لصوص، وطفلان وجثة مقتولون، هاري، رايان، هاري ورايان. انفض الاجتماع عند الفجر من دون أن ينجم عنه الكثير.

قلبت نفسي لأتمدد على ظهري، وتحركت موجة ألم في عنقي بمغادرة الليلة الماضية. شددت عنقي وكل ذراع وساق ثم تمطّيت. كان الوضع جيداً في ضوء الصباح، بدا الاعتداء مبالغاً وغير منطقي، لكنّ ذكرى الخوف كانت حقيقية.

استلقيت ساكنة بعض الوقت أتفقد الضوء على وجهي، وأصغي السمع إلى حركات شقيقتي. كانت هناك كلمات محفورة على وجهي، ولم أسمع أيّ صوت يصدر عن شقيقتي.

عند السابعة وأربعين دقيقة دفعت جسمي خارج السرير، وارتديت ثوبي القديم الرث وانتعلت الخف. كان باب غرفة الضيوف مفتوحاً والسرير مرتباً. هل عادت هاري إلى السرير في الليلة الماضية؟

وجدت ملاحظة على الثلاجة تحمل خط هاري وتقول إنها ستعود بعد السابعة. حسنٌ، لقد عادت. ولكن، هل نامت هنا؟

قلت وأنا أمد يدي إلى حبوب البن: "من يهتم" رن الهاتف في ذلك الوقت بالضبط. تركت العلبة الصغيرة من يدي وأسرعت إلى هاتف غرفة المعيشة. "نعم"

"مرحباً أمي. أمسية طيبة؟"

"آسفة عزيزتي، ما الأخبار؟"

"هل ستكونين في تشارلوت بعد أسبوع؟"

"سأذهب يوم الاثنين وسأبقى هناك حتى نهاية نيسان، عندما أذهب إلى اجتماعات علم الإنسان الطبيعي في أوكلاند. لماذا؟"

"حسناً، فكرت في المجيء إلى الشمال لبضعة أيام. رحلة الشاطئ هذه لا تبدو ممتعة"

"رائع. أعني إنه أمر رائع أن نمضي بعض الوقت معاً. آسفة لأن رحلتك لم تنجح" ثم أسأل في تعب. "هل ستصحبين معك أي رفيق؟"

"نعم."

"حسناً. حسناً. هل تعرفينه جيداً؟"

"نعم. سنستمتع حقاً بعلم نفس الشذوذ، والأستاذ لطيف جداً. وعدم الجرأة جيد أيضاً. لسنا مضطرين إلى الالتزام بأي مواعيد."

"حسن. كيف أوبري؟"

"من؟"

"أظن أن ذلك يجيب عن سؤالي. كيف الدراسة؟"

"ممتعة."

"لم أنت مستيقظة في هذا الوقت المبكر من يوم الأحد؟"

"يجب أن أكتب بحثاً في مادة الجريمة. سأقدم شيئاً عن إعتقاد السوء الذاتي لشخص ما، وربما أستعين ببعض المواد من علم نفس الشذوذ."

"ظننت أنكم لا تلتزمون بأي مواعيد نهائية."

"كان يجب أن أقدمه قبل أسبوعين."

"آه."

"هل يمكنك مساعدتي على التفكير في مشروع لمادة علم الإنسان؟"

"بالتأكيد."

"لا أريد شيئاً بالمعنى التقليدي. مشروع قد يكون شيئاً يمكن إنجازه في يوم واحد."

سحبت نفخة قصيرة.

"لديّ مكبسة أخرى يا كيي. سأفكّر في الشروح، أعطني موعد وصولك إلى بشربوت".

"سأفعل ذلك"

انتقلت إلى المكالمة التالية وقُطعت حين سماعي صوت كلودبل.

"كلودبل".

كالعادة لم تكن هناك تحية ولم يعتذر لأنه يتصل صباح الأحد بل دخل في صلب موضوع مباشرة.

"هل عادت آنا جوبرت إلى المنزل؟"

شعرت بحكّة في صدري. لم يكن كلودبل قد اتصل إلى منزلي من قبل. لا بد أن آنا قد ماتت.

بلعت ريقي وأجبت: "لا أظن ذلك".

"عمرها تسعة عشر عاماً".

"نعم"

رأيت وجه الأخت جوليان. لا يمكنني تحمّل فكرة إبلاغها النبأ

"... الصفات المميزة"

"آسفة، ماذا كان ذلك؟"

كرّر كلودبل السؤال. لم يكن لديّ فكرة إن كانت آنا تتمتع بأي صفة جسدية مميزة.

"لا أعرف. يجب أن أسأل الأسرة"

"متى شوهدت آخر مرة؟".

"يوم الخميس، سيد كلودبل، لماذا تطرح علي هذه الأسئلة؟".

اضطربت عندما توقف كلودبل عن الكلام، وسمعت جلبة في الخلفية وخمّنت أنه كان يتصل من غرفة قسم جرائم القتل.

"عُثر على أنثى ميتة في وقت مبكر من صباح هذا اليوم، عارية، ومن دون أوراق ثبوتية".

"أين؟" كان الانقباض في صدري يضغط على عظمة القص

"جزيرة الأخـــوات (التي هي ساحل لويس شرق مونتريال). في آخر الجزيرة هناك منطقة مشجرة وبركة. ولقد عُثر عليها عالقة. تردّد على حافة البركة"

"كيف عُثر عليها؟" كان يتكتم على الأمر

فكّـر كلـوديل في سـؤالي للحظة، واستطعت تخيّل أسنانه المطبقة، وعينيه المتقاربتين اللتين تضيقان عندما يفكّر

"كانت الضحية مقيدة، الظروف ". تردّد مجدداً " غير اعتيادية"

"أخبرني" نقلت السماعة إلى يدي الأخرى ومسحت راحة كفي بقميصي.

"تقبع جثة الجثة في هيكل سفينة قديمة. تعرّضت لجروح عدة. وسيقوم لامانش بتشريحها اليوم"

"أي نوع من الجروح؟" حككت إلى بعض البقع على قميصي.

سـحب نفساً عميقاً "هناك جروح عدة ناتجة عن طعنات، وهناك علامات أربطة حول المعصمين، ويشتبه لامانش في أن حيواناً هاجمها أيضاً"

وجـدتُ عادة كلوديل بأن يكون موضوعياً مزعجة التي يصف بها الضحية، عادة بالمصطلحات. لم يذكر أي عمر

تابع، "وربما تعرضت الضحية للحرق"

"حُرقت؟"

"سيعرف لامانش المزيد لاحقاً، فهو سيقوم بالتشريح اليوم"

"يا الله" فبالرّغم من أن مختصي علم الأمراض من المحتمل أن يكون حاضراً دائماً لتلبية النداء في كل الأوقات، إلا أنه نادراً ما يتم إجراء تشريح في عطلة نهاية الأسبوع. بعد عرفت أن الجريمة لابد أن تكون استثنائية. "كم مضى على وفاتها؟"

"لم تكـن الجثة متحلّلة تماماً، لذا هي على الأرجح هناك منذ أقل من اثني عشرة ساعة. سيحاول لامانش تحديد وقت الوفاة"

لم أكن أرغب في طرح السؤال الآتي "لماذا تظن أنها قد تكون آنا جويت؟"

"العمر متطابق مع عمر آنا وكذلك الأوصاف"

شعرت ببعض الضعف.

"ما هي الصفات المميزة التي كنت تشير إليها؟"

"ليس للضحية طواحن سفلية"

"هل لم تلاحظها؟" شعرت بالغباء عندما نطقت السؤال.

"لا، بسرلانه لست طبيب أسنان. هناك أيضاً وشم صغير على الورك اليمنى؛ سمكتان تحملان قلباً بينهما".

"سأتصل بعائلة آنا وأعود إليك"

"يمكنني -"

"لا، سأفعل ذلك. لديّ شيء آخر أناقشه معها"

زوّدني برقم جهاز هاتفه وأنهى المكالمة

ارتعشت يدي عندما كنت أضغط أرقام هاتف دار العبادة، وعبثت عيني بالقلق تحت غرّة شعرها.

وقبل أن أتمكن من التفكير في طريقة لصياغة أسئلتي، كانت الأخت جوليان على الخط. أخبرتها بصمت دقائق وأنا أشكرها على إرسالي إلى دوري جيتوس، وأخبرتها عن الحالات. كنت أتحدث ما يجب أن أقوم به، وقد شعرت هي بذلك.

"أعرف أن شيئاً سيئاً قد وقع" كان صوتها رقيقاً، لكني شعرت بتوتر خلفه.

سألت إن كانت آنا قد هربت، ولكنها قالت إنها لم تعد بعد

"المجتمع، تمر على شابة -".

سمعت حفيف قماش وعرفت أنها ترسم رمز الصليب على صدرها.

"يجب أن أطرح بعض الأسئلة الشخصية بشأن ابنة خصوصيتك"

قالت بصوت لا يكاد يسمع. "نعم"

سألت عن الطواحن والوشم.

كان عملاً صنعت على خطط ثانية واحدة فقط لم تحدث لدى ساعتي مسكتها.

"آه لا، لا. تلك ليست آنا. ما الصاعه لا، لم تكن ترسم وشماً على جسدها، وأنا واثقة أن آنا تحتفظ بكل أضراسها. في الواقع، إنها تذكر أسنانها كثيراً، وهذه أعرف ذلك. فهي تعاني كثيراً بسببها، وتشتكي من الألم عندما تتناول شيئاً بارداً، أو ساخناً".

تدفقت الكلمات بانسيابية كبيرة وشعرت براحتها عبر الهاتف.

"لكن يا أختاه من المحتمل -"

"لا أعرف. بنية سليقتي كل أضراسها موجودة. بسبب معيشة هنا، لكنها موجودة". بعدها الضحكة للتوءم. "وليس هناك سوس، الشكر لسمول"

"أنا سعيدة لسماع ذلك. هذه الشابة على الأرجح ليست آنا. لكن، ربما من الأفضل أن ترسلي لي سجلات أسنان بنية شميتش، فقط للتأكد".

"أنا متأكدة"

"نعم، حسنٌ، ربما طبيعة المحقق كلوديل وقحاً لي مصير دمث"

"أطلب دسك. وسأدعو من أهل أسرة تلك الفتاة سيكية" زوّدتني باسم طبيب أسنان ما، واتصلت بكلوديل.

"إنها واثقة من أن آنا ليس لديها وشم"

"مرحباً بنيها للخالة الأخت! حتى ماذا؟ رحت وحماً على موجودي في الأسبوع الماضي؟".

"أتفق معك. ليس هذا أمراً محتملاً"

تلقف.

"لكنها واثقة تماماً من أن آنا تحتفظ بكل أضراسها وهي تتذكر ذلك لأنّ بنية شقيقتها كانت تعاني من أوجاع فيها"

"من يقتلع أضراسه؟"

فكرت بالضبط.

"يقلم عادة بسبب الأشخاص الرئيسين عنها".

"نعم"

"وتقلس عمة الخالة ليماً أن آنا لم تصل شيئاً قط من دون أن تعود بوالدتها، صحيح؟"

"هذا ما قالت"

"آنسة صبريت أكثر خصوصاً من دبهيد كروبليند. فلقد اختلف سبع مرات خلال الأشهر الثمانية عشر الماضية على الأقل، ذلك هو عدد المرات التي اشتعت بها الأم بشكوى"

"آه". انتقلت القصة من عضلة الفم لصدري إلى معدتي.

طلبت من كلوديل أن يطلعني على المستجدات، وأكد لكلاهة وكتب أنه إن أنه سيفعل ذلك.

استحممت، وارتديت ملابسي، وركبت في مكتبي بجوار الناسخة والنصف أنهيت تقريري عن إليزابيث بيكول، ووضعت ملاحظاتي وشرحتها، تماماً كما أعمل في أي قضية شرعية. ثبت لو كان في مقدوري تصحيح معلومات من خلال بلاتفار، لكن لم يتسنّ لي الوقت لتصحيحها.

بعد طباعة التقرير، أمضيت ثلاث ساعات في التقاط الصور. كنت متوترة ولا أتقن ما أقوم به، وعانيت مشكلة في وضع العظام بالترتيب الصحيح. وعند الساعة الثانية، طلبت خطوطي من الكافتيريا، وتناولتها عندما كنت أنسخ ملاحظاتي عن ماليس وملاحي، بكرّ تفكيري كان منصباً على الملف ولم أركز حتى العمل بين يدي.

كنت عند آلة النسخ مع ملفات بلاتفار عندما رفعت بصري ورأيت كلوديل.

"إنها بيست الشابة التي تكلمت عنها"

حدّقت إلى عينيه. "حقاً؟".

أوما

سألته "من هي؟".

"اسمها كارول كومبتو. عندما أتفحّص سجلات الأسنان آن جوبيت أجريت بحثً عن المصابين وتحققنا من هويتها. تم اعتقالها بضع مرات بسبب التسوّل"

"العمر؟"

"ثمانية عشر عاماً"

"كيف ماتت؟"

"يعني لاماس التقرير الآن"

"أي مقتطفه تمة؟"

"كثير" حدّق إلى وجهي لحظة، ولم يقل شيئاً، وغادر المكان.

تابعت النسخ، وتحرّك رجل آلي بنشع بمشاعر جيّاشة بنشاط داخلي. كان الارتياح الذي شعرت به عندما عرفت أنها ليست آنا قد تحوّل مباشرة إلى إحساس بالذنب. كانت لا تزال هناك فتاة على الطاولة في الأسفل، وأسرة يجب إبلاغها النبأ

رفعت الغلاف، وقلبت الصفحة، ثم وضعت الغلاف، وضغطت على الزر. ثمانية عشر عاماً، لم تكن لديّ رغبة في رؤية التشريح.

عند الساعة الرابعة والنصف انتهيت من الحالات وعدت إلى مكتبي. ووضعت تقريري الطبي في مكتب أمانة السر ثم تركت ملاحظة على مكتب لاماش تختصر ما حصل اليوم. وعندما عدت إلى الرواق كان لاماش وبرغرون يقفان ويتكلمان خارج مكتب طبيب الأسنان. بدا كلا الرجلين متعباً ومتجهماً. وعندما اقتربت منهما نظرا إلى وجهي، ولكنهما لم يتكلما.

سألت: "حالة سيئة؟"

أومأ لاماش.

"ماذا حدث لها؟"

قال برغرون: "ما الذي لم يحدث؟"

تنقل بصري من أحدهما إلى الآخر. بالرغم من انحناء ظهره، إلا أن طول طبيب الأسنان كان أكثر من ست أقدام فاضطررت إلى رفع بصري إلى الأعلى للنظر إلى عينيه. كان شعره الأبيض مضاءً من الخلف بضوء مصباح مثبت في السقف. تذكرت تعليق كلوديل بشأن هجوم حيوان وخمنت السبب الذي أخذ على برغرون أيضاً يوم الأحد.

قال لاماش: "يبدو أنه تم تعليقها من رسغيها وضربها، ثم هاجمتها كلاب بيتي ماراك أشد كان أشد على الأكل."

أومأ برغرون. "أحدهم من سلالة الجيرمن. ربما كلب رعي أو دوبرمان. هناك ما يزيد عن ستين جرح ناتج عن عضات."

"يا الله."

تابع لاماش. "لو سكب سائل يغلي عليها، ماء على الأرجح، وهي عارية جلدها عروق على عم سيئ، لكني لم أعثر على آثار أي شيء يمكن تحديده."

"كانت لا تزال حيّة؟" انكمشت معدتي عندما فكّرت في ألمها.

"نعم. مانت أصواتها ناتجة طعنات حفّة في الصدر والبطن. هل ترغبين رؤية الصور؟"

هززت رأسي.

"هل كانت هناك جروح دفاعية؟". تذكّرت عنفي مع اللص.

"لا"

"متى ماتت؟".

"على الأرجح في وقت متأخر من الأمس".

لم أرغب في معرفة التفاصيل

"شيء آخر بعد". كانت عينا لاماتش مثبتتين بناظري. "كانت حاملاً بشهرها الرابع"

تجاوزتهما بسرعة واندفعت إلى حاجز مكتبي. لا أعرف كيف التي حدث لها هناك. كانت عيناي تنظران إلى بعض الأشياء المكومة في مهجعي من دون أن أراها. وبالرغم من امتلاكي بعض المناعة العاطفية التي حصّنتها سنوات من رؤية القسوة والعنف، إلا أن بعض الوفيات لا تزال تؤثر فيّ. بدت السلسلة الأخيرة من الأعمال سريعة أكثر قبحاً من معظم ما يمكنني تذكره. لمرة ربما كانت مشاعري ببساطة جيّاشة أكثر من اللازم إلى درجة أنني لم أعد أتحمل المزيد من الأعمال الشنيعة.

لم يكن كارول كومبتو تصميمي، ولن أراها أبداً، لكنني لم أستطع السيطرة على الرؤى التي خرجت من أعماق أعماق ذهني. رأيتها في لحظاتها الأخيرة وجهها يتلوى أسىً ورعباً. هل توسلت لإنقاذ حياتها؟ أو من أجل طفلها الذي لم يولد بعد؟ أي نوع من الوحوش ذلك الذي يتحرك على هواه في العالم؟

لمت لمكتب الخيل "بيأ لما".

عصبت أوراقي في حقيبتي وجمعت أغراضي، وأغلقت الباب خلفي بحنق. قال برطرون شيئاً عندما عبرت مكتبه، لكنني لم أتوقف.

سجلت أخبار السادسة عندما كنت أقود سيارتي تحت حجر حاك كارثة، وكانت جريمة قتل كومبتو القصة الرئيسة. سمعت اسمي، وكرّرت عبارات الأخيرة "بيأ لما"

عند الوقت الذي وصلت فيه إلى منزلي كان غضبي قد هدأ، إلا أن بعض العواطف جيّاشة جداً لكنها لا تستمر إلى ما لا نهاية. اتصلت بالأخت جوليان

وطمأنتها بشأن آن. كان كلوديل قد اتصل بها، ولكنني أردت التواصل معها على نحو شخصي مباشر، كما قلت. واتفقت معي في الرأي. لم يكن أي منا يصدّق ذلك أيضاً.

أخبرتها أن الهيكل العظمي لإليزابيث حاضر، وأن التقرير أُنجز. فقالت لي إن العظام سترسل عند الصباح الباكر يوم الاثنين.

"شكراً جزيلاً د. برينان. ننتظر تقريرك بشوق كبير."

لم أستفسر الفرنسية؛ إذ لم تكن لدي فكرة كيف ستكون ردود أفعالهم حتى ما كتبته.

غيّرت ملابسي وارتديت مئزري، لم تصحبني العشاء، ورفضت السماح لنفسي بالتفكير في ما كان قد حدث لكارول كومو. وصلت هاري عند السابعة والنصف. تناولنا الطعام، ولم نتحدث سوى عن السينما والكوميديا. بدت متعبة وشاردة الذهن، ومستعدة للنوم بوجهي حول سكونها في الأمام على مقعد. كانت أحداث اليوم قد استنفدت هاري تماماً، فلم أسأل عن الليلة السابقة، أو عن الحلقة الدراسية، ولم تتكلم هي عنهما. أظن أن كلاً منا كانت سعيدة لأنها لم تتكلم أو ترد.

بعد العشاء، قرأت هاري مواضع الفرنسية، وبدأتُ أنا بقراءة المذكرات مجدداً. كان تقريري للأصوات قد أُنجز، لكنني أردت معرفة المزيد. لم يحن النسخ مسودة الطباعة. وبدا الأمر محبطاً عندما كان يوم الجمعة. إضافة إلى ذلك، لم يكن سوى فيليب لاورنت الأكثر إمتاعاً. طلب بيري ساب، كتب تقارير تفصيلية عن أبحاثه في مستشفى نوتردام في أربعين صفحة لم أجد سوى إشارات فلسفية إلى شقيقته. بدا أنه كان مهتماً بشأن قيام بوحي بالصلاة أمام جمهور بعد رواجهما حتى الآن. لم يكن يحب مرتبها أيضاً. كان لويس - فيليب يبدو حقاً شديد التزمّت.

خرجت هاري يوم الأحد قبل أن أستيقظ. غسلت الملابس، وقمت بأداء تمارين رياضية، ثم راجعت عاشرة محاضرات لإلقائها في مادة التطور البشري يوم الثلاثاء. وعند حوالى بعد الظهر، شعرت أنني عوّضت على نحو معقول ما فاتني. أشعلت النار، وجهزت لنفسي كوباً من شاي إيرل غراي، وتكوّرت على الأريكة مع الكتب والتقارير.

يسأل من حب الحيث في مفكّرة بالانتظار. ولكن، بعد نحو عشرين صفحة انتقلت إلى عصر الحفري. كان ذلك مدهشاً تماماً كان لويس يهيب تماماً

قرأت عن الشوارع التي أمشي فيها كل يوم. كان يعيش في مونتريال والقرى المحيطة بها أكثر من مئتي ألف نسمة في منتصف القرن الثامن عشر، وكانت المدينة تمتد من شارع شيربروك في الشمال إلى الماء على طول النهر إلى الجنوب. وكانت تحدّها من الشرق بلدة هوشيلاغا الصناعية، ومن الغرب قريتا الطبقة العاملة سانت كونيغوند وسانت هنري، حيث الفتيات تعمل عمال قناة لاشين. وكنت في الصيف الماضي قد ركبت دراجتي على طول الدرب المحاذي للقناة.

لم، كما هي الحال الآن، يرتّب الأحوال. فبالرغم من أن معظم سكان مونتريال إلى الغرب من شارع سانت لوران كانوا يتكلمون الإنكليزية، إلا أنه عند حلول ثمانينيات القرن الثامن عشر كان الفرنسيون قد أصبحوا أقلية واضحة في المدينة كلها، ليهيمنوا على سياسات الإدارة المدنية. لكن الإنكليزية سادت في التجارة والصناعة.

كان الفرنسيون والإيرلنديون كاثوليكيين في حين أن الإنكليز بروتستانت. بقيت المجموعتان متباعدتين تماماً في الحياة والموت، ولكل منهما مقبرة خاصة في الجبل.

أغلقت عينيّ وفكرت في ذلك. حتى اليوم لا تزال اللغة والدين تحددان أموراً كثيرة في مونتريال. المدارس الكاثوليكية، المدارس البروتستانتية، القوميون، الاتحاديون. تساءلت عن مستقبل البلد ... بكوبيك ... .

أظلمت الغرفة وبعث المصباح بظلاله، فيما تابعت القراءة.

في أواخر القرن التاسع عشر كانت مونتريال مركزاً تجارياً رئيساً، وكانت تفتخر بمباني رائعة، ومستودعات حجرية ضخمة، ومدابغ، ومصانع صابون، ومعامل؛ وكانت مكتظة بجوامع رائعة البناء. لكن، مثل مدن فكتورية أخرى، كانت مونتريال مكاناً للتناقضات. فيها قصور ضخمة لأمراء التجارة، وأكواخ متواضعة لعمال مساكين. كانت هناك مئات الممرات الشحيحة والأزقة غير المعبدة خارج الشوارع العريضة المرصوفة، خلف شيربروك ودورشستر.

كان الصرف الصحي في المدينة آنذاك سيئاً. وكانت القمامة وجثث الحيوانات النافقة تتفسخ في أرجائها، والروث في كل مكان. وكان النهر يُستخدم

كمحرور مشروح، ورغم لمعانها في الشتاء، إلا أن المجلات والقمامات كانت تتفسخ وتفوح منها روائح كريهة في الفصول الأكثر دفئاً، وكان الجميع يشكون من الروائح النتنة.

يبرد الشاي الذي أعددته، فقد تمشيت، وتمطّيت ثم حضّرت كوباً جديداً. وبعد فتح الكتاب مجدداً، قلّبت الأوراق إلى فصل عن الصحة العامة يتناول شكاوى لويس - طبيب المذكّرة - بشأن مستشفى أوتيل ديو بالتأكيد، كانت هناك إشارة إلى الرجل المسرور الذي نجح في أن يصبح عضواً في اللجنة الصحية لنفس المدينة.

قرأت وثيقة مكتوبة بأحرف كبيرة يناقش فيها المجلس فقرة النفايات البشرية التي كان التخلص منها يتسم بالفوضى في ذلك الوقت. كان بعض سكان مونتريال يلقون ببولهم في مجاري المدينة التي تؤدي إلى النهر، فيما استخدم بعضهم الأخر مراحيض أرضية وكثيرون رمياً فوق فضلاتهم ثم وضعوها خارج منازلهم بانتظار جامعو القمامة، بينما تغوّط آخرون في حفر خاصة خارج منازلهم.

قال المسؤول الصحي في المدينة إن السكان يتغوطون نحو 170 طناً من البراز كل يوم، أو ما يزيد عن 62,050 طناً سنوياً. كما حذّر من أن 10,000 حفرة خاصة وبالوعة في المدينة تمثل المصدر الرئيس للأمراض المعدية، ومنها التيفوس (الحمّى التيفية)، والحمّى القرمزية، والخانوق. فقرر المجلس اعتماد نظام جمع النفايات وحرقها، وصوّت لويس - طبيب المذكّرة - لصالحه. كان ذلك في 28 كانون الثاني 1885

في اليوم التالي للتصويت، وصل قطار سكة الحديد الكبرى الغربي إلى محطة بونافنتور. وكان العامل مريضاً فتم استدعاء طبيب السكك الحديدية وإخضاع الرجل للفحص، وتشخيص حالته بأنها إصابة جدري. ولأنه كان بروتستانتياً، فقد نُقل إلى مستشفى مونتريال العام لكنه لم يُقبل هناك. وسُمح للمريض بالانتظار في غرفة معزولة في جناح الأمراض المعدية وأخيراً، ونتيجة مناشدة طبيب السكك الحديدية، تم قبوله على مضض في مستشفى أوتيل ديو الكاثوليكي.

مضت لإذكاء النار. وبينما كنت أعيد ترتيب المذكرات تخيلت مبنى الحجري الرمادي الذي نشبت فيه الحريق والواقع بين شارعي بين وسانت أوربان. لا يزال مستشفى أوتيل ديو قائماً حتى الآن، وقد مررت أمامه مرات عدة

عـــدت إلى الكـــتاب. كان مطبق الفرق، لكني أردت أن أقرأ حتى تصل عدوى.

ظـــنّ الأطبـــاء في مستشفى مونتريال العام أن أولئك في أوتاوا ممن قد أبلغوا السلطات الصحية العامة عن حالة العدوى، كما ظن أولئك في أونتاريو عبر العكس. وكانت النتيجة أنّ أحداً لم يخبر السلطات، ثم الفريق الطبـــي في كلا المستشفيين. وبحلـــول الـــوقت الذي زال فيه الوباء، كان أكثر من ثلاثة آلاف شخص قد لقوا حتفهم، معظمهم أطفال.

أغلقـــت الكتاب، وكانت عيناي تؤلماني وجسدي يرتعش. أصبحت الساعة السابعة والربع. أين هاري؟

ذهـــبت إلى المطبخ، وأخرجت شرائح سمك السلمون وغسلتها. وبينما كنت أمـــزج صلـــصة التوابل جعلت أتخيل الحجر قبل قرن. كيف كان المرء يواجه الجدري في تلك الأيام؟ ما العلاج للمنزل الذي كانوا يحجرون فيه؟ أكثر من ثلثي الوفـــيات كانوا أطفالاً. كيف كان شعور المرء عندما يرى أطفال جيرانه يموتون؟ كيف يتعامل المرء مع العجز عن العناية بطفل مريض؟

نظّفـــت حبّي بقتلها ووضعتها في الفرن ثم غسلت خساً وطماطم وخياراً. ولم تكن هاري قد ظهرت بعد.

بالـــرغم من أن القراءة أبعدت ذهني عن ماتيلد وملاحي وكارول كوميتو، إلا أنـــني كنت لا أزال متوترة ورأسي يؤلمني. ملأت حوض الاستحمام بماء ساخن وأضـــفت أملاحاً معدنية معطّرة برائحة أعشاب بحرية، ثم شغّلت أسطوانة مدمجة للبوبارد كوهين و ستانليت في الحوض مستعدةً لحمام طويل.

استـــفدت من البرنيت لإبعاد ذهني عن قضايا جرائم القتل الأخيرة. كانت الـــرحلة عبر التاريخ ممتعة، لكنني لم أعثر على المعلومات التي أحتاج إليها. كنت أعلم أشياء بشأن عمل البرنيت في أثناء انتشار الوباء من خلال قصاصات المعلومات التي كانت الأخت جوليان قد أرسلتها إليّ قبل إخراج الجثة من القبر.

بقـــيت البرنيت صبرية عن العالم طوال سنوات. ولكن، فطلب صرح الوباء عن الـــسيطرة أصـــبحت مطلعـــة عن حديث القطب. كتب رسائل إلى مجلس الصحة في الإقلـــيم، وإلى لجـــنة الصحة في مجلس المدينة، وإلى أبرشية مونتريال عمدة مونتريال،

برموز فيها معالجة الوضع. كما أمطرت صحف الشعب الفرنسية والإنكليزية بالرسائل، وطالبت بإعادة افتتاح مستشفى المجدري في المدينة ودعت إلى التلقيح العام.

كتبت إلى أكبر رجال الدين مرتبة، وأشارت إلى أن الحمّى تنتشر في أماكن التجمع المحشودة. وتوسّلت أن يتم إغلاق دور العبادة مؤقتاً. ولكنّ أكبر رجال الدين مرتبة ويدعى مابر رفض بحث طلبها. إن إغلاق دور العبادة سيكون ضحكاً على العباد. وحثّ رعيته على الذهاب إلى دار العبادة، قائلاً لهم إن دعاء الجماعة أقوى من دعاء الفرد وحده.

تلكم سيئتهم هذه السبب. حضر الكاثوليكيون الفرنسيون، في حين بقي البروتستانتيون الإنكليز بعيداً، وحصل الوثنيون على اللقاح وبقوا في منازلهم.

أمضيت ساعاتٍ ساخنة وعكفت بسجلات الوفيات والمقالة التي يجب أن أستعين بها

حسنٌ، كنت أعرف عن عملها، وأعرف عن موتها. قلبت الأخبار بعض بيل. كنت قد قرأت الكثير عن مرضها الأخير والجنازة العامة التي تلت ذلك. لكنني كنت بحاجة إلى معرفة تاريخ ميلادها. أمسكت برج الصابون وشكّلت رغوة. لم يكن من الممكن تحمّل الغلاف. مرّرت اللوح فوق كتفيّ. لكن لدي النسخ، لذا يمكن للأمر أن ينتظر حتى أصل إلى تشوبوت. غسلت قدميّ.

الصحف، كان ذلك اقتراح جيمس. سنستفيد من الوقت المتاح لي يوم الاثنين لإلقاء نظرة على صحف قديمة. إذ يجب أن أذهب إلى مكتبة على كل حال لإعادة الفكرة.

استرجعت إلى الخلف في الماء الساخن وفكّرت في شقيقتي مسكينة هاري، لقد أحبطتها كثيراً أمس. كنت متعبة، لكن هل كان ذلك هو السبب؟ أو كان إيمان؟ بدا كل شيء في أن أنام معه بدء لوقت. إذاً، لماذا كنت باردة جداً؟ عقدت العزم على أن أكون أكثر وداً الليلة.

كنت أنت الشابة عندما سمعت نغمة جهاز الإنذار. أخرجت قميص نوم دريني صوفياً كانت هاري قد أهدتني إياه في إحدى مناسبات الميلاد، وارتديته بسرعة.

وجدتها تقف في غرفة الجلوس وهي لا تزال ترتدي معطفها وتضع قفازيها وتحمر لبحثها. كانت عيناها ثابتتين على شيء بعد مسبوق مثل.

"سأقول إنه كان يوماً طويلاً"

"نعـم" ركزت من جديد على الحاضر، ونظرت إليّ وشبه ابتسامة مرسومة على شفتيها

"حافلة؟"

"أقل ذلك. اسمحي بمضغ علكي فقط" رمت أغراضها على الأريكة وارتمت إلى جانبها.

"بالتأكيد. اخلعي معطفك، واسترخي قليلاً"

"حسنٌ، جاء الجو بارداً هنا. أشعر بأنني مثل حلوى خرجت للتو من الثلج".

بعد تعليق معاطفنا، وضعتها في غرفة الضيوف، ثم انضمت إليّ في المطبخ. شويت السلمون وحضّرت السلطة، في حين كانت تجهّز الطاولة

عندما جلسنا لتناول الطعام سألتها عن يومها

"كان رائعاً". قطعت حبة بطاطا، وغرستها، ثم أضافت إليها قشدة

"كان رائعاً؟" شجعتها على المضي قدماً

"نعم قطعنا شوطاً طويلاً".

"يبدو أنك قطعت أربعين ميلاً على طريق وعر"

"نعم، أنا مرهقة تماماً" ثم ابتسمت عندما استحضرت تعبيرها.

"إذاً، ماذا فعلت؟".

"الكثـير مـن التمـارين والتدريبات" ملأت ملعقة صغيرة من الصلصة وأضافتها إلى حصتها من السمك. "ما هذه البطاطا المهروسة الخضراء؟"

"تمارين، أي نوع من التدريبات؟"

"كامل الملعب".

"الملعب؟"

"سرد الصخور، تمرينات رياضية. كل ما يطلبون منا أن نفعله؟"

"تفعلون ما يطلبونه منكم؟"

قالت بجدية. "ألوم نفسك لأني أريد القيام به".

دُهشت لأن هاري نادراً ما تصيح في وجهي بتلك الطريقة

"آسفة، أنا متعبة فحسب"

تناولـنا الطعام بصمت لبعض الوقت. لم أكن أرغب حقاً في سماع شيء عن علاجها ذاك، لكن بعد بضع دقائق حاولت بصدق.

"كم عدد الأشخاص هناك؟"

"العدد قليل جداً"

"هل هم مميزون؟".

"لا أعرف ذلك لأكتسب أصدقاء جدداً يا حبي. أهتمّ بحمل المسؤولية ومد العون إلى الآخرين. حياتي مرتبة، وأحاول اكتشاف طريقة لجعلها أفضل"

قُرعت الشوكة في السلطانية. لم أتذكر متى رأيتها متحمسة إلى هذا الحد

"وهل تلك التدريبات مفيدة؟".

"حسب، يجب أن تجربي الأمر بنفسك. لا يمكن أن أشرح لك بالتفصيل الذي نقوم به وكيف يجدي نفعاً"

أبعدت صحنها الفارغ والتقطت قطع السلمون.

لم أنبس ببنت شفة.

"لا أظن أنك ستحتوين شيئاً مماثلاً على كل حال. أنت مشغولة جداً".

رفعت طبقها وحملته إلى المطبخ. كان بظهور الاهتمام بذلك يتطلب مني جرعة كبيرة.

انضممت إليها عند المغسلة

قالـت وهي تضع يدها على كتفي "أظن أنني سآوي إلى الفراش. سألتقي معك غداً"

"سأغادر بعد الظهر"

"آه، سأتصل بك"

في السرير، استحضرت الحديث الذي دار بيننا. لم أكن قد رأيت هاري غير مبالية أو سارقة على هذا النحو من قبل. لا بد أنها كانت مرهقة؛ أو ربما كان ذلك بسبب ما حدث مع ريتشارد، أو بسبب انفصاله عن ستراتفورد

ولاحقاً، لساعات عدة، لم ألاحظ الإشارات؛ لأن ذلك ربما أحدث فرقاً كبيراً

13

استيقظت يوم الاثنين عند الفجر، ولمّا أضطر لإعداد فطور لي ولفري،
ولكنّها رفضت قائلة إنها على عجلة من أمرها، وغادرت قبل السابعة. كانت
ترتدي بذلة عصماضة ولا تضع مستحضرات تجميل، وهو مظهر لم أتوقع قط رؤيته.
هناك سجلات تشير إلى أمسرود مقعة على وجه الأرض، والأكثر جفافاً
وانخفاضاً، ولكنّ الأكثر كآبة من دون شك هو قسم الدوريات (مجلات تُنشر على
نحو دوري) والأفلام المصغّرة في مكتبة مكلينتك في مكتبين. إنه غرفة طويلة وضيقة
في الطابق الثاني مبنية من حجارة إسمنتية جافة، ومضاءة بمصابيح نيون، ومغلقة
بباب أحمر ثقيل.

وفقاً لتوجيهات أمينة المكتبة، تجاوزت أكداس الدوريات والصحف إلى
صفوف من الرفوف المعدنية التي تحمل صناديق كرتونية صغيرة وعلباً معدنية
دائرية، ووجدت ما أبحث عنه، فأخذته إلى غرفة القراءة. قربت اليد بالصحف
الإنكليزية، سحبت شريط فيلم مصغّر ووضعته في جهاز القراءة.

في عام 1846 كانت مورنينغ هيرالد تصدر ثلاث مرات أسبوعياً، بتنسيق يشبه
نيويورك تايمز اليوم: أعمدة ضيقة وصور قليلة وإعلانات كثيرة. كان جهاز العرض
سيئاً وكذلك الضبط والأمر يشبه محاولة القراءة تحت الماء. كانت الأحرف المطبوعة
تتحرك يميناً ويساراً، فيما بعض الشموات وخربشات حبر تطفو أمام الشاشة.

رأيت إعلانات عن قبعات فرو، ومرطبات بريطانية، وسنوات أعدام غير
مدبوغة. كان د. تايلور يعرض بلسم حشيشة الكبد (سائل ضحلبي) و... يرى

يصرط لمرض معالجة الوقاف (تصحح عن اختلال في وظيفة الكبد). وكان جون بلور لويس يروّج لنفسه كسحام بارع، فيما يقول بيو مورجي إنه سيكون سعيداً بتزيين شعرك. قرأت الإعلان:

رجل يمكن أن يحس مع رجال ذكور وإناث. سيحمل شعرك ناعماً ولامعاً مهما كان عشناً. يستخدم طرائق خاصة لجعل الشعر أجعدَ وجميلاً، ولتصفيفه على نحو ملائم. أسعار معقولة، رجال مسقول عقد

والآن إلى الأخبار

توفي أنطوان ليدسي عندما ضربه جاره على رأسه بقطعة من الخشب. يجرير قاضي التحقيق حركة والقول.

وقعت فتاة إنكليزية باقصة هي ماريت مانيه، التي وصلت أخيراً إلى مونتوربال، ضحية جريمة اختطاف واغتصاب وتوفيت وهي محتزنة في مستشفى إليمرت

عندما وصف بريدجت كالوكون طفلاً ذكراً في مستشفى التوليد، اكتشف الأطباء أن الأرملة البالغة من العمر أربعين عاماً قد أنجبت طفلاً آخر، ففتش رجال الشرطة منزل صاحب عملها ووجدوا جثة طفل ذكر ثانٍ عنقيّة تحت ملابس في صندوق. ظهرت على العنق علامات عنف مرتبطة بضغط أصابع قوي على العنق. قرر قاضي التحقيق حركة والقول

يا الله، هل تغيّر أي شيء حقاً؟

حَسَرت المستخدم والتفت نظره على لائحة السفن التي غادرت ميناءه وعلى لائحة المسافرين عبراً الذين غادروا مونتريال إلى ليفربول، ألف، روتينية.

لعبور الحمر، وحسنة النقل إلى مونتريو، وأوقات الانطلاق. لم يكن هناك أشخاص تُذكر يسافرون في مثل الأسرع

أخيراً وجدت ملاحق: ولادة، زواج، وفاة. في هذه المدينة يوم السابع عشر، أيس السيد ديفيد ماكاي وابنة السيدة ماري - كلير يسف. لا ذكر لوجيس بيكون وابنته

نظرت إلى موضع إعلانات الولادة في كل صحيفة، وتصفحت بسرعة إصدارات ستة أسابيع لاحقة، وبحثت مباشرة إلى ذلك القسم لا شيء. تفحصت كل صحيفة على الفيلم، ولكن حتى نهاية عام 1846 لم يكن هناك إعلان عن ولادة إليزابيث

اطلعت على الصحف الإنكليزية الأخرى، ولكن القصة نفسها. ليس هناك ذكر يوجين سيكول، أو إعلان عن ولادة إليزابيث. انتقلت إلى الصحف الفرنسية، وبالرغم من ذلك لم أجد شيئاً

عند حلول الساعة العاشرة كنت أشعر بوخز في عينيّ، وامتد الألم إلى ظهري وكتفيّ. استرخيت إلى الخلف، وتمطّيت، وحركت عنقي. ماذا الآن؟

في الطرف الآخر من الغرفة عند آلة أخرى ضغط أحدهم زر الإعادة إلى الخلف. حركة جيدة، سأعود إلى الخلف. ولدت إليزابيث في كانون الثاني، لذا سأفتقد تلك التي كانت فيها النطفة والبويضة الصغيرتان تتعرفان على بعضهما

حسبت بالعد ووضعت علماً في جهاز العرض، نيسان 1845 الإعلانات، وأوقات الانطلاق، ولوائح المسافرين نفسها في الصحف الإنكليزية والفرنسية.

عندما وصلت إلى لا برس أصبح التركيز صعباً. نظرت إلى ساعتي وكانت تشير بين الحادية عشرة والنصف، بقيت عشرون دقيقة أخرى.

وضعت ذقني على قبضتي وضغطت زر الإرجاع إلى الخلف، وأوقفت الفيلم عند شهر آذار. كنت أتقدم ببطء، وأتوقف هنا وهناك لأنظر إلى وسط الصفحة، عندما رأيت اسم بلانشار

شددت قبضتي ووضعت المقال تحت بؤرة العدسة، وكان موجزاً. كانت يوجين بلانشار، ابنة الشهير وزوجة آلان سيكول، ستغادر باريس بصحبة اثني عشر شخصاً وستعود بعد الموسم. وباستثناء بعض الشعر الذي يقول كم سيفتقد الناس إليها لم يكن هناك شيء آخر

إذاً، لقد غادرت يوجين البلدة! متى عادت؟ أين كانت في رحلتها؟ هل ذهب آلان معها؟ هل انضم إليها لاحقاً؟ نظرت إلى ساعتي، تباً.

تفقدت معطفي، ومددت يدي إلى داخل حقيبتي، ثم طبعت أكبر عدد من الصفحات التي تسمح بها نقودي، وأعدت الأفلام وأسرعت عبر الحرم الجامعي إلى قاعة بوركس

كان سائب جيرت منقطعاً وموصعاً، لهذا اتجهت إلى مكتب القسم. أبعدت أمينة السر عينيها عن شاشة حاسوبها وقتاً كافياً لتطمئنني إلى أنه سيتم تسليم المقالات بأمان. فأرفقت بها ملاحظة شكر وغادرت.

في أثناء سيري عائدة إلى الشقة، كان ذهني لا يزال مشغولاً بالتاريخ. تُرى، أكانت المدارس الفلسفية الكبيرة كما كانت قبل قرن مضى (بمحاورها)، ماذا كان السكان يرون عندما ينظرون إلى خارج منازلهم نحو نيويورك؟ ليس متحف الفنون الجميلة أو ريتشي - كارلستون (مثلاً) أو آخر عروض رالف لورانس وجورجيو أرماني، ومشغل فيرساتشي (مصمم أزياء).

لست أدري إن كانوا سيحبون مثل هؤلاء الهواة العاملين في مجال الأزياء، سيكونون متاحين من دون شك أفضل من مستشفى الجدري الذي أعيد افتتاحه في مكان ليس ببعيد عن ساحاتهم الخلفية.

حين وصلت إلى الشقة، تفقدت جهاز تسجيل المكالمات وأنا خائفة من تفويت مكالمة هاري، لكن لم يكن هناك شيء. أخذت خطوة بسرعة، ثم قدت سيارتي إلى مستوصف لتوقيع التقارير. وعندما غادرته وضعت ملاحظة على مكتب لامانش أذكره فيها بموعد عودتي. عادة أمضي معظم شهر نيسان في شارلوت، لكنني أعود إلى مونتريال مباشرة للإدلاء بإفادتي أمام المحاكم أو من أجل قضايا ملحّة. وفي أواخر أيار ومع نهاية فصل الربيع الدراسي، أعود لتغطية فصل الصيف هناك.

بعد أن عدت إلى المنزل مجدداً، أمضيت ساعة في حزم مواد العمل وتنظيمها. وبالرغم من أنني لا أسافر خفيفة عادة، إلا أن الملابس ليست مشكلة. فبعد سنوات من الانتقال بين بلدين، وجدت أن الأمر سيكون أكثر سهولة إذا احتفظت بنسختين من كل شيء. أمتلك أكثر حقيبة في العالم من مجلات، وأملأها بكتب وملفات ومقالات ومخطوطات ومسودات محاضرات، وأي شيء آخر أعمل عليه. وتضمنت هذه الرحلة أرطالاً عدة من نسخ بيروكس (آلة نسخ).

استقلت سيارة أجرة إلى المطار عند الساعة الثالثة والنصف، ولم يكن هاري قد اتصلت.

ربما أصبحت في أكثر المباني تميزاً في تشارلوت. إذ إنّ شقتي هي أصغر شقة في مجمّع سكني يدعى قصر شارد، وهو عقار يمتد على مساحة فنادق ومصف ويقع في عشره مأجور. لا تشير الوثائق العقارية بل الوظيفة الأصلية لبناء القصر، واليوم مع الافتقار إلى تسمية أفضل، يدعوه السكان مجمّع منـزل العربة، أو الملحق فقط.

بُني العقار الرئيس في قصر شارد في العام 1913 كمنـزل لتاجر أخشاب كسير، وعند وفاة زوجته خلال العام 1954، تمّ تحويل منـزل ملوريجي الذي تبلغ مساحته 7500 قدم مربع لكلية كوينز، واحتفظت بداخله قسم الموسيقى فيها حتى منتصف الثمانينيات التي شهدت بيع العقار والقصر ومنـزل العربة وتحويلها إلى شقق. في ذلك الوقت، أُضيفت إليه أجنحة وملاحق وعشر شقق صغيرة تتوافق كلها مع طراز منـزل الأصلي. وتم استخدام آجر قديم من جدار ساحة المنـزل خلال تشييد الأبنية الجديدة، وخشب الموقد والشكل والأرضيات الخشبية مطابقة لطراز عام 1913 المعماري قدر المستطاع.

في بداية الستينيات شُيّد بناء إلى جانب الملحق، واستُخدم المبنى الصغير كمطبخ صيفي، وحالته بعد الإهمال في غاية للطالب يستخدم كمخزن في العقدين التاليين. خلال العام 1993 اشترى مدير في مصرف ميــر الملحق وحوّله إلى أصغر منـزل ممكنة في العالم، وضم إليه البناء الصغير ليصبح جزءاً من غرفة معيشة الرئيسة اشتراه في الوقت الذي مضى فيه تدهور علاقته الزوجية إلى البحث عن سريات سكن بديلة. لديّ ما يزيد قليلاً عن ثمانمئة قدم مربع في ملابسي، وبالرغم من ألف شقة صغيرة، إلا أني أحبها.

كان الصوت الوحيد المسموع في مسيري هو تكتكة ساعة الطاولة التي أحتفظ بها. كان بيت بأول إلى المكان، وكم كنت أودّ أن يشعع نحوي ويعانقني. ناديـــ بوديه بكنه لم يظهر. علّقت سترتي في غرفة الردهة ورفعت الخشبية على السلالم الضيقة إلى غرفة نومي

"بود؟".

لم يجب بحواله أو يظهر بوجهه الأبيض المكسو بالوبر عند الزاوية

في الأسفل، وجدت ملاحظة على طاولة المطبخ كان بيت لا يزال يعني بسيودي، لكنه سيذهب إلى دفتر يوم الأربعاء لمدة يوم أو يومين، ويريد من أحد

انقطع في موعد العشاء تقريبا. كان جهاز تسجيل المكالمات يومض مثل مصباح طوارئ وعلى نحو مناسب، كما فكرت.

نظرت إلى ساعتي وكانت تشير إلى العاشرة والنصف. لم أكن أرغب في الخروج من المنزل.

اتصلت برقم بيت، رقمي الخاص لسنوات طويلة. وتخيلت الهاتف على جدار المطبخ، والشق على شكل (7) في المقبس الأيمن من العلبة. أمضينا أوقاتاً طيبة في ذلك المنزل، خاصة في ذلك المطبخ، وتذكرت الفسحة أمام موقد، وطاولة خشب الصنوبر القديمة المصمتة. كان الضيوف يتساقون من تلك الغرفة، بغض النظر عن المكان الذي كنت أوجههم إليه.

سجل الجهاز بالحياة، وطلب صوت بيت ترك رسالة قصيرة. وهذا ما فعلته اتصلت بماري، وتركت الرسالة نفسها ولكن بصوتي.

شغلت رسائلي. بيت، رئيس قسمي، طالبان، صحيفة تدعوني إلى حفلة يوم الثلاثاء الماضي، ماري، مكالمتان من دون رسالة، صديقتي الحميمة آن. ليس هناك القسم أوحشه أرتاح دائماً عندما يمضي المصورون كما يمضون من دون أن يجعلوا كوبوث التهب أو لا تزال تحدث

كنت قد نظفت الفرن وتناولت بيرة بمتعة وعلى وشك الانتهاء من تفريغ حقائبي عندما رنّ الهاتف.

"رحلة جيدة؟"

"ليست سيئة. الأمور المعتادة نفسها"

"يقول بيت إنه سيحكم التساسة".

"من أجل؟"

"الانفصال"

"يمكن أن يربح القضية على مشكلة؟"

"إذا كان في مقدوره جمع الأنصاب"

"ماذا في مقدوره؟".

"شهادته الأمور المعتادة نفسها".

"هل يمكنني أحد يوردني هذا؟ أنا مستيقظة منذ السادسة ومرهقة حقاً"

"فهمت أن هاري قد زارك"

قلت بعفة: "ليس الأمر كما تظن" لطالما كانت شيمبق مصدر علاقي مع ربي بيت.

"مهلاً، مهلاً لحظة، كيف حالك؟"

"أنا بخير"

"لا بأس بالغد أي ساعة؟".

"إنه أول يوم لي بعد عودتي، لذا أعرف أني سأتأخر. على الأرجح عند الساعة السادسة أو السابعة"

"لا مشكلة. تعال بعد السابعة وسأطعمك"

"أنا ..."

"من أجل يودي. يجب أن يرى أننا لا نزال صديقين. أظن أنه يشعر أن ذلك مهم"

"صحيح"

"لا تريدين أن تخضع لعلاج عند طبيب بيطري"

ابتسمت بيت.

"حسنٌ، يمكنني سأحضر شيئاً"

"لا بأس بذلك"

كان اليوم التالي حافلاً بنشاط أكثر مما توقعت. استيقظت عند السادسة، ووصلت إلى الجامعة عند السابعة والنصف. وبحلول الساعة التاسعة كنت قد تفقدت رسائلي الإلكترونية، وفرزت بريدي، وراجعت محاضرات محاضراتي.

صححت أوراق امتحانات كلا الصفين اللذين أقوم بتدريسهما، وظللت باقية في المكتب إلى ما بعد الوقت المعتاد. أراد بعض الطلاب مناقشة علاماتهم، واحتاج آخرون إلى تقديم التماس لتعويضهم الامتحان بموت أقرباء دائماً في أثناء الامتحانات، وتصف كل أنواع الأمراض الشخصية بالطلاب الذين سيخضعون للاختبارات. ولم يكن ذلك الفصل الدراسي استثناء.

حضرت اجتماع لجنة المناهج والموارد الجامعية عند الرابعة، حيث أمضيتها تسعين دقيقة وعي مناقشة إمكانية قيام قسم الفلسفة بتغيير اسم مادة السنة النهائية عن توماس إكويني (فيلسوف). عدت إلى مكتبي لأجد ضوء هاتفي يومض برسائل.

طالب آخر مات خالته، ورسالة مسجلة من أمن الجامعة تحذّر من عمليات اقتحام مبنى العلوم الطبيعية.

ترتّب بعد ذلك مهمّة الإتيان برسوم بيانية ومرجعية وقوالب، ووضع لائحة بالمواد التي أعطيها لمساعدي لتحضيرها لإجراء اختبار في المختبر في اليوم التالي، ثم أمضيت ساعة في المختبر لأتحقق إن كانت العينات التي اخترتها مناسبة.

عند الساعة السادسة أوصدت كل مخارجي وبابه المختبر الخارجي. كانت أروقة مبنى كونهارد خالية وهادئة. ولكن، عندما انعطفت حول الزاوية باتجاه مكتبي فوجئت لدى رؤيتي شابة تتكئ على بابي.

"هل يمكنني مساعدتك؟"

"أنت... لا أسمع، قرعت الباب". تكلمت من دون أن تستدير، ولم أستطع رؤية وجهها "ذهبت إلى المكتب الخطأ" انتفضت عندما كانت تقول ذلك حول الزاوية التي تقع وراء مكتبي واختفت.

تذكرت فجأة الرسالة التي تحدثت عن الدخول عنوة

انتبهي يا برنان. كانت على الأرجح تصغي السمع لتعرف إن كان هناك أحد بالداخل.

أدرت مفتاحي في قفل الباب. تبًا! كيف واثقة أني أوصدته أو أني لم أفعل ذلك؟ كنت أحمل أشياء كثيرة بيديّ فأغلقت الباب بقدمي، وربما لم يوصد كما يجب.

قمت بإجراء جرد سريع للغرفة. لم يكن يبدو أن شيئاً في غير مكانه. سحبت صندوق من درج الملفات السفلي وتفقّدت النقود، والمفاتيح، وجواز السفر، وبطاقات الائتمان. كان كل ما يستحق سرقته موجوداً هناك.

ربما كانت في المكان الخطأ، وعدت إلى القاعة فأدركت خطأها، وكانت على وشك أن تغادر المكان. في الواقع لم أرها تفتح الباب.

أياً يكن

حزمت حقيبتي، وأدرت المفتاح واعتمرت القبعة، ثم اتجهت إلى الباب.

تختلف تشارلوت عن مونتريال مثلما تختلف بوسطن عن بومباي. مدينة تعاني اضمحلال شخصية مركّبة، وهي بمثابة القديم الجميل وثاني أكبر مركز مالي في البلاد في الوقت نفسه. إنها مقر حانة سيلفيات لتشارلوت، ومصرف ميتشر، وفورست بوجونه ولوريا كارولينا، وكوروت حو. وتوجد فيها دور عبادة عند كل زاوية، مسح بمصطبة مشارب صغيرة حولها، ومواد رياضية ومطاعم، وطرقات سريعة مزدحمة، ولافتة مسمودة عادلة. ترعرع بيلي غراهام (رجل ملائكة) في مزرعة ماشية حيث يوجد الآن مركز تسوّق، وكانت نقطة انطلاق جيم باكر (مبشّر أميركي) مس نظر عبادة محلية لينتهي به الأمر في محكمة الحاجة. تشارلوت هي المكان الذي بدأ فيه النقل الإلزامي بالحافلات لإلغاء العنصرية في المدارس العامة، ومقر أكاديميات خاصة كثيرة، بعضها ذو توجّه ديني وبعضها الآخر علماني تماماً.

كانت تشارلوت مدينة تطبق سياسة التمييز العنصري حتى الستينيات ولكن، بعد ذلك بدأت مجموعة استثنائية من القادة السود والبيض العمل لدمج المطاعم، والمرافق العامة، وأماكن التسلية، ووسائل النقل. عندما أصدر القاضي جيمس بي. مكميلان أمر النقل الإلزامي بالحافلات في العام 1969، لم تقع أعمال شغب، وتحمّل القاضي الكثير من الضغط، لكن قراره صمد واعتبرت المدينة.

عشت دائماً في الحزام الجنوبي الشرقي من المدينة ديلورث، مايرز بارك، إيستوفر، وفوكسكروفت. وبالرغم من أنها بعيدة عن الجامعة، إلا أن هذه الأحياء هي الأقدم والأجمل، وتتكوّن مناطقها من الشوارع الملتفة التي تصطف على جانبيها منازل مهيبة ومروج كبيرة، تظللها أشجار دردار وبلوط ضخمة أقدم من الأهرامات. معظم شوارع تشارلوت، مثل معظم أهل تشارلوت، لطيفة وجميلة.

أنزلت زجاج نافذة السيارة وتنشقت هواء الليل في أمسية أواخر آب. كان أحد الأيام الانتقالية، ليس ربيعاً بعد ولكنه ليس شتاء، لطيفاً وجه ترتدي سترتك وتغيّرها عشرات المرات على الأقل. كان الخضار قد بدأ يظهر على وجه

الأرض أسفلت، وقريباً سيصبح الهواء عبقاً برائحة التراب والأرجوان والأزاليا. إنّ باريس في الربيع، تشاهدون أجمل مدينة على الكوكب.

تسمّي تلك عبارات في ما يتعلق بالمنعطفات التي يمكن أن أسلكها للوصول إلى المنزل من الجامعة. وفي تلك الليلة، قررت استخدام الطريق السريع، لهذا سلكت مخرج الطريق إلى جادة هاريس. كان السير على الطريقين الرئيسيين آي - 85 وآي - 77 سهلاً، وخلال خمس عشرة دقيقة كنت قد تجاوزت الأحياء السكنية في المدينة والمنطلقة نحو الجنوب الشرقي على طريق بروفيدانس. توقفت عند شركة البلاستك والمواد التموينية بطريق وتكر، ومعكرونة وسلطة قيصر، وخبز الثوم، وبعد الساعة السابعة بقليل كنت أقرع جرس باب بيت.

فتح الباب وكان يرتدي مئزراً جلدياً وقميص ركبي أحمر وأزرق مفتوحاً عند العنق. وكان شعره منتصباً بالرغم من أنه سوّاه بأصابعه. بدا بيت بحالة جيدة، وهو يبدو كذلك دائماً.

"لماذا لم تستخدمي مفاتيحك؟"

لماذا لم أستخدمه؟

"وأجد شقراء في المطبخ؟"

قال وهو يستدير بسرعة وكأنه يبحث بجدية: "هل هي هنا الآن؟".

"يكفي ذلك. يا بيت، اقفل الماء" ملأت يدي بالمعكرونة.

عندما تسلّق بيت الكيس، ظهر بودي ومدّ إحدى قائمتيه الطليقتين، ثم الأخرى، ثم جثم على قوائمه الأربع على نحو أنيق على الأرض. نظرت عيناه إلى وجهي، ولكنه لم يقترب.

"مرحباً بودي، هل اشتقت إليّ؟"

لم يتحرك القط.

قلت: "أنت محق، إنه متسرع".

رميت حقيبتي على الأريكة وتبعت بيت إلى المطبخ. كانت الكراسي عند طرف الطاولة مغطاة بأكوام بريدية، معظمها غير مفتوح. كان الأمر نفسه ينطبق على الكرسي الصغير أسفل الطاولة والرف الخشبي تحت الهاتف. لم تكن تلك مشكلتي آنذاك.

أمضينا ساعة لطيفة في تناول المعكرونة وفي التحدث بشأن كيتي وأمور أسرته الأخرى. وأخبرته أن والدته قد اتصلت لتشكو من تجاهله إياها، وطلبت منه الاتصال بها. فقال إنه سيفعل.

عند الساعة الثامنة والنصف حملت بروك إلى السيارة، وحزمت بيث بالأمتعة، إذ يسافر طفلي مع حقائب أكثر مني.

عندما فتحت الباب، وضع بيث يده فوق يدي.

"هل أنت واثقة أنك لا ترغبين في العشاء؟"

عدّ أصابعه وبيده الأخرى داعب بلطف شعري.

هل رغبت في البقاء؟ كانت لمسته رائعة، وكان العشاء طبيعياً حقاً، وربما كثيراً. شعرت أن شيئاً داخلي قد بدأ يذوب.

فكري يا برندا، أنت متعبة، وترغبين في ذلك. انسي صديقك

"ماذا عن حدودي؟".

"اضطراب مؤقت في النظام الكوني"

"لا أظن ذلك يا بيث. لقد تخطى الأمر. استمتعت بالعشاء"

هزّ كتفيه وأبعد يديه.

قال، "تعرفين أين أعيش" ومشى عائداً إلى المنزل.

كنت قد قرأت أن هناك عشرة ترليونات خلية في الدماغ البشري، وكانت كل خلاياي مستيقظة في تلك الليلة ومشغولة بتواصل مكثّف حول موضوع واحد: بيث. لماذا لم أستخدم مفتاحي؟

انتهت الخلايا على أن هناك حدوداً. إذ لا يتعلق الأمر بتحدي هناك حيث أعبر بعضي عتبة تجاوزه، وإنما باقتناء حدود حقيقية، حقيقية ورمزية.

لماذا الانفصال أصلاً؟ مرّ وقت لم أرغب فيه في شيء أكثر من الزواج من بيث والعيش معه باقي حياتي. ما الذي تغيّر بيني منذ ذلك الوقت وحتى الآن؟ كنت بالفعل عندما تزوجته. لكني هل كنت عاجزة أتخلى عمّا أصبحت عليه الآن؟ أم أن بيث تغيّر؟ هل كان بيث الذي تزوجته ليس أهلاً للمسؤولية ولا يمكن الاعتماد عليه إطلاقاً؟ هل فكّرت مرة أن ذلك جزء من جاذبيته؟

قالت الخلايا التي بدأت تبدو مثل أحجية سمي كاش.

ما الذي حدث سابقاً وأدّى إلى انفصالنا الحالي؟ أي قرارات اتخذناها؟ هل كنا سنتخذ تلك القرارات الآن؟ هل كنت أنا السبب؟ بيت؟ القدر؟ ما الخطأ الذي وقع؟ أو أن ما حدث كان صواباً؟ هل كنت على درب جديد، لكن صحيح، وانتهى الأمر إلى حيث يجب أن يأخذني؟

قالت خلايا الدماغ إن تلك أسئلة صعبة.

هل كنت أرغب في إقامة علاقة مع بيت؟

نعم بإجماع خلاياي كلّها.

جادلت بأنها كانت سنة عصيبة في ما يخص العلاقة الحميمة.

كلمات منتقاة على نحو مثير للاهتمام، كما أشارت مطرقي. عصيبة. إنّ عدم إقامة علاقة يدل ضمناً على تعطشي إليها.

اعترضت لأنه كان هناك ذلك تعاطي في مونتريال.

أقسم المراكز قطعاً أن تلك العلاقة لم تكن تحرّه. تلك الرحلة لم تحرك الإبرة. يصل القولون إلى المنطقة الحمراء مع هذا الرجل.

ليس هناك جدال مع الدماغ عندما يكون بتلك المزاج.

14

يـوم الأربعـاء كتب قد وصلت للتو إلى الجامعة صباحاً عندما رنّ هاتف مكتبـي. أصابني صوت رايان بالدهشة.

قال بحدة: "لا أريد تقريراً عن القصص".

"أقل من متوقع واضح مرهماً وقتاً من الشمس".

"لديك نـزعة شريرة حقاً يا برنادا".

ثم أنهى بصوت شقي.

"لنتكلم عن سالت – سوفايت".

"تفضَّل". أمسكت قلماً وبدأت أرسم مثلثات.

"عرفنا أسماء الضحايا الأربع في سانتي".

انتظرت.

"كانت أسرة. أم، أب، وصبيان توأم".

"لا نعرف ذلك سبقاً".

سمعت خشخشة ورق.

"بـرايان غيلسـبرت، ثلاث وعشرون سنة. هايدي شنايدر، عشرون سنة. ملاحي وماتياس فيلوب. أربعة شهور".

لمست برصاص المجموعة الأساسية التي رسمتها مع مثلثات ثانوية.

"ستظهر معظم النساء من عمري".

"لست كمعظم النساء".

"هل أنت منزعجة مني؟"

"هل يجب أن أنزعج؟".

عضضتُ من الضغط على الطواحن وملأت رئتي بالهواء. لم تُجِب لوقت طويل.

"لم تكن شركة البريد الكندية سريعة كالعادة، لكنّ سجلات الهاتف وصلت أخيراً بسرعة الأثير. الرقم هو الهاتف الوحيد الذي تم الاتصال به في السنة الماضية كان لمنطقة مفتاحها ثمانية - أربعة - ثلاثة"

توقفت عند منتصف مشيتي.

"يبدو أنك لست الوحيدة التي تعرفين أحداً في ديكسي".

"طريف."

"الأيام تحلو هناك لا تُنسى".

"أين؟"

"بيوفورت، كارولينا الجنوبية"

"هل يمكن أن تتكلم بوضوح؟"

"كانت السيدة المحصور تتصل باستمرار، ثم توقفت المكالمات في الشتاء الماضي"

"إلى أين كانت تتصل؟"

"إنه على الأرجح منزل. سيزوره الشريف المحلي اليوم"

"ذلك هو مكان الذي عاشت فيه تلك الأسرة الهاربة؟".

"ليس تماماً" حكّت صلة بيوفورت تفكّر. كانت المكالمات منتظمة جداً، ثم توقفت في الحادي عشر من كانون الأول. لماذا؟ حدث ذلك قبل ثلاثة شهور من الحريق. هناك شيء يزعجني في الأمر، منذ الشهور الثلاثة. ثم تذكرت. إنها المدة التي قال الجيران إن الزوجين والطفلين مكثوا فيها في سانت - جوفايت. أنت قلت إن عمر التوأمين أربعة شهور، لذا استنتجت أن هذين الطفلين وُلدا في بيوفورت، وأن المكالمات قد توقفت عندما وصلوا إلى سانت - جوفايت"

تركته يعطي لحظةً.

"تحدثت لمستشفى بيوفورت العام، ولكن لم يولد صبيان توأم هناك في السنة الماضية. حاولت بعد ذلك مع العيادات، ولكن من دون جدوى. تذكّروا الأم

في...." فلويد من مستشفى الأوراق". "عيادة جاسو – ينبوع الطبية الشاملة في سانت هيلينا، تلك جزيرة".

"أعرف ذلك يا ريهان"

"إنها عيادة صحية ريفية، معظم أطبائها وممرضاتها من السود. تكلمت مع إحدى الطبيبات هناك، وبعد أخرى لتحاد عن سرية سجلات المرضى، أقرّت أن عاملة حاملاً تطابق عليها الأوصاف نفسها. كانت المرأة قد جاءت إليها حاملاً في شهرها الرابع، وبدا أن معها نقوداً. قالت الطبيبة إنها تتذكر عهدي لأنها بيضاء وبسبب الوشم".

"إذاً أنجبت هناك؟"

"لا. السبب الأمر الذي جعل الطبيبة تتذكرها هو أنها اختفت. فلقد التزمت المرأة بمواعيدها حتى الشهر السادس من حملها، ثم لم تعد قط"

"متى؟"

"هذا كل ما تكلّمت عنه إلى أن أرسلت لها عبر الفاكس صورة من التشريح. أظن أنها ستُرى ذلك في يومها بعض الوقت. عندها عاودت الاتصال بي كانت أكثر تعاوناً. لم تكن المعلومات التي زودتني بها مفيدة جداً، لأن عهدي لم تترك البطاقة عندما ملأت استمارة التسجيل. فقد كتبت أن والدها هو ريفان طبوسته وعنوان السكن في شوغر لاند بكساس، وتركت خانتي العنوان الحالي ورقم الهاتف خاليتين"

"ماذا في تكساس؟"

"تأكد من ذلك يا سيدي"

"لا تبدأ يا ريهان"

"ما مدى كفاءة الشرطة في بيفورت؟"

"لا أعرفهم حقاً. على كل حال، ليست هناك سلطة قضائية في سانت هيلينا. إنها مزرعة مستقلة، وهذا من اختصاص الشريف"

"حسن، سنقابله؟"

"نحن؟".

"سأسأل عنه حتى حالة الأحد ويمكنني الاستعانة من ظهر عملي. نعرض شخص يتكلم اللغة ويعرف العادات المحلية. ليست لدي فكرة كيف تأكلون الوحل"

"لا يمكنني القسم بسمكك. ستأتي كي بي المنزل في الأسبوع القادم، وبالإضافة إلى ذلك، بيمورت هي طعي دهسنا على الأرض إذ اصطحبناه في جولة. وهو شيء لن أفعله على الأرجح، فلن يكون هناك خلال عمت"

"لو لماذا"

"ماذا؟"

"ماذا بأكل أحدهم الوحل؟".

"اسأل مدرب سبروس (مؤلفة ونشرة)"

"فكري في الأمر"

لا داعي لذلك. كانت بي أن ألتقي بوبان في بيمورت مثل بين أن أصبح نفسي كامرأة غير مرتبطة في قسم/المتحمس جاملون/أشخاصاً في صحيفتي الحية

"هذا هو مختص مفتشين في الأعلى" عودة إلى ساعت جرفيس.

"لا تزال تعمل على ذلك".

"هل ظهرت أنا حويت؟"

"لا فكرة لدي"

"هل هناك تطورات في جريمة القتل التي يعمل عليها كلونيل؟"

"أي جريمة؟"

"الفتاة الحامل المحترقة"

"لا شيء على حد علمي"

"أنت ببوح معلومات. أعلمي بما تكتشفه في تكساس"

أقفلت المكالمة وحررت كولا للحمية. لم أكن أعرف في ذلك الوقت، لكنه كان يوماً حافلاً بمكالمات هاتفية

طوال فترة بعد الظهر، عملت على بحث اعتزمت تقديمه في اجتماعات الجمعية الأمريكية لعلم الإنسان الطبيعي في مدينة نيسان. وشعرت بالضغط الناجم عن ترك أمور كهذه حتى اللحظة الأخيرة

عند الثالثة والنصف، كنت أفرز صور جهاز التصوير المقطعي المحوري عندما رنّ الهاتف مجدداً.

"يجب أن تعرفي أكثر".

"بحث بعمق يا ريان"

"العنوان في تكساس حسناً، شنايدر. وجدتُ للوالدين اللذين بالمناسبة لا يعرفان شيئاً عن كاتي (فيلم 1985)، بعد مجاملة بريان وهايدي في وقت ما من شهر آب وبقيا معهما حتى ولادة الطفل. رجعت هايدي لمشاركة في برنامج العناية بالحوامل وأنجبت في المنزل على يد قابلة. كانت ولادتها سهلة ومن دون مشاكل، وكان الاثنان سعيدين. ثم زار رجل الزوجين في بداية كانون الأول. وبعد أسبوع، وصلت سيدة عجوز تقود شاحنة صغيرة مغلقة وغادروا معها

"إلى أين ذهبوا؟".

"ليس لدى الوالدين أي فكرة. لم يكن هناك اتصال بعد ذلك"

"من كان الرجل؟".

"لا فكرة لديهما، لكنهما قالا إن ذلك الرجل أخاف هايدي وريان كثيراً. وبعد أن غادر، حزما الطفل ورفضا الخروج من المنزل حتى وصلت السيدة العجوز إلى هناك. شنايدر الأب لم يحبّه أيضاً".

"لماذا؟"

"لم يحب مظهره. قال إنه ذكّره .. دعني أتأكد من ذلك" تقلّبت ريان بين صفحات في دفتر ملاحظاته. " ... غريب لعين. يشبه بنيج، ألا تظنين ذلك؟"

"الأب يقرأ إبسن (شاعر وكاتب مسرحي نرويجي) بانتظام. أي شيء آخر؟"

"التكلم مع هذين الشخصين مثل التكلم مع بغالي. لكن، كان هناك شيء آخر".

"لديك طاقم؟"

"قالت الأم إن هايدي وريان كانا عضوين في جماعة من نوع ما، وأنهم كانوا جميعاً يعيشون معاً. أأنت مستعدة للآتي؟"

"لقد التقطت للتو أربعة أجراس إنذار، هات ما لديك".

"في بيوفورت، كارولينا الجنوبية"

"ذلك مطوّر"

"مثل برونو ماغلي (صانع أحذية إيطالي) في محاكمة أو. جاي. سيمبسون".

"ماذا فعلا عن ذلك؟"

"قابلت براين وهايدي في الكلية قبل سنتين، وانقطع كلانا عن الدراسة بعد وقت قصير من ذلك. كانت الأم تشاهدنا على أنه من أوهايو، وقالت إن كلامه حسنٌ. نحن نحاكمه من ذلك".

"هل حوكمتما؟"

"نعم".

للحظة لم يتكلم أي منا. إنّ نقل نبأ وقوع جريمة هو أسوأ جزء من عمل تحقيق، وشيء أخشاه معظمهم.

"لا يزال في مقدوري الاستعانة بك في بيفورت"

"لا يسرني مرور معظم الشيء على حاله. هذا عمل الشرطة ولا دخل للطب الشرعي به"

"إنّ معرفة المسؤول تسرّع عملية إلقاء القبض عليه"

"لا أعرف إن كان في مقدرتي أي مسؤولين"

بعد عشر دقائق رنّ الهاتف مجدداً.

"صباح الخير تمبرانس كيف حالك؟"

لاماتش. لم يضيع رايان وقتاً، وهذا نابع من قضيته حيناً. هل يمكنني مساعدة الملازم المفتش ويسلا عبد القضية في بيفورت؟ كان ذلك تحقيقاً حساساً حتماً، ووسائل الإعلام تتطلع. كان في مقدوري المطالبة بأتعاب مقابل وقتي وستتم تغطية مصاريفي.

ومض ضوء الرسائل في حين كنا نتحدث مشيراً إلى أنني لم أرد على مكالمة وعدت لاماش أني سأفكر في ما يمكنني فعله، وأنهيت المكالمة

كانت الرسالة من كيتي، وتقول فيها إن عطلتها للأسبوع القادم قد تغيّرت ستأتي إلى شارلوت في عطلة نهاية الأسبوع، لكنها تريد الانضمام بعد ذلك إلى أصدقائها في جزيرة رأس هيلتون.

عندئذ استرخيت إلى الخلف لأحدّق عظيم أفكاري. انقلبت عيناي إلى شاشة الحاسوب وإلى البحث غير المحرز يحكي وكي أنطلق إلى بيفورت في عطلة

نهاية الأسبوع، ويمكنني العمل عليه هناك. ثم تذهب هي إلى ولي جرانود وأبقى أنا لمساعدة ريان. سيكون لامانثر سعيداً، وسيكون ريان سعيداً. والله يعرف أنني في مقدوري الاستفادة من العمل الإضافي.

كانت لدي أسباب أيضاً لعدم الذهاب.

فمنذ أن العمل مسني ريان وصورة ملامحي تجول في ذهني. رأيت عينيه نصف المفتوحتين وصدره المشوّه، وأصابعه المصبوغة بالنيكوتين. فكّرت في شقيقته ووالديه الباكيين وحقيبته المدرسية. كان التفكير في تلك القضية يعطي كآبة، وأردت الابتعاد عنها لبعض الوقت.

تفقّدت مواعيد محاضراتي للأسبوع القادم؛ كان يجب أن أحضر غداً يوم الخميس ضمن منهاج التطور البشري. كنت أستطيع تغيير الموعد وسيبقى دون موهاسون (مؤلف متخصص بعلم الإنسان) مشرفاً بالقدر نفسه يوم الثلاثاء.

فسجلت موجزاً في مادة علم الطلاب لم أفتح المحتوى. أجريت اتصالاً سريعاً، لا مشكلة. ستعرف الكل على الأمر بعد نظّمت كل شيء هنا.

تفقّدت جدول أعمالي. ليس هناك المزيد من اجتماعات اللجنة هذا الشهر، وبعد العد، ليس هناك مواعيد للطلاب حتى نهاية الأسبوع القادم. كيف يحتمل أن يكون هناك مواعيد؟ كنت واثقة أنني رأيت كل طالب في جامعتي حتى أمس.

قد ينجح الأمر.

والحقيقة الواضحة أنني كنت ملزمة بواجب المساعدة إذا استطعت، بغض النظر عن حجم الإسهام الذي أقدمه. لم يكن في مقدوري إعادة القلوب بل رحيق ملامحي، أو إطلاق طرح القطع في صدره، ولم يكن في مقدوري القصاص على أي المجرمين، أو إعادته إليهما وحمايتهما إليهما. ولكن، قد أستطيع المساعدة على الإمساك بالمسخ المضطرب عقلياً الذي قتلهم وربما أستطيع إنقاذ ملامحي أخرى في المستقبل.

إذا كنت مقتنعة بفعل هذا النوع من العمل لا يرهقني نفسياً.

قضيت بيرايان فأخبرته أنني أستطيع مرافقته يومي الاثنين والثلاثاء وكنت سأعلمه بمكان إقامتي.

خطـــرت لي الفكـــرة أخـــيرًا، وعندما أجريت مكالمة ثانية، ثم اتصلت بكيتي، شـــرحت لها خطتي، فوافقت عليها "كانت ستقضي بـــين في المنـــزل يوم الجمعة ونذهب معاً بسيارتي"

أخـــيرًا: "أدعـــــي إلى العيادة الصحية الآن وقومي بإجراء اختبار جلدي لكـــشف مُسبِّبات الســـل (مرض التدرّن الرئوي)، حيث من الأفضل، لا الفحص الظاهري فقط. ثم احصلي على النتيجة يوم الجمعة قبل أن تغادري"

"لماذا؟"

"لأن لديّ فكرة رائعة لمشروعك، وذلك شرط ضروري، وعندما تكونين في العيادة احصلي على نسخة من سجل لقاحاتك"

"ماذا؟"

"ســـجل لكل لقاحاتك. يجب أن تقدّميه لتسجلي في الجامعة، وأحضري كل ما تقدّمه الأستاذ لتقويم المشروع العملي"

"لماذا؟"

"سترين"

15

أمضيت يوم الخميس في التدريس وتسليم الصحح إلى الطلاب، وبعد العشاء اتصلت لأطلب من بيت الاعتناء بمودي في عطلة نهاية الأسبوع، ثم اتصلت هاري عصر العاشرة لتقول إن سلطة الدراسية قد انتهت، وإنه تم حجزها للقاء الأستاذ ومستشار الصف في منزله يوم الجمعة، وتريد استخدام الشقة في عطلة نهاية الأسبوع

قلت لها إنه بإمكانها أن تمكث طالما أرادت ذلك. لم أسأل لمن كانت كل الأسبوع، أو لماذا لم تتصل. وكنت قد اتصلت بها مرات عدة ولم ترد، ومرتين منها بعد منتصف الليل. ولكني لم أتكلم عن ذلك أيضاً.

سألت: "هل ستلتقي ريان في لانكتون كوكورن في الأسبوع القادم؟"

"يبدو ذلك" شعرت أن أضراسي تضغط على بعضها. "كيف عرفت ذلك؟"

"سيكون الأمر ممتعاً".

"إنه مجرد عمل يا هاري"

"صحيح، لا يزال طريفاً ومرعباً في الوقت نفسه"

"كان أسلافه يرجمون الكماة".

"ماذا؟"

"لا عليك"

صباح الجمعة انتقيت شظايا عظمية، وكتبت أسئلة، ثم وضعت المجموعات على صوان. بعدة مساعدتي لكي البطاقات والعينات بترتيب عددي، وتحقق

أوقاتاً للطلاب في أثناء التنقل من عيّنة إلى أخرى. كان ذلك أبسط مجتمع عظام على الإطلاق.

وصلت كيسي في الوقت المحدد، وعند حلول الظهر كنا في طريقنا جنوباً. كانت درجة الحرارة تقارب الستين، والسماء بلون مغلفات غراند ستراند الإعلانية. وضعنا نظاراتنا وأنزلنا زجاج النوافذ لتجعل شعرها يتطاير. قدت السيارة واختارت كيسي موسيقى الروك أند رول.

سلكنا طريق آي - 77 جنوباً عبر كولومبيا، ثم اتجهنا عبر الجنوب الشرقي على طريق آي - 26، وجنوباً شرقاً على طريق آي - 95. وعندما وصلنا إلى ... غادرنا الطريق الذي يصل بين الولايات وسلكنا طرقات ريفية ضيقة. تكلمنا وضحكنا وتوقفنا عندما شعرنا برغبة في ذلك. تناولنا الشواء في مطعم موريس ... والتقطنا صوراً عند أنقاض دار عبادة شلدون - الأمير ويليام المتمثلة التي حرقها شيرمان (ويليام تيكومسه جنرال في الحرب الأهلية الأميركية) بعد زحفه نحو البحر. وانتابني شعور بالذنب لأنني غير ملتزمة بجدول معين، ولأنني مع ابنتي، واتجه إلى الجهة الأصعب إلى ... على الأرض.

أخبرتني كيتي عن مواقعها الدراسية، والرجال الذين كانت تواعدهم، وحسب كلماتها، ليس بينهم حكة كبيرة. وأخبرتني قصة الثرثرة التي كانت مختلطة بمصالة الـسلك، والتي هدفت عطلتها عطلة الربيع، ووصفت الضباب اللوني مشاركين السخية في رالي هيمستود. وضحكتُ حتى تألمت بطني. كانت تلك ابنتي، غزمتها العيب الذي يعيش حنانها. لم أشعر من قبل أنني قريبة منها إلى هذا الحد، وفي بعض الأحيان شعرت أنني بالغة ومتحررة ونسيت الطفلين الفكيلين.

تجاوزنا القاعدة الجوية التابعة للبحرية في بوفورت، ووصلنا ليلاً عند مبنى - لسر (مركز تسوق)، ثم تابعنا طريقنا عبر البلدة وعبر جسر ونهر ميموريان إلى جزيرة السينيه، عندما أصبحنا فوق الجسر استدرت ونظرت نحو مختلف إلى الواجهة البحرية لبوفورت. كان المنظر مرفوعاً دائماً روحي المعنوية.

أصبحت المرتفعات في طريق قرب بوفورت، وكذلك معظم حقول السيف كالمعتاد، ولم تبدأ تلك العلاقة تترعرع إلا مؤخراً، عندما بدأت العمل في مونتريال، شهدت انتشار سلاسل مطاعم الوجبات السريعة وشيد مركز حكومة

القاطعة، الذي يدعوه السكان المحليون تاج محل. تم توسيع الطرقات، وأصبحت حركة السير أكثر ازدحاماً. تخصص جزر الأد شققاً ومنتجعات خوالف، لكن شارع الخليج بقي على حاله ولا تزال الملاجئ الكبيرة تحتفظ بمخاضة من قبل الحرب، وظلالها أشجار السنديان التي تتدلى من أغصانها الأشنة الإسبانية الأشياء القائمة قليلة في المياه، وأجد صعوبة في الإيقاع العظيم للحياة في بيروت، فالرس نفسه يصبح بطيئاً على امتداد البحر السرمدي.

وبينما كنا منحدرين على الطرف الآخر للجسر، رأيت أمامنا وإلى اليسار مجموعة من القوارب الراسية في خليج الحمل، وهو مساحة صغيرة من الماء قبالة بر بيلوكسي. كانت شمس بعد الظهيرة تتلألأ على رفائفها وتلمع بدرجة لونيض على صواري المراكب وسطوحها. أخذت سيارتي تصعد من أعلى حتى الطريق الرئيسي 2، ثم دخلت مساحة ركن السيارات أمام مطعم أولي للمأكولات البحرية، وكانت طريقي بين أشجار سنديان، وتوجهت نحو المنطقة الخلفية من المرأب وتوقفت عند حافة دونه.

حملت وكيل أكياس البقالة وحقيبة التخييم وعبرنا ممشى من أولي إلى مرسى جزيرة السيدة. على كلا الجانبين كانت الأرض تمتد منبسطة، وتبرز منها أعشاب خضراء بين قش السنة الماضية الداكن. صدحت طيور النسمة معترضة على مرورنا، وسمعت بين الأعشاب والنباتات. تشكلت الرائحة المثيرة للماء المالح قليلاً والبعضور، والطبقة النباتية المتحللة، وشعرت بالسرور لعودتي إلى الريف.

يمتد الممشى من الشاطئ مئتي قدم عبر مقر إدارة المرسى، وهو مبنى أبيض مربع الطابق الثالث فيه صغير ويمتد على طول سطحه، وفيه ممر مفتوح في الطابق الأول إلى يمسنا. كانت هناك أبواب مفتوحة تؤدي إلى مغاسل وغرفة ملابس وتشغل مكاتب أليكس ريالتي وهي شركة نسج الأشرعة، ومكتب مدير ميناء الساحة إلى يسارنا.

مررنا عبر المبنى، ومشينا على ممر طافٍ مؤلف من ألواح خشبية ألصقت، وعبرنا إلى أبعد الأرصفة البحرية. وبينما كنا نسير عليه، ألقت كيي نظرة على كل مركب تجاوزناه. إيكستاسي ووول يبلغ طوله أربعين قدماً من موروفوليث، موجهنا نحو بسالم قارب يبلغ طوله ثلاثاً وأربعين قدماً ذو هيكل فولاذي ولشرعه تكتي

سنوات حول العالم. ميلبكي هيمن ثقب تقليدي صُنع عام ألف وتسعمئة وثلاثين كان بحالة ممتازة في ما مضى، ولكنه أصبح اليوم متهالكاً ولم يعد مناسباً للإبحار كان ميلاني لمس المركب الأحمر إلى البعيد. حدّقت كيتي إلى كريس كرانك البالغ طوله المتين وكريس فمه، لكنها لم تقل شيئاً.

لقد رأت أصبع الأخرس التي أحنى على الرصيف: "انتظري هنا ثانية".

مشيت خطوات على الجزء الخلفي من المركب، وصعدت إلى الجسر، وضغطت الأرقام الخاصة بفتح صندوق المفتاح إلى يمين مقعد القبطان، وأخرجت مفتاحاً استخدمته لتفتح باب المدخل الخلفي، وقفت وراء الباب الأرضي إلى الممرات وسمرت المرحات ثلاثاث بين القمرة الرئيسية في الداخل، كان الهواء بارداً وتفوح منه رائحة الخشب والرطوبة والتعفن تحت سطح الجانبي، فاولتن كيتي طعامنا وخففت التنفيس، ثم صعدت إلى متن المركب.

من دون أي كلمة وضعتُ رأسي كل ما كان موجوداً في الصالون الرئيسي، ثم درنا حول المركب، ونظرنا إلى الديكور. كانت عادة قد بدأناها وهي يافعة جداً، وبغض النظر عن المدة التي سأعيشها، سيبقى نظره يقفتن لدي هو إلهامي في أماكن غير معروفة. لم يكن ميلاني شيء غير معروف لكني لم أصعد إلى متنه منذ خمس سنوات، وأنا أتحرق شوقاً لرؤية التغييرات التي كان سام قد وضعها

كشفت معاينتنا للمكان عن مطبخ ينخفض درجة واحدة عن الصالون الرئيسي. كان فيه موقد بمحراقين، ومغسلة، وثلاجة خشبية بقبضة عتيقة الطراز كانت الأرضية من الباركيه، والجدران من خشب الساج، وعلى ميمنة المركب، كان هناك ركن لتناول الطعام، ووسائد بالنبي، الوردي والأخضر، وفي مقدمة مطبخ خزانة طعام، ومقصورة بشكل (7) كبيرة بما يكفي لنوم شخصين.

تقع المقصورة الرئيسية في الجزء الخلفي من المركب، وفيها سرير كبير الحجم وجوارير مخططة عراية. وكما في الصالون الرئيسي وركن تناول الطعام، كانت مبنية من خشب الساج ومزركشة بأوراق نقش لامعة. بدت كيتي مرتاحة لرؤية حمام في الغرفة الرئيسة.

قالت كيتي: "هذا رائع. هل يمكني الحصول على المقصورة الصغيرة؟"

سألت: "هل أنت واثقة؟".

"شكراً، تبدو أنيقة جداً وسأحمل منها علباً صغيراً لي، ولنضع كل أغراضي على تلك الرفوف" وقلّدت بحركات يديها وكأنها ترتب أشياء مخفية وتعدّل وضعها.

ضحكت. كان مشهد الفرس جورج كارين أحد العروض الكوميدية المفضلة لدي.

"إضافة إلى ذلك، لن أبقى هنا سوى ليلتين فقط، ولذا ينبغي لك أن تحصلي على السرير الكبير".

"حسن".

"انظري، يوجد رسالة تحمل اسمك" أمسكت بمغلف موضوع على الطاولة وناولتني إياه.

مزّقت طرف المغلف وأخرجت الرسالة.

أهلاً بالكبرياء متوقرّاته وهنا لن تحتاجي إلى شيء

اتصلي بي عندما تستقرين.

أريد أن أصطحبك لتناول الطعام.

سام

ركنا الحقائب، ثم ذهبت كي ترتب أغراضها في حين اتصلت أنا بسام.

"مرحباً عزيزتي، هل استقررتما؟".

"وصلنا منذ نحو عشرين دقيقة. يبدو جميلاً سام، ولا أصدّق أنه المركب نفسه"

"يمكن بقليل من المال والجهد العقلي إنجاز الكثير"

"هذا صحيح. هل تمكث في المركب؟"

"آه، نعم. ولهذا السبب يوجد هاتف وجهاز تسجيل مكالمات هناك. إنه شيء غير معتاد في ما يخص مركباً. ولكن، لا يمكنني تفويت رسائلي. استخدمي ذلك الهاتف كما يحلو لك"

"شكراً سام، أقدّر ذلك فعلاً"

"لا عليك. لا أستخدم المركب كثيراً، ويجب أن يقوم أحد بذلك"

"حسن، شكراً مجدداً".

"ماذا عن العشاء؟"

"لا أريد حقاً أن أزعجك —"

"لا عليك، يجب أن آكل أيضاً. سأخرج إلى سوق هاي سمآكولات البحرية لشراء أخضر (نوع من الأسماك) لوجبة سنعدها معاً. هل ما رأيك أن نلتقي على رصيف جيتي للنزهة، في المطعم على اليمين، بعد أرى مباشرة ومن المحسن ليس مكاناً جميلاً ولكنهم يعشرون قريباً لنلتقي؟"

"في أي وقت؟"

"إنها السادسة والربع ونحن عطلة الأحد. هل رأيت بالسابعة والنصف؟ يجب أن أذهب إلى المطعم لأتفق هاتل"

"بشرط واحد. أنا أطبخ."

"أنت امرأة صعبة المراس يا تحب"

"لا تعبث معي."

"هل لا نزال على موعدنا غداً؟"

"إذا كان الأمر يناسبك. لا أريد أن —".

"شيء مهم. هل أسرقتها؟".

"ليس بعد. لكنها ستكتشف الأمر عندما تقترب. أراك بعد ساعة"

ألقيت هاتفي على السرير، ثم صعدت إلى الجسر. كانت الشمس تغرب، فيما أعمر أشعتها لتصبغ العالم بلون قرمزي خلفي، وتضيء المستنقع إلى كهوف، وتنعكس على أبو منجل (طائر) أبيض يقف بين الأعشاب. كان الجسر يبرز بلون أسود أمام تلك الخلفية الوردية، مثل عمود فقري لوحش قديم يقوّس نفسه نحو السماء. كانت المراكب في مرسى المدينة تترنح من جانب بعضها عن الرصيف الصغير.

وبالرغم من أن النهار أصبح أبرد، إلا أن الهواء كان لا يزال حاراً. رفعت نسمة خصلة من شعري ووضعتها معقفة على وجهي.

"ما البرنامج؟"

كانت كيتي قد انضمت إليّ ونظرت إلى ساعتي.

"سنلتقي سام رايبورن لتناول العشاء بعد نصف ساعة"

"سام رايبورن (رئيس سابق لمجلس النواب الأمريكي) بلحمه وشحمه؟ كنت أظن أنه ميت"

"إنه كذلك. هذا الشخص هو عمة سبورت وصديق قديم"

"كم عمره؟"

"أكبر مني، ولكن لا يزال في مقدوره المشي. ستحبينه"

"مهلاً". أشارت بإصبع إليّ، واستطعت رؤية فكرة تلمع في عينيها، ثم قالت: "هل هو الرجل الذي يعمل مع القرود؟"

ابتسمت وأومأت برأسي

"هل هذا هو المكان الذي ستذهب إليه غداً؟ لأنه لا يحبني. بالطبع إنه هو لهذا السبب كان يجب أن أقوم بفحص الاختبار"

"أحببت المخلوقات، أليس كذلك؟"

قالت وهي تمد ذراعيها: "فرص بالماء المحمر في منتصف، لدي شهادة تثبت عدم إصابتي بالسّل"

عندما وصلنا إلى المطعم كانت شاحنة سام التجارية متوقفة في الساحة، وقد استضعف في الصيف الماضي رف سيارة توتسي، والقارب الشراعي كإضافة حديثة إلى لائحة طويلة من أدوات التسلية. لا أعرف أبداً إن كانت تلك الدمى طريقة سام في التعامل مع أزمة منتصف العمر، أو محاولة منه للاندماج في نشاطات الناس بعد سنوات من التركيز على نشاطات الرئيسيات.

بالرغم من أنه أكبر مني بعقد، إلا أني وسام صديقان منذ أكثر من عشرين سنة. عندما التقينا كنت طالبة في السنة الثانية بالكلية، وكان سام قد تخرّج منذ سنتين. انجذبت إلى بعضنا، كما أظن؛ لأن حياتنا في تلك المرحلة كانت مختلفة جداً.

سام من تكساس، والابن الوحيد لوالدين يهوديين يملكان متجراً للسكر بوجران فرغه. عندما كان في الخامسة عشرة من عمره لقي والده حتفه حاملاً عن صندوق يحتوي اثني عشر دولاراً، وأصيبت السيدة رايبورن، بعد وفاة زوجها باكتئاب لم تشف منه أبداً. حمل سام على عاتقه عبء إدارة العمل في أثناء دراسته

الثانوية بالإضافة إلى الاعتناء بوالدته. وعند وفاتها بعد سبع سنوات، باع البيت وانضم إلى مشاة البحرية. كان مسالماً وغامضاً، ولا يهتم بشيء.

لم تزد حياة الجيش سام إلا استغراقاً بالتأمل. ففي معسكر التدريب وجد أن سلوك زملائه المجندين مزعج جداً، ولهذا انطوى على نفسه أكثر. أمضى ساعات في مراقبة الطيور والحيوانات في أثناء خدمته في فيتنام، مستفيداً منها كملاذ من الأعمال المرعبة التي كانت تحيط به هناك. روّعته تجارب الحرب، وشعر بذنب عظيم لدوره فيها. بدت الحيوانات بريئة مقارنة بالبشر، ولا تحركها دوافع منظمة مصممة لقتل أخرى. أثارت القرود اهتمامه، على نحو خاص، في تنظيمها الجماعي والطريقة التي تحل بها صراعاتها بأقل خسائر جسدية ممكنة. ووجد سام نفسه معنياً بشيء ما حقاً وللمرة الأولى في حياته.

عاد سام إلى الولايات المتحدة والتحق بجامعة إيموري في أتلانتا - جورجيا (مقاطعة)، وحصل على إجازته الجامعية خلال ثلاث سنوات. وعندما التقيت به كان مدرساً مساعداً في قسم المدخل إلى علم الحيوان الذي التحقت به. كان مشهوراً بين الطلاب الجامعيين بأنه جاد تماماً، وضبط المسائل ويشرحها بسهولة، وخاصة من بطيئي الفهم الذين لا يستعدون جيداً لدروسه. وكان شديد التدقيق في التفاصيل وكثير المطالب، لكنه عادل جداً في تقويمه عمل الطلاب.

بعد أن عرفت سام عن كثب وجدت أنه يحب بصحبة الشمبانزي فقط، لكنه وليّ حميم لأولئك الذين يسمح لهم بالانضمام إلى حلقته الصغيرة. قال لي مرة إنه بعد قضائه سنوات عديدة بين الرئيسيات، فهو يشعر أن لا مكان له في مجتمع البشر. كانت وجهة نظر الفرد كما دعاها، قد تبنّت له بمحاكاة السلوك البشري.

تحول سام أخيراً إلى علم الإنسان الطبيعي، حيث أجرى أبحاثاً ميدانية في إفريقيا، وحاز درجة دكتوراه. بعد عمله لفترات قصيرة في عدة جامعات، انتهى به المطاف في نيوبورت في بداية السبعينيات كعالم مسؤول عن منشأة الرئيسيات.

بالرغم من أن الزمن جعل سام أبي العريكة، إلا أني لمحت في أنه فعل شيئاً يستهدف من ورائه لدى تواصله الاجتماعي مع الآخرين. ولا يعني ذلك أنه لا يريد الاشتراك في مثل ذلك التواصل، فهو جزء منه فعلاً، وقد أثبت ذلك عوزه عصب المحدة. لا تدور الحياة في نظر سام بالطريقة التي تدور بها في نظر الآخرين،

هل يشتري دراجات وأحجية سطوانا تقدم له إثارة ومتعة، لكن يمكن بالرغم من ذلك إدراكها والسيطرة عليها. سام رابيرون أحد أكثر الأشخاص الذين عرفتهم نشيطاً وذكاءً.

كان محامة العصبة على إلى المدرسة ويتابع مباراة كرة سلة، ويحتسي كأس شراب الشعير.

جلست بجانب العصريف، وكالعادة حول سام زمام المبادرة، فطلب كأس شراب شعير آخر لنفسه، وكولا ستحمية لي ولكيتي، ثم قادنا إلى مقصورة في الجزء الخلفي من المطعم.

لم تستطع ابنتي رفقاً فتأكيد شكوكها في ما يتعلق بخطط العد، فأمطرت سام بالأسئلة.

"منذ متى تدير مركز الرئيسيات هذا؟"

"منذ مدة طويلة حتى إنني لم أعد أكترث للتفكير في ذلك. عملت لدى شخص آخر قبل نحو عشر سنوات، ثم اشتريت الشركة لنفسي ووصلت إلى حافة الإفلاس، ولكنني سعيد لأنني فعلت ذلك. فلا شيء يفوق أن تدير عملك الخاص."

"كم عدد القرود التي تعيش على الجزيرة؟".

"حالياً نحو أربعة آلاف وخمسمئة قرد"

"من يملكها؟".

"وكالة الأغذية والأدوية. تملك شركتي الجزيرة وتتولى العناية بالحيوانات."

"من أين أتت؟".

"جيء بها إلى جزيرة موريزي من مستعمرة أبحاث في بورتوريكو. عملت وامسك هناك، في وقت ما سابقاً. لكنها أصلاً من الهند، من فصيلة مكاكي (قرد أحمر اللون قصير الذيل).

"مكاكي مولاتا" نطقت كيتي اسم النوع والفصيلة بصوت إيقاعي رتيب.

"جيد جداً. أين تعلمت مصطلح الرئيسيات؟"

"الجرس عشم النفس. وتم استخدام قردة مكاكي لإجراء كثير من الأبحاث تعرف، مثل هاري هارلو (عالم نفس أمريكي عمل مع القرود) وسلالته".

كـان سام على وشك أن يعلّق عندما وصل النادل حاملاً أطباق البطاطس والخضار باللحم والقريدس المطبوخ وسلطة الملفوف. ركّزا جميعاً على نقل الصلصة الحارة إلى أطباقهما وعصر الليمون وتقشير قشرته الأولى من القريدس.

"كيف تتم الاستفادة من القرود؟"

"نرسـل حيوانات موريري مستعمرة تناسل، ويتم عزل حيوانات عمرها نحو سنة ونرسلها إلى إدارة الأغذية والأدوية. لكن إذا لم يتم إلقاء القبض على أحـد الحيوانات في الوقت المحدد، فإنه يصل إلى ورد محدد، ويقضي هناك طوال حياته."

"ماذا يوجد هناك غير ذلك؟". لم يكن لدى إيثي خطط بشأن تجميع والتكلم في الوقت نفسه.

"لا يوجد الكثير. القرود حرة في التجوال هذا تذهب إلى حيث تشاء. وهي تقـوم بإنشاء وحدات الاجتماعية وإرساء القواعد الخاصة بها. هناك مراكز علف، وحظائر للمحجر. ويكون مخرج لتعميم الجزيرة كنها ها".

"أين القيم؟"

"المخـيم هو المنطقة إلى جانب الرصيف مباشرة. هناك خيمة ميدانية، وهيئة بحرية صـغيرة للحـالات الطارئة فقط، وبعض المخازن لطعام القرود، وغرفة مطورة لمبيت الطلاب والباحثين"

غمس قريدس في الصلصة، ثم أمال رأسه إلى الخلف، وألقاه في فمه

"كانت هناك مزرعة على الجزيرة في القرن التاسع عشر". علقت قطع صغيرة حمراء على ذقنه. "تعود إلى أسرة موريري التي منحت الجزيرة اسمها"

سرعان كيل قشر قريدس آخر "من يُسمح له بالذهاب إلى هناك؟"

"لا أحـد على الإطلاق. تلك القرود حاملة من الفيروسات وتساوي الكثير لأي شـخص. ولعـلي أي شـخص يضع قدماً على الجزيرة يجب أن تحصل على موافقتي، وأن تكون صحته سليمة تماماً، وأن تكون نتيجة اختبار السل في الشهور الستة الماضية سلبية"

نظر سام مستغرباً إليّ ذلوماً.

"لم أكن أظن أن أحداً يمكن أن يُصاب بالسل الآن"

"الاختبار ليس خطيئتك أنت. إنها الشائعة. فالقرود حساسة جداً لمصاب السل، ويمكن للفيروس أن ينتشر مستعمرة قبل أن تتمكن من فعل أي شيء".

استفسرت كيتي شوي: "هل كان علاجك مرضياً حتى إجراء الاختبار؟"

"في كل مرة".

في وقت مبكر من حياتي المهنية، وقبل الانضمام إلى سلك الطب الشرعي، استخدمت أطباقي الاستفادة من القرود لدراسة تأثير التقدم في العمر على الهيكل العظمي. درّست كل مناهج الرئيسيات في جامعة كارولينا الشمالية في تشارلوت، ونشأت الدراسة أبحاثاً مبنية على جزيرة موريري، وقد اصطحبت الطلاب إلى هناك طوال أربعة عشر عاماً.

قالت كيتي وهي تدفع بطنبوس داخل فمها: "أحسب سيكون ذلك رائعاً".

عند السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، وقفت على رصيف عند الطرف الشمالي من جزيرة السيف، مشوقتين للذهاب إلى موريري. كانت الرحلة مثل السمر عبر مرج يابس (مكان من دون ماء تعيش فيه حيوانات). كان ضباب كثيف يغطي كل شيء، ويشوش الرؤية، ويجعل العالم يبدو مبهماً. وبالرغم من أن موريري كانت على بعد أقل من ميل، إلا أنني لم أر شيئاً فوق مائه مع اقترابنا، فرع أو منحنى قطار والمدمة الطويلة الرجعتان تحسان الله عليه.

كانت المجموعة قد وصلت، وكلا أفرادها يعاقون فاربسي المنشأ. فتيهر في وقت قصير وانطلقوا. ارتشفت وكيتي القهوة، بانتظار إشارة من أسوأ، صغر وأشار إلينا لنقترب منه. ألحقنا بحذرنا على كومة الكرموس، ورميناها في برميل نفط تم تحويله إلى مسوطب لنمايهم، وأسرعنا إلى المزء، للتخلص من الرصيف.

ساعدنا سام على الصعود إلى متن القارب، ثم فك الحبل وقفز إليه، ولوماً إلى الرجل عند الدفة، وانطلقنا نحو مخليج الصغير.

سألت كيتي سام: "كم تستغرق الرحلة؟"

"ألف، في حالة مد الأرب هنا، سنسلك خليج البيضاء، ثم الخليج الخلفي وتتابع طريقنا عبر المستنقع. يجب ألا تستغرق الرحلة أكثر من أربعين دقيقة".

جلست كيتي وهي تضع ساقاً فوق الأخرى داخل القارب.

195

اقترح سام: "الأفضل أن تلتفي وتميلي إلى الجانب. عندما ينقلب حوض

السرعة، يتحرك هذا الشيء بعنف، والاهتزاز كافٍ لتحطيم فقراتك"

تعجب كيتي قائلة حيلاً

"تمسكي جيداً. من يرتدي سترة نجاة؟"

هزت كيتي رأسها، فيما نظر سام إليّ

طمأنته. "إنك سباحة بارعة"

في ذلك الوقت تحديداً شكل حوري الفراك بعض القارب بالمياه. انطلقنا عبر مياه مكشوفة، والريح تحرك شعرها وملابسها وتطلق الكلمات سريعة من شفاهنا. في وقت ما، ربتت كيتي على كتف سام وأشارت إلى شيء خلفه.

صرخ سام: "سلطعة سرطان (سلطعون)".

بعد ذلك بقليل، دلّها على عش عقاب البحر فوق علامة قناة، فأومأت كيتي بقوة.

قضى سام وقتاً طويلاً خارجاً من هذه المكشوفة ودخلنا المستنقع. وأخف حوري وقسمته متماسكاته وعيناه مثبتتان أمامه مباشرة في حين كان يدير الدفة ويقود القارب عبر مسالك ضيقة في غابة لم تكن هناك فسحة تزيد عن عشر أقدام في أي من تلك المسارات. انعطفنا نحو اليسار، ثم إلى اليمين، واستمرينا عبر مسلكه وردّد الماء الناعم من حركة المركب يمس الأعشاب على الجانبين.

تشبثت كيتي بالمركب وبعضاده وتمايل جسدها عند المنعطفات القاسية، ضحكنا وصمتنا وثارت السرعة وجمال اليوم. أحب جزيرة موريوني كثيراً، وأظن أني لطالما حببت الرحلة إليها أكثر

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى موريوني كان الضباب قد انقشع تماماً، والشمس تلقي بأشعتها الساطعة على الرصيف وتصبغ اللوحة عند مدخل الجزيرة بألوان مختلفة. حرّك نسيم الأوراق فوق رؤوسنا، وحمل بعضاً من الظلال والعشب ترافص. وظهر الشكل فوق الكلمات: "منطقة حكومية. الدخول ممنوع، غير مسموح فقط"

عندما تم تفريغ المراكب من حمولاتها وأصبح الجميع داخل القلعة القديمة، اتجه سام كيتي إلى الشرفة. كنت أعرف مقصده بالرغم من وجود بعض الوجوه

الجديـدة. كان جوي موظفاً عند الصيف ما قبل الثلجي، ووريد وهانك لا يزالان يتدربان بعد قيامه بالتعريف، فقدّم سام موجزاً سريعاً للحصة.

كـان جـوي ولاري وروبي ووريد تقنيين؛ مهمتهم الأساسية القيام بأعمال الصيانة اليومية للمنشأة ونقل الإمدادات. فهم يقومون بالطلاء والإصلاح وتنظيف مخازن ومراكز العلف، وإعداد مخلوطات بناء والطعام.

كان جين وكريس وهانك على تواصل مباشر مع القرود، فهم يشرفون على الجماعات، ويجمعون أنواعاً مختلفة من البيانات.

سألت كيتي: "مثل ماذا؟"

"حـالات الحمـل والولادة والوفاة والمشكلات الصحية. نراقب عددها عن كثب، وهناك مشروعات بحثية تعمل جين على دراسة سيروتونين. نقاط لإخراج كل يـوم لتسجيل أنماط معينة من السلوك، ورؤية القرود الأكثر عدوانية وتهوراً. وبعد ذلك، نقارن تلك المعلومات بمستويات السيروتونين لديها، وننظر أيضاً إلى موقعها ضمن جماعتها. تضع قرودنا أطواقاً مخصصة ترسل إشارات تحدد موقعها. سترين على الأرجح أحدها".

قلت: "سيروتونين مادة كيميائية يفرزها الدماغ؟".

قالت كيتي: "نعم، مسألة عصبية يُعتقد أنها السبب العدائية"

تبادلت وسام الابتسامة فتاة مجتهدة!

سألت كيتي: "كيف تعرف إن كان أحد القرود متهوراً؟".

""يقدم على المخاطر أكثر. كأن يقفز مسافات أطول مثلاً، أو يصعد إلى أماكن عالية في الأشجار، أو يغادر المنزل في سن مبكرة"

"هو؟".

"هذه دراسة تجريبية لا تشمل الإناث".

قالـت جين وهي تربط حلية لها حوالي طويل حول خصرها: "قد ترين أحد ذكراني في المخيم. خمسة – 7، مثلاً، إنه في الخمسة/أو. إنهم يتسكعون هنا كثيراً".

سأل هانك: "إنه لتصاب خوص السرقة؟"

"صـحيح. سيسترع أي شيء غير مثبت بمسامير. حصل على قلم آخر في الأسبوع الماضي، وعلى ساعة لاري. ظننت أن لاري سيصاب بنوبة قلبية في أثناء مطاردته إياه"

بعد أن جمع جميع حقائبه، وارتدوا معاطفهم خرجوا. اصطحب سام كيتي في جولة حول الجزيرة. وبقيت على مقربة منهما، أراقب ابنتي وقد أصبحت مراقبة قرود في أثناء سيرنا عبر الدروب. أشار سام إلى مراكز العلف، ووصف المصاصات التي ترتاد كلاً منها. تكلم عن الإقليم وعن هرمية السيطرة، وروابط الأمومة، في حين كانت كيتي تسمع مقطبة جبينها وتنظر إلى الأشجار.

عند مركز العلف، رمى سام حبوب ذرة جافة على السطح ثم صفّق. قال: "لا تتحركي ساكناً وراقبي".

سرعان ما سمعنا حفيف أوراق ورأينا مجموعة تتقدم نحونا. وخلال دقائق أحاطت بنا القرود. مشى بعضها على الأشجار، فيما تحركت أخرى إلى الأرض واندفعت إلى الأمام لالتقاط الذرة.

كانت كيتي مدهوشة مما تراه.

قال سام: "تلك هي المجموعة أ، إنها صغيرة لكنها تخضع لواحدة من أعتى الإناث شأناً على الجزيرة".

بحلول الوقت الذي عدنا فيه إلى المخيم كان سام قد ساعد كيتي على تصميم مشروع بسيط يتطلب ملاحظاتها في حين جلب لها كيساً من الذرة، ثم خرجت وذهبت عائدة إلى ذلك المكان، رأيتها تختفي بين أشجار المستنقعات، والمنظار يتدلى عن وركها.

جلست وسام على الشرفة وتكلمنا لبعض الوقت، ثم عاد إلى العمل، وانصرفت أنا صوب الطابق العلوي. وبالرغم من أني حاولت، إلا أني وجدت التركيز صعباً. لا تكون صور الحبوب مغرية عندما أستطيع رفع بصري إلى الأعلى والتمكّن من رؤية أشعة الشمس على صفحة النهر، وأستنشق الهواء المشبع بالملح ورائحة الصنوبر.

عادت المجموعة عند الظهيرة، وكيتي تبتسم. وبعد تناول الفطائر ورقائق (شرائح البطاطا)، عاد سام إلى ملاحظاته، فيما عادت كيتي إلى الغابات.

جلست مجدداً مع عملي، لكنّ مزاجي لم يكن مستعداً لذلك، فصوت بعد الصفحة الثالثة.

واستيقظت على صوت مألوف.

تك! رات ، تات ، تات. تك! رت ، تات ، تات

كـان القـردان قد نـزلا من الأشجار ويجريان على سطح الشرفة. توجه سمسوم قـدر المستطاع وفتح الباب الشبكي وخطت نفسي من الخارج نحو الدرجات. كانت المجموعة قد سحبت الحجم ورتاج على الأحصان فوق الخطة المبانيا. وثب القردين السان لمنطاق من شطة جهانية إلى العربة المقطورة واستقر على الطرف المقابل من السطح.

"ذلك هو" لم أسمع سام يأتي من خلفي. "انظري"

ناولني المنظار.

قلت وأنا أقرأ ما يوجد على صدر كل الرد: "يمكنني رؤية الوشوم. دمية - 7 ودمى أن 9 يصبح دمية 7 طوقاً"

مددت المنظار إلى سام فألقى نظرة أخرى.

"سلفاً لديه الأن؟ لا أنسى أن ذلك الأحمق الصغير لا يزال يحفظ مسافة لاري؟".

بادت المنظار مرة أخرى.

"إنه لامع يبدو وكأنه ذهب عندما يصبح تحت أشعة الشمس"

في ذلك الوقت، اندفع دمى أن - 9 إلى الأمام بتهديد واندفع القرد دمية - 7 السذي صرخ ذعراً ورمى بنفسه عن السطح، وانتقل من غصن إلى آخر حتى أصبح خارج مرمى البصر خلف المقطورة، عاشراك كسره من السطح داخل التراب ووصل إلى الأرض.

"لنكتشف ذلك"

سحب سام سلماً من تحت منـزل المهتاق وأسنده إلى المقطورة، وأبعد خيوط عنكبوت. انحنى ثقله على الدرجة الأولى، ثم صعد إلى الأعلى.

"ما هذا؟"

"ماذا؟"

"اللمع."

قلّب شيئاً في يده.

"يا إلهي."

"ما الأمر؟" حاولت أن أرى ما كان القرد قد أرعبه، لكنّ جسد سام كان يحجب رؤيتي.

وقف سام ساكناً من دون حراك في أعلى السلم، مطأطئاً رأسه.

"سام؟ ما الأمر؟"

ومن دون أن ينبس ببنت شفة نزل إلى الأسفل ومدّ يده التي تحمل ذلك الشيء كي أتمكّن من تفحصه. عرفت مباشرة ماهيته وما يعنيه، والتفتّ بشعور مفزع.

نظرت إلى عيني سام وحدّقنا إلى بعضنا بصمت.

16

وقفت وأنا أحمل ذلك الشيء في يديّ، غير مستعدة لتصديق ما تراه عيناي

تكلم سام أولاً.

"هذا عظم إنسان؟"

"نعم"، رأيت وجهه يتقزّز.

"ربما هو هندي قديم؟"

"ليس مع هذا الحشو على الأسنان" أدرت عظم الفك لتنعكس أشعة الشمس على الذهب.

قال وهو يحدّق إلى الحشوات. "هذا ما أثار اهتمام دمسيه؟"

أومأت وأنا أشير إلى كتلة بنية ملتصقة بالفك. "وهذا لحم".

"ماذا يعني هذا؟"

رفعت الفك وشممته، وكانت له رائحة طيب العفن.

"في هذا المناخ، سواء أكانت الجثة قد دفنت أم تُركت في العراء، فسأكون إن هذا الشخص قد مات قبل أقل من سنة"

"كيف حصل هذا؟"، مسح عرقاً في عينيه.

"لا تصرخ في وجهي. من الواضح أن شخصاً ما قد جاء إلى هذه الجزيرة من دون إذنك".

أشحت ببصري بعيداً عنه.

"من أين جاء إذاً؟"

"إنه عرينك يا سام، فاكتشف ذلك بنفسك".

"سأفعل ذلك بكل تأكيد".

مشى بخطوات واسعة عبر الغابة المهترئة، وصعد كل درجتين معاً، ثم اختفى في المدخل. ومن خلال النوافذ المفتوحة سمعته ينادي جوي.

لحظة وقفت هناك، أسمع طقطقة سحق الحصيد والعبور سريالي بصعوبة. هل احترق لوب حقاً جزيرتي الفاتنة؟

صرخ صوت في رأسي "لا! ليس هنا!"

سمعت طقطقة السلك عندما فتح الباب الشبكي، وخرج سام مع جوي باتجاهي.

"ادعلي يا سيدتي لتطلق التحية عبر للمتاهين. تعرف جوي إلى أين تذهب المسروقة لو عندما لا تكون في المكتب هنا يمكننا الوصول إلى دعمه ?. ربما يمنحنا ذلك الفتى الصغير شيئاً"

لم أتحرك.

"كنت أعني ذلك الحيوان اللطيف. أنا آسف. لا أحب أن تظهر أشلاء بشرية على جزيرتي، تعرقل مزاجي".

أعرف مشاعره. ولكن، لم تكن ثورة سام هي التي أزعجتني. شممت رائحة العصفور وشعرت بالنسيم الدافئ على وجنتي. كنت أعرف ما يوجد هناك ولم أرغب في العثور عليه.

"هيا"

سحبت نفساً عميقاً، وكنت متحمسة مثل امرأة في طريقها إلى موعد عند طبيب أورام

"انتظر"

دخلت الغابة الهيثانية وبحثت في المطبخ حتى عثرت على وعاء بلاستيكي، وضعت الفلك داخله وأغلقت الغطاء، وخبأت الوعاء في خزانة في الغرفة الخلفية، ثم تركت ملاحظة لكيتي.

سلكنا درباً خلف الغابة البهائية واتجهنا نحو بحر ومعبد الجزيرة. فاتجهنا إلى منطقة قبالة الشاطئ أشجارها بحجم مبان، وأوراقها تشكل مظلة متينة فوق

الصرؤوس. كانت الأرض مكسوة بالدبال وإبر الصنوبر، وكان الهواء مثقلاً برائحة النباتات والحيوانات. أبان جميع الأوراق أن الثروة حاضرة.

قالت جين وهي تشغّل جهاز الاستقبال الذي تحمله "يوجد أحد هنا"

شقّ سام الأشجار لتظهره، محاولاً تمييز أرقام الوشوم ثم قال: "إنها الصرخة/أبو "هذا!".

جثم قرد صغير على غصن فوقهما، كانت حراشفه، وشعره في الفراء وعيناه ناتئتان عسلي وحجيي. كان صراخه الحاد الذي يخرج من حلقه طريقته في قول "ارحموا!"

حدّقت نظرت إلى عينيه هذا القرد، وطأطأ رأسه، ثم رفعه بزاوية مائلة فوق جسده. كرّر تلك الحركة عدة مرات، ثم استدار وانتقل بسرعة كبيرة إلى الشجرة التالية.

حدّقت جين بإشارة الاستقبال ثم أغلقت عينيها لتصغي للسمع، ووجهها متوتر من التركيز. وبعد مرور بعض الوقت، حرّكت رأسها وتهيّبت لتقدمها على الدرب.

نظر سام إلى جذوع الأشجار عندما توقفت جين فجأة ودارت باتجاه عقارب الساعة، مركزة تماماً على الأصوات الصادرة عن سماعة الرأس وأخيراً قالت: "التقط إشارة ضعيفة حقاً"

تعرّفت بالاتجاه الذي كان القرد الصغير قد اختفى فيه، وتوقفت قليلاً، ثم دارت حول نفسها مجدداً

"أظن أنه هناك قرب الكاكاراو" أشارت باتجاه الساعة العاشرة.

بالرغم من أن معظم حيوانات العزل هي المزروعة تحمل حروفاً، إلا أن بعض حيوانات الأنسجة تحمل أسماء مثل لو كي أو كوول أو الكاكاراو (جزيرة في سان فرانسيسكو).

تحرك نحو الكاكاراو، لكن إلى الجنوب من الزريبة تماماً غادرت جين الدرب والسفت عبر الغابة. كانت النباتات أكثر كثافة هناك، والأرض متماسكة تحت الأقدام. استدار سام نحوي قائلاً:

"توجد مقعدة قرب الوكالة. أخذت الكثير من الصغار في الموسم الماضي، وأظن أنها لا تحب الصحبة".

كانت الشمس عبارة عن مصباح يبلغ طولها أربع عشرة قدماً، وتعيش في موريسري منذ وقت طويل جداً. لا أحد يتذكر من أطلق عليها ذلك الاسم. تحترم المسوخة حقها في التواجد هناك ويتركونها وشأنها في بركتها.

اقتربت من حسام برفع إبهاميَّ إلى الأعلى. وبالرغم من أنه لا يحيص، إلا أن التماسيح لم يكن لها علاقات أسعى إلى التواجد معها في المكان نفسه.

لم يكسل لنا المتعديا أكثر من عشرين قدماً من الدرب حينما تحسست الرائحة التي كانت ضعيفة في البداية وكأنها تزحف في ثنايا المنطقة المظلمة في الغابة، ثم أكثر والثقل. ولكن، مع اقترابنا أصبحت الرائحة أقوى، وتسرب بشريط بارد يخفق على صدري.

تقاسمت مع حسام نظراتٍ، بعيداً عن الحركة، ومعها سام ومنظاره موجّه نحو الأغصان فوق الرؤوس. فيما تخلّف عنهما. كانت الرائحة تأتي من أمامنا مباشرة.

مررت حول شجرة صمغ راقدة على الأرض وتوقفت. رأيت حزاماً من الأجمة والأشجار تخفي غصونه تحيط بالحركة. أطلق الصمت على الغابة في حين ابتعد حسين وسام، وصوت وقع أقدامهما يتضاءل مع كل خطوة.

رائحة اللحم المتعفن لا تشبه أي رائحة أخرى. شممتها على الفور، وكانت الرائحة النتنة سميكة تعلق آنفك في حوض بعد الظهر، وبعوض لا صالق في مكان قريب. استديرت حول نفسي كما فعلت من قبل، ولكن لا أكاد أتنفس، وعيناي مغلقتان، وكل أحاسيسي مركزة على إحساس الحركة نفسه، ولكن لم يتحرك شيء. بينما كانت حين تصغي السمع كنت أركز على الشم.

كانت الرائحة تأتي من اتجاه الحركة. تحركت نحوها، أنفي يتبعها وعيناي مصوّبتان لرؤية الزواحف. صرخ قرد فوق رأسي، لم يسأل يبول إلى الأرض. اهتزت الأغصان، وارتعشت أوراق وسقطت نحو الأرض. كانت الرائحة الكريهة تصبح أقوى مع كل خطوة.

اقتربت عشر أقدام وتوقفت. حلت نظاري على أجمة النخيل القصير والآس البري الذي يفصلني عن الحركة. كان قوس قزح يتشكل ويختفي عند حافتها.

تقدمت ببطء إلى الأمام، وأنا أترجى الحر الشديد مع كل خطوة. عند حافة الأجمة كانت رائحة التفسّخ شديدة. أصخت السمع، ولكنّ الصمت كان مطبقاً

نظـرت إلى الــشجيرات الصغيرة النامية، ولكنني لم أر شيئاً. تسارع خفق قلبي وتصبب العرق على وجهي.

حركـي مؤخرتك يا برنان. فالمكان بعيد جداً عن الحركة ولا يمكن أن يوجد فيه تماسيح

سحبت منديلاً كبيراً مزخرفاً من جيبي، فغطيت به فمي وأنفي، وجلست القرفصاء لأكتشف ما يجده الذباب مغرياً جداً.

ارتفع الذباب وكأنه ديمة واحدة تئز وتدور حولي. لوّحت بيديّ وأبعدت الذباب عن تلك البقعة، لكنه عاد مباشرة. استخدمت إحدى يديّ لإبعاد الذباب، وللفسف بمنديل حول الأعشاب ورفعت أغصان الآس الطري. فقزت حشرات على وجهي وذراعيّ، وهي تطنّ وتئز بغضب

كان الذباب منجذباً إلى قبر سطحي خفي عن الأنظار بأغصان سميكة. يظهر مـن خلالـه وجه إنسان. كانت عظام وجهه تبدو وتكبر تحت الضوء الخافت الخفيف مقتربة منه، ثم تراجعت إلى الخلف خائفة

لم يكـن ما رأيته وجهاً، وإنما جمجمة غشتها حيوانات متآكلة. ما بدا كعينين وأنـف وشـفتين كانت في الواقع مجموعات من ديدان صغيرة، تشكل أجزاء من كتلة مهتاجة تغطي الجمجمة وتتغذى على لحمها

عندما نظـرت حولي أدركت أن هناك ضحايا آخرين. كانت قطعة من قفص صدري ملقاة إلى يميني، وعظام ذراع لا تزال متصلة بأجزاء من أربطة عضلية جافة، تبرز من تحت الأرض على بعد خمس أقدام مني

رقصت الشجيرات وعلـت على حلقيّ وأنا مخدوعة وأشعر بالبرد والغثيان. سمعت سام يقترب. كان يتحدث، لكنّ كلماته كانت غير مفهومة. في مكان ما، على بعد مليون ميل، ارتفع صوت محرك ثم توقف.

أردت أن أكـون موجودة في مكان آخر، وأن أكون شخصاً آخر. أردت أن أكـون شخـصاً لم يعطِ الـصوت وهو يتشمم رائحة الموت ويرى تفسخه النهائي، شخـصاً لا يحصـل يوماً على الأمر في تجميع أشلاء بشرية تركها قرويون أشرار، وشـركاء غاضـبون خـرجوا الطرق، ومطرودون نفسياً. كنت قد جئت إلى الجزيرة للهروب من قسوة عملي، لكن الموت طاردني إلى هنا أيضاً. شعرت أنه لا حول لي

ولا غرو. كان ذلك يوماً آخر ووظيفة أخرى. وظيفة كل يوم. يا الله كم يوماً مماثلاً آخر سأشهد؟

شـعرت بيـد سـام على كتفي فرجعت بصري إلى الأعلى. كان يضع يده الأخرى على فمه وأنفه

"من هذا؟"

أشرت برأسي نحو الأجمة فدحرجها سام إلى الخلف بقدمه

"يا للهول"

أتفق معه على ذلك

"كم مضى عليها هنا؟"

هززت كتفي

"أيام؟ أسابيع؟ سنوات؟"

"كـان القـبر متعمقاً للحيوانات حوّرته لكن معظم الجسد يبدو سليماً. لا يمكنني معرفة الحالة التي وصلت إليها"

"لم تنبش القرود هذه الجثة. لأنها لا تتناول اللحم أبداً. لا بد أنه صقور".

"صقور؟".

"نسـور سـركية (نسر أمريكي ذو رأس أحمر) تحب أن تقتات على القرود النافقة"

"ساعد سلطان أيضاً الراكون (غرير أمريكي)"

"نعـم؟ تحـب حـيوانات الراكون الأكل الوفير. لكن، لا تظن أنها تأكل الجيف".

نظرت عميقاً إلى القبر

"الجثـة ملقاة على جانبها، والكتف اليمنى تحت الأرض. لا شك أن الرائحة جـذبت حيوانات المعاملة. حفرت النسور والراكون على الأرجح التربة وأكلت مـن الجثة، ثم سحبت الذراع والساق عندما أصبحت التفسخ الكامل" أشرت إلى الأضـلاع. "التهمت لحمه من الصدر، وسحبت ذلك القسم إلى خارج أيضاً كان باقي الجسد على الأرجح مطموراً، أو ربما كان الوصول إليه صعباً جداً، عند بركة الحيوانات".

باستخدام غرفة، سحبت الدرع بحوي. وبالرغم من أن الرفق كان لا يزال مترابطاً، إلا أن أطراف العظام الطويلة كانت معقوفة، وبعضها الصفائح الأسفنجية مكشوفة على طول الحواف ملتهمة المشوّهة.

"هل ترى كيف تم انتزاع النهايات؟ هذا عمل حيوانات. وربما"، أشرت إلى ثقب دائري صغير. "هذا ثقب سن حيوان صغير، على الأرجح راكون"

"دب الغرير"

"وطبعاً ألحيوانات الصغيرة والحشرات دورها"

عض، و ستدار قليلاً، وركل التراب بكعب حذائه.

"يا إلهي! ماذا الآن؟"

"الآن يجب أن تتصل بمكتب المحقق الطبي، وهو سيتصل بمتخصص علم الإنسان الحلي" وقفت ونفضت التراب عن الجينز. "وعندها سيصبح الحديث مع الشريف"

"هذا كابوس لعين. لا يمكنني السماح للناس بالتجول في أرجاء هذه الجزيرة"

"ليس عليهم أن يتجولوا في كل أنحاء الجزيرة يا سام. يجب أن يأتوا إلى هنا، ويخرجوا الجثة. وربما سيحضرون معهم كلباً مدرباً على شم الجثث للتحقق إن كان هناك شخص آخر مدفون هنا"

"كيف؟ سبأ. هذا مستحيل" سالت قطرة عرق على صدغه، وتوترت عضلات فكه ثم استرخت.

لحظة لم يتكلم أي منا. وطنّ الذباب وطار حولنا. كسر سام الصمت أخيراً "يجب أن تفعلي أنت ذلك".

"أفعل ماذا؟"

"أن يكون الشيء الذي يجب فعله، خرجي هذا الشيء من هنا" أشار بيده باتجاه القبر.

"مستحيل. هذا خارج نطاق صلاحيتي"

"لا أهتم أبداً بمن يتمتع بالصلاحية هنا. لن أسمح لمجموعة من الأشخاص المهووسين بالتجول في هذا المكان، وبتخريب حوزتي، وإفساد برنامج عملي، ونقل

أرسلته مستعجلة إلى قرودي. هذا عادل. لن يحدث هذا أبداً. أنا أقصده هنا، وحدي حريتي. سأضع رصاصة على الرصيف قبل أن أسمح بحدوث ذلك".

عاد السويد للظهور في جسمه، وبرزت الأوتار في عنقه مثل حبال تثبيت، وارتعشت أصابعه في الهواء لتأكيد ما يقوله.

"كيف ذلك لأنه يمكن أن يقرر بعثرة الأوسكار يا سام. لكنني لن أفعل ذلك. يعمل ذلك حاجز في جامعة كارولينا الجنوبية في كولومبيا، وحول قضايا علم الإنسان في كارولينا الجنوبية. وهذا سيكون على الأرجح الشخص الذي سيتصل به قاضي التحقيق هنا. يحمل ذلك شهادة المجلس الطبي (البورد الأمريكي) وهو بارع في عمله".

"سيكون هناك حاجز العظم حاملاً صبغته مثل الصبغة!"

بما أنه ليس هناك فائدة من النقاش، فقد لم أرد.

"أنت تقضين هنا طوال الوقت! يمكنك بث الجثة وعرض كل شيء بين هذا الرجل حقاً"

لم تكن هناك فائدة.

"لمَ لا يا عزيزتي؟". حدّق إليّ.

"تعرف أنني في بيوفورت من أجل قضية أخرى. لقد وعدت هؤلاء الأشخاص بأنني سأعمل معهم، ويجب أن أعود إلى تشارلوتسفيل يوم الأربعاء"

لم أقل له السبب الحقيقي وهو أنني لا أريد التدخل أبداً في ذلك الأمر. لم أكن مستعدة بعد للرحلة للجزيرة ... بوقفة بشعة عند رأيت الفك أول مرة، أصابت صور مبهمة تجول في ذهني، وعمل ملتقطات من قضايا سابقة: نساء مقتولات، أطفال مضروبون، شبان ذوو أعناق مقطوعة، وعيون باهتة تحدق بالخبرة على الرؤية. إذا كان القاتل قد وصل إلى الجزيرة فلا أريد أن أكون جزءاً من ذلك.

قال سام. "ستتكلم عن الأمر في المخيم. لا تخبري أحداً بأمر الجثة"

مستخدمة مراجع الاستيهادي، ربطت منديلي بأجمة الآس البري، ورجعنا عائدين من حيث أتينا.

عندما اقتربنا من الدرب رأيت شاحنة صغيرة متهالكة قرب النخلة التي دخلنا منها إلى الغابة. كانت محملة بأكياس طعام القرود، وعليها خزان ماء يتسع لثلاثة غالونات مثبت بسلسلة في الجزء الخلفي منها، وكأنه حوي تتفقد الخزان.

تابعت سام.

"انتظر لحظة"

مسح جوي فمه بظاهر يده، ووضع ذراعيه على صدره. كان يرتدي جينزاً وكنزة فضفاضة من دون ردن، أو ياقة، وشعره الأشقر الذهبي يتدلى حول وجهه.

رآنا جوي ونحن نقترب منه وعيناه متواريتان خلف نظارته وفمه مثل خط مرسوم على وجهه، فيما بدا جسده رشيقاً ومشدوداً.

قال سام لجوي: "لا أريد أن يقترب أحد من الوكالة"

"هل قلت أليس قرداً آخر؟"

"لا"، لم يشرح سام. "أين أمي بصحبة ذلك الطعام؟"

"في حظيرة الطفل السابقة"

"اتركه وحده فوراً"

"ماذا عن الماء؟"

"املأ الحاويات وعد بي إلى المعسكر. وإذا رأيت جين، أرسلها إلى هناك."

نقل جوي بصره إلي وحدق بي ولم يشح بوجهه حتى مرور وقت طويل، ثم صعد إلى الشاحنة الصغيرة وانطلق مسرعاً والغبار يتطاير في الخلف.

مشيت وسام بصمت. صحيح أنه كان على وشك أن يحدث، وعقدت العزم على ألا أسمح له بالتأثير في. تذكرت كلماته ورأيت وجهه عندما كان يكشف الغطاء عن القبر. هناك شيء آخر قبل أن يصل إلى سام، فقد أنني سمعت صوت محرك من كانت الشاحنة الصغيرة؟ تساءلت منذ متى كان جوي يركن الشاحنة الصغيرة على القرب، وماذا هناك بالضبط؟

سألت: "متى بدأ جوي بالعمل لديك؟"

"جوي؟" فكر لحظة. "منذ عدة سنتين"

"هل يمكن الاعتماد عليه؟"

"كل ما في الأمر أن حال جوي يفوق مداركه. إنه أحد تلك النساخ من العطف المطلق. فهو يتكلم دائماً عن حقوق الحيوان ويقلق من برنامج القرود. لا يعرف شيئاً البتة عن الحيوانات، لكنه عامل جيد."

عندما وصلنا إلى المخيم وجدت ملاحظة من كيري. كانت قد أخذت ابنتها ومضت إلى الرصيف لفترة. ذهب سام ليتكلم عبر الهاتف، أما أنا فمشيت إلى الرّصيف، حيث كانت ابنتي تجلس في أحد القوارب وقد خلعت حذاءها، وقدماها مبسوطتان أمامها، ورمت قميصها وطرف سروال مرفوعة من أقصى حدّ ممكن. لوّحت فردّت على الإشارة بالمثل، ثم اقتربت إلى القارب. هززت رأسي، ورفعت كفّاً يدلّ في إشارة إلى أن الوقت لم يحن بعد للرحيل، فابتسمت وتابعت القراءة.

حينما دخلت الخيمة الصيفية، كان سام يجلس إلى طاولة المطبخ ويتكلم عبر هاتف خلوي. جلست على المقعد الخشبي قبالته.

سأل عبر الهاتف، "متى سيعود؟" بدا أكثر غضباً مما سبق ورأيته يوماً

صمت، وبدأ ينقر بقلم رصاص على الطاولة، ثم حرّكه من رأسه إلى نهايته، ثم إلى رأسه مجدداً، في حين كان يمرّره بالطول بين أصابعه.

"أيمكن لي، يجب أن أتكلم معه الآن. ألا يمكنك الاتصال به بطريقة ما؟"

ساد الصمت، ثم صدر صوت نقر.

"لا، النائب لن يفي بالغرض. أريد الشريف بيكر."

ساد الصمت مجدداً وبوقت طويل، ثم صدر صوت نقر، ثم انكسر رأس قلم الرّصاص فرماه سام في سلة مهملات في الطرف البعيد من المطبخ.

"لا أكترث لما قاله، تابعي المحاولة. اجعليه يتصل بي هنا على الجزيرة. سأنتظر".

أنهى المكالمة غاضباً.

"كيف يعقل ألا تتمكن من الاتصال بكل من الشريف وقاضي التحقيق؟" مرّر يديه عبر شعره.

استقرت جانباً على المقعد الخشبي، ورفعت قدمي وأسندتها إلى الجدار خلال المشي. كنت قد تعلمت أن أفضل طريقة للتعامل مع غضب سام تكمن بتجاهله، إذ كان يثير غضباً ويهدأ بسرعة.

نهض ومشى في المطبخ، واضعاً إحدى يديه على راحة الأخرى. "أين هارلي؟" نظر إلى ساعته

"الرابعة وعشر دقائق. رأيي خلال عشرين دقيقة سيكون الجميع هنا، وسيرغبون في العودة إلى البلدة. لذا، ليس من المفترض أن يكونوا هنا يوم السبت. سنعمل اليوم استثناءً لمجلس سري."

ركل الفطما حجر القارعة

"لا يمكنني أن أبقيهم هنا. أو ربما يجب أن أفعل ذلك؟ ربما يجب أن أحتجزهم حتى الجثة، وأقول لن يغادر أحد الجزيرة، ثم أعامل كل مشتبه به في الغرفة الخلفية وأستجوبه، مثل هركل بوارو (المحقق البلجيكي في روايات أغاثا كريستي)."

داعب بيده شعره ونظر إلى الساعة، ثم تمشى. أخيراً، جلس على المقعد الخشبي المقابل، وأسند جبينه إلى قبضتي يديه.

"هل انتهت نوبة غضبك؟"

لم يرد.

"هل لي بتقديم اقتراح؟"

لم يرفع بصره إلى الأعلى.

"إنها جثة على كل حال، ملقاة على الجزيرة لأن شخصاً ما لا يرغب في أن يعثر عليها أحد. من الواضح أنه لم يأخذ حسبانه – 7 بحيرات."

تكلمت إلى أعلى رأسه.

"أرى عدة احتمالات. أولاً، أحضرها إلى هنا أحد موظفيك. ثانياً، وصل شخص إلى هنا على متن مركب ماء، وربما يكون من السكان القليل الذين يعرفون حقول أعمالك. إذ لا يوجد على الجزيرة مركب بعد أن غادر المجموعة. أليس هذا صحيحاً؟"

أومأ من دون أن يرفع رأسه.

"ثالثاً، قد يكون أحد أفراد المجموعات التي يوجدون هذه الليلة."

لم يجب.

"ألست نائب مسؤول عن الحياة البرية؟"

رفع بصره إلى الأعلى، وكان جبينه يلمع بسبب العرق.

"نعم."

"إذا لم نستطع الاتصال بقاضي التحقيق أو بالشريف بيكر، ولا تثق بنائب الشريف بأصدقائك المسؤولين عن الحياة البرية. فهم يتمتعون بسلطة قضائية على الجزيرة، أليس كذلك؟ لن يثير الاتصال بهم الشبهة ويمكنهم إرسال شخص ما إلى هنا لإخلاء الموقع حتى تتكلم مع الشريف"

ضرب بيده على الطاولة. "نعم"

"لماذا لم تطلب منهم فقط التحكم في الأمر حتى تتكلم مع الشريف بيكر

لقد أخبرتك منذ قليل بما سيفعله"

"تعمل كيسي واجويسر في قسم الموارد الطبيعية في كارولينا الجنوبية. لقد ساعدتني مرة في الماضي عندما واجهت مشاكل في تطبيق القانون هنا. يمكنني الوثوق بكم"

"هل يمكنها البقاء هنا طوال الليل؟". بالرغم من أنني لست امرأة جبانة إلا أن التعامل مع مجرمين أو مروجي مخدرات لم يكن عملاً أرغب في القيام به.

"لا مشكلة" كان يتصل بما أتذكر. "خدمت كيسي سابقاً في مشاة البحرية"

"يمكنها التعامل مع متطفلين؟".

"تأكل السلمون على الفطور؟".

أجابه لصاحب سأل عن الضابط والغرور

قال وهو يغطي الهاتف بيده. "انتظري حتى ترينها".

بحلول الوقت الذي انتهى فيه عمل المجموعة جميعاً، كانت قد تم ترتيب كل شيء. اصطحب أفراد المجموعة كيتي إلى قاربهم في حين بحث وسام على الجزيرة ووصلت كيسي بعد الخامسة بقليل. وبدت كما وصفها سام تماماً. كانت ترتدي بذلة أدغال، وتنتعل حذاءً عسكرياً، وتعتمر قبعة أسترالية، وتحمل ما يكفي من الأدوات لاصطياد وحيد قرن. ستكون الجزيرة بأمان.

في طريق العودة إلى المرسى، طلب مني سام بحذر إخراج الحقيبة من القمرة. فكرت ما كنت قد قلته له سابقاً. الشريف، قاضي التحقيق، جافر

قلت عندما كان يصعد إلى المركب: "سأتكلم معك غداً. شكراً لاصطحابنا في نزهة اليوم. أعرف أن كيتي أحبت ذلك"

"لا مشكلة"

راقبت بجعاً يحلق فوق الماء ثم يطوي جناحيه ويغمر رأسه تحت السطح، ليظهر مجدداً مع سمكة، ولمع ريشه الرطب تحت ضوء الشمس الغاربة. ثم نقر البجع فأفلتت السمكة من فمه، وانطلق مثل صاروخ فضي ليقع في البحر

"يا الله. لم كان عليهم أن يختاروا جزيرتي؟" قال سام متعباً ومحبطاً.

فتحت باب السيارة. "أخبرني عما يقوله الشريف بيكر"

"سأفعل".

"أنت تفهم لماذا لا يمكنني التعامل مع هذه الحالة، أليس كذلك؟"

"حالة يا الله"

عندما أغلقت الباب بعنف واتجهت نحو النافذة المفتوحة بدأ بنقاش محتد

"فكّر، فكري في الأمر. جريمة القتل، جثة مقطوعة، المسجد الخلي، إذا تسرب النبأ سيتحول الأمر جنون وسائل الإعلام، وأنت تعرفين كم هي حساسة قضية حقوق الحيوان. لا أريد أن تكتشف وسائل الإعلام ما حدث في موورتري"

"قد يحدث ذلك بغض النظر عمّن يعمل في القضية"

"أعرف. إنه -"

"دع الأمر يا سام".

وبينما كنت أراقبه وهو يصعد سيارته، صعد طائر البجع عالياً وحلق محلقاً فوق مركبه، وقد تلألأت سمكة جديدة في منقاره.

"كان سام محقاً بالقدر نفسه، وشككت في أنه سيتركني وشأني، وكنت محقة في ذلك.

17

بعـد أن تناولنا العشاء في مشرب الفندق المحلي، زرت وكيي معرضاً فنياً في سـدت هيبيـدا. تجولنا في غرف المتحف الضيق، وشاهدنا أعمال فناني غولا (ثقافة أمريكيين أفارقة يعيشون في كارولينا الجنوبية وجورجيا) الحلوية وخططنا لزيارة جديدة للمكان كما يحلو لك معرفته. ولكن، في أثناء استمتاعي بالرسوم التجريدية، واللوحات، والصور، تذكرت العظام والأضلاع والضباب الذي يعلو حوض

اشـترت كيي تمثال بلوت (مثلث نحاسي) مصغراً ومنحوتاً من خشب الشجر ومطلياً بلون أزرق. توقفنا في الطريق إلى الشركة لشراء مثلجات بطعم القهوة، ثم تناولناها ونحن نجلس على مقعدة مطلة على النهر. تكلمنا وأصغينا السمع إلى أشرعة المراكب المصطفقة وهي تخفق بفعل النسيم. لقد ظهر ضوء القمر فوق شاطئه على شكل مثلث لامع. وبينما كنا ندردش شاهدت الضوء الأحمر الملتهب يترقرق على السواد المتماوج.

لطالما ابنتي اهتمت بطموحها في أن تصبح متخصصة بعلم الجريمة، وشاركتني مراجعها مثال تحقيق ذلك الهدف. كما أبدت إعجابها بأعمال موريس، ووصفت سلوك القرود الغريب التي كانت قد رأته في وقت ما. فكرت في إخبارها عن الجثة التي وجدناها اليوم، لكني أحجمت عن ذلك. لم أكن أرغب في تلطيخ ذكرى زيارتنا إلى الجزيرة.

أويت إلى السرير عند الساعة الحادية عشرة، واستلقيت وقتاً طويلاً وأنا أصغي السمع إلى صرير صلاصل النوافذ وأجهز نفسي للنوم. وأخيراً غفوت،

وأعدت أحداث اليوم معي وحبكتها في نسيج الأسابيع القليلة الماضية. سرحت في نزهة على متن مركب مع ماتياس وملاحي، وحاولت جاهدة إبقاءهم على السطح. استعملت فرشاة لتنظيف أضلاع جثة، ورأيت النجم المحترق يتشكل ضوءها مجمعاً بأسرع مما كنت أتخيله. اتخذت الجمجمة شكل وجه ريانيه. لم عدت إلى ملامح وجه ماريس مهمومة المتفحمة. صرخ سام وهاري في وجهي، ولم أفهم كلامهما، وكان وجهاهما ملتبسين وغاضبين.

عندما أيقظني هاتفي شعرت بأنني فقدت الإحساس بالزمان والمكان. كنت خدرة وتائهة من مكاني، ومن سبب وجودي في هذا المكان. سحبت نفسي إلى المطبخ.

"صباح الخير" كان سام هو المتصل، وكان صوته يبدو مجهداً ومتوتراً.

"ما الوقت الآن؟"

"ما يقارب السابعة".

"أين أنت؟"

"في مكتب الطبيب الشرعي. لن تصدقي حظك".

"عفواً؟" كافح دماغي لفهم الحديث.

"رحلتك في البوسنة"

نظرت من خلال فتحات الستارة المعتمة. على الرصيف الداخلي، كان هنالك رجل عجوز أشيب يجلس على حافة قاربه الشراعي. عندما تركت الستارة المعدنية أمال رأسه إلى الخلف وأفرغ زجاجة شراب سعير في فمه.

"البوسنة؟"

"حضر، المتخصص بعلم الإنسان في محكمة كارولينا الجنوبية. لقد ذهب إلى البوسنة لاستخراج جثث من قبور جماعية لمصلحة الأمم المتحدة. لا أحد يعرف بالضبط متى سيعود".

"من يقوم بعمله حالياً"

"لا يهم. يريد منك ماكسر إخراج الجثة من القبر"

"من ماكسر؟"

"ماكسر كولكر هو قاضي التحقيق في مقاطعة بيوفورت. وهو يريد منك القيام بذلك".

"لماذا؟"

"لأنني أريد منك القيام بذلك؟"

كان ذلك صريحاً بما يكفي.

"متى؟".

"في أسرع وقت ممكن. طلبت هاربن من عقيق ونائب الشريف أن يقوما بالترتيبات اللازمة. سيلتقي باكستر بنا هنا عند الخامسة، ولديه فريق نقل على أهبة الاستعداد. عندما يصبح مستعداً ستصل طائرة موربري. سيفحص هو وسيطلعون بنا على رصيف جورج السيئة لأخذ الجثة إلى مستشفى بيمورت العام. لكنه يريد منك إخراج ما فيه من القبر. أخبريه فقط ما هي المعدات التي تحتاجين إليها وسيوفرها لك."

"هل كوبكر متخصص بعلم الإنسان الشرعي؟"

"باكستر مسؤول منتخب ولم يتلق أي تدريب علمي. إنه يعمل مديراً للجنازات، لكنه دقيق في عمله ويريد إنجاز هذا الأمر على نحو صحيح".

فكّرت بجميع ذلك.

"هل لدى الشريف ميكر أي فكرة عمّن قد يكون مدفوناً هناك؟"

"الضمان للمتوقعات واضحة جداً في هذه الأرجاء. سيتحدث إلى مسؤولين في الجوار، وإدارة مكافحة المخدرات، وكذلك إلى عملاء الهيئة الوطنية. لتجري هاربن أنهم كانوا يراقبون مستعمرات في أمر كوسو خلال الشهر الماضي. يظن الشريف أنه على الأرجح أحد أفراد عصابة متوحشة، وأتفق معه في ذلك. هؤلاء الأشخاص لا يهمهم وربما حياة الإنسان لهذا مستهجنين، أليس كذلك؟"

وافقت بتردد، وأخبرته عن المعدات التي أحتاج إليها فقال إنه سيأتي بها فوراً. كان يجب أن أكون مستعدة عند الساعة العاشرة.

وأمضيت هنالك عشرة دقائق. لا أعرف ما يجب أن أفعله بشأن كيتي. كنت أستطيع أن أشرح الوضع وأترك القرار لها. بالمحصلة، لم يكن هنالك سبب يمنعها من الذهاب معي إلى الجزيرة. أو يمكنني ببساطة أن أقترح لها أن شيئاً طرأ وقد تسبب بأمر مستعجل. ستستطيع كيتي الذهاب اليوم هناك أو المغادرة إلى رأس هيلتون في وقت مبكر أكثر مما خططت له. كنت أعرف أن الفكرة الثانية أفضل، لكنني قررت أن أدعوها على كل حال.

تناولت وجبة من الفتة الرطبة (حبوب للفطور) وعصير البطيخ والقهوة. لم يكن في مقدوري الجلوس من دون حراك، فارتديت سروالاً قصيراً وقميصاً قديماً (قميص الرياضي لا علاقة له)، ثم خرجت لتفقّد الحبال وعوّامة الماء. وعندما أصبحت هناك، أعدت ترتيب الكراسي على الجسر ثم عدت إلى الداخل مجدداً ورتّبت سريري ووضعت المناشف في الخزانة، وغيّرت ترتيب الوسائد على أريكة الصالون ثم قمت بإزالة الرمل عن السجادة. نظرت إلى الساعة لأتأكد من الوقت فوجدت أنها تشير إلى السابعة والربع فقط. لن تستيقظ كيمي قبل عدة ساعات. التقطت حذاء الركض، وخرجت من هناك بهدوء.

قدت سيارتي على الطريق 21 شرقاً عبر سانت هيلينا إلى جزيرة هاربور، ثم إلى جزيرة هانتينغ وصولاً إلى منتزه الولاية. وهناك، تلوّى الطريق لعقد العميق عبر غابة (أرض موحلة) ساكنة وداكنة مثل بحيرة تحت الأرض. كانت أشجار نخيل البلميط والسنديان تبرز من الأرض الحالكة. وفي أماكن متفرقة، كان ضوء الشمس يخترق مظلة الأوراق ويصبغ الماء بلون ذهبي جميل.

ركنت سيارتي قرب المنارة وعبرت ممراً خشبياً يؤدي إلى الشاطئ. كان البحر في حالة جزر، والرمل الرطب يتلألأ مثل مرآة. شاهدت طيطوى (طائر) يعدو برشاقة بين برك تركها الموج خلفه، وشاهدت ساقيه الطويلتين تنعكسان في صورة معكوسة. كان الصباح بارداً، وشعرت بقشعريرة تسري في ذراعيَّ وساقيَّ عندما قمت بالإحماء.

ركضت شرقاً إلى جانب المحيط الأطلسي، وقدماي تغوصان قليلاً فقط في الرمل المشبع بالماء. كان الهواء هادئاً تماماً. مررت بمجموعة من طيور البجع المستقرة على حافة الأمواج التي تتدفق برفق إلى الشاطئ. كان الوردي وشوفان البحر يقفان ساكنين ومن دون حراك على الكثبان.

حين كنت أجري نظرت إلى ما يجود به المحيط: قطع خشبية مصقولة لامعة مصبوغة بأصداف، أعشاب بحرية متشابكة، قوقعة بنية لامعة لسرطان، سمكة بوري التهمت سراطين وبراغيث البحر عينيها وأحشاءها.

جريت حتى ملتقى رشاقتي ثم قطعت مسافة أطول. عندما عدت إلى الممر الخشبي، كانت ساقاي ملتهبتين بالكاد تستطيعان حملي على الدرجات، لكني

شعرت تعباً بالتعب. ربما كان الأمر يتعلق بالسمكة النافقة، أو السرطانات أو لأنني ببساطة رفعت مستوى الإندورفين (هرمون تفرزه الغدة النخامية) لدي، بكيت لم أعد أخشى اليوم الذي سيطرق. إذ تقع حالة وفاة في كل دقيقة من كل يوم في كل مكان على الكوكب. وهذا جزء من دورة الحياة، وكذلك الأمر في جزيرة موراي كما سأنتشل تلك النبتة من تحت الأرض وأنقلها إلى سيورلي، كان ذلك معي

عندما استلمت عدت إلى المركب كالتي كي لا أزال نائمة. حضّرت قهوة. ثم ذهبت إلى الحمّام، وتمنيت ألا يوقظها صوت المضخة. وبينما كنت أرتدي ملابسي، سحبت طوقيهما ودهنتهما بالزبدة ومربّى التوت، وأخذتهما إلى الصالون. أصرّ أصدقائي يوماً أن أصبح طاهية متخصصة للشهية؛ لكن ليس بالنسبة إليّ. إذ تمنحني التمارين الرياضية الرغبة في التهام طعام يزوّد جسمي

شغّلت التلفاز، واستعرضت المحطات. ثم اخترت واحداً من بين ستة أشخاص يقدمون النصائح صباح الأحد. كنت أستمع إلى الموقر بوبي هاوبر وهو يصف الفضائل التي لا تنتهي وحضور لها الصالحين عندما دخلت كيتي ورمت بنفسها على الأريكة. كان وجهها منتفخاً ومتغضناً من النوم، فيما بدا شعرها مثل كومة أعشاب بحرية رأيتها على الشاطئ. كانت ترتدي قميص هورنتس (فريق كرة سلة) يصل إلى ركبتيها.

"صباح الخير، تبدين رائعة اليوم"

لم ألقَ رداً من ابنتي.

"قهوة؟"

أومأت، وعيناها لا تزالان مغلقتين.

ذهبت إلى المطبخ وملأت كوباً، ثم أحضرته لها حيث كانت بوضعية شبه منتصبة، ورفعت جسمها بعناء ومدّت يدها إلى القهوة.

"بقيت مستيقظة حتى الساعة الثالثة وأنا أقرأ"

رشفت منه قليلاً، ثم رفعت الكوب في حين كانت تثني وتطوي قدمها تحتها، بأسلوب عادي. وقعت عيناها على المستمعين عبر مذياع هاوبر.

"لماذا تستمعين إلى هذا الفرد؟".

"أحاول أن أعرف كيف يتسلّى المرء بتلك الفضائل التي لا تنتهي"

"حضّري له سمكاً وسوسيل لتي تريح وحاجات شراب"

لم تكن الهبة على شاكلة مضافي بقي في الصباح الباكر

"من كان الأبله الذي اتصل عند الفجر؟"

وكذلك الهاتف

"سام".

"آه، ماذا يريد؟"

"كيتي، حدث شيء بالأمس لم أخبرك عنه".

اتسعت عيناها اتساعاً وثبتتا على عينيّ.

ترددت، ثم انطلقت أقص عليها ما اكتشفناه في اليوم الماضي فأعدت التفاصيل، ووصفت الجثة وكيف قادنا دميه ? إليها، ثم أخبرتها عن محادثتي الهاتفية مع سام.

"إذاً، ستعودين إلى هناك اليوم؟" ووضعت كوباً لتشرب منه.

"نعم. سأذهب إلى هناك مع طاقمي التحقيق وفريق من مكتب الشريف. سيلتقي سام عند العاشرة. آسفة بشأن موعدنا. يمكنك المجيء معنا بالطبع، ولكني سأتفهم الأمر إذا لم تفعلي".

لم تنبس ببنت شفة وقتاً طويلاً. وتحدثت لتوازن بصعوبة عن ذلك.

"هل لديهم أي فكرة عمّن يكون؟"

"يظن الشريف أنه تاجر مخدرات. إذ يستخدم المهربون الأنهار والخلجان الصخرية في هذه الأرجاء لإدخال بضاعتهم. لديه شكوك في أن الصفقة لم تتم على ما يرام وانتهى الأمر بأحدهم جثة هامدة"

"ماذا ستفعلين هناك؟"

"سنفحص الجثة، ونجمع العينات، ونلتقط الكثير من الصور".

"لا، لا أعني. أعرف بالضبط ماذا ستفعلين. ربما أستطيع الاستفادة من ذلك في بحث أو شيء من هذا القبيل"

"خطوة خطوة؟"

أومأت واسترخت على الوسادة.

"يبدو الأمر روتينياً تماماً. سنسجل البيانات، ثم نضع شبكة مع نقطة مرجعية للرسوم والقياسات". ظهرت صورة قبر مفتوح وتوابيت في ذهني بسرعة واختفت. "عندما ننتهي من مجموعة السطح سأفتح القبر. أحفر بعض مراحل الاستخراج على مستويات مختلفة، وأبحث عن طبقات وأشياء أخرى. لا أظن حقاً أن ذلك ضروري في هذه الحالة. عندما يحفر شخص ما حفرة، ويلقي فيها جثة ويغطيها، لن تكون هناك حاجة إلى الاستفادة من علم طبقات الصخور. لكني سأحافظ على جانب من الحفرة على حاله بحيث يكون لدي مقطع جانبي عندما أنزل إلى القبر. بتلك الطريقة يمكن أن أرى علامات تدل على استخدام أدوات في الحفرة".

"علامات تدل على استخدام أدوات؟".

"رفش، أو ربما معول. يترك علامة في التراب. لم أر أي علامة من قبل، لكن بعض زملائي أقسموا إنهم رأوها. وهم يدّعون أنه في مقدورهم أخذ طبعات ثم تحضير قوالب ومقارنتها بمعدات مشتبه بها. ما رأيته هو طبعات أحذية في قعر قبور، خاصة إذا كان هناك الكثير من الطين والحصى. سأتحقق بالتأكيد من هذه الأمور".

"من الرجل الذي يحفر؟"

"نعم. عندما يصل الحفر إلى عمق معين يضطر الحفّار إلى النزول إلى القاع والحفر من هناك. وإذا فعل ذلك سيترك حذاؤه آثاراً. سأبحث أيضاً على عينات تربة، إذ يمكن أحياناً مقارنة التراب الموجود في القبر بالتراب الموجود على الجثة"

"أو على أرضية حوزته"

"بالضبط. وسأجمع حشرات"

"الحشرات؟"

"سيكون هذا القبر مليئاً بالحشرات. إنه سطحي، وقد كشفت النسور التركية والغربان أجزاء من الجثة، وكانت للذباب حفلة هناك، وسيكون الذباب مفيداً لتحديد البي إم آي".

"البي إم آي؟"

"الفحص ما بعد الموت. إنه يحدد الوقت الذي مضى على وفاة الشخص"

"كيف؟".

"كان علماء قد درسوا نمل الحشرات الآكلة بتمعن، وأهمها الذباب والخنافس، ووجدوا أن أنواعاً مختلفة منها تتغذى على الجثث بتعاقب منتظم، ثم تتابع كل منها دورة حياتها كما هو متوقع. تصل بعض الأنواع الطائرة في دقائق، في حين تظهر أخرى لاحقاً. تضع الحشرات البالغة بويضاتها، وتفقس البيوض إلى يرقات، هذا ما تكون عليه تلك الديدان، يرقات طائرة"

كنت أعرف ذلك.

"بعد مضي بعض الوقت تترك اليرقة البالغة وتغلف نفسها داخل قشرة خارجية صلبة تدعى شرنقة. وأخيراً تفقس إلى حشرات كاملة وتطير لتبدأ العملية كلها مجدداً"

"لماذا لا تصل كل الحشرات في الوقت نفسه؟"

"تتمتع أصناف مختلفة بدورات حياة مختلفة. إذ يأتي بعضها ليتغذى على الجثة، في حين يفضل بعضها الآخر أن يتغذى على البيوض أو على اليرقات الأخرى"

"هذا فظيع"

"هناك بيئة ملائمة للجميع"

"ماذا ستفعلين بالحشرات؟"

"سأجمع عينات من اليرقات والشرانق، وأحاول استيلاد بعض الحشرات الكاملة. بناءً على حالتها، ربما أستخدم أيضاً بحث تسجيل قراءات حرارية من الجثة. عندما تتجمع الديدان يمكن أن ترفع حرارة الجثة على نحو يمكن تقديره. ذلك هو أيضاً علم الحشرات *الجنائي*"

"ثم ماذا؟"

"سأحفظ كل الحشرات الكاملة ونصف اليرقات في عبوات كحولية، وسأضع اليرقات الأخرى في صناديق مع كبد وعجل البقر (يستخدم حفظ الحرارة داخل وعاء)، وسيعمل عالم الحشرات على تربيتها وفحصها لتحديد نوعها"

تساءلت من أين سيأتي سام بالشباك، ومسحوبات المنظفات، وعجل البقر، والعصير الحراري صباح يوم الأحد فضلاً عن القوارير والرفش، ومعدات الحفر الأخرى التي كنت قد طلبتها. كانت تلك مشكلته

"ماذا عن ملابسنا؟"

"سيعتمد ذلك على حالتها. إذا كانت سليمة نسبياً فسأقوم ببساطة بإخراجها ووضعها في كيس جثث. أمّا إذا تحوّلت إلى هيكل عظمي فستتطلّب العملية وقتاً أطول لأنني سأتحقق أولاً من العظام لأتأكد من وجود كل شيء."

فكّرت في ذلك.

"ما أفضل سيناريو للعمل؟".

"كل النهار"

"ما أسوأ سيناريو للعمل؟"

"أطول من ذلك".

مرّرت أصابعها عبر شعرها وهي عابسة ثم ربطته بضفيرة كبيرة عند عنقها.

"سأرسل بصمتك إلى موروري. أظن أنني سأتجول قليلاً ثم أذهب إلى رأس هيلتون".

"ألن يحتاج أصدقاؤك استعمالك في وقت مبكر؟"

"لا، كما أن رأس هيلتون على طريقي"

"اختيار جيد". وكنت أعني ذلك.

* * *

سار الأمر كما وصفته لكيتي، ولكن مع اختلاف رئيس واحد. إذ كانت هناك جسيمات، وصعدت نحو الكشاف تحت جثة وجه المستلقي جثة أخرى متستعة تستلقي في قعر الحفرة التي يبلغ عمقها أربع أقدام. كان وجهها إلى الأسفل، وذراعاها مطويين تحت بطنها، وكانت مائلة بزاوية عشرين درجة مقارنة بالجثة التي وضعت فوقها.

للعمق فوائده. فبالرغم من أنه لم يكن قد تبقّى من الرفاة العليا سوى العظام والأنسجة المتصلّبة، إلا أن تلك الموجودة في الأسفل لا تزال تحتفظ بمقدار كبير من اللحم والأحشاء الداخلية. عملت حتى حلّ الظلام، وغربلت بدقة كميات صغيرة من التراب، وأخذت عينات من التربة والنباتات والحشرات، وحشوت الجثتين في كيسي جثث، فيما صوّر المحقق في مكتب الشريف شريط فيديو والتقط صوراً ضوئية.

راقب سام وماكسويل كولكر وهاري ميكر من بعيد، وعلّقوا على الموضوع بين الفينة والأخرى، أو تقدموا إلى الأمام لإلقاء نظرة أفضل. وظلّ مساعد

الشريف الغابات المحيطة مع كلب من القسم مدرّب على التعرّف على رائحة التفسّخ، في حين فتّشت كيم بحثاً عن أدلّة حسّية.

وكان كل ذلك من دون جدوى. لم يظهر أي شيء سوى الحقيبة. كان قد تم تجريد الضحيتين من ملابسهما وإلقائهما هناك، وسرقة كل ما يشير إلى هويتيهما. وبالرغم من أنني تعمّقت في التفاصيل، إلا أن وضعيتي الحقيبة وكل ما رأيته في القبر أو التراب لم يكشف إن كان قد تم دفن الضحيتين في الوقت نفسه، أو أن الجثة العليا قد وُضعت هناك في وقت لاحق.

كانت الساعة قرابة الثامنة عندما رأينا باكستر كولنكر وهو يغلق باب شاحنة "السقف المصمّر"، ويصعد للتبصّر في مكانه. كنت وفاحص التحقيق وسام نقف معاً على جانب الطريق، فوق الرصيف، حيث كنا سنستقل مراكبنا.

بدا كولنكر مثل غصن بربطة العنق التي كان يضعها والتي كانت على شكل وردة، وبذلته المكوية على نحو أنيق، وسرواله الذي وضع فوقه حزاماً عالياً فوق الخصر. وبالرغم من أن سام كان قد حذّرني من مزاج قاضي تحقيق مقاطعة بيوفورت الذي يصعب إرضاؤه إلا أنني لم أكن مستعدة لحملات القمع في أثناء إخراج جثة من قبر. سلطت عمّا يرتديه الرجل لمعلاف المحتشد.

قال وهو يمسح يديه بمنديل من الكتان: "حسنٌ، هذه نهيهما حقهما". كانت عضلات الهرول قد خمدت وبرزت في وجنتيه مما جعل وجهه تروال. استدار نحوي. "أظن أنني سأراك غداً في المستشفى". كان لشرّ أكثر منه طلب.

"بـ ... مهلاً أظن أن للمتخصص بعلم الإنسان الشرعي في تشارلستون يتولى هذه القضية؟"

"حسنٌ، الآن، يمكنني برسائل حتى الملعون نيل كتبة الطب يا سيدتي. ولكني أعرف ما سيقوله لي السيد الموجود هناك". كان كولنكر يناديني سيدتي كل النهار. "قصد إكس هارداوي؟"

"نعم سيدتي. سيخبرني د. هارداوي أنني بحاجة إلى متخصص بعلم الإنسان؛ لأنه لا يعرف شيئاً في العظام. هذا ما سيقوله لي. وقد فهمت أن د. جعفر، متخصص علم الإنسان المعتمد لدينا غير موجود. الآن، أين يترك ذلك هذين الشخصين المسكينين؟" أشار بيده عبر الشاحنة المغلقة

"بغض النظر حتى يقوم بتحليل الهيكل العظمي، يجب أن نطالب بإجراء تشريح كامل للجثة الأخرى"

تحرك شيء في النهر، وبعثر ضوء القمر إلى ألف قطعة صغيرة. كانت سرعة النسيم قد ازدادت فشعشعت رائحة عطر في الهواء.

ضرب كوبكر على جانب الشاحنة بقبضته فدورت ذراع من النافذة ولوّحت، ثم انطلقت الشاحنة مبتعدة. وراقبها كوبكر لحظة.

"سيستغرق هذا انتقال في مستشفى بيفورت العام لأن اليوم هو الأحد. حالما سأتصل بالدكتور هنفري وأعرف النتيجة. هل لي أن أسأل أين تقيمين يا سيدتي؟"

بينما كنت أفكر انضم الشريف إلينا.

"أريد أن أشكرك مجدداً د. برنان. عمل رائع هنا"

كان بيكر أطول بقدم من قاضي التحقيق، ولم يكن سام وكوبكر معاً مثل ضخامته. تحت قميصه الرسمي بدا صدر الشريف وذراعاه وكأنها مصنوعة من حديد. كان وجهه شديد النحول، وجلده بلون قهوة داكنة. بدا هنري بيكر مثل ملاكم وزن ثقيل، لكنه تكلم مثل خريج هارفرد.

"شكراً لك أيها الشريف. كان تحقيقك ونتائجك مفيدين جداً"

عندما صافحني بدت يدي شاحبة وهزيلة داخل يده، وظننت أن قبضته يمكن أن تحطم قطعة من الغرانيت.

"شكراً لك مجدداً. سأراك غداً مع المحقق رايان، وسأحيي جيداً بتحضيراتك"

كنت وبيكر قد ناقشنا آنذاك موضوع الهياكل، وقد زوّدته باسم عالم حشرات. وكنت قد شرحت له طريقة إرسالها، وكيفية تخزين عينات التربة والنباتات. كان كل شيء آنذاك في طريقه إلى مركز المقاطعة الحكومي تحت رعاية المحقق من مكتب الشريف.

صافح بيكر كوبكر وربت على كتف سام بود.

وقال سام بينما كان يمشي بخطوات واسعة مبتعداً: "أعرف أنني سأرى وجهك الطري". وبعد دقيقة كانت سيارته في طريقها إلى بيفورت.

عدت وسام أدراجنا بالسيارة إلى ميلاتن بسرعة وتوقفنا لشراء وجبة في طريقنا من دون أن نتكلم كثيراً. كنت أشم رائحة الموت العالقة على ملابسي وشعري.

أردت الاستحمام، وتناول الطعام، والاستغراق في غيبوبة مدتها ثماني ساعات. وكان سام على الأرجح يريد أن أخرج من سيارته.

عند الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة كان سحري مفقوداً بمشقة، وتمكنت من شمّ رائحة مرطب وايت دايموند. كنت أسرح غطاء علبة الوجبة الجاهزة عندما اتصل رايان.

سألت ولما أحضر ملعقة الطعام (الكاتشاب) على البطاطا المقلية: "أين أنت؟"

"في مكان صغير جداً يدعى لورد كارتيريت"

"ما طبقه؟".

"لا يوجد فيه منصب غولف".

"سنلتقي الشريف غداً عند الساعة التاسعة". التهمت حبة بطاطا مقلية.

"عند التاسعة تماماً يا برينان. ماذا تأكلين؟".

"سلامي (نوع من السجق)"

"في العاشرة مساءً؟"

"كان يوماً طويلاً"

"لم يكن يومي سوى نزهة أيضاً". سمعت صوت إشعال عود ثقاب، ثم زفيراً طويلاً. "ثلاث رحلات بالطائرة ثم قيادة السيارة مسافة طويلة في البراري. وبعد ذلك لم أستطع الاتصال بذلك الشريف الرهيب. كان مشغولاً بشيء ما طوال اليوم، ولم يخبرني أحد عن مكانه أو ماذا كان يفعل بسرية مطلقة. ربما كان وأنت بسبب (شخصية القانونية حسناً) بالزي الرسمي وبعلامات متخصص لمصلحة الاستخبارات المركزية".

"الشريف بيكر رجل وجيه". تناولت ملء ملعقة صغيرة من سلطة الملفوف.

"هل تعرفينه؟"

"أمضيت اليوم معه".

هش برينان.

"صوت مضغك يبدو غاضباً"

"هش برينان"

"ما القلق بوبـي؟".

"إذا كان في مقدورك تناوله فسأتيك بالقليل منه حقاً"

"فقط، ما هو؟".

"مشروب قوة عشبة منقبة".

"ماذا كنت تفعلين مع بيكر كل اليوم؟".

قدمت له شرحاً موجزاً عن إخراج الكشف من الفم

"وبيكر يشتبه بتهدم المستوطنات؟"

"نعم لكنني لا أظن ذلك".

"هذا؟"

"راسلت ألا مرهقة، وبيكر يتوقع وصولك في الصباح الباكر. سأحجز لك هنا هل يمكنك الوصول إلى مرسى جزيرة السيدة؟".

"أضمن الأول أنه في جزيرة السيدة"

زودته بالإرشادات راغبة بالكلفة ثم التهمت ما بقي من عشائي وأويت إلى السرير، من دون أن أزعج نفسي بارتداء لباس النوم. نمت عارية ومن دون هزّ ولم أحلم بشيء يمكن أن أتذكره بعد تلك ساعات.

18

عند الثامنة من صباح يوم الاثنين، كانت حركة السير كثيفة على جسر وود ميموريال، والسماء ملبدة بالغيوم. فيما كان النهر قاتماً وكان لونه أخضر مائلاً إلى اللون الفسفوري. توقعت نشرة الأخبار الإذاعية التي كنت أستمع إليها في السيارة أمطاراً خفيفة ودرجة حرارة عالية جداً تصل إلى اثنتين وسبعين درجة. بدا رايان غريباً عن مكانه بسرواله وسترته الصوفيين، مثل مخلوق قطبي ضلّ طريقه إلى خط الاستواء، وكان يتصبب عرقاً.

في أثناء رحلتنا إلى بوفورت، شرحت لرايان عن عمل السلطة القضائية في المقاطعة، وأخبرته أن قسم شرطة بوفورت يعمل فقط ضمن حدود المدينة، وتخضع البلديات الثلاث الأخرى، بورت رويال وبلفورت ورأس هيلتون، ولكل منها قوة شرطة خاصة بها.

أضفت: "باقي مقاطعة بوفورت ليس جزءاً من هذه التقسيمات، ولهذا يعد من ضمن نطاق عمل الشريف بيكر. ويقدم قسمه أيضاً خدمات لجزيرة رأس هيلتون، مثل المطافئ."

قال رايان: "تبدو مثل كيبك"

"إنها كذلك. يجب أن تعرف التقسيم للمناطق هنا"

"أجرت سيمونيه اتصالاتها إلى سانت هيلينا، وهي ضمن نطاق عمل بيكر"

"نعم"

"تقولين إنه صعب قليلاً"

"سأدعك تكوّن رأيك الخاص"

"أعوض عن الخشن اللذين أخرجتهم من القبر"

صمت ملك.

"يا الله يا برناد، كيف تورّطين نفسك في هذه الأمور؟".

"إنه عملي يا رايان" أزعجني السؤال، وكان كل ما يفعل رايان يضايقني في الآونة الأخيرة.

"لكنك كنت في عطلة"

نعم، في موريزاي مع ابني.

قلت بحنق: "لا بد أنها حالتي الطبيعية الطريفة. أقسم بحثته، لم يرسل قط هذا ما أجهش لأجله"

ضغطت بقوة على لساني ورأيت قطرات صغيرة تتجمّع على الزجاج الأمامي. إذا كان رايان يود إجراء حديث فيمكنه أن يتكلم مع نفسه.

قال عندما كنا نتجاوز حرم جامعة كاليفورنيا الجنوبية – تشارلوت "قد أحتاج إلى بعض الإرشادات هنا"

"سينعطف كالوتريب يساراً بقوة ويقودنا إلى بوندري. التزم بالمسار"

انعطفنا غرباً متجاوزين أبنية سكنية في بيترو بيترسن ومررنا أخيراً بين جدران الآجر الأحمر التي تحيط بالقبور الرخامية على جانبي الطريق. عند ريبوت أشرت إلى ضرورة الانعطاف يساراً.

شغّل رايان الشفرة، ثم اتجه جنوباً تجاوزنا معظم مارينلاند للدجاج المقلي، ومركز الإطفاء ومقر جمعية، وإلى يميننا ظهر مركز حكومة المقاطعة. كانت الأبنية البسيطة المزخرفة بعض مكاتب المقاطعة الإدارية، والمحكمة، والمحامين العامين، ووكالات تطبيق القانون المتنوعة، والسجن. كان القصد من الأعمدة والقناطر إضفاء طابع معماري مميز. ولكن، بدلاً من ذلك بدا المجمّع مثل سوق آرت ديكو ضخمة

عند ريبوت وديوك أشرت إلى ساحة رملية تظللها أشجار السنديان والأشنة الإسبانية. قاد رايان السيارة إليها وأوقفها بين سيارة تابعة لشرطة مدينة بوفورت وحشد رصد الموت الخاطرة التابعة للمقاطعة. كان الشريف بيكر قد وصل للتو

ويبحث عن شيء في صندوق سيارته، عرفني ولوّح لي، ثم أغلق الباب، وانتظر أن نصل إليه.

قصـــدنا بـوابـة الشريف، وتصافح الرجلان. كان القطر قد تحول بين ضباب وقـــلق. قال رايان "آسف لأننا سنسرق من أصدقائك. أنا واثق أنك مشغول بما فيه الكفاية من دون زيارات مفاجئة من أجانب".

رد بيكـــر "لا مـــشكلة حضـــي الإطلاق. آمل أن نـــستطيع فعل شيء من أجلكما".

قال رايان وهو يومئ نحو البناء الذي يضم قسم الشريف. "مبنى جميل"

وبينما كنا نعبر الساحة، قدم الشريف شرحاً موجزاً عن المجمّع.

"في بدايـــة الثمـــانينات قرّرت المقاطعة وضع كل وكالاتها تحت سقف واحد. شُيّد هذا البناء بكلفة بلغت ما يقارب ثلاثين مليون دولار. معظمنا لمكاتب خاصـــة بنـــا، وكذلك مدينة بيوفورت، لكننا نشترك في الخدمات مثل الاتصالات والبريد والسجلات"

مـــرّ بنـــا وكيلان في طريقهما إلى ساحة ركن السيارات. لوّحا ولوّحنا بيكر بالمقابل، ثم فتح الباب الزجاجي وأمسكه لنا.

يقـــع مكتب قسم شرطة مقاطعة بيوفورت إلى اليمين، بعد صندوق زجاجي مليـــء بـــالملابس والشعارات الرسمية. أما قسم شرطة المدينة فكان يقع إلى اليسار، خلـــف بـــاب كتب عليه عبارة موظفون فقط، وإلى جانبه صندوق آخر يعرض رســـوماً لأخطـــر عشرة مطلوبين مكتب التحقيقات الاتحادي، وصوراً لأشخاص مفـــقودين، ومجـــسماً من مركز الأطفال المفقودين الذين يتعرضون لسوء المعاملة، وإلى الأمام مباشرة يوجد رواق بجسور مصعداً إلى داخل المبنى.

وعبرنـــا الممر الذي يفضي إلى مكتب الشريف لنرى امرأة عنق مطلّة على حاسبـــة المظلات في الردهة. وبالرغم من تجاوزها الخمسين، إلا أنها كانت تبدو كمن خرجت للتو من فيلم لفاغنر (مصرية). كان شعرها طويلاً وأسود فاحماً، وترتدي مـــشدّة فوق فستان قصير أزرق فاتح وسترة بنفـــسجية مطاطة وطويلة فـــوق ذلـــك، وتنتعل حذاءً ذا كعبين عاليين بمقدار ثلاث بوصات. إلى خوفها تكلّمت إلى الشريف.

"اتصل السيد كولكر اليوم، واتصل محقق ست مرات يوم أمس، وكان متحمساً جداً بشأن شيء ما. الاسم على مكتبك"

"شكراً. أبلغي لي هذا المحقق رايان" أشار بيكر إلى كلينا "ود برنان، سيساعداننا القسم في قضية".

نظرت لوسي إلينا بامتنان.

"هل تريد قهوة يا سيدي؟".

"نعم شكراً لك".

"ثلاثة أكواب إذاً؟"

"نعم"

"قشدة؟".

أومأت ورحلت

دخلنا مكتب الشريف وجلس الجميع. رمى بيكر قبعته على خزانة ملفات خلف مكتبه

قال مبتسماً "تبخر آبي لي بالحياة. لقد خدمت عشرين سنة مع مشاة البحرية، ثم عدت إلى الوطن وقصدت إليها" فكّر لحظة "حدث ذلك منذ عشرين سنة. تعمر السيدة هنا المكان بكمامة حلوة ووقود هيدروجيني. إنها تقوم الآن بعمل " بحث عن العبارة المناسبة. "... التحري في مجال الأزياء".

استرخى بيكر إلى الخلف وشبك أصابعه خلف رأسه، وأصدر كرسيه صوت أزيز

"إذاً يا سيد رايان، أخبرني ماذا تريد؟"

وصف رايان الوفيات في سانت - هيلين، وشرح المكالمات إلى سانت هيليستا. كان قد أوجز محادثته مع القابلة في عيادة جنسو - بلوريت ومع الدهيدي شاولر عندما طرقت آبي الباب. وضعت كوباً أمام بيكر، وكوبين آخرين على طاولة بيني وبين رايان، وغادرت من دون أن تنبس بكلمة

احتسيت رشفة، ثم أخرى.

سكت. "هل تقوم هي بتحضير هذه القهوة؟" فإن لم تكن أفضل قهوة تذوقتها على الإطلاق، فستكون في أعلى اللائحة بالتأكيد

"اتصل السيد كرولكسر لهو، واتصل محقق ست مرات يوم أمس، وكان متحمساً جداً بشأن شيء ما. الاسم على مكتبك".

"شكراً آبعي لي هذا المحقق رتيان". أشار بيكر إلى كليهما. "وهو موظف يساعدها القسم في قضية".

نظرت آبعي إلى إلينا باهتمام.

"هل تريد قهوة يا سيدتي؟".

"نعم، شكراً لك"

"ثلاثة أكواب إذاً؟"

"نعم"

"شكراً".

أومأت روايان.

دخلنا مكتب الشريف وجلس المصبح. ومن بيكر قبعته على خزانة ملفات خلف مكتبه

قال مبتسماً: "كيس آبعي في باخيانه لقد عملت عشرين سنة مع مشاة البحرية، ثم عدت إلى موطني وانضمت إلينا" فكّر لحظة. "حدث ذلك منذ عشرين سنة. تدير السيدة هذا المكان بكفاءة عالية وقوة هيدروجين. إنما نقوم الآن ببعض ... ". بحث عن العبارة المناسبة. "... التحديث في عالم الأزياء"

استرخى بيكر إلى الخلف وشبك أصابعه خلف رأسه وأصدر كرسيه الجلدي صوت أزيز

"إذاً يا سيد رايان، أخبرني ماذا لديك؟"

وصف راسمان الوفيات في سانت - جوفايت، وشرح ملكالاك إلى سانت هيلين. كان قد أوجز محادثاته مع الشعلة في عيادة حاسو - بعورت ومع والدي هايدي شنايدر عندما طرقت آبعي الباب. وضعت كوباً أمام بيكر، وكوبين آخرين على طاولة بيني وبين رايان، وغادرت من دون أن تنبس بكلمة.

احتسيت رشفة، ثم أخرى.

سألت: "هل تقوم هي بتحضير هذه القهوة؟". فإن لم تكن أفضل قهوة تناولتها على الإطلاق، فستكون في أعلى اللائحة بالتأكيد

لوماً بيكر

شربت من الكوب بعمق وحولت عديد المكونات. ثم صعد رنين هاتف المكتب الخارجي، وصوت آنجي بي

"ماذا يوجد فيها؟"

"تطبق سياسة لا تسأل لا تخبر لن أحصل في ما يعمل بجهوة آيفي. أشتهي ميلاً كل شهر، لنشتري بالكوبونات. تلاحي أن أحداً لا يعرف الوصفة سوى خشخاش وأمها"

"هل يمكن رشوتها؟".

وضع بيكر ساعديه على المكتب وأرخى ذقنه عليهما ضاحكاً. كانت كتفاه أعرض من شاحنة إنعتت.

قال: "لا أرغب في جرح مشاعر آيفي لي، أو أمها بكل تأكيد"

وافق رايان: "سياسة حكيمة. لا نزعج الأمهات". ثم أخذ الرباط بلطافة عن ملف كرتوني بني، وفتش في المحتويات، وسحب ورقة

"الاتصالات من سانت - جوزفيت. تب إلى العنوان أربعة - ثلاثة - خمسة طريق إطار لويسر".

قال بيكر "أنت محق، إنه في منطقة جيلبا"

استدار على كرسيه نحو الخزانة المعدنية، وفتح درجها، ثم سحب ملفاً ووضعه على مكتبه، ونظر بإمعان إلى الورقة الوحيدة الموجودة فيه.

"لمالك من العنوان، ولا تملك الشرطة سجلاً له، وليست هناك أي مكالمات في السنوات الخمس الأخيرة".

سأل رايان. "هل هو منزل خاص؟"

"على الأرجح. يوجد في هذه المنطقة من طريق الكثير من المقطورات والمنازل الصغيرة. لقد عشت هنا طوال حياتي واضطررت إلى استخدام خريطة للعثور على إطار لويسر. بعض تلك الطرقات الريفية على جلرز ليست أكثر من دروب ضيقة، ربما تعرفها إذا رأيتها، لكني لا أعرف دائماً أسماءها، إن كانت لها أسماء أصلاً".

"من يملك المنزل؟".

"ليست لدي تلك المعلومة، لكننا سنحقق منها لاحقاً. في الوقت الحالي، لماذا لا تقوم بزيارة وديّة إلى الكنيسة؟"

قال ريان وهو يعيد ورقته إلى الملف ويضع الرباط المطاطي مكانه "هل تسبقني".

"ويمكننا زيارة الصيادلة إذا كنت تظن أن ذلك سيكون مفيداً؟"

"لا أريد حجبك عن عملك بسبب هذا، أعرف أنك مشغول" وقف ريان، "إن كنت تفضّل يوماً في الاتجاه الصحيح، فأنا واثق بأنه سيكون بخير".

"لا، لا أفحص الدكتور برنان دو فحصته بالأمس، ولكنا واثق بأن عمي بالكسر كولكر معها لم يكن معه في الموقع حول لمسات الانتظار ربما افتقد شيئاً".

اختفى في مكتب ملحق، وعاد مباشرة مع قصاصة ورق.

"كما توقعت، اتصل كولكر بعدئذٍ أرسل الجثتين إلى تشارلستون لكنه يريد أن يتكلم مع د. برنان". ابتسم لي، وكانت عظام وجنتيه بارزة جداً وجلده أسود لامعاً، ووجهه يبدو مثل إناء نحاسي في ضوء الموقد.

نظرت إلى ريان الذي هزّ كتفيه وحطّ فجأة، اتصل بيكر برقمه وسأل عن كولكر، ثم ناولني السماعة، فانتابني شعور سيئ.

قال كولكر ما توقعته بالضبط. كان إكسر هيرداوي سيقوم بتشريح جثتي موريسي، لكنه وصل إجراء أي تحليل للهيكل العظمي. ولأنّ دان حافظ لم يكن موجوداً، سيتعامل هارداوي مع الجثتين في كلية الطب وفقاً للإجراءات التي أقرّوها، ثم سينقل كولكر العظام إلى مختبري في شارلوت إذا قررت إجراء الفحص.

وافقت مسرورة، ووعدت بالتكلم مباشرة مع هارداوي ثم زوّدني كولكر بالرقم وأنهينا المكالمة.

قلت للآخرين: "هيا بنا".

كرّر الشريف: "هيا بنا" ومدّ يده إلى قبعته ووضعها على رأسه.

سلكنا الطريق الرئيسي 21 من بوفورت إلى جزيرة السيدة، وعبرنا خليج كوان إلى سانت هيلينا، ثم قطعنا مسافة ثمانية أميال. عند طريق لاندينغ بوينت استدرنا

بسرعة، وتجاوزت قليلاً من منازل خشبية ومقطورات قائمة على أعمدة أكل الدهر عليها وشرب. كانت القطع بلاستيكية تغطي النوافذ فيما تناثرت الشرفات تحت ثقل كراسي عتيقة وأدوات قديمة. رأيت في الساحات هياكل وقطع سيارات مجرّدة وحمامات ميدانية، ومستودعات عبارة صفيحة. وفي أماكن متفرقة وضعت لافتات مكتوبة بخط اليد تعرض منقولات ومشغولات يدوية أو ما شابه.

بعد وقت قصير، انعطف الطريق نحوه إلى اليسار، وظهرت أمامنا دروب رملية إلى اليمين. انعطف بيكر مدخلاً نفقاً طويلاً مظلماً. كانت أشجار سنديان مصطفة على طول الطريق، مغطاة بالطحالب، فيما أغصانها متشابكة فوق الرؤوس مثل قبة كاتدرائية خضراء وعلى الجانبين كان هناك خندق عميق مليء بماء تغطيه أشنة.

أصدرت إطارات سيارتنا صوتاً على الحصى عندما كنا نتجاوز مزيداً من المنازل المتنقلة وأخرى متهالكة بعضها مع مقوّمة (لعبة أطفال ذات حركة دائرية) بلاستيكية أو خشبية وأخرى مع دجاج يجول في الساحات بدت متعلقة وكأنها تعود إلى سنوات الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي لولا وجود السيارات الحديثة والشاحنات المتهالكة.

بعد ربع ميل، وصلنا إلى إطار لوحة ظهرت لي بسرعة فاستطاع بيكر وقاد السيارة إلى آخر الطريق تقريباً وتوقف. عبر الطريق رأيت شواهد القبور تغطيها الطحالب وتظللها أشجار السنديان والمتورة (نبات دائم الخضرة). وفي أماكن متفرقة كانت رموز النصرى الفنية الخشبية تلمع بيضاء في الظلال الحالكة.

إلى يميننا، كان هناك مبنى، كان الأكبر بينهما منزلاً ريفياً مؤلفاً من طابقين ومبنياً من ألواح خشبية مصبوغة حاكمة. أما الأصغر فكان منزلاً من طابق واحد وكان لونه الأصلي أبيض وأصبح الآن رمادياً ومقشّراً وعلى شرفاته رأيت ملطوبات ومجموعة مراجيح.

كان جدار مخصص مشيد من كتل آجرية موضوعة بشكل مائل ومكدّسة فوق بعضها يفصل المنزلين عن الطريق، وشكّلت القطع الزخرفية صفوفاً ومنحوتات تشبه شقوق صغيرة. كانت كل فتحة مغلقة بالكرمة ونباتات متسلقة، وتعرش الوستارية (نبات متسلق ذو أزهار عنقودية زرقاء أو بيضاء) المتفتحة على طول

بالمكر عند مدخل الدرب، كانت هناك لافتة معدنية صدئة مكتوب عليها ملكية خاصة بأحرف رقائقية لامعة.

لم يكن الطريق يمتد أكثر من خمسمئة قدم بعد المنعطف، وكاد ينتهي عند بقعة من أعشاب الكستناء، خلفها ماء نهر الصحراوي قائم.

قال الشريف بيكر وهو يقود سيارته إلى ساحة خالية ويشير إلى المنزل الأكبر "يجب أن يكون هذا هو المنزل الرابعة. ثلاثة حسبما كان عليهم صيد امتلاكه قبل سنوات مضت" أمال رأسه نحو ملك. "ذلك هو منزل بيشيع بويشته ويمتد إلى مضيق ليس بعيداً عن هنا. لقد سكنت هذه الأبنية، فهي مهجورة منذ سنين"

كان بيكي قد شهد أياماً أفضل بالتأكيد. كانت ألواح المنزل الريفي الخشبية مربعة ويغطيها الطلاء الفطري والزخرفة الخشبية التي كانت بيضاء ذات مرة، ولكنها أصبحت الآن متصدعة ومتقشرة وتنكشف عن طبقة رقاقة مائلة تحتها. وكان هناك رواق يمتد على عرض الطابق الأول فيما يبرز موقد من الطابق الثالث، وكانت جوانبها أيضاً صورة مصفرة عن زاوية انحدار السقف.

خرجنا من السيارة ومشينا إلى جانب الجدار، ثم صعدنا عبر الدرب. كان هناك ضباب رقيق معلق في الهواء مثل الدخان. هبت رائحة طين وأوراق متحللة، ورأيت من بعيد أثر نار عليه.

صعد الشريف الدرجات، في حين بقيت ورائه تنتظر على العشب. كان الباب الداخلي مفتوحاً، لكنّ المكان مظلم ولا يمكن رؤية شيء من خلف الباب الشبكي. تحرك بيكر إلى الجانب وقرع على الباب الذي اهتز في إطاره. عالياً استطعت رفرفة عصفور بطنطنة سحب نحو الشجر. وعلمت أني حدثت مثلاً يبكي في الداخل.

قرع بيكر على الباب مجدداً

بعد لحظة، سمعنا وقع أقدام، ثم ظهر شاب عند الباب. كان وجهه مبقعاً بالنمش وشعره أحمر مجعداً، ويرتدي سروالاً قطنياً مع قميص. انتابني شعور بأننا على وشك أن نتعامل هودي هودي شخصية في برنامج أطفال.

"نعم؟". تكلم الشاب من خلف الباب الشبكي، وعيناه تنتقلان بيننا.

سأل بيكر محيّاً إياه بالعبارة الجنوبية البديلة لمرحبا: "كيف حالك؟"
"بخير"
"جيد. أنا هارلي بيكر". لوضح بأنه الرسمي أن تلك لم تكن زيارة اجتماعية. "هل يمكننا الدخول؟"
"لماذا؟"
"نود فقط أن نطرح عليك بعض الأسئلة".
"أسئلة؟"
"هل تعيش هنا؟".
أومأ عودي.
كرّر بيكر "هل يمكننا الدخول؟"
"ألا يجب أن يكون لديك مذكرة أو شيء من هذا القبيل؟".
"لا"
سمعت صوتاً واستدار عودي وتكلم من فوق كتفه. وخلال لحظة، انضمت إليه امرأة في منتصف العمر. كان وجهها عريضاً وشعرها مموجاً، وكانت تحمل رضيعاً على إحدى كتفيها، وربتت ظهره ثم تحركه بالتناوب، والقدم في أعلى ذراعها يهتز مع كل حركة.
قال لها وهو يتراجع عن الباب الشبكي خطوة إلى الخلف: "إنها الشرطة"
"نعم؟"
وبينما كنت أصغي أنا ورايان السمع، تبادل بيكر وشرك الحوار نفسه الذي كان قد جرى قبل ذلك، ثم قالت: "لا يوجد أحد هنا الآن. عد في وقت لاحق".
رد بيكر "أنت هنا يا سيدتي"
"أنا مشغولة مع الأطفال"
قال شريف مقاطعة بيبروت: "لن نتعب يا سيدتي"
حسبت المرأة، ووضعت الطفل عالياً على كتفيها، وفتحت الباب الشبكي. أصدر مفصلاها أصوات طقطقة عندما تبعناها عبر الرواق إلى ردهة صغيرة.
كان المنزل مظلماً، وكانت رائحة كريهة قليلاً مثل رائحة حليب أو قهوة كامنة في كوب. أمامنا مباشرة، كانت هناك سلالم ترتفع إلى الطابق الثاني،

وإلى اليمين واليسار كانت هناك قنطرتان تؤديان إلى غرفتين كبيرتين مليئتين بالأرائك والكراسي.

قادتنا المرأة إلى الغرفة يساراً، وأشارت إلى مجموعة من أرائك الخيزران. وعندما جلسا همس بشيء ما لوودي الذي تمطى في الأمس، ثم انحنت إلينا سألت بهدوء، وهي تنقل بصرها من بيكر إلى وبالد: "نعم؟".

"أنسي هارلي بيكر" وضع يده على طاولة صغيرة وانحنى نحوهما ويداه على ركبتيه، وذراعاه منبسطتان إلى الخارج. "وأنت من تكونين؟"

وضعت ذراعاً على ظهر الطفل، وهزّت رأسها، ثم رفعت الأخرى وراحة كفها مفتوحة نحوه. "لا أقصد أن أكون فظّة أيها الشريف، لكن يجب أن أعرف ماذا تريد"

"هل تعيشين هنا يا سيدتي؟".

ترددت، ثم أومأت. اقتربت ستارة تغطي نافذة عالية فتسرب نسيم رطب حتى عنقي

تابع بيكر "نحن مهتمون ببعض المكالمات التي حصلت مع أشخاص في هذا المنزل".

"مكالمات هاتفية؟"

"نعم سيدتي في الخريف الماضي. هل كنت هنا في ذلك الوقت؟".

"لا يوجد هاتف هنا"

"لا يوجد هاتف؟".

"حسنٌ، هاتف المكتب فقط، لكنه ليس للاستخدام الشخصي"

"فهمت" انتظر

"نحن لا نتلقى اتصالات هاتفية؟".

"نحن".

"يوجد تسعة أشخاص في هذا المنزل، وأربعة في المنزل المجاور، وبالطبع هناك أشخاص آخرون في المطبخ، لكننا لا نستخدم الهاتف، هذا غير مسموح"

في الطابق الأعلى، بدأ طفل آخر بالبكاء

"غير مسموح؟"

"نحن جماعة تعيش بسلام، ولا نتسبب بأي مشكلة. فلا نستعمل المنوعات أو أي شيء من هذا القبيل. بل نهتم بشؤوننا ونلتزم بتعاليمنا. ليس هناك قانون يمنع هذا، أليس كذلك؟"

"لا سيدتي، ليس هناك مانع. كم عدد أفراد مجموعتكم؟"

فكّرت لحظة. "نحن ستة وعشرون فرداً هنا."

"أين الآخرون؟"

"خرج بعضهم إلى وظائفهم، وهم المندمجون في المجتمع. أما البالغون فلي اجتماع صباحي في مبنى الجمهور. أما وحودي فمهتم بالأطفال".

سأل رايان: "هل أنتم جماعة دينية؟".

نظرت إليه، ثم إلى بيكر

ورفعت ذقنها نحوي ورايان: "من هذان؟".

"إنهما محققان مساعدان". حدّق الشريف إليها، وكان وجهه قاسياً، ولم يكن يبتسم. "ما طبيعة جماعتكم يا سيدتي؟"

مسّت أصابعها بطانة المعطف. وفي مكان ما بعيد سمعت كلباً ينبح.

قالت: "لا نريد متاعب مع القانون. يمكنك أن تعتبر هذا وعداً مني".

رايان: "هل تتوقعين متاعب؟"

رمقته بنظرة غريبة، ثم نظرت إلى ساعتها: "نحن قوم نريد العيش بسلام وأمان. لا يمكننا تحمّل المزيد من الممنوعات والطرائق، وهنا نعيش هنا ونعتمد على أنفسنا، ولا نؤذي أحداً. ليس لدي شيء آخر أقوله. تكلموا مع دوم، سيكون هنا قريباً".

"دوم؟"

"إنه يعرف ما سيقوله لكم؟"

"سيكون ذلك جيداً" أربكتها عينا بيكر فأكتفت بصمتها. "لا أريد أن يقوم الجميع بتلك الرحلة الطويلة إلى البلدة"

في ذلك الوقت تماماً سمعت أصواتاً، ورأيت بصرها يبتعد عن وجه بيكر ويتجه إلى الطالق فاستدرنا جميعاً ننظر

وعبر خلال الباب الشبكي رأيت نشاطاً في المنزل المجاور. كانت خمس نساء يجلسن في السرداق. اثنتان منهن تحملان رضيعين، بينما انحنت الثالثة لتمسح طفلاً على الأرض، فتغطي الحصير ولفافة برتقال، وبجانبه المرأة في الساحة. وبتحت أجر آخر ظهر اثنا عشر راشداً والصغار يلعبون بسرور، وبعد ثوانٍ، خرج رجل ومشى بالخلف محدثاً صوتاً وذهب إلى الردهة. وبعد وقت قصير، صُفق الباب الشبكي خلفي، ثم سمعت أصواتاً مكتومة.

رأيت المرأة تصعد السلالم، ثم ظهر الرجل الذي جاء من منزل المجاور تحت المظلة. قدّرت أنه في منتصف الأربعينيات، وقد غزا الشيب شعره الأشقر، فيما لفحت الشمس وجهه وذراعيه. كان يرتدي بذلة عسكرية، وقميص هاواي لصغار بالمقاس، وينتعل حذاء توبسايدر (حذاء صممه بول سبيري عام 1935) من دون جوارب، ويبدو مثل كابتن سفينة متقاعد في المرسى.

قال: "آسف. لم أعرف أن لديكما زوّاراً."

انتصبتُ واقفة وبكر للوقوف.

"رجاءً، رجاءً لا تقفا". عبر الشرفة نحونا ومدّ يده. "أنا توم".

صافحته جيداً، وجلس توم على إحدى الأرائك.

"هل ترغبون ببعض العصير أو شراب الليمون؟"

رفضنا جميعاً.

"إذاً، كنتم تتكلمون مع جيلي. تقول إن لديكم بعض الأسئلة عن جماعتنا؟"

أومأ بيكر

"أظن أننا ما يمكن دعوته مزرعة مستقلة" ضحك. "لكن، ليس ما تشير إليه العبارة عادة. نحن لسنا ما تكون عن الهيبيين المتعصبين للحضارة في الستينيات. ونحن معترضون على المعونات والمواد الكيميائية الملوثة للبيئة، وملتزمون بالنظم والإبداع والاعتماد على النفس. نعيش ونعمل معاً بانسجام. مثلاً، لقد أنهينا للتو اجتماعنا الصباحي حيث ناقشنا حصول أعمال كل يوم، وقررنا على نحو جماعي ما يجب القيام به ومن سيقوم به كإعداد الطعام والتنظيف، وهي في معظمها أعمال منزلية". ابتسم. "يمكن أن يصبح هذا الاجتماع طويلاً، لأنه اليوم الذي نُفصح فيه عن شكاوانا" عمّت الابتسامة. "بالرغم من أنه نادراً ما تكون لدينا شكاوى"

استرخى الرجل إلى الخلف وضم ذراعيه فوق صدره. "أعتقد أنكم مهتمون بمكالمات هاتفية"

عرّف الشريف عن نفسه "ولقب دوم ؟"

"دوم فحسب. لا نستخدم ألقاباً"

قال بيكر بصوت عالٍ من أي مرح. "نحن نستخدمها"

أطبق الصمت وقتاً طويلاً، ثم قال دوم "أوبنسر. لكنه انتهى منذ زمن بعيد، أحد دومينيك أوبنسر منذ سنوات".

"شكراً يا سيد أوبنسر" سجل بيكر ملاحظة في دفتره الصغير "الجمركي" رايان يحلق في حركة قش وقعت في كيسه ولديه أسباب للظن أن الضحية كانت تعرف شخصاً في هذا العنوان"

"كيف؟" استعب عيا دوم مما كشف عن تجاعيد بيضاء في حلقه الداكن "كيف؟"

قال رايان "تمت الاتصالات إلى هذا الرقم من منزل في سانت - جوفايت وهي قرية في جبال لورنتيد شمال مونتريال"

أصغى دوم السمع، ونظره حائرة نحو وجهه.

"هل يعني اسم باتريس سيموبيه أي شيء لك؟"

هزّ رأسه.

"غابرييل شنايدر؟".

المزيد من هز الرأس. "آسف". ابتسم دوم وهزّ كتفيه قليلاً "أخواتك أننا لا نستخدم العامة، وغالباً ما يحمل الأعضاء أصحاب المرء هنا حر في اختيار الاسم الذي يحبه"

"ما اسم جماعتك؟"

"ليكي، ليبز، تاينلر، د تشرش أوف كرست. أخبرنا ألا نستخدم أياً منها".

رايان: "منذ متى تعيش جماعتك هنا يا سيد أوبنسر؟"

"أدعني دوم من فضلك".

انتظر رايان.

"منذ نحو ثماني سنوات".

"هل كنت هنا في الصيف والخريف الماضيين؟".

"أحياناً. إذ كنت أسافر كثيراً"

أخرج ريفان صورة من جيبه ووضعها على الطاولة.

"تحاول معرفة مكان هذه الشقة"

انحنى دوم إلى الأمام ونظر بإمعان إلى الصورة، وتحسس حافتها بأصابعه الطويلة والنحيلة، وتلمع بين مفاصله حلقات خاتم ذهبية.

"هل هي امرأة الشقة؟"

"نعم"

"من القتيل؟".

"ريفان هيلويت".

أمضى دوم النظر إلى الوجهين وقتاً طويلاً وعندما رفع بصره إلى الأعلى كان في عينيه تعبير لم أستطع تفسيره.

"أتمنى لو كان في مقدوري مساعدتكم حقاً. أتمنى ذلك، ربما يحكي السؤال هذا نفسه في جلسة تبادل الخبرات التي نشجع فيها على استكشاف النفس والتحرك باتجاه الوعي الخاص. سيكون الوقت مناسب لذلك".

كان وجه ريفان قاسياً عندما نظرت عيناه إلى عيني دوم. "لست بحاجة لصحبة في نقاش ذلك يا سيد كوتيسر. ولست مهتماً في وجه الخصوص بما تقوله وقتاً مناسباً لبحث التفاصيل كافة. أعرف أنه لم يجر الكاتالات إلى هذا الرقم من المنزل الذي تلقت هايدي شايفر منه مصرعها. وأعرف أن الضحية كانت في يخوت في الصيف الماضي، ويجب أن أعرف الصلة بين الأمرين"

"نصيحتي بالطبع، يا له من حادث مأساوي. هذا النوع من العنف هو الذي يدفعنا إلى العيش على هذه الحالة".

أغلق عينيه وبدا وكأنه يدعو. ثم فتحهما وحدّق بإمعان إلى كل منا

"اسمح لي بأن أفسر. نحن نزرع ما نحتاج إليه من خضار، ونربي دجاجنا للحصول على البيض. نصطاد السمك ونجمع الرخويات. يعمل بعض الأعضاء في البلدة ويسهمون بأجورهم. ولدينا مجموعة معتقدات ترغب على رفض العنف، ولكننا لا نحمي الأذى للآخرين. نحن نعيش ببساطة وهدوء"

سحب نفساً طويلاً.

قال دوم: "وبالرغم من وجود نواة من أعضاء دائمين، إلا أن آخرين يأتون ويذهبون دائماً. فقط حياتنا لا تناسب الجميع. يحتمل أن تكون تلك الشابة قد زارتنا، ربما في أثناء أحد أسفاري. أعدك بأني سأتكلم مع الآخرين".

قال رايان: "نعم وسأفعل الشيء نفسه".

"بالطبع، ومن فضلك أخبرني إذا كان هناك شيء آخر يمكنني فعله".

في تلك اللحظة، اندفعت شابة عبر الباب الشبكي، وهي تحمل رضيعاً على وركها. كانت تضحك وتداعب الطفل الذي قهقه وربت عليها بأصابع مكتنزة.

خطرت عينا ملاكي الصغيرتان الشاحبتان في ذهني فوراً

عندما رأتنا الشابة اختفت وارتسمت على وجهها ابتسامة.

"يا، آسفة" ضحكت. "لم أكن أعرف أنه يوجد أحد" ضرب الرضيع رأسها فدغدغته في بطنه فصرخ وركل بقدميه

قال دوم: "دعيني يا كاثرين. أظن أننا أنهينا حديثنا هنا"

ونظر مستفسراً إلى بيكر ورجاله فأمسك الشريف قبعته ووقفنا جميعاً

استدار الطفل نحو مصدر صوت دوم، وحين رآه بدأ يتملص من بين ذراعي كاثرين فأنزلته إلى الأرض. مشى مترنحاً إلى الأمام ويداه ممدودتان فيما انحنى دوم وأمسك به. بدت ذراعا الطفل بيضاوين بلون الحليب حول عنق دوم الذي لوحته الشمس.

التفتت كاثرين إلينا.

سألت: "كم عمر طفلك؟"

"أربعة عشر شهراً. أليس كذلك يا كارلي؟" مدت إصبعاً فأمسكها كارلي، ثم رفع ذراعيه نحوها، فأعاد دوم الطفل إلى والدته.

قالت كاثرين: "اعذروني، يجب أن أغير حفاضته"

"قبل أن تذهبي، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً واحداً فقط؟". قدم رايان الصورة لها "هل تعرفين أياً من هذين الشخصين؟"

أمعنت كاثرين النظر إلى الصورة، وأمسكتها بعيداً عن متناول يد كارلي. راقبت وجه دوم، لكن ملامحه لم تتغير

هزّت كاثرين رأسها، ثم أعادت الصورة إلى رايان. "لا، آسفة". لوّحت بيدها في الهواء وتمضّت أنفها. "يجب أن أذهب"

قال رايان: "كانت المرأة حاملاً"

قالت كاثرين: "آسفة"

قلت: "إنه طفل جميل"

"شكراً لك" ثم انسحبت واختفت في الجزء الخلفي من المنزل.

نظر دوم إلى ساعته.

قال بيكر: "سنكون على اتصال"

"نهاراً جيداً، وحظاً طيباً".

عدنا إلى السيارة، صامتاً وأمعن النظر في المكان. انسرب زجاج الباب الأمامي فاندفع صبيب رقيق إلى الداخل واستقر على وجهي. كانت صورة ملاحي قد جعلتني أشعر بالاكتئاب، كما أن الطقس الرطب الخالد أثر في مزاجي على نحو مثار

ألقيت نظرة عابرة عبر الطريق بكلا الاتجاهين، ثم نظرت مجدداً إلى الكسوين. رأيت أشخاصاً يعملون في حديقة خلف منزل مؤلف من طابق واحد وعلب بذور معلّقة على عصي تحدد محتويات كل بقعة. بخلاف ذلك، لم تكن هناك أي علامات على وجود حياة.

سألت من دون أن أحدد شخصاً: "ماذا نظن؟"

قال بيكر: "إذا كانوا يسكنون هنا منذ ثماني سنوات فلا بد أنهم عاشوا هنا. لم أسمع من قبل شيئاً عنهم".

شاهدنا هيلين تغادر الحديقة وتسير إلى إحدى المقطورات.

أضاف وهو يمد يده إلى مفتاح التشغيل: "لكننا على وشك أن نعرف كل شيء"

لم يتكلم أحد لمسافة أميال. كنا نعبر الجسر إلى بلفورت عندما كسر رايان الصمت.

"يجب أن تكون هناك صلة. لا يمكن أن تكون الاتصالات صدفة"

قال بيكر "الصدف تقع فعلاً".

"نعم"

قلت: "هناك شيء واحد يزعجني".

"ما هو؟"

"توقفت هايدي عن ارتياد العيادة هنا في شهرها السادس، وقال والداها إنها ظهرت في نيكساس في أواخر أمسه صحيح؟".

"صحيح"

"لكن الاتصالات الهاتفية استمرت إلى الرقم هنا حتى كانون الأول"

قال ريادة: "معه تلك مشكلة".

19

تحوّل السحاب إلى مطر في أثناء انتقالنا إلى عيادة محسو – بيفورت العلية الشاملة، وجعل المطر جذوع الأشجار داكنة ولامعة، وصبغ الطريق بطبقة برّاقة. عندما أنزلت زجاج النافذة شممت رائحة التراب والأعشاب الرطبة.

وجدنا الطبيبة التي كان ريان قد تكلم معها وأريناها الصورة. قالت إن هايدي ربما تكون المريضة التي عالجتها في الصيف الماضي، ولكنها لم تكن واثقة. كان الحمل طبيعياً، وقد كتبت وصفات الحمل المعتادة لها، ولكن لم يكن في مقدورها إبلاغنا أي شيء غير ذلك. لم تكن تتذكر برايان.

عند الظهر، تركنا الشريف بكر لمعالجة مشكلة في أحد المنازل على جزيرة فسيسة. واتفقنا على اللقاء في مكتبه عند الساعة السادسة، وكان يأمل أن يتمكن عند حلول ذلك الوقت من الحصول على معلومات عن عقار إدنا ليوسر.

تسوقت وريان كباب المشاوي في مطعم سوجيب وبحر دينور، ثم أمضينا فترة العصر ونحن نعرض صورة هايدي في أرجاء البلدة ونسأل عن مزرعة إدنا ليوسر.

طلبول الساحة الرحبة كما عرف شيئاً: لم يسمع أحد عن عقار ليوسر أو أتباعه من قبل، ولا أحد يتذكر هايدي ستايلر أو برايان جيجوب.

جلست في السيارة التي استأجرها ريان وحدقنا إلى شارع الخليج. لم يكن ثمة عملاء يدخلون ويخرجون من مركز صيرفة بالمقر الاتحادي. نظرت إلى المقاهي التي وراءه: كافي ميلو، ومونتيرو، وبوستر في هاي كوبود. نعم، كانت بيفورت قد احتضنت عالم السياحة.

وقسمَ مطر، لكن السماء بقيت حالكة وملبّدة بالغيوم. شعرت بالتعب والإحباط، ولم أجد واقعة بصلة ببيروت - بسانت - حوفايت

خارج متجر سوبر الاستهلاكي كان رجل شعره منفوش ووجهه مثل صحيفة قديمة يلوّح بالكتاب المقدس ويصرخ ويعظ. لم يكن آخر موسى حاملاً بالشاطئ على أرصفة لشاة، هنا كان عليه الاعتماد على نفسه.

كان سام قد أخبرني عن حربه مع واعظي الشوارع. طوال عشرين عاماً كانوا يأتون إلى بيروت، ويجتمعون في الدينية. وفي العام 1993 أصدر القاضي أمراً بالاستقلال الوقر لصحافي بريطاني لإزعاجه سكان ريتشي سراويل بصوره، وتسميتهم بالساقطات، والصراع بشأن أمور عدة. أقيمت دعاوى ضد المدينة وللمدينة، وسعت اتحاد الحريات المدنية للدفاع عن المبشرين، وأصبحت مسألة تتعلق بالحقوق التي أقرّها التعديل الأول. أرجأت محكمة الاستئناف الرابعة في ريتشموند النظر في القضية، ولا يزال الواعظون يأتون.

استمعت إلى الرجل الذي يتكلم بصوت عالٍ عن الوثنيين واليهود وأحسست بشعيرات صغيرة تقف على الجزء الخلفي من عنقي. أمتعض من أولئك الذين يسمّون أنفسهم متحدثين باسم الله، وأقرب الأقرباء ولا أتسرع من أشخاص يفسرون الكتاب المقدس لأغراض سياسية.

سألت رايساند وبصري لا يفارق الواعظ أيضاً: "ما رأيك في الحضارة الحضرية؟"

"تبدو مثل فكرة جيدة"

قلت وأنا أستمر إليه متعرفة: "حسنٌ حسن. سؤال أخيراً من خاطئ"

كان ذلك أحد أقوال غاندي المفضلة لدي.

"بعض المحققين الجنائيين يحمون القرنة" كان هناك عتب في صوته

ملمحة بما يوحي به من الواضح أن رجل القس ليس الوحيد الذي يمتلك أفكاراً عالية تمثلية.

شاهدت امرأة تمر نحو طريقها لتفادي الواعظ وتساءلت عن نوع الخلاص الذي وعد به يوم أوغستس كابقة به. نظرت إلى ساعتي وقلت: "نقترب من وقت العشاء"

"قد يكون وقتاً جيداً للبحث عن أشخاص يقومون بتحميص شطائر لحم البقر"

"لا يمكننا لقاء بيكر قبل تسعين دقيقة أخرى"

"هل أنت مستعدة لزيارة صاحبة يا جميلة؟"

"أفضل البقاء هنا"

كان ريان يمدّ يده إلى مفتاح التشغيل عندما توقف. تبعت نظره ورأيت كاثرين تمشي على الرصيف، وكارلي على ظهرها، وكانت امرأة أكبر سناً ذات ضفائر طويلة وحاكة تمشي إلى جوارها. كان نسيم الرطب يدفع تنورتها إلى الخلف، ويجعل القماش يلتصق بالوركين والساقين. توقفتا وتكلمت رفيقة كاثرين مع الواعظة ثم تابعتا السير باتجاهنا.

تبادلت ورايان النظرات، ثم خرجنا من السيارة ومشينا باتجاه المرأتين، فتوقفتا عن الكلام عندما اقتربنا، وابتسمت كاثرين لي.

سألت وهي تدفع خصلة من شعرها إلى الخلف. "كيف تسير الأمور؟".

قلت، "ليس على ما يرام".

"ألم تحالفكما الحظ في العثور على الفتاة المفقودة؟"

"لا أحد يذكرها. أجد ذلك غريباً، لأنها أمضت على الأقل ثلاثة شهور هنا"

وراقبت وجهها لرؤية أي رد فعل، لكن تعبيرها لم يتغير

"أين سألتما؟". تحركت كارلي ومدّت كاثرين يدها فوق كتفها لتعديل وضعية طفلتها.

"سألنا في المتجر، ومقاهي القهوة، والصيدليات، ومحطات الوقود، والمطاعم والمكتبة. حتى إننا في بوسيدون (متجر بيع الألعاب)"

"نعم. تلك فكرة سديدة. إن كانت حاملاً فربما تكون قد ذهبت إلى متجر بيع الألعاب".

مسح الرضيع ثم رفع ذراعيه وتلوّى إلى الخلف، ضاغطاً بقدميه على ظهر أمه.

قالت كاثرين وهي تمد يدها لتهدئة ابنتها: "ألم يتعرفها أحد من تلك الصورة؟"

"لا أحد"

أضحى مشهد كاري أكثر حدة، وتحركت المرأة الأكبر سناً خلف كاري وأخرجت الطفل من الحمل.

"آه، آسفة جداً إذاً" أشارت كاري إلى رفيقتها.

عرّفت ريان عن نفسها فابتسمت إليه ولكنها لم تقل شيئاً في حين كانت تحاول تهدئة كاريل.

سأل ريان "هل يمكننا دعوتكما لتحتسيا كوكاكولا أو فنجان قهوة؟"

"لا نملك حاجة ملحّة تؤرّقنا الحسي" تمتمت أمّ كاري، ثم ابتسمت. "لكنني يمكنني شرب كوب من العصير، وكذلك كاريل" حرّكت عينيها وحدّثت نفسها إلى حد ما "يصبح كل شيء معركة عندما لا يكون سعيداً. لن يقلّنا نوم قبل أربعين دقيقة أخرى، أليس كذلك يا كاريل؟"

تكلمت المرأة بصوت رقيق حقاً "يجب أن تنتظر دوره" واستطعت بصعوبة تمييز كلماتها.

"أومأ إليه معترفين أنه سيأخذ لتناول بعض العصير ويجلس في الهواء الطلق. لا أريد العودة وكاريل يزعق كل الطريق".

شحب إلى عمها، ولكن قبل أن تتكلم تلوّى كاريل وأطلق صرخة

قالت كاري وهي تأخذ الطفل وتضعه على وركها "نعم هناك الكثير من الطاولات في بلاكستون. لقد رأيت لافتاتهم من خلال النافذة"

دخلنا لنتحرر وطلب كولا معمية، في حين طلب الآخرون عصيراً، ثم أخذنا مشروباتنا إلى مقعد خشبي في الخارج. سحبت كاري بطانية صغيرة من حقيبة كتفها، وطوتها على عشبها، ووضعت كاريل عليها، ثم أخرجت قارورة ماء وكوباً صغيراً أحمر كان الكوب ذا قاعدة مدوّرة وغطاء يمكن سحبه مع فتحة شرب. ملأته حتى منتصفه من إبريق تبريد (حبيب ميكّة)، لم تتعب منه، وسلّمته إلى كاريل الذي أمسكه بكلتا يديه وبدأ يمص من فتحة الشرب، وبدكوت، والقشعريرة الشعور الذي انتابني على الجزيرة مجدداً

شعرت بسائق من خارج هذا العالم. اجتاحني في موبري، الأفكار بشأن كسي الطلقة، رجال في بيعورت مع مسدسه وشعره، واضطرب برقاً سكون

(مسجلة في كندا) في المطبخ. بدا العالم غريباً بالنسبة إليّ، والمساحة التي أتحرك ضمنها مستقلة عـــن مكان أو زمن آخر، ولكنه بالرغم من ذلك موجود وحقيقي تماماً.

قلـت وأنا أعيد تفكيري إلى اللحظة الراهنة أسألها "أخبريني عن جماعتك"

نظرت إليّ ولم تتكلم.

سألت كاترين: "ماذا تريدين أن تعرفي؟"

"ما الذي تعتقدون به؟"

"نحترم أجسامنا وأبداننا. نحافظ على طاقتنا الكونية والحيوية سليمة".

"ما الذي تمارسونه؟"

"نعتصم؟" بدا أن السؤال قد أربكها. "نزرع طعامنا بأنفسنا، ولا نأكل شيئاً ميتاً". هزّت كتفيها قليلاً. وبينما كنت أصغي إليها، خطرت هاري ببالي. "التطهير عبر الحمية." "سلوى، تعال معي وتعلم أشياء. أحياناً نسمع محاضرات. توم ذكي جداً. إنه تقي تماماً."

وبدت إلى على ذراعيها وأشارت إلى كوب كارلي. فاستعادته كاترين، ومسحت القشدة عن حوافها، وأعادته إلى ابنها. أمسك الرضيع بالكوب ووضعه على قدم أمه.

"منذ متى تعيشين مع الجماعة؟".

"منذ سبع سنوات".

"كم عمرك؟" لم يكن في مقدوري إخفاء الدهشة في صوتي.

"سبعة عشر عاماً. انضم والداي إلى الجماعة عندما كنت في العاشرة"

"وقبل ذلك؟"

التمست وأعادت الكوب إلى فم كارلي. "أتذكر أنني بكيت كثيراً. كنت وحيدة، ومريضة دائماً. وكان والداي يتشاجران كل الوقت"

"و؟"

"عندما انضممنا إلى الجماعة طرأ تغير على حياتنا، عبر التطهير"

"هل أنت سعيدة؟".

تكلمت إلى الصدره الأولى بصوت عميق وخافت، وبلكنة لم أستطع تمييزها:
"الهدف من الحياة ليس السعادة"
"ما هو؟"
"السكينة والصحة والانسجام".
"ألا يمكن تحقيق ذلك من دون الانعزال عن المجتمع؟".
"لا تطلبي ذلك" كانت الشمس قد لفحت وجهها فلوّنه بالتجاعيد، كانت عيناها بلون الشوكولاتة (خشب بني ضارب إلى الحمرة). "في المجتمع، تلزمنا أشياء كثيرة مثل المشروبات والقذارة والممتلكات، والجشع بين الأفراد. وتقف معتقداتنا ضد ذلك"
قال كاثرين: "تحتّم إلى من الأمور على نحو أفضل مما أسعده أنا".
سأل ويسلي: "لكن ماذا عن الزراعة؟ لماذا لا تحصروها وتتصرفون إلى جماعة ما؟".
أشارت كاثرين إلى ليزابيكا: "تولي الأمر"
"الكون وحده عضوية متكاملة ومؤلفة من عدة عناصر تعتمد على بعضها كل جزء غير منفصل عن الآخر ويتفاعل مع الجزء الآخر. وبالرغم من أننا نعيش وحدنا، إلا أن جماعتنا نسخة مصغّرة عن تلك المنظومة".
سأل رايان: "هل تتفضلين بشرح ذلك؟"
"من خلال عيشنا منعزلين عن العالم نحن نرفض التناسخ والمصانع الكيميائية ومصافي النفط، ورجاحات الشرطة، وأكداس الإطارات، وهدر المواد نتعايش معاً كجماعة ندعم بعضنا، ونتلقى بعضنا ونرعى وحدتنا"
"الجميع للفرد"
ابتسمت إلى برهة "علينا التخلص من كل الخرافات القديمة قبل أن يصبح الوعي الحقيقي ممكناً"
"كلها؟"
"نعم".
"من هو؟" ولوّحا رايان برأسه باتجاه الواعظ.
"جميعها"

أعدت الحديث إلى مساره الصحيح.

"كاثرين، إن أردت معلومات عن شخص ما في تساؤلي؟"

قالت وهي تبتسم: "اسمعي، لن تصدقيها". أمسكت كوب كاثرين عندما "إنها على الأرجح تمسح السرير الآن تمحو خطيئتها برغم الوقاية من الشمس".

نظرت إليها وقتاً طويلاً. لم تكن تعرف. وجوم لم يلحظها. لم تسمع مقاطعة الحديث وليست لديها أي فكرة عن سبب سؤالنا عن هايدي وبرايان. صحبت ثناً عميقاً

"هايدي شنايدر ماتت يا كاثرين، وكذلك برايان هيدوب"

نظرت إليّ وكأنني مجنونة.

"ماتت؟ هذا غير ممكن"

"كاثرين!". كان صوت إل حاداً

تفحصتها كاثرين. "أعني، إنها بالغة وحامل، لو كانت كذلك". كان صوتها حزيناً، مثل طفل.

"لقيا مصرعهما منذ أقل من ثلاثة أسابيع"

سحبت عينيها من رايان إليّ. "لم تأتيا إلى هنا لتأخذاها إلى منزلها؟"

استطعت رؤية نقاط صفراء صغيرة في القزحيتين الخضراوين. "هل أنتما والدتها؟"

"لا"

"ماتا؟"

"نعم"

"هل مات الطفلان أيضاً؟"

أومأت.

ارتفعت يدها إلى شفتيها ثم راحت حول شعرها، مثل فراشة لا تعرف أين تطير. شدة كانولي تورتها، وسرت اليد لتضرب رأسه

"كيف يمكن لشخص أن يفعل شيئاً مماثلاً؟ أعني، لا أعرفهم، لكن كيف يمكن لشخص أن يقتل أسرة برمتها؟ كيف بإمكانه أن يقتل طفلين؟"

قالت إل وهي تضع ذراعاً حول كتفي الفتاة: "ستموت جميعاً. الموت مجرد انتقال في عملية التطور."

سأل رايلان: "انتقال إلى ماذا؟"

لم يكن هناك رد في تلك اللحظة، وقفت شاحنة مغلقة بيضاء أمام مصرف بيسول عند الطرف البعيد من شارع الخليج، فضغطت إل على كتفي كاترين ولوحت عبر الشاحنة. ثم أمسكت كارلي، رفعتها ومدّت يدها لتمسك كاترين بيدها ووقفت على قدميها.

قالت إل: "إني لكما حقاً ممتنة" ومشت الرفقة نحو الشاحنة.

ولحقهما بالمظلة، ثم شرب ما بقي من الكوكا وبينما كنت أبحث عن سلة مهملات لفت نظري شيء تحت المقعد الخشبي: حذاء كوب كارلي.

أخرجت بطاقة من محفظتي، وكتبت رقماً، ثم وضعت البطاقة على الأرض. بدا رايلان مذهولاً عندما نهض من المقعد الخشبي واندفع نحو كاترين.

كانت تصعد إلى الشاحنة المغلقة عندما ناديتها من منتصف الشارع: "كاترين"

نظرت نحوي، فلوّحت بالمظلة في الهواء. كانت الساعة على المصرف خلفها تشير إلى الخامسة والربع.

تكلمت إلى شخص داخل الشاحنة ثم مشت نحوي. عندما صارت بيننا أعطيتها المظلة وبطاقتي مطوية داخلها.

التقت عينانا بعمق.

"اتصلي بي إذا أردت التكلم"

استدارت من دون أن تنبس بكلمة، ومشت عائدة إلى الشاحنة ثم صعدت إليها. استطعت رؤية رأس دوم الأشقر خلف المقود عندما انطلقوا في نهاية شارع الخليج.

عرضت ورايلان الصورة في صيدلية أخرى، وفي عدة مطاعم وحانات سريعة، ثم انطلقت بالسيارة إلى مكتب الشريف بيكر لنعرف أيمن ب أن المشكلة في أحد المنازل قد تحولت إلى مواجهة. إذ كان عامل للمخدرات صحبة طفل عن العمل قد

يعيش في منزله مع زوجته وابنته البالغة من العمر ثلاث سنوات، وهكذا يطلق النار على الجميع. لم يكن بيكر سينضم إلينا في تلك الأمسية

سألت رايان. "ماذا سنفعل الآن؟" كنا نقف في ساحة ركن السيارات في شارع ديوك.

"لا أظن أن عليهم كانت من يترددون ليلاً، هل لي نكتشف أي شيء من زيارة المضارب والنواحي"

"لا"

"ستتوقف عند هذا الحد اليوم. سآخذك إلى مركب الحب"

"إنه ميلادي أمس"

"أمس. هل هو شيء تأكلينه مع خبز الذرة والخضار؟"

"لحم وبطاطا حلوة"

"هل تريدين أن أقلك؟".

"طبعاً"

بقينا صامتين معظم الطريق. كنت قد وجدت رايان مزعجاً كل النهار، ولم أكن أطيق صبراً حتى أتخلص منه. كنا على الجسر عندما كسر الصمت.

"لا أظن أنها كانت تذهب إلى صالونات تجميل أو صالونات تسمير بشرة".

"هذا مدهش. تعرف الآن لماذا أصبحت محققاً"

"ربما يجب أن نركز على برايان. فقد يكون قد سبق له أن عمل هنا لبعض الوقت"

"لقد أجريت بحثاً عنه. لكن، لا يوجد سجل جرمي له، صحيح؟"

"لا شيء"

"ربما كان يحصل على أجره نقداً"

"ذلك يقلّل الاحتمالات".

انعطفنا لنسلك شارع أولي

سألت "إذاً، إلى أين سنمضي من هنا؟"

"لم أذق يوماً كرات الذرة المقلية تلك"

"كنت أقصد التحقيق. أنت حر في ما يخص العشاء. سأذهب إلى المنزل وأستحم وأحضر لنفسي طبقاً رائعاً من المعكرونة الجاهزة. بذلك الترتيب"

"يا الله يا رونالد، يوجد في تلك الوصفة مواد حافظة أكثر من حبة ليمون"

"لقد قرأت الملصقة"

"ربما يستطيعون أيضاً صنع أسنان صناعية. سوف تصمدين" قلّدت كاثرين - "تومّعات الجليد".

بدأت فكرة مشوشة تخطر في ذهني، من دون أن تتخذ نحواً معيناً، مثل ضباب الصباح. حاولت أن أتبين ملامحها ولكن، كلما ركّزت أكثر كلما انفضت عني نحو أسرع.

"الأفضل لأوبنسر أن يراقب عاداته عن كثب. سألاحقه مثل ذباب على فوسي رول (قطعة حلوى)".

"أيّ نوع من الكتب تظن أنه يعمل به؟"

"سيطير لكنه يستند إلى كتاب يتحدث عن الصّراع بين الخير والشرّ والتطوير الدائم عبر وحش (حروب فطور)".

عندما توقفنا إلى جانب الرصيف البحري كان الجو قد بدأ يصحو حول المستنقع، وكان شريط أصفر يغشي الأفق.

قلت: "كاثرين تعرف شيئاً"

"ألا نعرف جميعاً ذلك"

"يمكنك أن تصبح مزعجاً حقاً يا رونالد"

"شكراً على الملاحظة. ما الذي جعلك تظنين أنها تخفي شيئاً؟"

"قالت كلمة: مسلسل".

"إذاً؟".

"مسلسل"

لاحظت فكرة تلمع في عينيه، ثم قال: "ذلك الوعد"

"لم يخبرونا قط أن هايدي كانت حاملاً بتوأم"

بعد أربعين دقيقة، سمعت طرقاً على المدخل الأمامي. كنت أرتدي قميص هوربيس الذي تركته كيتي، من دون سروال، وألفّ منشفة فوق رأسي مثل عمامة أنيقة. خطوت عبر الستارة المعدنية.

كان ريان يقف عبر الرصيف وهو يحمل رحلتين شراب ويبدو بحجم غطاء حفرة. وكان قد تخلّى عن سترته وربطة عنقه، ورفع ردني قميصه إلى تحت مرفقيه تماماً تماماً.

جررت الرتاج وأرجعته إلى الخلف. كان في مقدوري إطفاء الضوء وعدم الرد عليه، أو أن أصفعه وأطلب منه الرحيل.

خطوت إلى الخارج حافية، ووجدت نفسي أنظر مباشرة إلى عيني ريان.

"أعرف أنك في الداخل يا برنان. أنا محقق، هل تذكرين؟"

لوّح بالشراب أمامي. "كولا للحمية".

اللعنة.

لم أكن أكره ريان، بل في الواقع كنت أستمتع بصحبته أكثر من معظم الناس، أكثر مما أجرؤ على الاعتراف به. كنت أحب التزامه بما يفعله، والتعاطف الذي يظهره للضحايا وأسرهم، كما أحب ذكاءه وفطنته. وكذلك كنت أحب قصة ريان. الفتى الجامعي الذي انحرف عن المسار الصحيح، وتلقى ضربة على رأسه، ثم تحوّل إلى الجانب الآخر من صعب الحوض ليتحول إلى شرطي صعب المراس. كان في ذلك نوع من الانسجام الشعري.

وكنت بالتأكيد أحب مظهره، لكنّ حكمي السليم حثّني على عدم التورط معه.

أه تباً. ذلك أشهى من المعكرونة والجبنة.

هرعت إلى مقصورتي، وارتديت سروالاً قصيراً، ومرّرت مشطاً في شعري.

وجدت السيارة، وفتحت الباب الشبكي إلى الخارج لأسمح له بالدخول. ناولني المشروب والبيتزا ثم استدار وصعد على متن مركب من الخلف.

قلت وأنا أغلق الباب الشبكي "لدي كولا"

"لا يمكن للمرء أن يكتفي من الكولا أبداً"

أحضرت إلى المطبخ ووضع البيتزا على الطاولة، ووضع علبة شراب شعير لنفسه وكولا لي، ثم وضع العلب الأخرى في الثلاجة. أحضرت أطباقاً ومناديل، وسكيناً كبيراً، في حين فتح هو علبة البيتزا.

"هل تظن أن تلك معدة أكثر من المكرونة؟"

"إنك أشهى بيتزا"

"ما هذا؟" أشرت إلى قطعة بنية.

"قديد اللحم، أردأ كل أصناف الطعام"

اقترحت: "لنأخذها إلى الصالون"

وضعنا الطعام على الطاولة الصغيرة وجلسنا على الأريكة. تسللت إلينا رائحة المستنقع والخشب الرطب، وتسربت بيننا صلصة الطماطم والريحان. أكلنا وتكلمنا عن الجرائم، ووضحنا احتمال أن تكون الضحايا في سانت - جوفييت على علاقة بنجوم أوبتسن.

أخيراً، انتقلنا إلى أمور شخصية. وصفت بيبورت خلال طفولتي، وشاطرته ذكرياتي عن فصول الصيف على الشاطئ. تكلمت عن كيتي، وعن ابتعادها عن بيت. وسرد رايان قصصاً عن سنواته المبكرة في نوفا سكوشا، كما كشف عن مشاعره بشأن انفصال ومع أموره.

كان الحديث بسيطاً وطبيعياً، وكشفت عن نفسي أكثر مما كنت أتخيل. وفي الأوقات التي صمت فيها أصغيت السمع إلى الماء وحفيف الأعشاب في المستنقع، نسيت كل شيء عن العنف والموت، وعملت شيئاً لم أفعله منذ وقت طويل جداً؛ استرخيت.

وقلت عندما بدأت أجمع الأطباق ومناديل المائدة: "لا أصدق أنني أتكلم كثيراً".

مدّ رايان يده إلى العلب الفارغة. "دعيني أساعدك"

تلامست يدانا وشعرت بحرارة تسري عبر حلقي. بصمت، جمعنا الأغراض المتبقية ونقلناها إلى المطبخ.

عندما عدنا إلى الأريكة وقف رايان إلى جانبي للحظة، ثم جلس قربي، ووضع كلتا يديه على كتفيّ، وأدار جسدي بعيداً عنه. عندما كنت على وشك أن

لتعترض، بـدأ يدلّك العضلات أسفل عنقي وكتفي، على طول ذراعيّ إلى مرفقي تماماً. ثم سرت يده على أسفل ظهري وتابعنا التدليك إلى الأعلى.

عندما اشتغل جهاز تسجيل المكالمات كان الصوت رفيعاً ومن الصعب سماعه، كأن الشخص يتكلم من نهاية نفق طويل. اندمج كلانا في التدليك، ولكن بعد عودة الأوراق،

لم أطلقت كلارك السماعة

20

لم يكن من الممكن الاستمرار في ذلك بعد اتصال كاترين. وبالرغم من أن رايان كان مستعداً لإعطاء الأمر فرصة، إلا أن التحكم العقلاني كان قد عاد و لم أكن في مزاج جيد. فأنا لم أفوّت الفرصة لأتكلم مع كاترين فحسب، وإنما عرفت أنني يجب أن أتعايش مع شعور المحقق ديك الجديد (محقق في سلسلة قصص صحفية ابتكره تشستر غولد في العام 1931). فبالرغم من أنني لم أشعر بذروة العلاقة وهو شيء كنت سأرحب به بالتأكيد، إلا أنني كنت أعرف أن التكلفة عالية جداً.

أخرجت رايان من المركب بسرعة واستلقيت على السرير، وتجاهلت تنظيف أسناني وروتيني الليلي. وراودتني قبل أن أنام صورة الأخت لوك حين كنت في الصف السابع وهي تحاضر عن لمس الخطيئة. وافترضت أن اللهو مع رايان سيضع ذلك اللمس فوق الحد الأدنى.

استيقظت على ضوء الشمس وصوت النوارس، وتذكرت مباشرة استلقائي على الأريكة، فانكمشت وغطيت وجهي بكلتا يديّ وشعرت بأنني مراهقة أقامت علاقة في سيارة بونتياك.

برنان، فيم كنت تفكرين؟

لم تكن تلك هي القضية. تكمن المشكلة لي من كنت أفكر فيه. كانت إدنا سانت فنسنت ميلاي (شاعر ومسرحي أميركي) قد كتبت قصيدة عن ذلك. ماذا كان عنوانها؟ ولدت امرأة وحزينة.

استمر سام عند الساعة الثامنة ليقول إن قضية موركري قد وصلت إلى طريق مسدود. لم يكن أحد قد شاهد شيئاً غير معتاد، أو رأى مراكب غريبة تقترب من الجزيرة أو تغادرها في الأسابيع القليلة الماضية. كان يريد أن يعرف إن كنت قد سمعت شيئاً من هارفاوي.

أخبرته أنه لم يتصل بي. قال إنه سيذهب إلى رالي (عاصمة كارولينا الشمالية) لبضعة أيام ويريد أن يتحقق إن كنت سأكون بخير.

أوه، نعم

شرح لي كيف أوصد المركب، وأين أترك المفتاح، وودّعنا بعضنا

كنت أضع الخبز في سلة المهملات عندما سمعت طرقاً على الباب الأمامي. انتابني شعور حيال هوية الشخص الموجود هناك فتجاهلت الأمر. استمر الطرق ومن دون توقف مثل حملة تمويل الإذاعة العامة الوطنية. وبعد بعض الوقت لم أعد أحتمل فرفعت الستارة ورأيت رايان يقف بالضبط حيث كان واقفاً في الليلة الماضية.

"صباح الخير". مدّ يده بكيس من حلوى الدونات.

"هل توسّع أعمالك لتشمل توصيل الطعام؟" أنزلت الستارة. تنحيت جانباً وكنت ما أزال حذرة.

صعد على متن المركب متمهلاً، وعرض الحلوى الغنية بالسعرات الحرارية ذات القيمة الغذائية المنخفضة. "تصبح أشهى مع قهوة"

ذهبت إلى المطبخ، وسكبت فنجانين، وأحضرت الحليب من الثلاجة

"إنه يوم جميل" مدّ يده إلى علبة الحليب.

"نعم"

مددت يدي إلى قطعة مغطاة بالشوكولا واستندت إلى المنضدة. لم تكن لدي نية الاسترخاء معاً على الأريكة.

قال رايان: "لقد تكلمت إلى بيكر للتو".

انتظرت

"سيلتقي بنا عند الساعة الثالثة"

"سأكون على الطريق عند الساعة الثالثة". أمسكت قطعة حلوى أخرى.

قال رايان: "أظن أننا يجب أن نقوم بزيارة اجتماعية أخرى"

"نعم"
"ربما تحظى بكاترين وحدها"
"يبدو هذا اختصاصك".
"هل ستحافظين على هذا النحو كل اليوم؟"
"ربما ستلحق عندما أصبح على الطريق"
"لم آت إلى هنا وأنا أنوي إغراءك"
أزعجني ذلك أكثر.
"تعني أني لست من مستوى تشويقي؟"
"ماذا؟"
شربنا القهوة بصمت، ثم ملأت فنجاني مجدداً وأعدته إلى مكانه، راقبني رايان، ثم ذهب إلى آلة تحضير القهوة وسكب لنفسه فنجاناً آخر
سأل. "هل تظنين أن كاترين تود إخبارنا شيئاً".
"تعتقد بعد الأرجح اتدعونا إلى تناول طبق من الترونة؟"
"من هو بلا عمل الآن؟"
"شكراً للاهتمامك" غسلت فنجاني ووضعته مقلوباً على المنصة.
"اسمعي، إذا كنتِ منحرجة مما جرى ليلة أمس ".
"هل يجب أن أكون كذلك؟"
"بالطبع لا".
"يا لها من راحة".
"برينان، لن أعاملك كمسمور في غرفة التشريح أو أقترب منك في مكان العمل. لن تؤثر علاقتنا الشخصية بأي طريقة في سلوكنا المهني".
"احتمال ضعيف. فأنا اليوم أرتدي ملابس داخلية"
"فهمت" كذلك
ذهبت إلى الجزء الخلفي من المركب لأجمع أغراضي

بعد نصف ساعة كنا في السيارة أمام المنزل الريفي، ورأينا دوم أوبين في الردهة وهو يتكلم مع مجموعة من الأشخاص. وبسبب الباب الشبكي، لم

تكن معرفة أي شيء عن الأزواج الآخرين ممكنة باستثناء جنسهم؛ لقد كانوا رجالاً.

كان بعض الأفراد يعملون في الحديقة خلف المنزل الأبيض، فيما امرأتان تسحبان أطفالاً على مراجيح قرب المنحدرات، وثمة سلة أمتعة بمقبض غسيلاً على حبال. كانت شاشة زرقاء مطلقة متوقفة على المرسم لكنني لم أرَ أثراً للشاحنة البيضاء.

نظرت إلى الأشكال عند المراجيح، لكنني لم أرَ كاثرين، بالرغم من أنني ظننت أن أحد الأطفال يبدو مثل كارلي. شاهدت امرأة ترتدي تنورة مزركشة بورود وهي تدفع الطفل إلى الأمام والخلف بحركات منتظمة.

مشيت ورايان إلى الباب وطرقنا عليه، فتوقف الرجال عن الكلام واستداروا نحونا.

قال رجل بصوت حاد: "كيف يمكنني أن أساعدكما؟"

ردّ لويس بود: "لا بأس يا جيسون."

ثم نهض، ومشى عبر الردهة، وفتح الباب الشبكي.

"آسف، لكنني لا أظن أنني أعرف اسميكما."

"أنا المحقق رايان، وهذه د. برينان."

ابتسم لويس وخرج إلى الشرفة، فتوجهنا لمصافحته بصورة عفوية، جلس الرجال في الردهة صامتين من دون حراك.

"كيف يمكنني أن أساعدكما اليوم؟"

"لا مسؤول عنكم. معرفة للمكان الذي أعطيتني إياه رايان مقلوب وهاتفي شتايل الصيف الماضي. كنت ستطرح السؤال في اجتماع الأسرة؟" لم يكن صوت رايان يحمل أي دفء.

ابتسم لويس مجدداً: "حسناً تبادل معلومات. نحب بالفعل ذلك فعلاً لسوء الحظ، لا أحد يعرف شيئاً عن أي منهم. آسف حقاً. فقد كنت أحب مساعدتكما."

"نود أن نتحدث إلى أفراد مجموعتك، إذا سمحت."

"آسف، لكن لا يمكنني السماح بذلك."

"وماذا؟"

"بعض أصدقائنا هنا لأنهم ينشدون الهدوء والملاذ الآمن. كثيرون منهم لا يرغبون في أن تكون لهم أي علاقة بمظاهر المجتمع الحديث وعنفه. أنت، أيها المحقق والباحث، تمثّل العالم الذي يرفضونه. لا يمكنني انتهاك حرمتهم بأن أطلب منهم التحدث إليك".

"بعض أصدقائكم يعملون في البلدة".

أومأ أوبير برأسه ونظر إلى السماء مليّاً للحظة، ثم ابتسم لرايان مجدداً

"إحدى المهارات التي نعلّمها هي الانعتاق. ليس الجميع موهوبين بالقدر نفسه، لكنّ بعض أصدقائنا يعرفون كيف يتصرفون في المجتمع المعاصر ويعودون بالرغم من ذلك منسجمين معه من دون أن يتأثروا بالتلوث الأخلاقي والمادي". عمّت ابتسامة العضو "بالرغم من أنك ترفض التطور الناجم عن حضارتنا، يا سيد رايان، إلا أننا لسنا حمقى. نعرف أن الإنسان لا يعيش بالروح فقط، بل يحتاج إلى الخبز أيضاً".

بينما كان أوبير يتكلم نظرت إلى الحاضرين في الشرفة لكني لم ألمح كاثرين.

سألت وأنا أستدير نحو أوبير: "هل الجميع هنا أحرار في الذهاب والمجيء؟"

"طبعاً" ضحك. "كيف يمكنني منعهم؟"

"ماذا يحدث إذا أراد شخص ما الرحيل إلى الأبد؟"

"يذهب في حال سبيله" هزّ كتفيه وفتح يديه.

لم يتكلم أحد للحظة، وسمعنا صوت النوافير الموجودة في الساحة.

قال أوبير: "كنت أظن أن الزوجين الشابين قد سكنا معنا وقتاً قصيراً خلال الصيف المنصرم. فبالرغم من أن مثل هذه الأمور ليست شائعة، إلا أنها قد تحدث فعلاً. لكني أخشى أن الأمر ليس كذلك في هذه الحالة. لا يتذكر أحد هنا أيّاً منهما".

في ذلك الوقت تماماً ظهر هوفي دودي من خلف الشجر المجاور. عندما رآنا تردّد، ثم استدار وأسرع عائداً بالاتجاه الذي كان قد جاء منه.

قال رايان: "لا أزال أودّ التكلم مع بعض الأشخاص. قد يكون هناك شيء يعرفه أحد ولا يظن أنه مهم. يحدث ذلك دائماً".

"سيد رايان، لن أسمح بإزعاج قومي. سألت عن العروسين الشابين ولم يكن أحد يعرفهما. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ أخشى أنني لن أسمح لك بإزعاج بعضهما."

رفع رايان رأسه وطقطق بلسانه. "أخشى أنك مضطر إلى ذلك يا دوم."

"ولماذا؟"

"لأنني لن أذهب بعيداً. لدي صديق يدعى بيكر، هل تتذكره؟ ولديه أصدقاء يزوّدونه بأشياء تدعى مذكرات تفتيش."

تبادل أوبنسر ورايان النظرات، ولم يتكلم أحد بضع لحظات. رأيت الرجال في الردهة يقفون، وسمعت من بعيد صوت كلب ينبح، ثم ابتسم أوبنسر وتنحنح.

"حسن، سأقوم... فلنحضر الطلب من الجحيم المحضور إلى القاعة." كان صوته خافتاً وهادئاً.

وقف أوبنسر، وأقبل رجل طويل يرتدي بذلة رياضية حمراء من خلفه واتجه نحو المسرح المجاور. كان مترهل الجسد وبديناً، ويبدو مثل حيوان تشابلد (طاحية)، راقبته يتوقف ليضرب فخذاً، ثم يتابع طريقه نحو الحديقة.

قال أوبنسر وهو يفتح الباب الخشبي: "تفضلا رجاءً." تبعناه إلى الغرفة نفسها التي ذهبنا إليها في اليوم السابق وجلسنا على أريكة الخيزران نفسها. كان النزل هادئاً جداً.

"إذا سمحتما لي، سأعود حالاً. هل تودان شرب شيء ما؟"

رفضت، وعلى الغرفة فوق رأسي كانت المروحة تصدر صوتاً خفيفاً.

سرعان ما سمعت أصواتاً وضحكاً، ثم صرير الباب الخشبي وبعدها كان أفراد جماعة أوبنسر يدخلون الغرفة لنلقي النظر عليهم واحداً تلو الآخر، وشعرت بأن رايان يفعل الشيء ذاته.

خلال ذلك، رمقت الغرفة واستحضرت شيئاً واحداً وهو أن المشهد يبدو طبيعياً جداً. ربما كانوا مجموعة تعرض التدين في سهرتها الصيفية السرية. كانوا يمرحون ويضحكون ولا يبدو عليهم أبداً أنهم مضطهدون.

كان هناك رُهبة وراشدون، وشخص في السبعين من عمره على الأقل، لكن لم يكن هناك مراهقون أو أطفال بينهم. أحصيتهم بسرعة: سبعة رجال،

ثلاث عشرة امرأة، وثلاثة رُضّع. كانت هيلين قد أخبرتنا أن ستة وعشرين شخصاً يعيشون في المزرعة.

تصرّف علـى عودي وهيلين. واستند جيبسون إلى جدار، وجلس إلى قرب النافـذة، وكاري على وركيها، وحنكت إلى جمعاً لجست لماذا، وتذكرت تماماً في مهرجان عصر اليوم السابق. لم يكن جسمي ووجهه قد لفح

نظرت إلى وجوه الباقين، لكنّ كاترين لم تكن موجودة.

عاد أوبيـزو، وأطلق الصمت على الغرفة. عاد بتعريف الجميع، ثم شرح سبب وجودنا هناك. أسمى الراشدون السمع جهداً، ثم استطردوا إلى تاون رابان صورة سرابان وعاهدي إن رحل إلى منتصف العمر إلى يسارهم، لم شرح القضية متفادياً الخوض في تفاصيل غير ضرورية. نظر الرجال إلى الصورة ومرّروها إلى الأشخاص الـذين يقعـدون إلى جانبه. وبينما كانت الصورة تنتقل من يد إلى أخرى نظرت باهتمام إلى وجه كل شخص يتفحصه وراقب أي ميزات بسيطة ربما تدل على التعرّف إليهما، ولم أرَ سوى الحيرة والتعاطف.

عندما انتهى رابان من كلامه خاطب أوبيزو جمعاً أتباعه، وطلب منهم معلومات عن الزوجين أو عن الاتصالات الهاتفية. فلم يتكلم أحد.

"كان السيد رابان وزوجته برباش قد طلبا الإذن لمقابلة كل منكم على انفراد" نظر أوبيـزو من وجه إلى آخر "من فضلكم تكلموا إليهم كما ترغبون. إن كانت هناك فكرة تقلقكم، الرجاء أن تشاركونا إياها بصدق وأمانة. لم نكن سبباً في هذه المأساة، لكننا جزء من الكل الكوني ويجب أن نعمل ما في وسعنا لتصويب الأمور لنعمل ذلك باسم الانسجام"

كانت كل عين عليه، وشعرت بتوتر غريب في الغرفة.

"لا يجب أن يشعر أولئك الذين لا يستطيعون الكلام بالذنب أو العار". صفّق بيديه. "الآن، اصغوا وستكونون فخوراً لتأكيد تكَي عبر مسؤولية جماعية!"

فكّرت بصمت. وفر عليّ هذا المراء.

عندما ذهبوا شكره رابان.

"علّه ليست واكو (إحدى تيارات الطوائف المدمرة) يا سيد رابان. ليس لدينا ما نخفيه"

قلت. "كنا نأمل أن نتكلم مع شابة التقيناها بالأمس"

نظر إليّ لحظة ثم قال: "شابة؟"

"نعم. ذهبت إلى البلدة مع طفل؛ كارين على ما أظن؟".

نظر أوليفر إليّ مطولاً حتى ظننت أنه ربما لا يتذكر ذلك، ثم ابتسم.

"لا بد أن تلك كارين. لديها موعد اليوم".

"موعد؟"

"لمَ أنت مهتمة بكارين؟".

"تبدو قريبة من عمر هايدي، حسبت أنهما ربما تعرفان بعضهما". أنبأني شيء بأن لا أذكر قصة العصير في بيفورست.

"لم تكن كارين هنا الصيف الماضي. ذهبت في زيارة مع والديها"

"فهمت. ومتى ستعود؟"

"لست واثقاً من ذلك"

فُتح باب المطبخ وظهر رجل طويل عند المدخل. كان نحيلاً مثل فزّاعة، ويشدّ عُصبة يضعها فوق حاجبه الأيمن ولتعصب عينه اليمنى، مما جعله يبدو أعور على نحو غريب. تذكرته، فقد وقف قرب الأرجوحة في المتنزّه، وهو يلعب مع أحد الأطفال الصغار.

ودّع أوليفر بصمت، وأومأ إلى الفزّاعة وأشار إلى المنطقة الخلفية من النُزل. كان يضع خاتماً كبيراً يبدو غير مناسب لأصابعه الطويلة والنحيلة.

قال أوليفر: "آسف، ولكن، هناك أشياء يجب أن ألتزم بها. تكلما مع من يريدان. لكن من فضلكما احترما رغبتنا في الانسجام"

رافقنا إلى الباب وحدّق بنا. إنه لم يكن يشعر بشيء، آخر هؤلاء دوم يصافح على نحو رائع. قال إنه سعيد بزيارتنا وتمنّى لنا حظاً جيداً، ثم تركنا.

أمضيت وريتشارد فترة الصباح ونحن نتكلم مع هؤلاء الأشخاص. كانوا لطفاء ومتعاونين ومتحمسين جداً، ولا يعرفون شيئاً، وليس لديهم أي معلومات عن موعد كارين.

عند حلول الساعة الحادية عشرة والنصف، لم نكن نعرف أكثر مما عرفناه أصلاً. قال ريتشارد وهو يخرج مجموعة مفاتيح من سترته "لننسحب ونشكر دوكتور". كانت المفاتيح تتدلى من قطعة بلاستيكية كروية وبدت تلك الخاصة بالسيارة مستأجرة.

سألته "ماذا؟" كنت جائعة وأشعر بالحر ومستعدة لمغادرة المكان.

"إنها آداب التعامل"

حرّكت عينيّ، لكن ريبان كان قد أصبح في منتصف الطريق عبر الساحة رأيته يطرق على الباب الشبكي، ثم يتكلم مع الرجل الشاحب. ظهر أوبيسر خلال لحظة. فقال ريبان شيئاً ومدّ يده. ومش دبي عركها حيوط. حيّا الرجال الثلاثة الفرعصاه ثم تحضروا بسرعة. تكلم ريبان جدعاً في استمرار ومشى نحو السيارة

* * *

بعد الغداء، زرنا بعض المستشفيات الأخرى، ثم عدنا بالسيارة إلى المركز المتكروسي. أرشدنا ريبان إلى مكاتب السجلات، ثم انطلقنا مسافة إلى مبنى تطبيق القانون. كان رجل أسود يرتدي قميصاً من دون ردنين، ويحمل قبعة بيد عريضة يتحرك بخفة ويضرب على متن محرك صغير، وركبتاه المحنيتان تبرزان مثل قالمق منتصب.

قال وهو يضع إصبعاً على حافة قبعته "كيف حالكما؟"

"بخير" شممت رائحة العشب الذي تم جزّه حديثاً وتمنيت أن يكون ذلك حقيقياً

كان بيكر يتكلم عبر الهاتف عندما دخلنا مكتبه. أشار إلينا لنجلس، وقال بضع كلمات إضافية، ثم ألقى بالسماعة

سأل: "إذاً، كيف تجري الأمور؟".

قال ريبان: "ليس على ما يرام. لا أحد يعرف شيئاً"

"كيف يمكن أن نساعدكما؟".

مدّ ريبان يده إلى جيبه، وأخرج كيس بلاستيك (كيس مخصص لحفظ المواد الغذائية) من جيبه، ووضعه على مكتب بيكر. وكان يوجد في داخله قطعة بلاستيكية حمراء.

"يمكن أن تتفقد البصمات الموجودة على هذه القطعة"

نظر بيكر إليه.

"أوقعته عمداً، وكان أوبيسر لطيفاً بما يكفي ليلتقطه من أجلي"

ترقّب بيكر لحظة، ثم ابتسم وهزّ رأسه. "تعرف أن ذلك قد لا يؤدي إلى شيء"

"أعرف ذلك. لكن قد يكشف لي عن هوية هذا الشخص".
وضع بيكر الكيس جانباً. "ماذا أيضاً؟"
"ماذا بشأن التصنت على مكالماته؟"
"مستحيل. ليس لديك دليل كافٍ".
"مذكرة تفتيش؟"
"ما السبب؟"
"اتصالات هاتفية؟"
"ليست كافية"
"لم أكن أظن ذلك"
أطلق رايان زفيراً وحكّ ساقيه
"إذاً، سأعمل ذلك بالطريقة الصعبة. سأبدأ بسجلات العمل والضرائب، وأرى متى كان النادي الريفي في إيلز ليوسز وسأتحقق من دراسته، وأعرف من يدفع الفواتير، وسأتكلم مع سماة طويلة، وأرى إن كان أحد يتلقى هبة هيرمطر أو أشياء من جيه. كرو (سلسلة متاجر للملابس). سأتحقق من رقم الضمان الصحي لأوبرسر، ومن وجود طليقة، وهذا النوع من الأشياء. أفترض أن لديه شهادة قيادة. هذا يجب أن يقودني حتماً إلى مكان ما. إذا وجدت الوقت، أي متاعب مع القانون في حياته، سأتحقق منه. ربما سأقوم بمراقبته لأرى السيارات التي تدخل وتخرج من مزرعته، وأتحقق من أرقامها. أتمنى ألا تمانع بقائي هنا بعض الوقت"
"أهلاً بك في بيوفورت. علمنا أحبب يا سيد رايان. سأحقق تحقيقاً مساعدتك، ود. برنان، ما عطلتك؟".
"سأغادر قريباً. تنتظرني صغيرتان أتوق إليهما وحدها السيد كولكر من مورفي لألقي نظرة عليهما"
"سيكون بالحسبان مجهداً تسمح ذلك عند اتصل ليلوب إلى د. هاردواي يود أن يتكلم معك في أسرع وقت ممكن. في الواقع اتصل بك ثلاث مرات اليوم. هل تودين استخدام هاتفي للاتصال به؟"
كان التلميح واضحاً جداً.
"من فضلك".

طلب بيكر من ابني لي أن تتصل بهارداوي، وخلال لحظة رنّ الهاتف فرفعت السمّاعة

كان متخصص علم الأمراض قد أنهى ما يظن أنه يستطيع القيام به. فلقد استطاع تحديد جنس الجثة في عمر الصبا، وقال إن العرق على الأرجح أبيض. كانت الضحية قد ماتت كما يظن نتيجة طعنات سكين. لكنّ الجثة متفسخة جداً ولا يمكن تحديد جهة الجروح بدقة

كان القبر مسطحاً بما يكفي لشخص إليه تشترف التي استقدت على الأرجح من الجثة في الأعلى كلها. كانت الجروح المفتوحة قد شجّعتها أيضاً على إنشاء مستعمرات لها إذ كانت الجمجمة والصدر يحتويان أكبر عدد من اليرقات. رآه في حياته لم يكن من الممكن تمييز الوجه، ولم يستطع تحديد العمر ويظن أنه ربما حصل على بعض البصمات.

في الخلفية، كان رايان وبيكر يناقشان موضوع توم أوبيسر.

تابع هارداوي الكلام. كانت الجثة في الأعلى هيكلاً عظمياً تقريباً، بالرغم من أن بعض الأنسجة الضامة لا تزال موجودة. لذا، لم يكن في وسعه فعل الكثير معه، وطلب مني إجراء تحليل كامل

طلبت منه أن يرسل إليّ الجمجمة، وعظام الورك وعظمي الترقوة وأضلاع الصدر من الثالثة إلى الخامسة الخاصة بالجثة في الأسفل. وكتب تحديداً إلى الهيكل العظمي للجثة في الأعلى بكامله. وطلبت أيضاً سلسلة من صور الأشعة السينية لكل جمجمة، ونسخة عن تقريره، ومجموعة كاملة من صور التشريح.

أخيراً، شرحت كيف أنقش إن تم نقل العظام. كان هارداوي يعرف الروتين، وقال إن الجثتين وكل الوثائق ستصل إلى مكتبي في تشارلوت يوم الجمعة

أنهيت المكالمة ونظرت إلى ساعتي. إذا كنت آمل أن أنجز كل شيء قبل رحلة الطائرة إلى أوكلاند يجب أن أتحرك بسرعة.

مشيت مع رايان إلى الساحة حيث كنت قد تركت سيارتي في ذلك الصباح. كانت أشعة الشمس حارة، والظل قليلاً. فتحت الباب ووضعت ذراعي على الحافة العليا.

قال رايان: "كتناول العشاء".

"طبعاً سأحضر فطائر اللحم والخضار ثم نأخذ الصور إلى نيويورك تايمز"

"بسرعة، منذ يومين وأنت تعاملني وكأنني ملكة على الرصيف. في الواقع، عندما أفكر في الأمر الآن، أجد أنك كنت مزعجة جداً طوال أسبوعين. حسن، يمكنني التعايش مع ذلك"

استعاد ثقته بنفسه ونظر إلى عيني مباشرة. "لكنني أريد منك أن تعرفي شيئاً واحداً. لم يكن ما حدث في الليلة الماضية مجرد علاقة عابرة. أعلم بأنك كنت تستمتعين بتواجدنا معاً. لست آسفاً لحدوث ذلك ولن أقول إنني لن أحاول إعادة تذكيرك، قد أكون الريح، لكنك أنت من يتحكم بالطائرة الورقية. أتمنى لك رحلة آمنة".

بعد أن قال ذلك مرّ قبلي ومشى إلى سيارته، وفتح الباب، ثم رمى سترته على مقعد السائق واستدار عائداً نحوي

"بالمناسبة، لم تخبريني أبداً لماذا تشكّين في أن ضحيتي مزورتي ليست من تجار الممنوعات"

للحظة، لم يكن في وسعي سوى أن أحدّق إليه. أردت أن أبقى، لكنني أردت أيضاً أن أكون بعيدة جداً عنه، ثم استعدت رشدي.

"ماذا؟".

"الشابان في المشرحة. لماذا تشكّين في علاقة تجار الممنوعات؟".

"لأن حذاءيهما كليهما كانا نظيفين"

21

خــلال المرحلة شــكّلت بعض الأشرطة لكنّ الأخبار من بيك وعودة (بحيرة وبغــون، بلدة خيالية في مينيسوتا يبث منها غاريسون كيلر الأخبار) لم تلفت انتباهي. كان لدي مليون سؤال وأجوبة قليلة جداً. هل عاقب أنا حويب إلى المنـــزل؟ من هما المـــرأتان المدفونتان في جزيرة موريري؟ ما الذي أخرجه من عظامهما؟ من قتل هاتين وطفليهما؟ هل هناك صلة بين ساتب - حوطيب والزوجة في سانت هيلينا؟ من هو دوم نويـــز؟ إلى أين ذهبت كاترين؟ إلى أين ذهبت هاري؟

رنودســـي أفكار عن كل ما يجب عليّ أن أفعله. وكل ما أرغب القيام به. لم أكن قد قرأت كلمة عن الروايات سيكون منذ غادرت مونتريال.

عـــند حلول الساعة الثامنة والنصف كنت قد وصلت إلى شارلوت وخلال فتـــرة غيابي كانت الأرض في قصر شارت قد اكتست حلة ربيع جميلة. كانت الأرانـــب والقـــرانيا تبتنى أزهاراً، وبعض أشجار بجانب بالزهور والتفاح التي لا تزال تحتفظ ببعض أزهارها. كانت رائحة الزهور وقطع هذه الأشجار تعبق في الجسر. في الداخل، كان وصولي إلى الشقق تكراراً لما حدث في الأسبوع الماضي. كانت الساعة تتكتك، وضوء الرسائل يومض، والثلاجة تدندن.

كانـــت بوجة بيردي في مكانك المعتاد تحت النافذة. لكن، الغريب أن القطط لم يكـــن قد أفرغها. ومن بعض أشياء أخرى، كان قول طليقي في ما يتعلق بالمواد الغذائيـة صحيحاً. فتبعت بجولة سريعة لأرى إن كان القط مختبئاً تحت كرسي أو في خزانة، لكن لم يكن هناك أثر لبيردي.

الصف بيت، لكن كما حدث في المرة الماضية لم يكن في الشوب، ولم تكن حـاري في شـقة مونتريال. علمت أنها ربما عادت إلى منزلها، فعبثت رقمها في تكسي، لكن لم يجب أحد.

بعد فراغ ستمين، أحضرت مطوّرة توت وتناولتها مع خبز ورقائق بطاطا قبل كنت أشاهد نهاية مباراة هوكي عند الساعة العاشرة. أطفأت التلفاز واتصلت بيب مجدداً، لكن لم يكن هناك جواب. فكّرت في الذهاب بسيارتي لإعادة بودلها، لكنني قررت فعل ذلك صباحاً.

استحممت، ثم ألقيت بنفسي في السرير مع نسخ مذكرات بالانتار وهربت إلى عالم مونتريال خلال القرن التاسع عشر. لم تكن المرهفات المسماة قد حدثت لسويس - فيليب أفضل. وبعد ساعة، أضحى جفناي ثقيلين بفعل الحاس لطلاب الصحوة ومكوّرت على نفسي على أمل أن تساعدني سراحة جيدة وطويلة على إعادة الصفاء إلى ذهني.

بعد ساعتين، انتفض جسدي منتصباً على سريري وقلبي يثقل بقوة ودمعي يكتمع ليعرف السبب. أمسك الغطاء إلى صدري بإحكام وأنا أتنفس بصعوبة بالغة، وأجاهد لتحديد الخطر الذي جعلني أستيقظ وعلى أهبة الاستعداد.

كان الصمت سائداً وكان الضوء الوحيد يأتي من الساعة الموضوعة إلى جانب سريري.

ثم سمعت صوت تحطم زجاج ثم حمل الشعر يقف على ذراعيّ وعنقي، ووصل الأدرينالين إلى أعلى مستوياته. تخيّلت صورة الفحام أحمر وحيق راسخة، وسكيناً يلمع تحت ضوء القمر. فكرة وحيدة لمعت في ذهني.

ليس مجدداً!

تحطماً درتهام!

نعم مجدداً!

لم يكن الصوت يأتي من الخارج! بل كان من الطابق السفلي، في منزلي! قلّبت بعض الخيارات بسرعة: إغلاق غرفة النوم، أو تفقّد ما يجري في الأسفل، أو الاتصال بالشرطة.

لم تحدث معاناة.

تباً!

رحبت الأغطية جانباً وتلمست طريقي عبر غرفة النوم، وأنا أبحث في حالة رعب عن عناصر التفكير العقلانية. سلاح. كنت بحاجة إلى سلاح. ماذا يمكن أن أستخدمه؟ لماذا كنت أرفض الاحتفاظ بسلاح؟

تعثرت بخزانة الملابس وأمسكت بمضرب كرة كنت قد جلبتها من ضفاف أوتيسر (مجموعة جزر قبالة كارولينا الشمالية). في الخارج، لكي تحدث سيكون الرنين الحسم وأحدثت صريراً. حركت الجانب المفلطح إلى الأمام، ووضعت أصابعي داخل المقبض، وشددت إبهامي على السطح الخارجي.

كنت أتنفس بصعوبة. اقتربت ببطء من الباب، ويدي اليسرى تنزلق على سطوح مألوفة وكأني أتلمس في موجبة معتمة مرن (لغة يستخدمها المكفوفون ابتكرها الفرنسي لويس برايل). خزانة ملابس، إطار الباب، الرواق.

عند أعلى السلالم وقفت ساكنة من دون حراك، وحدقت إلى الأسفل في الظلام. نبضت عروقي في عنقي في حين كنت أمسك بالمضرب وأصغي للسمع. لكن، لم يكن هناك صوت يأتي من هناك. إذا كان هناك شخص في الأسفل، يجب أن أبقى في الأعلى. الهاتف. إذا كان هناك حريق في الأسفل، يجب أن أخرج.

سحبت نفساً ووضعت قدماً على الدرجة العليا وانتظرت، ثم سرت إلى الدرجة الثانية، فالثالثة. ثنيت ركبتي ورفعت المضرب إلى مستوى كتفي، وسرت ببطء نحو الطابق الأول. أصبحت الرائحة اللاذعة قوية: دخان وبنزين، وشيء آخر مألوف.

توقفت عند أسفل الدرج، واستعاد ذهني مشهداً حدث قبل أقل من سنة في مونتريال. في ذلك الوقت، كان يوجد قاتل في الداخل، ينتظر الاقتناص.

لن يحدث ذلك مجدداً! اتصلي بالنجدة! اخرجي من هنا!

مرت حزمة الضوء وهربت إلى داخل غرفة الطعام! الظلام. عدت مجدداً إلى الردهة! ظلام. لكنه يتغير على نحو غريب.

بدا الطرف البعيد من الغرفة بوضوح في العتمة المحيطة به. كانت المنضدة، والكراسي متحركة الآن، وكل الأثاث والصور تسبح قليلاً، مثل أشياء في مرآة. رأيت ضوءاً برتقالياً يتراقص أمام الثلاجة عبر باب المطبخ.

يده!

صاك صدري عندما تحطم الصمت بصوت حاد. اهتززت بقوة، وضممت الصفحة الملس. تراجعت إلى الخلف نحو الجدار وأنا أرتعش.

كان الصوت صادراً عن جهاز كشف الدخان!

تسرّبت إليّ إشارة تدلّ على وجود حركة، لكن لم يكن هناك سوى الظلام والوميض الخاطف الغريب.

المنزل يحترق، تحركي!

خفق قلبي بقوة، وبحثت ألمت، واندفعت نحو المطبخ. كانت نار تتراقص في وسط الغرفة، وتملأ المنزل بالدخان، وتنعكس عن كل سطح صقيل.

ضربت بيدي المرتجفة على المفتاح فأضيئت الغرفة. تحركت عيناي يميناً ويساراً، لكن النار كانت محصورة في وسط الأرضية، وألسنة اللهب لم تنتشر بعد.

وضعت الصفحة جانباً، ووضعت خرقة تويسي على فمي وأنفي، ثم انحنيت ودرت حول خزانة الطعام، وسحبت مطفأة الحريق من الرف العلوي. كانت رئتاي تلتهبان دخاناً، والدموع تشوش رؤيتي، لكنني استطعت الضغط على قبضة المطفأة فلم يصدر عنها سوى هسيس.

اللعنة!

ضغطت مجدداً وأنا أسعل وأغطي فمي بيدي. هسيس آخر، ثم اندفع سيل من ثاني أكسيد الكربون ومسحوق أبيض من الأنبوب.

نعم!

وجّهت فوهة المطفأة نحو ألسنة اللهب، وفي أقل من دقيقة خمدت النار. كان جهاز الإنذار لا يزال يعمل، وصوته مثل قطع معدنية تخترق أذنيّ وتتحرك ببطء في دماغي.

فتحت الباب خلفي والنافذة فوق المغسلة ثم مشيت إلى الطاولة. لم تكن هناك حاجة إلى فتح تلك النافذة، إذ كان اللوح الزجاجي محطماً، والشظايا وقطع الخشب تغطي ساحة النافذة والأرض. هبّت نسائم رقيقة بالستائر، وجعلتها تدخل وتخرج عبر الفتحة.

جمعت الأشياء عن الأرض، وشغّلت اللوحة المضيئة ثم أمسكت منشفة وبدأت أحركها لأخرج الدخان من الغرفة. بعدها بدأ الهواء يصبح نقياً.

مسحت عينيّ وبذلت جهداً لأتحكم بتنفسي

ليتعالى صوت جهاز الإنذار.

توقفت عن التلويح بالمنشفة ونظرت في أرجاء الغرفة. كانت كتلة رماد تحت الطاولة وأخرى إلى جانب الخزانة تحت المنضدة، وبينهما قطع متفحّمة من الكتلة التي لا تزال تحترق. وكانت رائحة الدخان والبنزين وأخرى أعرفها تعبق في الغرفة.

ساقاي مرتعشتين، مشيت إلى الكومة التي تحترق من دون لهب. كنت أحتكّ بالهواء غير مدركة ما يجري عندما توقف صوت جهاز الإنذار، وبدا الصمت غير معتاد.

اتصلي بالنجدة!

لم يكن ذلك ضرورياً. عندما كنت أمدّ يدي إلى الهاتف سمعت صوت صفارة إنذار بعيدة. أصبح الصوت أقوى، ثم قريباً جداً، وتوقف بعد ذلك. وخلال لحظة، ظهر إطفائي عند باب المطبخ.

"هل أنت بخير يا سيدتي؟"

أومأت وضممت ذراعيّ إلى صدري، وأنا ممتنة لأني أرتدي ملابس نومي

"أنقذت حارتك" مسّ حزام الخوذة المعلّق عند ذقنه.

"آه" نسيت رداء نومي، وعاد ذهني إلى سانت - جرمانيت

"هل كل شيء تحت السيطرة؟".

بلدة أخرى سانت - جرمانيت. لا أكاد أدرك ما يجري حولي

"هل لديك مانع إذا تحققت؟".

تراجعت إلى الخلف.

تفقّد الأمر كله بنظرة واحدة.

"دعابة سخيفة جداً. هل تعرفين من قد يكون هذا الشخص الذي رمى ما عبر نافذتك؟"

هززت رأسي.

"يبدو أنهم كسروا الزجاج بقطع الآجر، ثم رموا بذلك الشيء إلى الداخل" مشى إلى الكنبة التي تحترق من جوانبها "لا بد أنهم غمسوها بالبنزين، وأشعلوها، ثم قذفوها".

سمعت كلماته بكمي، لم أقو على الكلام. كان حسي معلقاً على نفسه في حين أن ذهني يحاول إخراج فكرة مبهمة نائمة في قعر دماغي

سحب الإطفائي رفشاً من حزامه ووضع رأسه ثم دفعه فوق الكتلة على أرضية مطبخي. فظهرت نقاط سوداء في الأعلى، ثم اختفت عندما في الأنقاض تحتها. وضع الرفش تحت الكتلة وقلبها، ثم انحنى مقترباً منها

"يبدو مثل كيس خيش، وقد يكون كيس بذور الفصة، لا يمكنني معرفة ما يوجد داخله"

شقّ الكيس بطرف الرفش، فظهر المزيد من الحشرات المتفحمة. دفع رفشه بقوة أكبر، وقلب ذلك الشيء من جانب إلى آخر

أصبحت الرائحة أقوى. سائل - جوهانسن حرقة التشريح الثالثة. استرجعت الذكريات وشعرت بقشعريرة في كل أنحاء جسمي.

بيدين مرتعشتين فتحت درجاً وسحبت مقصاً. لم أعد أهتم برداء نومي. جلست القرفصاء، وقطعت كيس الخيش

كانت الجثة صغيرة، وكان ظهرها مقوساً، وقائمتاها منقبضتين من حرارة اللهب. رأيت عيناً منفضة، ومكاناً صغيراً فيه أسنان متشحة بالسواد. شعرت بالدوار والرعب حين أدركت ما يحمله الكيس

لا! رجاءً لا!

انحنيت لأقترب أكثر، وتراجع رأسي إلى الخلف بسبب رائحة اللحم والوبر المحترقين. بين الساقين رأيت ذيلاً ملتفاً ومسوداً، وفقراته تبرز مثل أشواك على ساق نبات.

بللت دموعي وجنتيّ عندما كنت أوسّع فتحة الكيس. قرب العنق رأيت وبراً غزيراً لكنه أبيض في أماكن متفرقة

نصف الأحشاء الكامنة

"لا؟"

خفت الصوت، لكنه لم يكن مني.

"لا؟ لا! لا يوجد. أرجوك يا الله. لا؟"

شعرت بيدين على كتفيّ، ثم على يديّ. أخذنا الشخص مني، ورفعتني برفق لأنهض على قدميّ.

أصبحت في الرحلة بعد ذلك، متناثرة متضاربة. كنت أبكي، وأرتعش، وأشعر بألم في جسدي كله.

لا أعرف كم مضى عليّ وأنا أنتحب. وعندما رفعت بصري رأيت جارتي التي أشارت إلى كوب من الشاي.

"ما هذا؟" كان صدري يخفق بقوة.

"نعناع".

"شكراً" شربت القليل من السائل الحار "كم الساعة الآن؟"

"الخامسة الثانية بقليل" كانت تحمل حصاناً وترتدي معطفاً مطرياً لا يغطي عباءتها الصوفية. وبالرغم من أننا كنا نلوّح لبعضنا عبر الدرج، أو نتبادل التحيات على الرصيف، إلا أنني لم أكن أعرفها حق معرفة.

"آسفة لأنك نهضت من نومك عند منتصف الليل."

"أرجوك لا ترهقي نفسك. نحن جارتان. أعرف أنك كنت ستفعلين الشيء نفسه من أجلي".

احتسيت رشفة أخرى. كانت يداي باردتين، لكنهما ترتعشان قليلاً.

"هل رجال الإطفاء لا يزالون هنا؟"

"غادروا. قالوا إنه في مقدورك التقدم بشكوى عندما تشعرين بتحسن".

"هل أحمد..." توقف صوتي وشعرت بدموع في عينيّ.

"نعم. هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً آخر؟"

"لا، شكراً لك. سأكون بخير. أنت لطيفة جداً".

"آسفة بشأن الأضرار التي حصلت. وضعنا لوحاً خشبياً فوق النافذة. ذلك ليس أنيقاً، لكنه سيمنع دخول الريح".

"شكراً جزيلاً لك. أنا..."

"أرجوك، أعطني إبرة النوم فحسب. ربما لن يبدو الأمر سيئاً جداً في الصباح"

تكوّرت في سريري وخشيت من الصباح بأمل فيه معدوم. رنّت الساعة وطلبت رقم بيت، لكن لا جواب.

"هل ستكونين بخير؟ هل أستطيع مساعدتك على الصعود إلى الأعلى؟".

"لا، شكراً، سأتدبر أمري".

وعندما ذهب، تكوّرت على نفسي في السرير وبكيت حتى نمت وأنا أنشج وأنتهد.

استيقظت وأنا أشعر بأنني لست على ما يرام. كنت حائرة ومشوشة، ثم استعدت وعيي كاملاً ومعه الذكرى.

كان صباحاً ربيعياً دافئاً. عبر النافذة، رأيت السماء الزرقاء وأشعة الشمس، وشممت شذا الورود. لكنّ جمال اليوم لم يخفف من اكتئابي.

عندما اتصلت بجورج لإخباره قيل لي إنه تم إرسال الدليل الحسّي إلى المختبر الجنائي. قمت بالأشياء المعتادة التي أفعلها كل صباح، وأنا مكتئبة: ارتديت ملابسي، وسرّحت، ثم مشّطت شعري، واتجهت نحو مركز البلدة.

لم يكن الكيس يحتوي شيئاً سوى القطن. ليس هناك عروق، أو بطاقات. غير هذه ملاحظة مكتوبة بخط اليد دسّتها إحداهن قطع الأحمر. قرأتها وهي داخل كيس الأدلة البلاستيكي.

في المرة القادمة لن تكون الضحية قطّاً

سألت رون حسان، مدير المختبر الجنائي "ماذا الآن؟". كان رجلاً طويلاً حسن المظهر، أشيب الشعر وثمة فجوة بين سنّيه الأماميتين.

"لقد بحثت عن بصمات، لكننا لم نعثر على شيء سواء أكان ذلك على الملاحظة أو على قطع الأحمر. ستذهب وحدة استكشاف مسرح الجريمة إلى منزلك، لكنك تعرفين كما أعرف أنهم لن يجدوا الكثير. نافذة مطبخك قريبة جداً من الشارع، وعلى الأرجح أوقف المجرمون سياراتهم، وألقوا الكيس، ثم رموا بكل شيء من حيث يقفون على الرصيف. سيبحث عن آثار أقدام، وسنسأل

المـــوتى بالطبع. لكن، عند الساعة الرابعة والنصف صباحاً ليس من المرجح أن يكون أحد مستيقظاً في ذلك الحي".

"آسفة لأنني لا أعيش في حالة ويكسود (شهوة الازدحام)"

"تعيش في متاعب جمّة حيثما تكونين."

كنت ورون قد عملنا معاً طوال سنوات. وكان يعرف بشأن المنزل المستأجر الذي اقتحم شقتي في مونتريال.

"سنأخذ وحدة استكشاف مسرح الجريمة لنذهب إلى مطبخك. لكن، لأن هـــؤلاء الأشخاص لم يدخلوا إليه فقط فلن يكون هناك أي أثر لهم. لم تمسّي شيئاً كما آمل؟"

"لا" لم أكن قد دخلت إلى المطبخ منذ ليلة أمس. لم يكن في وسعي النظر إلى أطباق بويد.

"هل تعثرين على أي شيء قد يجمع هؤلاء القوم؟"

لتعرفه على الجريمة في كيث وبلغين في جزيرة موريتري.

"كيف تظنين أنهم حصلوا على مفتاحك؟"

"ربمـــا يكون قد اندفع إلى الخارج عندما دخل بويد إلى المنـــزل لإطعامه. إنه يفعل ذلك دائماً" شعرت بوخزة ألم "كان يفعل ذلك"

لا تبكيه إياكِ والبكاء

"أو "

"نعم؟".

"حسنٌ، لست واثقة. في الأسبوع الماضي ظننت أن أحداً ربما اقتحم مكتبي في الكلية. حسنٌ، ليس اقتحاماً بالمعنى الدقيق للكلمة، لأنني ربما تركت الباب مفتوحاً"

"طالبة؟".

"لا أعرف"

وصلت الحادثة.

"كانت مفاتيح منـــزلي لا تزال في حقيبتي، لكنني أظن أنه كان في مقدورها صنع نسخة عنها".

"لديك حافلة قليلاً".

"قليلاً، في يوم"

للحظة لم يحس شيئاً، ثم حسبه عندما سمعت بما جرى افترضت أنه حادث سقوط" سعلت جانب أنفه، "لكن قد تكون هذه الحادثة أكثر من مجرد مزحة انتهت إلى نهاية، واحتوى بيب"

"لا أريد أن أحمل ذلك، إنه سيشعر بأنه مهزوم مرهق، وليس لديه وقت لذلك. لم يكن لديه وقت قط"

عندما أنهينا حديثنا، أعطيت رون مفتاحاً للمصحح، ووقّعت تقرير الحادثة، ثم غادرت المكان.

بالرغم من أن حركة السير كانت كثيفة، إلا أن المسافة إلى جامعة كارولينا الشمالية في تشابل هيل بدت أطول من المعتاد. كانت قبضة حديدية تمسك بأحشائي وترفض أن تدعني وحالي.

رافقني ذلك الشعور طوال النهار. مهمة بعد أخرى تخللتها صور لقطي الشانق. أمر يودي يجلس منتصباً ومخالبه الأمامية تتحرك مثل دوري صغير. يودي مستلق على ظهره تحت الأريكة، وصورته وهو يتسلى بالنحب حول كاحلي. يودي يحدّق إليّ من حين لحصوله على بقايا الحلوى. كان الشرب الذي انتابني في الأسابيع الأخيرة يتحول إلى كآبة لا يمكن التخلص منها.

بعد مرور ساعات العمل، انحدرت الحرم الجامعي إلى المجمّع الرياضي وارتديت شيئاً رياضياً. دفعت نفسي إلى أقصى حدودي الممكنة على أمل أن يخفف الإجهاد الجسدي من الألم الذي يعتصر قلبي، ويحوّل إلى جسمي.

مهما كنت أجري حول المضمار تحوّل تفكيري إلى أشياء أخرى. حلت كلمات رون ليلسن على صور قطي الشانق. أي حيوان؟ أمر فظيع لكنه من هواة. هل كان مجرد طالب معتوه؟ أم أن موت يودي تهديد خطير؟ لمن؟ هل كان للقط صلة بالجريمة في موكسفيل؟ أم بالتحقيق في حركة موريتي؟ هل كنت متورطة في شيء أكثر خطورة مما أعرف؟

ركضت متعرقة، ومع كل دورة كان التوتر يتلاشى من جسدي. بعد أربعة أميال، جلست متعبة على العشب، وأخذت أتنفس بصوت مسموع وأراقب

قـوس قـزح صـغيرٌ يتلألأ من خلال رذاذ مرش مرح. شعرت أصبح ذهني صافياً.

غسلت هذا بصبر وتمعّن، عدت إلى غرفة تغيير الملابس، واستحممت، ثم ارتديت ثياباً نظيفة. شعرت بأني أنتعش حالاً، وصعدت التل إلى مبنى كولمان.

لم يدم ذلك الشعور طويلاً.

كان هاتفي يومض. ضغطت على الرقم السري وانتظرت.

بيا!

كـانت قـد فـوّتت اتصال كاثرين مجدداً. وكما في المرة السابقة، لم تترك معلـومات، وإنمـا رسـالة تقول فيها إنها ستتصل مجدداً. لحسن حظي تم تسجيل الرسالة وأصـغيت السمع جيداً. بدا أنها تحبس أنفاسها، وكلماتها موجزة، وتدل على توتر شديد.

استمعت إلى الرسالة مراراً وتكراراً، لكنني لم أتبيّن شيئاً من ضوضاء الخلفية. كـان صوت كاثرين مكتوماً، وكأنها تتكلم من داخل مكان مغلق. تخيلتها تمسك السماعة بكفها بهدوء، وتهمس، ثم تنظر حولها خائفة.

هل كنت مصابة بالارتياب؟ هل أطلقت حادثة قلبية للقضية العنان لخيالي؟ أم كانت كاثرين في خطر حقيقي؟

ألقـت الشمس عبر الستارة المعدنية حزمة ضوء سقطت على مكتبي. وفي مكـان مـا، أغلق باب بعنف. وبعد تكوّنت فكرة في ذهني، فعدت بيدي إلى الهاتف.

22

"شكراً للقائي في هذا الوقت المتأخر من النهار. فوجئت بأنك لا تزال في الجامعة".

"هل تقصدين أن المختصين بعلم الإنسان يعملون أكثر من علماء الاجتماع؟"

"أبداً" ضحك وجلس على الكرسي البلاستيكي الأسود الذي أشار إليه. "ربما أردت الاستفادة من خبرتك. ماذا يمكنك أن تخبرني عن الجماعات الدينية؟".

"ماذا نعني بكلمة جماعة؟"

جلس ويد سكايلر مسترخياً خلف مكتبه. وبالرغم من أن شعره كان قد أصبح أشيب، إلا أن اللحية الحمراء تفسّر أصل لونه. حدّق إليّ عبر نظارة ذات إطار فولاذي.

"جماعات متطرفة. مسرحيات يوم الحساب. تلك الاعتقادات غير المألوفة"

ابتسم وأشار إليّ بالمتابعة.

"أسرة مانسون (جماعة تزعمها تشارلز مانسون)، فرع داويدي (حركة دينية مسيحية)، موف (حركة تحرير في فيلادلفيا تدعو إلى العودة إلى الطبيعة)، بيوبلز تمبل (مقره في جونستاون)، سيمبانون (منظمة أمريكية)، كما تدعى جماعات".

"تستخدمين تعبيراً متعاطفاً. ما تسميه جماعة دينية قد يعده شخص آخر ديناً، أو أسرة، أو حزباً سياسياً؟"

خطرت ببالي صورة جونز التي اعترضت هي أيضاً على الكلمة، لكن التشابه كان ينتهي عند هذا الحد. في تلك المقابلة، جلست قبالة امرأة ضئيلة الحجم في مكتب ضخم، تحكي الآن قواعده رحلاً ضخماً في حيّز صغير جداً ومكتظ إلى درجة أنني شعرت برهاب الاحتجاز (الخوف من الأماكن المغلقة).

"حسن، ما هي الجماعة الدينية؟".

"الجماعات الدينية ليست مجرد مجموعات من المخابيل اللذين يتبعون قادة غريبين، على الأقل، كما أستخدم هذا التعبير لأشير إلى المنظمات التي تتمتع بمجموعة من الميزات المشتركة."

"نعم" أسرعت على الكرسيّ مسندة ظهري إلى الخلف.

"تنشأ جماعة دينية حول فرد يتمتع بشخصية مميزة، ويعد بشيء ما، ويطلق أنه يتمتع بمعرفة من نوع خاص. أحياناً يكون الادعاء عبارة عن امتلاك أسرار قديمة، وأحياناً أخرى يكون اكتشافاً جديداً يرى أنه لا يعرفه أحد سواه أو سواها، وأحياناً هو مزيج من الاثنين. يعرض القائد مشاطرة المعلومات مع أولئك الذين يتبعونه. في حين يبشر قادة آخرون بالعيش في مدينة فاضلة. انضموا إليّ فقط واتبعوني. أنا سأتخذ القرارات، وسيكون الجميع بخير".

"كيف يختلف ذلك عن رجل دين في ديانة ما عن آخر في ديانة أخرى؟"

"في الجماعة الدينية يصبح هذا القائد الذي يتمتع بشخصية مميزة في نهاية المطاف محور التقوى، وفي بعض الحالات سيداً. وعندما يحدث ذلك، يتمتع القائد بسيطرة استثنائية على حياة أتباعه".

رفع نظارته ومسح كل عدسة بقطعة قماش مربعة حمراء أخرجها من جيبه، ثم أعادها على وجهه، ووضع كل طرف خلف أذن.

"الجماعات الدينية منغلقة على نفسها، وتخضع لاستبداد قائدها الذي يعد السلطة الأعلى والمفوّض من أجلها. تصبح مبادئ القائد الأخلاقية النظام القيمي الوحيد المقبول، والسلوك الوحيد المرضي. وكما قلت، الولاء في النهاية سيكون من نصيبه، وليس السبب مبادئ عقيدة أسمى"

انتظرت

"وهناك دائماً معايير مرجوحة في ما يتعلق بالأخلاق. يُحثّ الأعضاء على أن يكونوا صادقين وعلى أن يحبوا بعضهم، ولكن على أن يخدعوا الغرباء ويحتقروهم. تعتمد الأديان المعروفة على مجموعة واحدة من القواعد للجميع"

"كيف يحقق قائد كل ذلك التحكم؟"

"هناك عنصر آخر مهم من خلال إعادة تكوين الأفكار. يستخدم قادة الجماعات الدينية مجموعة متنوعة من العمليات النفسية ليتلاعبوا بالأعضاء. بعض القادة لطفاء، لكن معظمهم الآخر ليس كذلك، وهم يستغلون مثالية أتباعهم"

عندئذٍ انتظرت أن يمضي قدماً

"من وجهة نظري، هناك نوعان من الجماعات الدينية، ويستفيد كلاهما من عملية إعادة تكوين الأفكار. تستخدم برامج التوعية – رسم علامي القياس بأساليبه الاستعمارية تقنيات إقناع مكثّفة. وتحافظ تلك البرامج على الأعضاء بجعلهم يشاركون في المزيد والمزيد من الصفوف

"ثم هناك الجماعات الدينية التي تمتد أحياناً مدى الحياة. تستفيد تلك الجماعات من عملية إقناع نفسية واجتماعية منظمة لإحداث تغيرات عميقة في المواقف. ونتيجة لذلك، تتمتع بسيطرة مطلقة على حياة أعضائها الذين يصبحون عرضة للتلاعب والخداع والاستغلال على نحو كبير".

استوعبت ذلك.

"كيف تمت عملية إعادة تكوين الأفكار؟"

"بدأ من خلال الإخلال بتوازن الشخص النفسي. أنا واثق بأنك تعلمت هذا في صفوف علم الإنسان: عزلة وتحليل وتركيب"

"أنا متخصصة بعلم الإنسان الطبيعي"

"حسناً، تفصل الجماعات الدينية المرشحين الجدد عن كل التأثيرات الأخرى، ثم تجعلهم يشككون في كل ما يعتقدون به، وتقنعهم بإعادة تفسير العالم وتاريخ حياتهم. تشكّل حقيقة كاملة للشخص، وتجعله يعتمد اعتماداً كلياً على المنظمة وأيديولوجيتها"

عاد فكري إلى صفوف علم الإنسان الثقافي التي كنت قد تلقيتها في الكلية.

"لكنك لا تتكلم عن طقوس الانتقال إلى مرحلة أخرى. أعرف أنه في بعض الحضارات يتم عزل الأطفال مدة من الوقت خلال حياتهم وإخضاعهم للتدريب. ولكن الهدف من العملية هو تعزيز أفكار يحتاج عليها الطفل. أنت تتكلم عن جعل الناس يرفضون القيم التي تربّوا عليها، وجعلهم يتخلّون عن كل ما يعتقدون به. كيف يتم ذلك؟"

"تتحكم الجماعة المشبوهة بوقت الفرد وبيئته. من غذاء ونوم وعمل ووسيلة وسائل، وكل شيء آخر. فهي توجد لديه شعوراً بالشبهة، وبالضعف بعيداً عن الجماعة. وفي أثناء ذلك، يعرض للمبادئ الأخلاقية الجديدة في الأعماق، كما تعرض نظام السلوك الذي تلتزم به أو التحدّي كما يراه القائد، وهو بالتأكيد نظام مختلف. سمي مسموحاً بتعلية راحته أو انتقاد، أو تشكيكه. تضع الجماعة أنماط السلوك والمواقف القديمة شيئاً فشيئاً، وتستبدل بها أنماط سلوك ومواقف خاصة بها"

"ماذا يلزم أي شخص بذلك؟"

"العملية تدريجية ولا يشعر الشخص بما يحدث. يتقدم الفرد عبر سلسلة من خطوات صغيرة، تبدو كل منها غير مهمة. يطلق أعضاء آخرون شعرهم فتطلق شعرك. يتكلم آخرون برقة، وقد تخفض صوتك. يستمع الجميع بانتباه إلى القائد، ولا يطرحون أسئلة وقد تعطي الشيء نفسه. هناك شعور بالاستحسان من قبل الجماعة، ما يجعلك معزولاً عنها. يكون الفرد الجديد غافلاً تماماً عن المعايير المزدوجة التي يتم تطبيقها"

"ألا يرون في نهاية المطاف ما يجري؟"

"عادة، يتم تشجيع الأعضاء الجدد على تحطيم كل العلاقات بالأصدقاء والأسرة، وعلى أن يعزلوا أنفسهم عن شبكاتهم السابقة. أحياناً يؤخذون إلى أماكن معزولة مثل مزارع أو مخيمات صحراوية أو غابات.

تحرمهم هذه العزلة الجسدية والاجتماعية من أنظمة الدعم المعتادة، وتزيد من إحساسهم بالضعف الشخصي والحاجة إلى قبول الجماعة، وتلغي أيضاً حس المقاييس على نحو طبيعية وتستخدمها حيناً لتقويم ما يقال به. وهكذا، تتزعزع ثقة الشخص بعاطفته ومدركاته، ويصبح الشك للسيطرة مستحيلاً"

فكّرت في دوم وجماعته في ساحات هيليا

"أفهم كيف يمكن بالمشاهدة دينية أن مسيطر عليك إذا كنت تعيش تحت سقفها أربعاً وعشرين ساعة يومياً. لكن، ماذا لو كان بعض الأعضاء يعملون خارج مارها؟"

"الأمر سهل. تصدر تعليمات للأعضاء بالعشاء أو التأمل عندما لا يعملون. خلال وقت الغداء أو استراحة القهوة يكون الشخص منعزلاً بأنماط السلوك التي تفرضها الجماعة. ومن يعمل خارجاً يكرس كل وقته للمنظمة".

"لكن، ما الحافز؟ ما الذي يدفع شخصاً إلى رفض ماضيه وتسليم نفسه إلى مجموعة من هذا القبيل؟".

لم يكن في مقدوري استيعاب ذلك. هل كانت كاترين والآخرون أشخاصاً ألين يتم التحكم بهم في كل خطوة؟

"هناك نظام مكافآت وعقوبات. إننا أحسن العضو التصرف والكلام والتفكير حسبما - أو تنال - محبة القائد وأفراد المجموعة، وبالطبع سيتم تخليصه أو تحويله أو نقله إلى عالم آخر أو أي شيء تعد به تلك الإيديولوجيا".

"ما الذي تعد به؟"

"حسب ما شئت. ليست كل المجموعات دينية. لدى العامة تلك الفكرة؛ لأنه في الستينيات والسبعينيات سجلت العديد من المجموعات نفسها كجماعات بشرية دينية لتتهرب من الضرائب. تأتي الجماعات بكل الأشكال والأحجام وتعد بكل أنواع الفوائد. الصحة، قلب الحكومة، رحلة إلى الفضاء الخارجي"

"ما زلت لا أفهم ماذا يعتنق أي شخص هذا الهراء إن لم يكن أحمق".

"ليس كذلك فقط" هز رأسه. "لا ينضم إلى تلك الجماعات أشخاص حاسمون فقط. لقد اكتشفت بعض الدراسات أن ثلثي الأعضاء يأتون من أسر عادية ويسلكون سلوكاً عادياً عندما ينضمون إلى جماعة"

نظرت من مساحة الصخور تحت قدمي. كان شيء ما في ذهني يحوم. ما هو؟ لماذا لم أستطع إخراجه إلى السطح؟

"هل اكتشفت الدراسة على الأسباب التي تجعل الناس ينجذبون إلى الانضمام إلى تلك الجماعات؟"

"لا يدركون ذلك عادة، وربما تستهوي تلك المجموعات إليهم. وكما قلت من قبل، يمكن أن يكون هؤلاء القادة جذابين ومقنعين جداً"

كان ذلك الوصف ينطبق على دوم أوبنسو من كان؟ أيديولوجي يحرض مناصريه على أتباعه الطيّعين؟ أم كان مجرد داعية مولع بالصحة يحاول زراعة أصولية بيضاء عنصرية؟

جلست مفكّرة في دوري جيفرسون. هل كانت عنيفة؟ هل أصبح العامة يخافون كثيراً من جماعة الاعتقادات غير المألوفة الذين يتوقّعون يوم الحساب؟

سألت: "كم عدد الجماعات الموجودة في الولايات المتحدة؟".

"وفقاً لتعريفك" – رسم ابتسامة ساخرة على وجهه وفتح يديه – "بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف"

"أنت تمزح".

"كلا. تقدّر إحدى زميلاتي أنه خلال العقدين الماضيين كان نحو عشرين مليون شخص على علاقة مع جماعة معيّنة. نقل أنه في أي وقت سيتراوح العدد بين مليونين وخمسة ملايين شخص".

"هل تتفق معها؟". كنت مذهولة.

"من الصعب معرفة ذلك. تضخّم بعض الجماعات أرقامها حين تعتبر كل من حضر اجتماعاً أو طلب معلومات عنها، عضواً فيها. وبعضها الآخر سرّي جداً، ويخفي بعضها حس الأخطر قدر المستطاع. تكتشف الشرطة بعض المجموعات مصادفة، عندما تطرأ مشكلة، أو إذا انسحب عضو وتقدّم بشكوى. إنّ تعقّب المجموعات الصغيرة خاصة، أمرٌ بالغ الصعوبة".

"هل سمعت بدوم أوبنسو من قبل؟"

هزّ رأسه. "ما اسم مجموعته؟"

"لا يستخدمون اسماً".

في الأسفل بعث هاتفها بالخياله

"هل هناك أي منظمات في الكارولينا (الشمالية والجنوبية) تراقب الشرطة؟"

"هذا ليس اختصاصي يا تمب. أنا عالم اجتماع. يمكنني أن أقول لك كيف تعمل هذه المجموعات، لكن ليس بالضرورة من يتولى زمام أمورها في وقت معين. يمكن أن أحاول اكتشاف ذلك إذا كان الأمر مهماً".

"لا أفهم ذلك يا ريد. كيف يصبح الناس بهذه السذاجة؟"

"التفكير في أنك من النخبة ومتفائلة أمر ممتع. تعلّم معظم ملصقات أصحابها أنهم الوحيدون المحبوبون وكل شخص آخر في العالم ليس كذلك، وإنما هو أقل شأناً بطريقة ما. إنها طريقة قوية في الإقناع"

"وهل هي تلجأ تلك الملصقات إلى العنف؟"

"معظمها لا. ولكن، هناك استثناءات. كانت هناك جونزتاون، وواكو، وهيفنز جايت، وسوار الليل من الواضح أن أعضاءها لا يعتبرون كثيراً. هل تتذكرين جماعة راجنيش؟ حاولوا تسميم إمدادات المياه في إحدى بلدات أوريجون، وهيمنة مستوى ثقافتها. وسبانولد؟ وضع هؤلاء المواطنون الأفعى السامة ذات الأجراس في صندوق بريد محامٍ رفع دعوى ضدهم، نجا الرجل بأعجوبة"

تذكرت الحادثة على نحو مبهم.

"معظمها مسالم، لكن بعضها متطوّر وخطر. لا يمكنني التفكير إلا في بعض الملصقات التي تجاوزت الخط في السنوات الأخيرة. هل لهذا علاقة بقضية ما؟".

"نعم لا. لست واثقة" انتزعت سلفاً (قطعة جلد ميتة) من إبهامي

تردّد "هل يتعلق الأمر بكيتي؟".

"ماذا؟".

"هل كنت متورطة مع...."

"آه لا. لا شيء من هذا القبيل حقاً. الأمر يتعلق بقضية. فقط وردت مروعة في مجورت وجعلني ذلك أفكّر".

بدأ طرف إبهامي ينزف.

"دوم أوبضر"

أومأت

"لا تبدو الأشياء على حقيقتها دائماً"

"لا"

"يمكنني إجراء بعض الاتصالات إذا رغبت في ذلك"

"سأفكر بذلك"

"هل تريدين مساعدة؟"

شكرته بعدها ووقفت

"لا، شكراً. لن أشغلك وقتاً طويلاً. لقد كنت متعبة جداً".
"إن حصلت لك طرح أي أسئلة أخرى، فأنت تعرفين أين تجدينني"

صعدت إلى مكتبي، جلست وشاهدت ظلالاً تتطاول في الغرفة، وكانت الفكرة التي لم تتكوّن بعد لا تزال تجول في خاطري. كان هدوء ما بعد ساعات الدوام يطبق على المبنى.

هل كانت دوري جيبوب؟ كنت قد نسيت أن أسأل ريد إذا كان يعرفها. هل كان ذلك هو الأمر؟

لا.

ما الذي كان يصرخ من مقاعد شبكتي العصبية؟ لماذا لا أستطيع سحبه إلى وعيي؟ ما الصلة التي يتركها معي ولا أتمكن من رؤيتها؟

وقعت عيناي على المجموعة الصغيرة من الملفات التي أحتفظ بها في المكتبة لأستعملها مع الإعلام. ماذا يعني هؤلاء الموقوفون الآخرون؟ تقنية أو كما تعرف. هل كانت كذلك؟ هل كانت المأساة تقترب بسبب وصلة لاوعيه لا يمكنني التقاطها؟

أي مأساة؟ وفاة أخرى في كيبيك؟ المزيد من حالات القتل في بيوروت؟ أذى يلحق بكاترين؟ هموم أمر حتى تكون عواقبه وخيمة؟

رن هاتف في مكان ما وقتاً طويلاً، ثم توقف فجأة عندما اشتغل جهاز الرد الآلي ثم ساد الصمت.

طلبت رقم بيت محمداً، لكنه لم يرد. ربما كان مسافراً في رحلة أخرى للإدلاء بشهادته. لم يكن ذلك مهماً، كنت أعرف أن يودي ليس موجوداً هناك.

غضبت وبدأت بأرشفة أوراق، صففت أكواماً من النسخ، ثم أعدت الكتب إلى وضعها على الرفوف. كنت أعرف أن ذلك هروب من الواقع، لكنني لم أستطع منع نفسي. كانت فكرة الذهاب إلى فلسون لا تُحتمل.

عشر دقائق من النشاط المحموم، لا تفكري، ثم: "آه تبًا، يودي!"

رميت سحبة كتاب بلون أكولوجي على الطاولة بعنف وسقطت على مقعدي.

"لماذا كنت هناك؟ آسفة، أنا آسفة جداً يا يودي".

وضعت رأسي على النشّافة وشهقت

23

كان يوم الخميس سائراً على نحو غير متوقع.

فوصلت في الصباح مرتين، جرى الاتصال إلى شركة التأمين بسلاسة، وكل من العاملين لديهن اللتين قصدت هنا كان حاضراً وسيبدأ العمل مباشرة.

في النهار، عدت صعوداً وتفحصت بحث التصوير الطبقي المحوري الذي سأتقدم به إلى مؤتمر علم الإنسان العصبي. أتفق رود فحصاته في وقت لاحق من بعد الظهر في وحدة استكشاف مسرح الجريمة، لم تعثر على شيء مفيد في الأنقاض التي رفعتها من مطبخي، فلم أتفاجأ. وكان سيطلب من دورية مراقبة منزلي.

تلقيت أيضاً اتصالاً من ستو الذي لم تكن لديه أخبار، لكنه بدا يقتنع بأن أي مسترجعات قد تكونوا ابتعدوا على حريته. كان يأخذ الأمر كتحدٍّ شخصي له، وقد عد كساسي قديم عياره اثنا عشر مليمتراً وأخفاه تحت سرير في الغرفة الإضافية.

توقفت في طريقي من الجامعة إلى المنزل عند سوق هاريس تيتر في مركز ساوثبارك للتسوق، وأحضرت كل الطعام المفضل، ثم عرجت على منظمة الشبان المسيحيين في شارلوت ووصلت في الوقت قرب الساعة السادسة والنصف. أسفاً، كما قد تم إصلاح النافذة، وكان العامل يضع اللمسات الأخيرة على الأرضية. كان كل شيء في المطبخ مغطى بغبار أبيض ناعم.

نظفت الفوضى وتنظفه، ثم أعددت وجبة سلطعون وخبز ساخن وتناولتهما حين كنت أشاهد إعادة حلقة من مولي براون (مسلسل كوميدي). كانت موجة قوية الشكيمة، صممت العزم على أن أكون مثلها.

في الأمسية، تفحصت بحث التصوير الطبقي المحوري المحدد وشاهدت مباراة هوكي، وفكرت في هارتلي وبوب تسوية وضعي الضريبي أيضاً، لكن ليس هذا الأسبوع. عند الساعة الحادية عشرة خلدت إلى النوم، وكانت سبع من حلقات تويس تصب مشاورة على السرير

كان غبار الجمجمة حافلاً، وحظيت في ذلك اليوم بأول معلومة عن الرعب الذي كان علي وحدك أن يكتشف.

وصلت حنا موراتري من تشارلستون في الصباح الباكر. وعند حلول الساعة التاسعة والنصف كنت أضع قناعاً وأحتك إلى المختبر المستلمين في مختبري. كانت طاولة تحمل عينات الجمجمة والعظام التي نزعها هيرنادوي في أثناء تشريحه الجثة في الأسفل، في حين تحمل الطاولة الأخرى جمجمة كاملة. كان المنظفون في كلية الطب قد أنجزوا عملاً ممتازاً وكل العظام يبدو نظيفة ورسمية.

سجلت بالجثة التي كانت في قبر ملمرة، بالرغم من تعفنها، إلا أنها احتفظت بما يكفي من الأنسجة الرخوة (غير العظمية) مما سمح بإجراء تشريح كامل لها كان الجنس والعرق واضحين، ولهذا لم يكن هيرنادوي بحاجة إلا بل مساعدتي في تقدير العمر. تركت تقرير تشخيص معظم الأمراض والصور التي التقطها حتى وقت لاحق، لأنني لم أكن أريد أن أتأثر استنتاجاتي بأي شيء إذا عرفت ما جاء فيها

وضعت صور الأشعة السينية تحت الضوء، لكن لم يكن هناك شيء غير معتاد. نظرت إلى صور الجمجمة فرأيت أن كل الأسنان الأنتي والثلاثين موجودة، وجذورها كاملة. لم تكن هناك إصلاحات أو أسنان مفقودة، فسجلت ذلك في تقرير الجثة.

مشيت إلى الطاولة الأولى ونظرت إلى الجمجمة، ورأيت أن قحفة قاعدة الجمجمة متحمة، فعرفت أن الضحية ليست مراهقة

أمعنت النظر في نهايات الأضلاع والسطوح التي تغطي عندما عظم الترقوة في المقدمة، ثم الارتفاق العاني. كان يوجد على الأضلاع آثار قليلة العمق حيث تربطها الغضاريف بعظم القص الصدري. كانت هناك تموجات على طول سطوح الارتفاق العاني، ورأيت نتوءات عظمية على طول الحد الخارجي لكل منها

كانت نهاية كل عظم مرقوقة من ناحية تتلاق متصمة بالأخرى، والحافة العليا من كل عظم ورك مصابة بكسر مثل خط رفيع.

تفحّصت الفخذين وعظمتي قصبة الساق، وكتبت الضحري: كان عمر المرأة بين عشرين وثمانية وعشرين عاماً عندما توفيت.

كان هاردوي يريد تحليلاً كاملاً للجثة المتحللة. بعد بحث بصور الأشعة السينية ومرة أخرى لم يكن هناك شيء غير معتاد، ما عدا وجود أسنان في حالة ممتازة.

كنت أظن أنه ربما تلك الضحية أنثى أيضاً، كما أخبرت رايان. وبينما كنت أجمع العظام، لاحظت مستدقة للعصرية ربما الوجه هشاشة، وأكّد الحوض الواسع للتشخيص ومنطقة العانة الأنثوية للمرة الخاطفة الأولى.

كانت مؤشرات هذه المرة العمرية شبه تلك الخاصة بالضحية الأولى، بالرغم من أن وتفاصيلها العاني أظهر انثلاماً أعمق على حول سطوحه وافتقر إلى النتوءات الصغيرة.

قدّرت أن هذه الضحية قد انتهت حياتها في عمر أصغر بقليل من عمر الضحية الأخرى، وعلى الأرجح في أواخر سن المراهقة أو أوائل العشرينيات.

في ما يتعلق بمسألة العرق، تحولت إلى القحف. كانت منطقة وسط الوجه نسبية، حاملة معالم الأنف. حسر (عظم واقع بين العينين) عالٍ بين العينين، ووجنتان ضيقتان، وأرومة مضغوطة بارزة.

أخذت القياسات لتحليلها إحصائياً، لكنني كنت أعرف أن المرأة بيضاء.

قست العظام الطويلة وحفظت البيانات في حاسوبي، وأجريت معادلات الحساب. كنت أقوم بتحليل تقدير الطول في تقرير الضحية عندما رنّ الهاتف.

قال رايان: "إذا بقيت هنا يوماً آخر فسأحتاج إلى تدريب نحوي كامل". ثم أضاف: "مثلكم".

"استعمل حافظة تنسيه حالاً".

"كنت لعلي أتلف وقتك في ذلك، لكني أفهم الآن أنه ليس مضللاً".

"من الصعب ألا يحتل المرء في حضوره".

"نعم".

"هل عرفت أي شيء جديد؟".

"رأيت ملصقاً رائعاً هذا الصباح"

انتظرت

"الهادي يحبك. ويظن كل من سواه أنك مختل"

"هل الصمت المجنون هنا؟".

"كان ذلك ما يقوله اللصوص؟".

"نحن قوم مقدسون"

نظرت إلى الساعة الجدارية وكانت تشير إلى الثانية والربع. أدركت أني أشعر جوعاً فمددت يدي إلى الموزة والفطيرة اللتين كنت قد أحضرتهما معي من المنزل.

"السكنيب سيطي الوقت وأن أراقب منزل توم الصغير، ولم يتم ذلك من مساء صباح الخميس ركب ثلاثة من أولئك الأشخاص شاحنة مغلقة وانطلقوا مبتعدين، وما عدا ذلك لم أر أي حركة دخول أو خروج من المنزل".

"كاترين؟".

"لم أرها".

"هل تحققت من لوحة المرور؟"

"نعم سيدي. كانت مسجلة باسم توم أوبيسر في عنوان بلدة ليوسمر"

"هل لديه رخصة قيادة؟"

"لديه واحدة صادرة عن ولاية بالتيمور الرائعة في العام 1988 بحسب هناك وثيقة تشير إلى وجود رخصة سابقة من الواضح أن الموقر دخل إلى هناك بكل بساطة وجميع الفحوص، وهو يدفع تأمينه في الوقت المحدد. لا يوجد سجل عن حصوله على تعويضات تأمين أو عن مخالفات بسبب حوادث سير أو استدعاء إلى المحكمة.

"حسناً؟" حاولت ألا أحرك الهاتف الخلوي

"يدفع أوبيسر فواتير الهاتف والكهرباء والماء مسبقاً"

"هل لديه رقم ضمان اجتماعي؟".

"صدر في العام 1987، لكن ليس هناك سجل عن أي نشاط. لم يتلقَّ أجراً قط، ولم يطلب إعانات من أي نوع على الإطلاق"

"في العام سبعة وثمانين؟ أي كان قبل ذلك؟".

"سؤال وجيه د. برنان"

"ماذا بالنسبة إلى البريد؟".

"هؤلاء الناس لا يملكون رسائل كثيرة، ويتلقون البريد الشخصي المعتاد موجّه إلى الساكن المقيم وعروض التسوق بالطبع، لكن هذا كل شيء. ليس لدى أوبيسر حساب مصرفي، لكن قد يكون هناك بريد باسم شخص آخر. سألت موظفي مكتب البريد بالطبع، لكنهم لم يعرفوا أياً من هؤلاء الأشخاص"

ظهرت حالية عند الباب فهززت رأسي.

"هل كانت هناك بصمات على القطعة البلاستيكية الحمراء؟"

"ثلاث بصمات، لكنها لم تسفر عن شيء. من الواضح أن جوم أوبيسر غلام معرفة"

أطبق صمت بيننا.

"هناك أطفال يعيشون في ذلك المكان. ماذا عن الخدمات الاجتماعية؟"

"ليست سيئة على الإطلاق يا برنان".

"أشاهد التلفاز كثيراً"

"تحققت من الأمر مع الخدمات الاجتماعية. اتصلت جارة هي السيدة جوزيف إسبينوزا قبل عام ونصف تقريباً، قلقة بشأن الأطفال، وقد أرسلوا عاملة اجتماعية للتحقيق في الأمر، قرأت التقرير. وجدت الموظفة منزلاً نظيفاً فيه أطفال يتسمون ويتسمون بالصحة والعافية، ولم يكن أي منهم بعمر يؤهله الالتحاق بالمدرسة. لم تر سبباً للقيام بأي عمل، لكنها أوصت بزيارة متابعة خلال ستة شهور، ولم يحدث ذلك".

"هل تكلمت مع الجارة؟"

"لقد توفيت"

"ماذا عن العقار؟"

"حسن، هناك شيء واحد".

مضت عدة ثوان

"نعم؟"

"أتعقب عصر الأرصاد وأنا أبحث في الوثائق العقارية وسجلات الضرائب"
صمت قليلاً.
قلت بحدة "هل تحاول إزعاجي؟"
"إنّ قطعة الأرض تلك هات تاريخ عشر على كثب تعرفين أنها كانت مقرّ
لمدرسة منذ بداية ستينيات القرن السابع عشر إلى مطلع القرن التالي؟ إحدى أوائل
مدارس العامة في أمريكا الشمالية المخصصة حصراً للطلبة السود"
"لم أكن أعرف ذلك" فتحت علبة كولا للحمية
"كان يكره عقاً كان العقار يُستخدم كمخيم لصيد الأسماك منذ الثلاثينيات
وحتى منتصف الستينيات. عندما تولّى تملكه أحد المنتسب إلى أقرباءه في
نيوجيرسي. أظن أنهم لم يكونوا مولعين بالطعام البحري أو ربما سئموا من ضرائب
العقار على كل حال، باعوه للكاتب في العام 1982"
هذه المرة افتعرت أن يمضي قدماً
"كان المشتري دعيه. أو. غيبان"
استغرق الأمر مني جزءاً من الثانية لأتذكر الاسم
"جاك غيبان؟"
"نعم سيهاني".
"جاك غيبان نفسه؟" قلت ذلك بصوت عالٍ إلى درجة أن طالب استدار في
سر لينظر إليّ.
"هي ما يحلو يتم لسامة العمراني. ".
"بموجب صكّ صادر عن مصرف سين في نيويورك"
"نقداً"
"هذا هو معقول".
"هذا مؤكد"
أزعجتني سطوعه. كان مالك عقار إدلر ليوسمر عملك أيضاً للمنزل الذي
احترق في سالت – حوفانت.
"هل تكلمت مع غيبان؟"
"لا يزال السيد غيبان في معتزله".

"ماذا؟"

"لم يتم تحديد مكانه".

"اللعنة، هناك صنة عملاً"

"يبدو ذلك"

رن الجرس.

"شيء آخر"

امتلأ الرواق بعرضى طلاب يتحركون بين الصفوف.

"لاأكون واثقاً فقط لرسب الأسماء إلى تكسمي. لم يكن هناك شيء في ما يتعلق بالموقر أربير لكن، حتّى من يخطك مرجعة لتربية الماشية؟"

"؟!".

"السعيد حساني أو عليسيان تدعمه حنانان في مقاطعة مورت بند ضرائبه."

"بموجب صكوك مصرفية وهمية!".

"في النهاية سأسست دلك الطريق، لكنني طلبت من مكتب الشريف المحلي أن يراقب المكان حالياً يمكن أن يجرص رجال الشرطة على خيبان سأبقى هنا بضعة أيام إضافية وأضغط أكثر على لونسر".

"تعرف مكان كاربي لقد اتصلت إلى هنا، لكنني عرّت مكالمتها عمداً أنا واثقة أننا نعرف شيئاً"

"إذا كانت هنا، فسأعثر عليها"

"قد تكون في خطر"

"ما الذي يحدث سوكي هنا؟"

فكّرت في وصف صديق الأخوة سلاك الجمعات الدينية. ولكن، بالنظر إلى أنني كنت لمحت محسب هانا لم أكن واثقة ما إذا كنت قد عرفت شيئاً ذا صلة بالموضوع. صحيح إذا كان دوم لونسر يقود جماعة من نوع ما، إلا أنه لم يكن جيم جونز أو دعيد كورش، وقد كنت واثقة من ذلك.

"لا أعرف، إنه مجرد شعور يحث متصلة عندما اتصلت"

"إن انطباعي هو أن شهادة كاربي لن تفيدنا بشيء"

"إنها حقيقة"

"وصديقتها إنها لا تبدو مرشحة للانضمام إلى جوسد (منظمة الأذكياء). هل أنت مشغولة؟".

ترددت، ثم أخبرته عن الهجوم الذي تعرّضت له

"الموعد. آسفة يا براين، كنت أحب ذلك فقط. هل لديك أي فكرة عن الفاعل؟"

"لا"

"هل رصدوا وحدة خارج منزلك؟"

"إنهم يقومون بتحريات. أنا بخير".

"ابتعدي عن الأزقة المظلمة"

"وصلت عظام من موريري هذا الصباح. أنا مشغولة جداً في المختبر".

"إذا كانت ستحتاج علاقة بتجار المسروقات، فقد ترغبين بعض الأشخاص"

"فالسلك عنصر عامل يا رايان". رميت قشرة بذرة وغلاف الفطيرة في سلة المهملات. "الصحيحان يقتلان ويقصان كما قلت"

"ليست من نمط تجار مسروقات متحدة"

"لا".

"لا تستبعدي ذلك الاحتمال. سنستجوب بعض هؤلاء الرجال فلساء مثل وإن ربما كانت السيمتان في سكان والرمال ملغطاً"

"نعم"

"ما سبب الوفاة؟"

"لم أقله بعد"

"اعتني وانعشي منهم أيها النمر. لكن، تذكري أننا سنحتاج إليك بشأن قضية سانت - جرمانت عندما أمل من هؤلاء الأوغاد"

"أي أوغاد؟".

"لا أعرف بعد لكني سأفعل".

عندما أنهينا المكالمة عدت إلى تقريري. خرجت ومشيت في المختبر. ثم جلست. ثم مشيت مجدداً.

بقيت صور من سانت – جوفيت ترفرف: طفلان أيمان ميتان، أجسام وأظفار ورؤوس، جمجمة اخترقتها رصاصة، أعناق مقطوعة، أياد مشوّهة تبعة جروح دفاعية، جثث متفحمة وأوصالها مفتولة وملتوية

ما الذي كان يربط جثث كيبيك بقطعة الأرض على جزيرة سانت هيلين؟ لماذا الطفلان ودمى الصور العميقة؟ من هو هيليان؟ ماذا يوجد في لكساس؟ ما المشكلة التي تورطت بها هايدي وأسرتها؟

وكرري يا برمان، فالقرائن الباهتة في هذا الحد مبثوثة. الزكي حركة كيبيك برهان ولغز هذه القضية. إنما تستحقان اهتمامك، اكتشفي من وكيف برفقنا.

وضعت قلماً أحمر وفحصت كل عظمة من هيكل الضحية الأخرى تحت عدسة مكبّرة. لم أجد شيئاً يخبرني عن سبب الوفاة. لم يكن هناك أيّ أثر يدل على وجود جرح ناجم عن أداة حادة، أو عن دخول أو خروج طلق ناري، أو عن طعنة سكين، أو كسر العظم اللامي الذي يدل على الخنق

الضرر الوحيد الذي لاحظته كان بسبب الحيوانات التي نهشت جثتها

عندما أعدت آخر عظم سالم إلى مكانه، وجدت خنفساء سوداء صغيرة من تحت طرف حلقت إليها، وتذكرت عصر أحد الأيام عندما طارد بوردي خنفساء في مطبخي في مونتريال. بقي يلعب مع الحشرة ساعات قبل أن يغط في غاية انطفاء اهتمامه بها.

حرقت الدموع عينيّ، تمالكت نفسي.

أمسكت بالخنفساء ووضعتها في مستوعب بلاستيكي. لا مزيد من الموت. كنت سأطلق سراحها عندما أغادر المبنى

حسنٌ أيتها الخنفساء كم مضى على موت هاتين السيدتين؟ سنعمل على ذلك

نظرت إلى الساعة، وكانت تشير إلى الرابعة والنصف. إنه توقيت مناسب. قلّبت رودولكس (دفتر هاتف) حتى عثرت على رقمه وطلبته

ردّ شخص على بعد خمس مناطق زمنية. "د. ويست"

"د. لو ويست؟"

"نعم"
"المعروف أيضاً باسم القبطان كام؟"
ساد الصمت.
"المشهور باسم (سمك طوق معلّب)"
"إنها سمكة طوق. هل أنت محب؟"
تخيلته في ذهني، بشعره الأشيب الكثيف ولحيته التي تحيط بوجه لوّحته شمس هاواي، فيبدو صورة من تماثيل لدى كاتب وكالة إعلانات يابانية قد حثّت لو مستحدثاً باسم علامة تجارية لأسماك طوق معلّبة. كان فرحه وتسريحة شعره التي كانت على شكل ذيل حصان مناسبين تماماً لصورة قبطان البحر التي يريدها أصحاب اليابانيون للقبطان كام. وبالرغم من أننا نمازحه من دون رحمة، إلا أنني لا أعرف أحداً رأى الإعلانات أبداً.
"هل أنت مستعد للتخلي عن الحشرات والعمل مع سمك الطوق كل الوقت؟".
يحمل لو دكتوراه في علم الأحياء ويدرّس في جامعة هاواي، ولعل أنه أفضل عالم حشرات شرعي في البلاد.
"ليس تماماً" ضحكت. "السمكة تسبب لي حكّة"
"أفضل ذلك وأنت ترتدي بذلة من جلد الجاموس"
"لا أظن أن اليابانيين مستعدون لذلك"
"متى منعك ذلك من تحقيق ما تريده؟".
أدرّس ولو، إضافة إلى مجموعة من المتخصصين الأعرق بالطب الشرعي، مساهماً عن فحص الجثث في أكاديمية مكتب التحقيقات الاتحادي في كوانتيكو، فرجينيا. إنها مجموعة غير متجانسة، تتألف من مختصين بعلوم الأمراض والحشرات والإنسان والنبات، وخبراء في التربة، معظمهم من خلفيات أكاديمية. في إحدى السنوات عندما عمل يحافظ على أن فرط عالم الحشرات هو مناسب. أصغى لو السميع جيداً، وفي اليوم التالي استحضر حلقة الذهبية الصغيرة بريشة طيور كي (إحدى قبائل الهنود الحمر) طولها ثماني بوصات مع خرز وأشرطة الساتانية وجرس فضي صغير.
"وصلتني حشراتك".

"وصلتك سليمة؟"

"لم تُصب بأذى. قمت بفحص ما وقع في يدي في الكتروليتي تضم الحشرات المرتبطة بالتحلل أكثر من خمسة وعشرين نوعاً. أظن أنك أرسلت إليّ معظمها"

"إذاً ما الذي تستطيع قوله لي؟"

"هل تريدين خلاصة كاملة؟"

"بالتأكيد"

"أولاً، أعتقد أن الشخصين لقيا مصرعهما خلال النهار، أو على الأقل أن الجثتين كانتا مكشوفتين ومعرّضتين لضوء النهار لبعض الوقت قبل دفنهما. وجدت حواضن يرقات سارکوفاغا بولاتا (ذبابة اللحم الرمادية)"

"أخبرني ذلك بالإنكليزية"

"إنها نوع من ذباب اللحم. جمعت حواضن يرقات سارکوفاغا بولاتا عارية ويرقات سليمة من كلتا الجثتين"

"و...؟"

"لا تنشط حشرات سارکوفاغا كثيراً بعد الغروب. إن ألقيت جثة إلى جانبها فقد تضع فيها يرقات، لكنها ليست نشيطة حقاً في الليل".

"تضع يرقات؟"

"تتوالد الحشرات بطريقتين. إمّا يرقات أو بويضات. بعضها تضع بويضات وأخرى يرقات"

"حشرات تضع يرقات؟"

"بسرعة في الطور الأول، إنه المرحلة الأولى من عمر اليرقة، سارکوفاغا كمجموعة تتكاثر باليرقات. إنها استراتيجية تمنحها أفضلية على باقي الديدان، وتوفّر لها أيضاً حماية من حيوانات مفترسة تتغذى على البويضات"

"إذاً، هذا لا يضع كل تلك الحشرات يرقات؟"

"هناك ملاحظة سلبية. لا تستطيع الإناث وضع يرقات بعدد البويضات! إنها قصة طبيعية"

"الحياة متوازنة"

"فعلاً. لنفترض أيضاً أن الجثتين كانتا في العراء على الأقل لوقت قصير. لا تستطيع ساركوفاغا دخول التابوت كبعض المجموعات الأخرى، مثل كالليفوريدي (ذبابة النفخ)"

"يبدو ذلك منطقياً. إما أنهما قد تُركتا على الطريق أو تم نقلهما من هناك في مكان مركب".

"على كل حال، أظن أنهما لقيتا مصرعهما في النهر، ثم أمضتا بعض الوقت في العراء وفوق سطح الأرض قبل أن تُلفّا"

"ماذا عن الأنواع الأخرى؟".

"هل تريدين التفاصيل كاملة؟"

"قطعاً"

"في مسح بسيط بكلتا الجثتين كان اللحم مليئاً بجزء من الحشرات هناك. عندما كشفت حيوانات القمامة عن الجثة في الأعلى، وجدت كالليفوريدي وسطاً مناسباً لوضع البويضات"

"كالليفوريدي؟"

"حشرات تتكاثر عبر البويضات تصل عادة خلال دقائق بعد الوفاة مع ذباب اللحم. كلاهما حشرة طائرة قوية"

"صدقتك"

"وجدت على الأقل نوعين من الحشرات التي تتكاثر عبر البويضات، كرغيلوميا (ذبابة حلزونية)."

"ربما يجب أن نلتزم بالأسماء الشائعة".

"حسناً. وجدت يرقات في طور النمو الأول والثاني والثالث، وحواضن يرقات سليمة وفارغة لنوعين على الأقل من ذباب اللحم"

"هذا يعني؟".

"حسناً أيها الملازم، لنراجع دورة حياة الذبابة. يهتم الذباب الكامل النضج، مثلاً، بالعثور على أماكن مناسبة يضع صغاره فيها. تعدّ جثة ميت مكاناً رائعاً، فهي تشكل بيئة محمية، وتقدم الكثير من المغذيات وتوفر بيئة ممتازة لتربية الصغار، تشكل مغرفة حلقة، وقد يصل ذباب اللحم خلال دقائق بعد الوفاة. تقوم الأنثى

يوضع بويضاتها مباشرة، أو مخفية تحت لبعض الوقت على السوائل التي تتسرب من الجثة، ثم تفقس بويضاتها".

"لطيف".

"حسناً، ذلك غنية بالبروتين. إذا كانت هناك جروح على الجثة، فستدخل نحوها، وفي حال غيابها فإنها ستهدف الفتحات الطبيعية الأنف، الفم والشرج."

"فهمت الأمر"

"ستضع ذباب اللحم مجموعات من البويضات في فتحات الجسد الطبيعية ومواضع الجروح حتى تملأ تماماً. تتحول إلى الكتلة بارزة هناك هنا وربما لم يكن هناك عدد كبير منها في ذلك اليوم"

"عندما تفقس البويضات، تكون الديدان العملية"

"بالضبط. تبدأ المرحلة الثانية. الديدان مخلوقات لطيفة جداً. يوجد على طرفها الأمامي خطافان صغيران تستخدمهما للتغذية والتحرك، وتتنفس عبر فتحات صغيرة على الطرف الخلفي"

"تتنفس عبر مؤخرتها".

"نوعاً ما على كل حال، البويضات التي توضع في الوقت نفسه تفقس في الوقت نفسه، وتكبر الديدان معاً، وتتغذى معاً أيضاً، لهذا يمكن رؤية مجموعات ضخمة من تلك الديدان تتحرك على الجثة. ينجم عن سلوك غذاء المجموعة انتشار بكتيريا وإنتاج عصارة هاضمة تساعد على الهضم وتسرع تسييل باستهلاك معظم الأنسجة غير الصلبة لأي جثة. يتم كل ذلك بكفاءة عالية

تكبر الديدان بسرعة، وعندما تصل إلى حجمها الأقصى تتغير سلوكها على نحو، إذ تتوقف عن التغذية وتبحث عن أماكن أكثر جفافاً عادة بعيداً عن الجثة"

"المرحلة الثالثة".

"نعم. تحفر الدودة حفرة في الأرض، ويصبح جسدها قاسياً، وتشكل غلافاً واقياً يدعى شرنقة (خادرة)، تبدو مثل كرات فشار صغيرة. تبقى الديدان داخل الشرنقة حتى يعاد تنظيم خلاياها، ثم تخرج كذبابة كاملة"

"لهذا السبب الشرانق الفارغة مهمة؟".

"نعم. هل تذكرين ذبابة اللحم؟"

"ساركوفاغا التي تضع يرقات"

"جيد جداً. تكون عادة أول من يصل كحشرات كاملة. يستغرق الأمر من ستة عشر إلى أربعة وعشرين يوماً لتخرج، في حرارة قد تبلغ ثمانين درجة فهرنهايت. يستغرق الأمر وقتاً أطول في الظروف التي وصفتها"

"نعم، لم يكن الجو دافئاً".

"لكن سوائل الوجنات الفارغة تعني أن بعضاً من ذباب الفاكهة قد أكملت عملية تطورها"

"تخرج منها حشرات كاملة النمو"

"يستغرق الأمر بالنسبة إلى الحشرات التي تتكاثر عبر البويضات من أربعة عشر إلى خمسة وعشرين يوماً لتنضج، وربما تستغرق وقتاً أطول في البيئة الرطبة على الجزيرة".

"تلك التقديرات معقولة"

"جمعت أيضاً ما أظن أنها يرقات موسكيداي، وهي ديدان ذباب المنزل وكل أصنافها. عادة لا تظهر تلك الأنواع قبل خمسة إلى سبعة أيام بعد الوفاة، فهي تفضل أن تنتظر ما يحتويه الجسم المتأخر أو مراحل الانتفاخ المبكرة. أوه، وكانت هناك ديدان الجبن".

ديدان الجبن يرقات تقفز. وبالرغم من أن الأمر ليس سهلاً حقاً، إلا أني تمكنت أن ألتقطها عندما أعمل على جثث متفسخة

"إنها المفضلة لدي"

"يجب أن يكسب الجميع رزقه يا د. برنان".

"أظن أن عليه يجب أن نعجب بكائن حي يمكن أن يقفز مسافة تساوي طوله السبعين مرة"

"هل جمعتها؟".

"إنه التقدير".

"هناك محصول مفيد على وجه الخصوص في تقدير وقت الوفاة وهو الذبابة السوداء. فهي لا تظهر عادة إلا بعد عشرين يوماً من الوفاة، وهي موجودة دائماً حتى مع جثة متفسخة"

"هل كانت موجودة؟"

"نعم".

"ماذا أيضاً؟"

"كانت مجموعة الخنافس محدودة أكثر، ويعود ذلك على الأرجح إلى الطقس الرطب. لكن الأنواع المتوقعة كانت موجودة، والغالبية بمعدله من دون شك على الديدان والحشرات الأخرى الطرية"

"إذاً ما تقديرك؟".

"أقول إنك ستكلم عن ثلاثة إلى أربعة أسابيع"

"كلتا الجثتين؟"

"لست أربع أقدام إلى قعر الخندق وثلاث أقدام إلى الجثة في الأسفل. كما قد تلاحظ الكثير من الحشرات التي تضع يرقات على الجثة وسبب ذبابة اللحم، ويقتصر ذلك الخوص الفارغة التي وجدناها داخل الجثة في الأسفل وفوقها. بعضهم يحمل حشرات كاملة النمو، وقد بدأت تخرج من شرانقها فعلاً. لا بد أن الترابي حاصرها عندما أرادت أن تخرج، كانت موجودة هناك أيضاً"

"أو؟"

"ثم، لاحظ أنني وجدت أيضاً بعض ذباب التوابيت في عينة التربة التي أعطتها من فوق الجثة في الأسفل، وبعض اليرقات على الجثة نفسها. هذه الأنواع معروفة بأنها تحفر للوصول إلى الجثث لتضع بويضاتها عليها. لا بد أن خشخشة التربة في القبر ووجود الجثة في الأعلى قد سهلا وصولها إلى هناك. سمعت أن أذكر أنني وجدت ذباب توابيت على الجثة العليا"

"هل كانت عينات التراب مفيدة؟"

"حسناً. لا تسرعي في استنتاج كل المخلوقات التي تتغذى على ديدان ومواد متفسخة، لكنني وجدت كائنا مفيداً في تحديد وقت الوفاة. عندما فاحصت التربة عثرت على عدد من القمل، مما يدعم فرضي بأن الوفاة قد حدثت قبل ثلاثة أسابيع على الأقل"

"إذاً نقترب من ثلاثة إلى أربعة أسابيع بالنسبة إلى كلتا الجثتين"

"ذلك هو تقديري الأولي"

"هذا مفيد جداً يا لو. تدهشونني يا شباب".

"هل يتواصل كل ذلك مع حالة الرفاه؟"

"على نحو ممتاز"

"هناك شيء واحد أود ذكره".

ما أخبرني به بعد ذلك جعل رهباً بارداً تتصاعد في جسمي.

24

"أسمعة يا لو قل شئ جديداً".

"حسنا ليس بشيء جديد. كان ارتفاع عدد الوفيات المرتبطة بالممنوعات في السنوات الأخيرة قد دفع الباحثين لاختبار وجود حقائق في الحشرات التي تتغذى على الجثث. لا حاجة بي أن أقول لك إنه لا يتم العثور على الجثث فوراً أحياناً، لذا قد لا يحظى المحققون بالعينات التي يحتاجون إليها لإجراء تحليل السموم. تعرفين مثل الدم أو البول أو أنسجة الأعضاء".

"إذاً، فقد تحريت إمكانية وجود كوكايين في الميغالا؟"

"يمكنك قول ذلك لكن حالفنا حظ أكبر مع الشرانق؛ ربما لأن وقت تعديتها أطول مقارنة باليرقات. استفدنا أيضاً من شلوخ الخنفساء وغلافها."

"لمن؟"

"الجلد والبراز الذي تطرحه الخنفساء. هذا من أهم مستحضرات المعرفات في حديقة الذبابة. ويظهر ذلك على الأرجح الغلاء الذي تغذته كل حشرة. فيما تستطيل الخنفساء الأغشية الجافة، يقتات الذباب على الأنسجة الرخوة التي يكون تركيز المستحضرات فيها على الأرجح أعلى ما يكون."

"ما الذي عثرتم عليه؟"

"اللائحة معروفة حسناً: كوكايين، هيروين، ميثامفيتامين، إمفيتامين، مورفين، أخيراً كما حصل على ديلتا تيتراهيدروكانابينول - فيتامين".

"الاسم الشائع؟".

"إكستاسي. هو أكثرها شيوعاً".

"وتعثرون على هذه المواد في الشرانق؟"

"نعزل كلاً من العقار الرئيس ومستقلباته"

"كيف؟".

"إنّ منهج الاستخراج شبيه بذلك المستخدم للحصول على عينات عادية في جسم الأمراض، ما عدا أنه يجب الوصول إلى طبقة الكيتين (مادة قرنية) الموجودة في شرانق الحشرات وسلاخها (المادة المتقشرة والمنسلخة من الشرانق أو مخلفات) حتى نستطيع الحصول على السموم. نحصل ذلك من خلال سحق الخواص، ثم نستخدم حامض قوي أو مواد معالجة أساسية. بعد ذلك، وفي وسط قلوي معدّل، نستفيد من تقنيات استخراج عقاقير روتينية. نقوم باستخلاص المادة الأساسية، وبعد ذلك نحلّل الحوامل الاستشرابية ونقوم بالتحليل الطيفي. يشير تحليل الأيونات إلى ما يوجد في جيفك ومقداره"

ابتلعت ريقي

"وأنت تخبرني أنك عثرت على فلونيترازيبام في شرانق اليرقات التي أرسلتها؟"

"تحتوي الخواص التي عثرنا عليها في دفعة الأعلى على فلونيترازيبام واثنين من مستقلباته، ديسميثيلفلونيترازيبام و7 - أمينوفلونيترازيبام. كانت تركيز العقار الأساسي أعلى كثيراً من مستقلباته"

"مما يتوافق مع تفسّخ حصل بعد مدة قصيرة وليست طويلة"

"بالضبط"

شكرت لو وأنهيت المكالمة.

جلست هناك لحظة وأنا مشدوهة. كانت صدمة الاكتشاف قد أزعجت عقلي. شعرت بأنني قد انتبهت. أو ربما كان ذلك من الفطيرة.

فلونيترازيبام.

كانت الكلمة قد دفعت أخيراً الذكرى المتحرّكة إلى السطح.

فلونيترازيبام.

روهيبنول.

كانت تلك مكالمة الإخطار التي يجريها دماغي.

بيدين مرتعشتين اتصلت برقم نزل الورود كارترمت. لكنّ أحداً لم يرد

أعدت الطلب وتركت رقمي على جهاز رد رايان

ثم انتظرت، وجهازي العصبي يرسل إنذاراً مستمراً للسوء، ويطلب مني أن أشعر بالخوف. مم أخاف؟

روهيبنول

عندما رنّ الهاتف شعرت بخوف، وكان المتصل أحد الطلاب.

أنهيت المكالمة وانتظرت بعض الوقت، وشعور غريب بالظلمة والبرد يتملكني،

وروهيبنول، مخدر الاغتصاب.

تشكّلت أفكار عشوائية، وتفاوتت حالة الهيجان بين مدّ وجزر. وفي مكان ما شكّل نجمٌ كواكب من غبار

بعد إحدى عشرة دقيقة اتصل رايان

"إنّك محق وحدثت صلة أخرى".

"ماذا؟"

مهلًا، لا تدعي الصدمة تعطّل تفكيرك المنطقي

"جرائم جزيرة موودري وسالت – سوفلت"

أخبرته عن الحديث الذي دار مع لو ويست

"هنالك كميات كبيرة من الروهيبنول في أنسجة إحدى الفتاتين اللتين عُثر عليهما في موودري"

"وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللتين عُثر عليهما في غرف نوم الطابق الثاني في سالت – سوفلت".

"نعم".

كانت ذكرى حيّ قد طفت إلى السطح عندما نطق لو باسم الطائر

غابة شمالية، مناظر جوية لشاليه يحترق، جثث هشّة مكفّنة ومرتّبة في دائرة، موظفون يرتدون بدلات رسمية، ظلال، سيارات إسعاف

"هل تذكر تنظيم سولر تامبل؟"

"الأشخاص الحمقى الذين يحترقون بأنفسهم جماعياً؟"

"نعم. توفي أربعة وستون شخصاً في أوروبا، وعشرة في كيبك"

كالصت لبقى صوتي هادئاً.

"تعرضت بعض تلك الشاليهات إلى شجومات وحرائق".

"نعم، لقد فكرت في ذلك"

"عُثر على روهيبول في كلا الموقعين. كان العديد من الضحايا قد تناولوا العقار في مواقع بوقت قصير"

توقفت عن الكلام.

"هل تظنين أن أوبنسر يسعى إلى إعادة بناء الصدأ؟"

"لا أعرف"

"أتظن أنهم يتاجرون؟"

يتاجرون تجارة بحياة البشر؟

"أظن أن هذا محتمل"

لم يتكلم أي منا لفترة طويلة.

"سأتكلم مع الأشخاص الذين حققوا في حادثة بدينة مورس (جبال لورنتيان).

حالما سأقوم بإزعاج توم لوبنسر كثيراً"

"هناك المزيد"

أصدر الهاتف صوتاً

"هل تصغي؟"

"نعم"

"قتل ويسب أن مارالين قد توفيتا قبل ثلاثة إلى أربعة أسابيع".

بدا صوت نفسي عالياً في السماعة.

"وقع حريق سانت - جوفايت في العاشر من آذار، وغداً هو أول يوم في الشهر"

أصغيت إلى همهمة حين كلانا رايان يقوم بالحساب.

"يا الله. قبل ثلاثة أسابيع"

"ينتابني شعور بأن شيئاً ربما سيقع يا رايان"

"فهمت ذلك".

سمعت صمتة خط هاتفي.

عندما أستعيد ما جرى آنذاك ينتابني دائماً شعور بأن الأحداث تسارعت بعد تلك المقابلة، إذ أصبحت أكثر إثارة، وشكّلت في النهاية ملتفاً دوّامة تسحب كل شيء إليها، بمن فيهم أنا.

تلك الأمسية، حسبت حين رأيت هاجر، وكذلك هاردوي الذي اتصل عندما كنت أسحب تقريره عن التشريح من الملف.

قلت له إنها هي الجثة التي عُثر عليها تحت سطح الأرض مباشرة، والقبور الأخرى في الأسفل

قال: "تلك فتاة. كانت في الخامسة والعشرين من عمرها".

"هل عرفتم هويتها؟"

"استطعنا رفع بصمة واحدة واضحة. لم نحصل على شيء من ملفات الشرطة المحلية أو شرطة الولاية، لذا أرسلوها إلى مكتب التحقيقات الاتحادي. لا شيء في برنامجهم الآلي لتحديد هوية صاحبة البصمة

شعرت بغرابة. لا أدري ما الذي جعلني أقوم بسؤاله ربما لأنني أعرف أنك تعملين هناك. عندما اقترح الرجل في مكتب التحقيقات أن نتصل بالخيّالة الملكية الكندية، لفت ما قاله من تلك اللحظة عليّ إن لم يعنِ أنها كندية"

"ماذا اكتشفت غير ذلك عنها؟"

"انتظري"

سمعت صرير نوابض، ثم خشخشة ورقة

"وصلتني المعلومات في وقت متأخر اليوم. الاسم جنيفر كالوند من العرق الأبيض، يبلغ طولها خمس أقدام وخمس بوصات، وتزن نحو مئة وثلاثين رطلاً، شعرها بني، وعيناها خضراوان، وعمرها، آخر مرة شوهدت فيها حية عند الحياة..". توقف عن الكلام قليلاً وهو يقوم بالحساب " قبل سنتين وثلاثة شهور".

"من أين هي؟".

"أين" توقف عن الكلام قليلاً "من كالغاري. أين هي؟"

"في الغرب. من أبلغ عن اختفائها؟"

"سيلفيا كالوند. العنوان في كالغاري هذا لا بد أنها والدتها"

رددت هاردوي برقم جهاز النداء الخاص بروايان، وطلبت منه الاتصال به.
"عندما تتكلم معه، اطلب منه الاتصال بي من فضلك. إن لم يحدث هذا فسأكون في المنزل"

وصببت عظام موراسوي في علبة وأغلقتها، ثم وضعت في حقيبتي قرصاً مضغوطاً وتقارير البحث، وتقرير التشريح والصور من هاردوي، وتقرير عن الطب الشرعي وأغلقت المختبر، ثم غادرت.

كان الحرم الجامعي هادئاً، والليل ساكناً ورطباً، لو دققت في ضوء أوانه كما سيدعوه صديقي، الرصد الجوي. كان الهواء يعبق برائحة العشب الذي تم جزه حديثاً، والمطر عشبي وشك أن يهطل. سحبت نفساً عميقاً أرخت بعده، وتخيلت العاصفة تنتقل من سوكيه إلى بيغموس

في طريقي إلى المنزل توقفت للحصول على وجبة سريعة من مشرب سليولين. كان ازدحام ما بعد ساعات العمل قد خف، ومجموعة الشبان من كلية كونكورديا لم تصل بعد لتشغل المكان. ذلك المساء كان سوزي الإيرلندي الأحمر وأحد المالكين، يجلس على كرسيه المعتاد في الزاوية كالمعتاد وهو يعبّر عن آرائه في الرياضة والسياسة، في حين كان ميل الطاهي يوزع علبه شرائح الشعير. أراد سوزي أن يناقش عقوبة الإعدام، لم أشأ أن يعبر عن رأيه في عقوبة الإعدام لكني لم أكن بمزاج جيد للجدال. لذا، أنهيت شطيرة اللحم مع الحمص وغادرت بسرعة.

كانت القطرات الأولى تنقر على كتفي حينما وضعت المفتاح في قفل المحل. لم يرحب بي شيء سوى تكتكة ساعة منتظمة.

وكانت الساعة نحو العاشرة عندما اتصل رايان.

لم تكن سيلفي كاموف قد عاشت في المكان الذي حددته في تقرير اختفاء شخص منذ سنتين، أو في المكان الذي يحمل مكتب البريد رسائلها إليه.

لم يتذكر الجيران في المكان الذي حدده العنوان الأول روحها وإنما فتاة واحدة فقط، وصفوا سيلفي بأنها هادئة وتؤثر الوحدة، ومنعزلة. لم يكن أحد يعرف أين عملت من قبل، أو إلى أين مضت. تقول إحدى النساء إنه ما شقيقاً في المنطقة، وكانت شرطة كاليفورني تحاول العثور عليها

لاحقاً، استلقيت على السرير في الأعلى تحت الأفاريز، وأصغيت السمع إلى المطر الذي ينقر على السطح والأوراق، مع الوابل وقصف الرعد، وبين الحين والآخر أضاء وميض مصر شكرد كأنه مروحة السقف تدفع إلى الداخل ضباباً بارداً، ومعه رائحة البتونيا (نبات أمريكي من الفصيلة الباذنجانية ذو أزهار قمعية الشكل) وراء النافذة الشبكية.

أعشق العواصف، وأحب عرض القوة الذي تقوم به حركة السوائل، مشهد الكهربائي، الصوت، الطبيعة الأم تبسط سلطانها والجميع ينتظر أن تهدأ.

استمتعت بالعرض أطول مدة ممكنة، ثم نهضت ومشيت إلى النافذة. كانت الستارة رطبة والماء يتجمع أسفلها على حافة النافذة. أحكمت إغلاق مصراع النافذة الأيسر، ثم تمسكت بالأيمن وتنفست بعمق. أثار مزيج المطر والرعد فيضاناً من ذكريات الطفولة في ذهني. ليالي الصيف المعتمرات ملتهبة، النوم مع هاري على شرفة جدتي.

قلت لنفسي فكّري في هذا. أصغي إلى تلك الذكريات، لا إلى أصوات الموتى التي تصرخ في دماغك.

وميض ضوء وتجمّد نفسي في حلقي. هل كان هناك شيء يتحرك تحت الموشح؟

صفر وميض آخر. حدقت، لكن الشجيرات بدت ساكنة ولا أثر هناك لمخلوق.

هل تخيلت ذلك؟

تحسست عيناي في الظلام لكنني لم أرَ سوى مرج ووشيع لمحظر، والأرصفة شاحبة، وبتورتها باهتة في ظل أشجار الصنوبر والظلال. لم يتحرك شيء.

مجدداً، وميض الضوء ومزّق صوت حاد سكون الليل.

انعكس شكل جسم من بين الشجيرات وجرى مسرعاً فوق المرج. كافحت لأتمكن من رؤيته، لكن الصورة اختفت قبل أن تستطيع عيناي التركيز عليها.

خفق قلبي بقوة وضرب مثلث في حنجرتي. فتحت مصراع النافذة، واستندت إلى الباب الشبكي وأنا أنظر إلى الظلام. حيث كان ذلك الشيء قد مضى. بلل الماء وجهي، وانتشرت تقع على كل جسدي.

نظرت إلى كل أنحاء الساحة، وأنا أرتعش. ولكن السكون كان مسيطراً بسبب العاصفة، وسمعت وأسرعت مقشعرة حتى السلالم. كنت على وشك أن أفتح الباب خلفي عندما رنّ الهاتف الذي جعل قلبي يقفز إلى حلقي

آه يا الله، ما الأمر الآن؟

رفعت السماعة.

"آسف، أنا آسفة".

نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى الواحدة وأربعين دقيقة. ماذا كانت جدتي تفعل؟

"لا بد أنه قد دخل إلى هناك يوم الأربعاء عندما خرجت لتلقي على عملاء. إنه هارب، كما تعرفين. فتحت إليه منذ قليل لأتفقد صحة أشياء حالته في أثناء العاصفة وما إلى ذلك، فاندفع إلى الخارج مادحه. لكنه ولّى الأدبار. ظننت أنك تودّين أن تعرفي"

ألقيت السمّاعة من يدي، وفتحت باب المطبخ، ثم اندفعت إلى الخارج

ناديت. "تعال إلى هنا يا بودي. تعال أيها القط"

مشيت إلى الساحة، وخلال ثوانٍ تبلل شعري والتصق رداء نومي بي مثل منديل ورقي رطب.

"بودي! هل أنت هنالك؟".

لمع البرق فأضاء الأرصفة والشجيرات والحدائق والأبنية

صرخت "بودي. بودي!"

فدرت فظللت أنظر عبر الأمر وأرتطم بالورق فوق رأسي

صرخت مجدداً، لكن لم يكن هناك رد

مراراً وتكراراً ناديت اسمه، مثل امرأة مجنونة تسير حافية القدمين في أرجاء قصر شابرل. بعد وقت قصير أصبحت أرتعش على نحو لا يمكن السيطرة عليه. ثم رأيته

كان يجثم تحت شجرة ورأسه إلى الأسفل، فيما أذناه إلى الأمام بزاوية غريبة. كان وبره رطباً ولامعاً، ويكشف عن أشرطة من جلد شاحب، مثل شقوق في لوحة قديمة

مشيت إليه وسحبت المرحاض. كان يبدو وكأنه سيغرق في حوض استحمام ثم تدحرج على الأرض صافقاً رأسه وظهره إلى صوبي، وشظايا من حطام الشعر، وقطع صغيرة من البالات

قلت بصوت خافت وأنا أمد ذراعيّ نحوه "بودي؟"

رفع رأسه وأمعن النظر إليّ وعيني معتمتين كأرجلي صغراوين. لمع البول، فهمس بودي، وقوّس ظهره، وأصدر صوت مياو

أدرت راحتي كفيّ إلى الأعلى، وهمست "تعال إلى هنا يا بودي"

تردد، ثم مشى نحوي، مسح جسده جانبياً بفخذي وكرر مياو

رحت أحضنه، وضممته إلى صدري ثم أسرعت به إلى المطبخ. وضع بودي قائمتيه الأماميتين فوق كتفي ودفع عنقه نحوي، مثل قرد صغير يتعلق بأمه. شعرت ببلله عبر رداء نومي الذي بلله المطر

وبعد عشر دقائق كنت قد ألقيت بعلبة طعامي، وبر أبيض عدة مناشف وطار في منواها إلى المرة الأولى التي لم تصدر منها احتجاج.

التهم بودي وعاءً من سالمون ذهبي (طعام كلاب وقطط) وطبقاً من الشاي باقتسالا، ثم حملته إلى الطابق الثاني ووضعته في السرير. تكور تحت الأغطية ومدّ كامل جسده على طول ساقي. سمعت جسمه يتمدد ثم يسترخي عند مدّ قوائمه، ثم استقر على الفراش. كان وبره لا يزال رطباً لكني لم آبه لذلك فقد استعدت قطي.

قلت في الظلام: "أحبك يا بودي"

ونمت على أصوات خرخرة القط وهطول المطر.

25

كان اليوم التالي يوم السبت، ولما لم أذهب إلى الجامعة، خططت لقراءة تقرير هارجلوي، ثم كتابة تقريريَّ عن ضحيتي موورتري، وبعد ذلك كنت سأشتري ورودًا من مركز الحديقة وأزرعها في قدور فخارية كبيرة أحتفظ بها في فناء شاليه، إذ كانت البستنة إحدى مهاراتي الجديدة. ثم سأتكلم مطولاً مع كيتي، وأمضي وقتًا ممتعًا بمسح قطي، وأمعن في صور التصوير الطبقي المحوري، وأمضي الأمسية مع إيرانيث بيكوب.

ولكن، لم تجرِ الرياح بما تشتهي السفن.

فعندما استيقظت كان بوردي قد اختفى. ناديت اسمه لكني لم ألقَ جوابًا، لذا ارتديت سروالاً قصيرًا وقميصًا تائيًا ونزلت إلى الأسفل لأبحث عنه. كان العثور عليه سهلاً، حيث كان قد أفرغ طبقه ونام في بقعة يغمرها ضوء الشمس على الأريكة في غرفة المعيشة.

كان القط يستلقي على ظهره، ويبسط قائمتيه الخلفيتين، ويضع كفي قائمتيه الأماميتين على صدره. راقبته لحظة وأنا أبتسم مثل طفل في صبيحة الميلاد، ثم ذهبت إلى المطبخ، وحضّرت قهوة وفطورًا، وأتيت بصحيفة أوبزرفر، وجلست إلى طاولة المطبخ.

عُثر على زوجة طبيب مطعونة حتى الموت في منزلها بمايرز. كما هاجم كلب طفلاً، ويطالب الوالدان بقتل الحيوان، فيما كان الثلث ساخطًا من ذلك. فاز هورنتس على غولدن ستيت 101-87.

تفقّدت الطقس وكان مشمساً ودرجة الحرارة المتوقعة تصل إلى سبعين درجة فهرنهايت في تشارلوت. ألقيت نظرة خاطفة على درجات الحرارة في العالم، وكان الساحل قد ارتفع يوم الجمعة إلى ثماني وثمانين درجة في مونتريال. هناك سبب لاحتفاء الكنديين بأنفسهم.

قرأت الصحيفة كلها بما في ذلك الافتتاحية، والإعلانات، ونشرات الأدوية. إنها عادة نهاية الأسبوع التي أستمتع بها، لكني كنت قد توقفت عن ذلك في الأسابيع القليلة الماضية. شربت كل كلمة مطبوعة مثل مدمن في محنة.

عندما أنهيت قراءة الجريدة، رفعت كل شيء عن الطاولة وسحبت عندئذ كدس صور التشريح لـ بسدري ووضعت القرص هارملوي أمامي. سحبت قلمي لدى كتابتي الملاحظة الأولى. نهضت وذهبت إلى غرفة المعيشة لأعثر على آخر.

عندما رأيت الشكل على الشرفة الأمامية ازداد خفقان قلبي قليلاً. إذا لم تكن لدي فكرة عمّن يكون أو عمّا من يقف هناك.

استدار الشخص، ومشى على طول الجدار الخارجي ثم انحنى نحو النافذة. التقت عيوننا وحدّقت غير مصدّقة.

مباشرة مشيت نحو الباب وفتحته.

كانت تقف وهي تدفع وركيها إلى الأمام، ويداها تمسكان بحزام حقيبة ظهر، وحقيبة تتورقا تلتف حول كتفها. وأضاءت شمس الصباح شعرها، فظهرت هالة نحاسية حول رأسها.

أنها العادي. كما فكّرت. ماذا الآن؟

تكلمت كاترين أولاً.

"تريد أن أتكلم أنا."

"تصبح طبعاً. تصبحين". تراجعت إلى الخلف ومددت يدي "دعيني آخذ حقيبتك".

دخلت المنزل، ورفعت الحقيبة عن كتفها، وألقتها على الأرض، من دون أن تفارق عيناها وجهي.

"أعرف أن الوضع سخيف، وأنا "

"كاثرين، لا تكوني سخيفة. أنا سعيدة لرؤيتك. فرحت كثيراً إلى درجة أن ذهني قد توقف عن التفكير لثانية"

افترقت شفتاها لكن لم تخرج كلمات منهما.

"هل تودين تناول شيء؟"

كان الجواب واضحاً على وجهها

وضعت ذراعي حولها وأخذتها إلى طاولة المطبخ، فاستلت الخروج. كانت الصحون والفطور على جانب الطاولة وسحبتها لتجلس على كرسي

وبينما كنت أسخّن الفطور ووضع عليها حبة بيض، وأسكب عصير برتقال، كنت ألحظ النظرات إلي وإلى... حدقت كاثرين إلى غطاء الطاولة، وبدا لها كأنها تتحدث إلى وجوه غير موجودة على قطعة قماش مخرّمة وضعتها أمامها. حركت أصابعها الهاشة ثم مسدتها، وشدّت كل زاوية ورتّبتها بالتوازي مع الأخرى.

كنت أشعر بانقباض بسيط في معدتي. كيف وصلت إلى هنا؟ هل هربت من كارل؟ أحجمت عن طرح الأسئلة حتى كانت تأكل.

عندما أنهت كاثرين طعامها واحتست شرابها، رفعتُ الأطباق وانضممت إليها مجدداً إلى الطاولة

"إذاً كيف وصلتِ؟". ربتُّ على يدها وابتسمت لتشجيعها.

"أعطاني بطاقتك" أخرجتها من جيبها ووضعتها على الطاولة ثم عادت أصابعها إلى قطعة القماش المخرّمة. "طلبت الرقم في بيوريت عدة مرات، لكنك لم تكوني هناك. أخيراً رد رجل وقال إنك ذهبت إلى شارلوت"

"ذلك سام رايبورن. جد كنت أمكث على مركبه"

"على كل حال، قررت مفاجأة بيوريت" رفعت عيناها لتنظر إلى عينيّ ثم أشاحت ببصرها بسرعة. "جئت إلى هنا وذهبت إلى الجامعة، لكنّ الأمر تطلب وقتاً أطول مما كنت أظن. عندما وصلت إلى الحرم الجامعي كنت قد غادرته. التقيت امرأة أقلّتني هذا الصباح إلى هنا في طريقها إلى العمل"

"كيف عرفت أين أعيش؟".

"بحثتُ عن العنوان في كتاب من نوع ما"

"فهمت" كنت واثقة أن عنوان منزلي ليس مدرجاً في دليل الكلية.

"حسنٌ، أنا سعيدة لرؤيتك هنا"

أومأت كاثرين وقد بدت مرهقة. كانت عيناها حمراوين، وهلال داكن يبرز تحت كلٍّ من جفنيها.

"كنت سأحاول الاتصال بك لكنك لم تتركي رقماً. عندما رنّ والخط رنين المزرعة يوم الثلاثاء لم تردّ"

"كنت هناك، لكن." تلاشى صوتها

انتظرت.

ظهر بيودي عند الباب ثم تراجع بعد أن شعر بالتوتر. دقّت الساعة الجدارية معلنة انتصاف الظهر. كانت أصابع كاثرين تمسّ على قطعة القماش المطرّزة

أمومةً لم أعد أتحمّل الوضع.

"كاثرين، أين كارل؟" وضعت يديّ على يديها.

رفعت عينيها إلى عينيّ فبدتا غائرتين.

"إنهم يعتنون به" كان صوتها خافتاً، مثل طفل يجيب على المعلم.

"من؟"

سحبت يديها من تحت يديّ، ووضعت مرفقيها على الطاولة وفركت بأطراف أصابعها صدغيها. عادت عيناها إلى قطعة القماش المطرّزة.

"هل كارل في مستشفى عقلية؟"

كلمة أخرى

"هل تريدين أن تتركيه هناك؟"

هزّت رأسها وترنّحت يداها إلى الأعلى، وضغطت براحتيها على صدغيها.

"هل الطفل بخير؟"

"إنه ابن أخي طفلي؟".

فاسألني هنيهة بمرها.

"يمكنني الاعتناء به" عندما رفعت رأسها تلألأت دمعة على كل وجنة.

سلكت عيناها إلى عينيّ.

"من يقول إنك لا تستطيعين ذلك".

"أن أمه" ارتعش صوتها. ما السبب؟ إرهاق؟ خوف؟ أسية؟

"من يعتني بكارلي؟".

"نكس، ماذا إن كنت على خطأ؟ ماذا إن كان ذلك صحيحاً؟". عاد بصرها إلى غطاء الطاولة.

"ماذا إن كان ذلك صحيحاً؟"

"أحب ابني، وأريد الاعتناء به"

لم تكن إجابات كاثرين على علاقة بأسئلتي. كانت تسبر أعماقاً بعيدة في داخلها، وتعمل على معالجة مخاوف لديها، لكن هذه المرة في مطبخي.

"بالطبع يرعبني ذلك"

"لا أريد أن يموت طفلي" ارتعشت أصابعها عندما ربت على شرائب قطعة القماش المطرّزة. كانت تلك الحركة نفسها التي رأيتها تستعملها لتربت على رأس كارلي.

سألت وأنا أشعر بالخوف "هل كارلي مريض؟"

"لا، إنه على خير ما يرام" كانت الكلمات لا تكاد تُسمع، وسالت دمعة على قطعة القماش المطرّزة.

نظرت إلى البقعة الصغيرة الداكنة، وشعرت بأنني حمقاء تماماً.

"كاثرين، لا أعرف كيف أساعدك. يجب أن تخبريني ما الذي يجري"

رنّ الهاتف، لكنني تجاهلته. سمعت صوته من الغرفة الأخرى، ثم رسالتي، ثم صوت بيب تبعه صوت شخص، ثم سرعة من الطقطقة، ثم حلّ الصمت.

لم تتحرك كاثرين، بل بدت مشغولة بالأفكار التي حلّت. وبالرغم من الصمت، إلا أنني شعرت بألمها، وانتظرت.

بدأت سبع بقع صغيرة الكتان الأزرق، أصبحت عشراً، ثم ثلاث عشرة بقعة. بعد ما بدا أنه مدة طويلة رفعت كاثرين رأسها. ومسحت وجنتيها ودفعت شعرها إلى الخلف، ثم ثنت أصابعها ووضعت يديها بهدوء وسط قطعة القماش المطرّزة لتتحدث مرتبة.

"لا أعرف ما يعنيه أن يعيش المرء حياة طبيعية" ابتسمت باستخفاف. "حتى هذه السنة لم أكن أعرف أنني لا أعيش حياة طبيعية"

أصبحت بصرها.

"الطبيب لن تحدث صلاقة بتفاهي كارل. لم أشكك قط في أي شيء من أن يولد. لم يخطر لي قط أن أطرح أسئلة. خفيت سمعي في سنزل؛ لذا ما أعرفه – ". الابتسامة جمدت. "ما نعرفه عن العالم محدود". فكرت لحظة. "ما أعرفه عن العالم هو ما يريدون هم أن أعرفه".

"فهماً".

شبكت يديها بقوة كبيرة حتى أصبحت ملامسها بيضاء.

"لا يمكنك أن ستكلم لبنأ عن قصايا تخص جماعتنا". ابتلعت ريقها. "إنهم أسرتي، وهم عائلتي منذ أن كنت في الخامسة من عمري. كان والدي ومستشاري ومعلمي و –".

"توم لويسون؟".

ارتفعت عيناها بسرعة نحو عيني. "إنه رجل ذكي، يعرف كل شيء عن الصحة والإنتاج والتطور والسلوك وطريقة الحفاظ على توازن القوى الروحية والإحيائية والكونية. يرى أشياء لا يعلم بقية شيئاً عنها ويفهمها. الأمر لا يتعلق بلوم فأنا أتى به، ولن يؤدي أبداً كلوي. إنه يعمل ما يلزم لحمايتنا، ورعايتنا. أنا فقط لست واثقة –".

أغلقت عينيها ورفعت رأسها إلى الأعلى. برز شريان صغير في جانب عنقها، وارتفعت حنجرتها وانخفضت، ثم سحبت نفساً عميقاً وأحكمت ذاتها، ونظرت مباشرة إلى عيني.

"تلك الفتاة التي كنتم تبحثون عنها. كانت هناك".

كنت أصغي بصعوبة.

"هايدي شنايدر؟".

"لم أعرف قط اسمها؟".

"أتعرفين متى تذكرين عنها؟"

"استضفت هايدي إلينا من مكان آخر. تكسلتر على ما أظن. عاشت في ساتت هينا نحو ستين. إنها أكبر مني لكني أحببتها لأني كنت أستطيع التحدث إليها أو طلب مساعدتها حينما أشاء. كانت لطيفة". توقفت عن الكلام قليلاً. "كان يُعرض هايدي أن تُسحب من جسود."

"ماذا؟" ظننت أن ما سمعته غير صحيح

"كانت جيمور شريكتها في الإنجاب، لكنها كانت تحب ريانا، الرجل الذي كانت معه عندما انقطعت إليه. إنه الشخص الذي يظهر في صورتكم"

"ريانا جيمور" شعرت بأن فمي يجف.

"على كل حال، كانت تعيش مع ريانا خروج مدرحة بيكون معاً" شردت عيناها إلى مكان ما بعيد. "عندما اكتشفت عائلتي أنني حامل أصيبت بالهلع، لأنه لن يتم الاحتفال الذي تقاسي حوله العصر. حاولت إخفاء الأمر، لكنهم في النهاية اكتشفوه"

"لويسرز؟"

ركزت عيناها على عينيّ مجدداً ورأيت خوفاً حقيقياً فيهما

"لا يهم أثر ذلك في المجمع"

"ما هو ذلك الشيء؟"

"السلام" فركت راحتيها على قطعة القماش المطرّزة ثم شبكت يديها من جديد "هناك أشياء لا يمكنني أن أتكلم عنها هل تريدين سماع ذلك معاً؟". نظرت إليّ ورأيت في عينيها بحاراً تسرقها الدموع مجدداً

"تابعي"

"في أحد الأيام لم تشارك ريانا وعائلتي في اجتماع الصباح، كانا قد رحلا"

"إلى أين؟".

"لا أدري".

"هل تظنين أن لويسر قد أرسل شخصاً ليعثر عليهما؟"

التفتت عيناها إلى النافذة وعضت على شفتها السفلى

"هناك المزيد. في إحدى ليالي الخريف الماضي اتصلت كارلي مسرعةً، فقد نزلت إلى الطابق الأرضي لأطلب منه حبيباً سمعت حركة في مكتبه ثم امرأة تتكلم بصوت شديد وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد. لا بد أنها كانت تستخدم الهاتف".

"هل عرفت صوتها؟"

"نعم، كانت إحدى النساء اللواتي يعملن في المكتب"

"ماذا قالت؟"

"كانت تخبر أحداً أن شخصاً آخر تخبره. لم أقف هناك لأسمع المزيد".

"تابعي"

"قبل نحو ثلاثة أسابيع حدث الشيء نفسه، إلا أنني سمعت هذه المرة شخصين يتجادلان. كانا غاضبين جداً، لكن الباب كان مغلقاً، حتى لم أتبين كلماتهما. كانا دوم وتلك المرأة نفسها".

مسحت دمعة عن وجنتها متظاهرة بالهدوء، ولم تنظر بالرغم من ذلك إليّ.

"في اليوم التالي كانت قد رحلت ولم أرها مجدداً قط. كانت معه امرأة أخرى وقد اعتقدنا ببساطة"

"أليس غريباً أحراراً في الانضمام إلى المجموعة والخروج منها؟"

ثبتت عينيها على عينيّ

"كانت تعمل في المكتب، وأظن أنها كانت تجيب على المكالمات التي سألتم عنها" كان في مقدوري رؤية صدرها يرتفع وينخفض حين كانت تحاول حبس دموعها. "كانت صديقة هايدي الحميمة".

شعرت بعنقي تنكمش. "هل كان اسمها جينيفر؟"

أومأت كاثرين

سحبت نفساً عميقاً. حافظي على هدوئك من أجلي كاثرين "من كانت المرأة الأخرى؟"

"لست واثقة. لم تمكث هناك وقتاً طويلاً مطلقاً، ربما كان اسمها أليس، أو آن"

خفق قلبي بقوة. آه يا الله. لا

"هل تعرفين من أين جاءت؟"

"من مكان ما في الشمال. لا، ربما من أوروبا. أحياناً كانت وجيمي تتكلمان بلغة مختلفة"

"هل تظنين أن دوم لوينز أمر بقتل هايدي وطفليها؟ ألهذا السبب أنت خائفة على كارلي؟"

"أنت لا تهتمين. هـذا ليس من شيم هوم. إنه يحاول خداعك ورعايتك"
تمسكت بي بإصرار، كأنها تحاول الوصول إلى ما يجول داخل رأسي. "هوم لا يقتل شخص ما ببساطة. إنه يحاول تخليصنا من اعتلائك"
كـان صوتها يرتجف وخانت قصير يفصل بين كلماتها. وقفت ثم مشيت إلى النافذة.
"إنهم الآخرون، إنما هي هوم يريد أن نعيش هنيئاً"
"من؟".
تحسست كاثرين في وجهه تطلع على حيوان حبيس في قفص، وأصابعها التي مقدمة قميصي الفضي، فيما سالت الدموع على وجهها.
"لكــن، ليـس الأمر مألوف لا يزال مبكراً. لا يمكن أن يحدث ذلك الآن"
كان صوتها فيه توسّل
"ما الذي لا يزال مبكراً؟".
"مــاذا إن كانوا على خطأ؟ ماذا إن لم يكن هناك طاقة كونية كافية؟ ماذا إن لم يكن هناك شيء في تلك المكانة؟ ماذا إن مات كارل؟ ماذا إن مت مثلي؟"
إرهاق، وقلق، وشعور بالذنب تزداد تأثير تلك الخريج والخلف. كاثرين تبكي على نحو لا يمكن التحكم به بصفة مشوشة وتحركت أني لن أعرف شيئاً إضافياً.
مشيت إليها وعانقتها بذراعي.
"كاثرين، أنت بحاجة إلى الراحة. لوجودك معاً، ودعيني بعض الوقت. سنتكلم لاحقاً"
أصـدرت صـوتاً لم أستـطع تفسيره، وسحبت في يدي الوحدة صعوداً على السلالم إلى غرفة الضيوف. أخرجت مناشف وســرت إلى الرجعة لأن عينيها وعندما عدت، كانت مستلقية على السرير، وإحدى ذراعيها على عينيها، وعيناها مغلقتان، ودموعها تبلل الشعر على صدغيها.
تــركت حقيبة على حزمة ملابس وأطفأت مصباحي النافذة وبينما كنت أغلق الباب تكلمت برقة، وعيناها مغلقتان، وشفتاها بالكاد تتحركان.
أخافني كلامها أكثر من أي شيء كنت قد سمعته منذ وقت طويل

26

"سيدة سالمة؟ كانت تلك كلماتك بالتحديد؟"

"نعم". أمسكت السمّاعة بقوة بل درجة أنني شعرت بألم في أوتار معصمي.

"كرري لي ذلك مجدداً".

"ماذا لو نضجوا، وتركوها صعصوم؟ ماذا لو حرمت كثيري من حياة مطلقة؟"

انتظرت ريثما كان ريد يفكّر في كلمات كاثرين. عندما نقلت السمّاعة إلى اليد الأخرى رأيت شكلاً حيث كانت راحة كفي قد تعرّقت على البلاستيك.

"لا أعرف يا تُمب. إنه سؤال صعب. كيف يمكن أن نعرف متى ستنطلق جماعة إلى العنف؟ بعض تلك الحركات الدينية الفاشية تنمو بسرعة كبيرة، في حين أن بعضها الآخر مسالم".

"ألا يوجد ضامنون؟"

ماذا لو مات طفلي؟

"هناك عدد من العوامل التي تتعدى على صعب. أولاً، هناك الجماعة نفسها: معتقداتها وطقوسها، وتنظيمها والطبع القائد. ثم هناك القوى الخارجية، والعدائية التي تواجهها الأعضاء، ورصد العار التي يلحقها بها المجتمع وسوء معاملة. قد لا يكون ذلك حقيقياً. يمكن مضايقات بسيطة أن تدفع منظمة لتبنّي العنف".

إنه يريد فقط تخليصنا من القلق.

"ما مدى دفع المعتقدات على منع حدث الجماعات إلى تجاوز الخط الأحمر؟"

"هذا ما يهمني بشأن الشابة لديك. يبدو أننا نتكلم عن رحلة، عن الذهاب إلى مكان ما لنعيش حياة سرمدية. يبدو ذلك مأخوذاً من العهد القديم".

إنه يحاول حمايتنا وحمايتها

"نهاية العالم"

"تماماً. الأيام الأخيرة، صراع بين الخير والشر"

"ذلك ليس بجديد. لماذا تشجع جماعة تستمد معتقداتها من العهد القديم على العنف؟ لماذا لا تنزوي عن الأنظار وتنتظر؟"

"لا شيء يهمني. إنها لا تفعل ذلك دائماً. لكنّ هذه الجماعات تعتقد أن الأيام الأخيرة وشيكة، وترى أن لها دوراً أساسياً في الأحداث التي ستقع قريباً. إنهم المحاربون الذين سيبنون النظام الجديد".

كانت خائفة لأنه لن يهتم بالاحتفال العميق بمولد الطفل.

"إذاً، ما يتطور هو نوع من الثنائية (مذهب يقول إن الكون خاضع لمبدأين متعارضين هما الخير والشر) في تفكيرهم. إنهم صالحون، وكل الآخرين فاسدون لا أمل لرجعى منهم، ويفتقرون تماماً إلى الفضائل الأخلاقية"

"أنت محق تماماً"

"تماماً. وفقاً لتلك الرؤى، فإن الأيام الأخيرة ستكون مميزة بالعنف. تعمل بعض الجماعات لأجل ذلك. لذا، فهي تخزن الأسلحة، وتقيم أنظمة مراقبة دقيقة ضد النظام الاجتماعي الشرير الذي يحاول النيل منها، وضد كل ما تعتبره تهديداً حقيقياً"

دوم لا يثق بعموم الشخص ما يخلصه

"معتقدات العهد القديم يمكن أن تتطور بسرعة إذا تمثلت في قائد يتمتع بشخصية قوية"

"تابع"

"كما عرفت فإن إحدى المشاكل مع شخص يعتبر نفسه نبياً هي أن عليه التنبؤ بأشياء مسموعة باستمرار. ليس هناك دعم شرعي لسلطته الطويلة الأمد، أو قيود شرعية على سلوكه. القائد يدير العرض، لكن فقط طالما كان أتباعه يطيعونه. لذا، يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يتطوروا بسرعة كبيرة، ويمكن أن يتمردوا على من هم تحت غطاء سلطتهم.

يـرد بعـض هؤلاء المصابين بعتوه الارتياب على تهديدات محتملة لسلطتهم بالـتحول إلى حالة قتالية. ويطالبون على نحو متزايد بتنفيذ أشياء غريبة، ويصرّون على إذعان أتباعهم لهم بتأكيد ولائهم"

"مثل ماذا؟".

"أجـرى جـيم جونـز اختبارات كما دعاها. كان يتم إرغام أعضاء مجلس التخطيط على توقيع اعترافات أو التعرض للإذلال علناً لإثبات ولائهم. وكانت إحدى الشعائر تتطلب من المشاركين شرب سوائل غير معروفة وعندما يقال له إنها سم، كان يُفترض بالشخص الذي يخضع للاختبار ألا يخاف"

"جميل".

"كما أن شيع التقنية القاصمة أحد الخيارات. يقال إن قيادة سهاب طلب من بعض الأعضاء الرجال إجراء تلك الجراحة"

شريكها في الإنجاب كان سيسوك.

"ماذا عن ترتيب حالات الزواج؟"

"جـونـز وداكاسـو، جـيم جونـز، ديفيد كوريش، تشارلز مانسون استخدموا جميعاً التزويج الإجباري. الخصوصية غير مهمة قط. عندما يُبرم قائد أتباعه بالتقيد بالوعد فإنه يحطم عوضاً عن ذلك تماسكهم. في غاية النطاق قد يعـوّدهم هـذا الشعور بعملاق لإنجاد سلوك غريبة على فكرة الحب. في البداية، يكون المطلوب منهم القيام بأفعال ورع صغيرة، وإنجاز طلبات تبدو غير مؤذية مثل تسريحة شعر أو تأمل عند منتصف الليل. لاحقاً قد يصبح مطالبه أكثر خطورة".

"يبدو الأمر مثل تعظيم الخنوع"

"أحسنت قولاً. تحمل العملية فائدة أخرى للقائد إذ يجد الأقل التزاماً لأنهم يساءلون ويرحلون"

"حسـنٌ لاسلس نفسك هذه الحرمات الغاشية التي تعيش حياة يسكنها عـول مـن. ما الذي يجعلها تلجأ إلى العنف في وقت محدد؟ لماذا اليوم وليس في الشهر القادم؟".

الوقت لا يزال مبكراً. لا يمكن أن يحدث ذلك الآن

"معظم بدايات أعمال العنف تقتضي ما يدعوه علماء الاجتماع زيادة حدّة التوتر."

"لا تسمعني رطانة يا ريك".

"حسناً. تتم هذه الصراعات المتشابهة عادة ببطء. تجنيد أعضاء، والجماعة حولهم. لكن، إن شعر القائد بتهديد تتغير الأولويات بشكل حاد. أحياناً يتوقف التجنيد ويتم فرض رقابة صارمة على الأعضاء. وقد تشتد المطالبة بالالتزام بالقواعد الخارجة عن المألوف، وربما يصبح سيناريو الهلاك أكثر وضوحاً. يمكن أن تصبح الجماعة أكثر عزلة وتشككاً، وتزداد علاقاتها توتراً مع المجتمع المحيط بها، أو مع الحكومة، أو مع أجهزة تطبيق القانون."

"ما الذي قد يهدد هؤلاء المصابين بجنون الارتياب؟"

"عضو يرحل ويعتبرونه منشقاً".

استيقظنا وكان برايان وهايدي قد رحلا

"لقد يشعر القائد أنه يفقد السيطرة على أتباعه، أو إن كان أفراد جماعته موجودين في أكثر من مكان واحد ولا يستطيع أن يكون موجوداً على نحو دائم معهم، فقد يشعر أن سلطته تضعف في أثناء غيابه. المزيد من القلق يعني المزيد من العزلة والاستبداد. إنها خصائص ترتبط بجنون الارتياب، ثم كل ما يتطلبه الأمر بعد ذلك هو عامل خارجي ليضغط على الزناد."

"هل أي حدث يجب أن يكون الحدث الخارجي مزعجاً؟".

"تختلف الأسباب. في جونستاون لم يتطلب الأمر سوى زيارة قام بها عضو كونغرس وحاشيته الإعلامية، ومحاولتهم العودة إلى الولايات المتحدة مع مجموعة من المنشقين. أمّا في واكو فقد تطلب الأمر غارة بأسلوب عسكري قام بها مكتب الكحول والتبغ والأسلحة، ثم استخدام الغاز المسيّل للدموع واختراق الجدران من خلال استخدام مركبات مصفّحة."

"ماذا عن الاحتلال؟"

"يتعلق ذلك بالإيديولوجيا والقيادة. كانت المستعمرة في جونستاون أكثر قابلية للتفكك داخلياً من الجماعة في واكو."

شعرت ببرودة في أصابعي التي تمسك السماعة

"هل تظن أن أوينـــز لديه برنامج للصعب؟"

"إنـــه بالتأكيد يراقب ما يجري بحرص شديد. إن كان يحتجز طفل صديقتك رغم إرادتها فإن دنت بكشفت ستحصل على مذكرة تفتيش"

"لـــيس من الواضح ما إذا كانت قد وافقت على تركه هناك. إنها تتردد كثيراً في الكلام عن الجماعة. لقد رافقها هؤلاء الناس منذ أن كانت في الثامنة من عمرها. لم أر أحـــداً محبطاً على هذا النحو من قبل. لكنّ حقيقة أن جنيفر كانون كانت تعيش في مبنى أوينـــز عندما قُتلت يجب أن تفي بالغرض"

لم يتكلم أي منا لبعض الوقت.

سألت: "هل يعقل أن هايدي ورايان قد حملا أوينـــز يتصور المخطط الأخير؟ هل يعقل أن يكون قد أمر شخصاً ما بقتلهما وخطفهما؟"

"ممكـــن. ولا تنسَ أنه كان يواجه بعض المشاكل الأخرى. يبدو أن جنيفر كانـــت تخفـــي أمر تلك المكالمات عن كنيته، ثم رفضت أن تقص شعراً أرادته منها أوينـــز عندما اكتشف ذلك. وبالطبع هناك أنت."

"أنا؟"

"قصـــص بيرنارد هايدي تعمل على نحو مخالف لأحكام الجماعة ثم تنفصل عن روحانه وحدث ما حدث مع جنيفر. بعد ذلك ظهرت أنت مع ريان، وهي مصادفة غريبة في ما يتعلق بالأشخاص بالقاسية".

"مثلا؟"

"كان اسم عضو الكونغرس الذي ذهب إلى جونزتاون رايان"

"وأدي يـــتوقع بما رسم منا عن ما يحدث به، ما الذي تراه في كورش الواسعة؟".

أطبق الصمت وقتاً طويلاً.

"كما كنـــت قـــد أخبرتني، ربما تنطبق أوصاف أوينـــز على قائد يتمتع بشخصـــية قوية ويعد نفسه صاحب رسالة. ويبدو أن أتباعه قد قبلوا بتلك الرؤية. وربـــما يشعر أوينـــز أنه يفقد السيطرة على أفراد جماعته، وقد يعد عمليات قتلهما إعادة لسلطته"

توقف عمداً عن الكلام.

"وكاثرين هنا تتكلم عن الانتقال إلى حياة سرمدية"

حدث يسحب نفساً عميقاً.

"بالنظر إلى كل ذلك، سأقول إن هناك احتمالاً قوياً بأن تحدث أشياء عنف"

أكسب المكالمة وتحسب جهاز هاتفه وانهار وضعنا كما أنتظر أن يتصل بسي

شدت إلى تقرير هاردواي كما قد سمعته من مطلب عندما رن الهاتف. لو أني

لم أكسر الجمر بعنق شديد لكان الأمر مسلياً. يبدو أنه كان مقدراً لي ألا أقرأ تلك

الوثيقة أبداً.

"لا بد أنك وضعت رحماً عندما كنت تجري هذا الصباح" بدا صوت رايان

متعباً.

"أفضل بأكبر حالماً لدي رافرة"

"معي أخي، فريجوري بيت (كتل)"

"صادقتي كاثرين هذا الصباح. وتقول إنها امضت الليل في جامعة كارولينا

الشمالية في تشارلوت وعثرت على عنوان الكلية"

"ليس من المصادفة أن تصبح عنوان منزلك في الدليل".

"لا أعتقد ذلك. عاشت جينفر كانون في مزرعة صاحب هيليا".

"نعم"

"سعت كاثرين مصادفة حفلاً بين جينفر ولوينس. وفي اليوم التالي اختفت

جنيفر"

"عمل جيد يا برنان".

"هناك ما هو أفضل"

أخبرته عن مكالمات جنيفر الهاتفية وصداقتها مع هيدي. فرة هي بأسلوبه

المثير

"صفعت تكلمت مع هاردواي سألت متى شوهدت جنيفر كانون على قيد

الحياة آخر مرة. أنتان لم تسألي عنه جوليس ليس في كالهاري. لم تمش جنيفر

هناك مسعد التحقت بالكلية. وهذا ملائم بقيت على اتصال وثيق بها بين ما قبل

اختفائها بوقت قصير، لم اصبحت اتصالات بينها بها أقل تواتراً، وعندما تكلمنا

كانت جنيفر تبدو حرية

اتصلت جينيفر بالمنزل في مناسبة الشكر قبل سنتين، ثم انقطعت مكالماتها. اتصلت الأم بالكلية وبأصدقاء ابنتها، وبزوجة حرم الجامعي، لكنها لم تكتشف قط إلى أين ذهبت جينيفر. كان ذلك عندما تقدمت بشكوى عن اختفائها"

"إن..؟"

سمعته يشهق نفساً عميقاً.

"شوهدت جينيفر كاتون آخر مرة وهي تغادر حرم جامعة مكغيل".

"لا".

"نعم. لم تحصل على علاماتها أو تسحب من مصروفها، بل حزمت أمتعتها ورحلت"

"حزمت أمتعتها؟"

"نعم. لهذا السبب لم تلاحق الشرطة القضية بقوة. جمعت مقتنياتها، وأغلقت حسابها المصرفي، ثم تركت ملاحظة لمالك شقتها واختفت. لم يبدُ الأمر مخططاً"

جالت صورة في ذهني، لكنني قاومت وضعها تحت المجهر. وجه شبه كلمات، وإشارة عصبية. أرغمت شفتيّ على تكوين كلمات.

"اختفت شابة أخرى من مزرعة في الوقت نفسه مع جينيفر كاتون. لم تكن كاترين تعرفها لأنها وافدة جديدة" اجتاحت رايان "قالت كاترين أن اسم الفتاة ربما يكون آن -"

"لا أفهم".

"كانت آن سويت" – صححت لنفسي – "إنها طالبة في مكغيل"

"إنه اسم شائع"

"سمعت كاترين جينيفر وهذه الفتاة تتكلمان بلغة أجنبية"

"فرنسية؟"

"لست واثقة إن كانت كاترين ستعرف الفرنسية إن سمعتها؟"

"أنت تظنين أن ضحية موريزي الأخرى قد تكون آن سويت؟"

لم أرد.

"برنان، إذا كانت فتاة اسمها آنا قد ظهرت في مناسبة هيفنا فهذا يعني أنك من طلاب مكغيل. تركت كانون دراستها قبل أكثر من سنتين. وتوفيت في التاسعة عشرة من عمرها، ولم يكن هناك أطفال."

"صحيح. لكن كل ما عدا ذلك يظل غريباً"

"لا أعرف. حتى إذا عاشت جينيفر كانون مع أوبيسر فإن هذا لا يعني أنه قتلها"

"تشاجرا، ثم اختفت وظهرت جثتها في قبر سطحي"

"ربما كانت تتعاطى المخدرات هي وصديقتها آنا. وربما اكتشف أوبيسر ذلك وطردهما. ولأنه لم يكن لديهما مكان تلجآن إليه فقد ذهبتا إلى زملاء التعاطي، أو خرجتا وهما تحملان حقيبة الممنوعات"

"هل تظن أن ذلك ما حدث؟"

"اسمعي، كل ما نعرفه حق معرفة هو أن جينيفر كانون قد غادرت مونتريال قبل سنتين وظهرت جثتها في جزيرة موريبوند. ربما صعدت ذلك الوقت مع الجماعة في مسببات هيبتها، وقد تكون تشاجرت مع أوبيسر. إذا حدث ذلك فقد تكون هذه الحقائق أو لا تكون على علاقة بوفاتها"

"إنهم واثقون تماماً من مكان وجودها في السنوات القليلة الماضية"

"نعم."

"ماذا سنفعل؟"

"أولاً، سأزور الشريف بيكر لأرى إن كان ذلك كلباً سيحصل على مذكرة تفتيش. ثم سأفحص ماراً تحت الشباب في تكساس. أريد أن أعرف كل شيء عن أوبيسر هذا، ثم سيكون علينا مراقبة المكان. نريد أن نرى لون عرق ذلك المرشد الروحي، وليس لدي وقت. مخطوبي في مونتريال يوم الأحد"

"أظن أنه محظوظ يا رايان"

أصغي السمع من دون أن يفاجئني حين كسب أوجز حديثي مع رود سكايبر وستعد لعب، ساد الصمت وقتاً طويلاً، في حين كان رايان يجمع كلمات عام الاجتماع بما كنا قد ناقشناه.

"سأتصل بكلوديل وأستفسر منه عن آنا جوست"

"شكراً رايان"
قال بصوت رزين "محبي بكاثرين".
"سامحني"
ولم أحــظ بــتلك الفرصــة. فعندما صعدت إلى الأعلى، كانت كاثرين قد
اختفت

27

قلت في الغرفة: "مرحباً"

كان سوردي قد نجح في الصعود إلى الأعلى، وجمد في مكانه عندما رأى توري. ثم أخفض رأسه وحدق إليّ بنظرة ثابتة.

"مرحباً"

لم يرد أحد.

كان ريان محقاً. لم تكن كاثرين متوازنة. كنت أعرف أنني لا أستطيع ضمان سلامتها، أو سلامة طفلها، فلماذا أشعر بالمسؤولية؟

"لقد رحلت يا برد. ماذا في مقدورك أن تفعل؟"

لم يكن لدي القصد الترحاب، هذا ما ذهب إلى أسلوبي المعتاد عندما أشعر بالقلق؛ العمل.

عدت إلى المطبخ. كان الباب مفتوحاً جزئياً، وكانت الريح قد بعثرت صور التشريح.

هل فعلت ذلك حقاً؟ كان تقرير هارمدوي حيث تركته بالضبط.

هل رأت كاثرين الصور؟ هل جعلتها أنظر المقاطع تولّي الأدبار خائفة؟

شعرت بموجة ذنب أخرى تجتاحني، ثم جلست ورتّبت كومة الصور.

كان جسد جيمبر كاثرين نظيفاً من الديدان والترسبات، وهو أفضل حالاً مما توقعت. وبالرغم من أن التحلل قد طال وجهها وأحشاءها، إلا أن الجروح كانت واضحة في اللحم المتفسخ وبهتت اللون.

كانت هناك جروح، العشرات منها، بعضها دائرية والأخرى طولية. تقلّوت أنّ أحدهما يبرع حوله عدّة مستعمرات. كانت تتجمّع قرب حنجرتها، وفي صدرها، وعلى طول ذراعيها وساقيها. رأيت في كل آخذ حصصها ما يبدو أنها حروق سطحية، لكن تعثّر الجلد حمل ملاحظة تثبت الأضرار صحيحة؛ إذ كانت تقع الأورام في كل مكان.

أمعنت النظر في عدّة صور عن قرب. وبعد كانت حواف جروح الصدر ملساء وناعمة، بدت الجروح الأخرى محزّزة وغير منتظمة. كان جرح بليغ لعظم بأعلى ذراعها اليمنى، ويكشف لحماً ممزقاً وعظماً مكسوراً.

استغرقت إلى صور الجمجمة. بالرغم من أن التسالخ قد بدأ، إلا أن معظم الشعر كان لا يزال في مكانه. الغريب أن صور الجزء الخلفي من الرأس تُظهر عظماً واضحاً غير مغطّى، وكأن قطعة من فروة الرأس مفقودة.

كنت قد رأيت ذلك النمط من قبل. أين؟

انتهيت من رؤية الصور وفتحت تقرير هاردواي.

بعد عشرين دقيقة، استرجعت إلى الخلف وأغلقت عينيّ.

السبب المحتمل للوفاة: مجهول. عامل مسبّب: مجهول. كانت حواف جروح الصدر ملساء وناتجة عن سكين. قطع عدّة شرايين رئيسية. نتيجة تحلل الجثة، لم يكن المختص بعلم الأمراض واثقاً من سبب الجروح الأخرى.

أمضيت باقي اليوم في حالة قلق، وكتبت تقريراً عن جثتي كالود وصحبه مورتسري الأخرى. ثم حولت اهتمامي إلى بيانات صور الطبقي المحوري، وبرقت بين الفينة والأخرى لأصغي السمع علّني أسمع صوت كاثري.

اتصل رايان عند الساعة الثامنة ليعرب إلى القاضي قد اقتنع بوجود صلة تجمع كالسود في الغطسة، وأنه لم يصدر مذكرة لتفتيش مزرعة سانت هيلينا. وكان هو وبكر يتجهان إلى هناك غداً بصحبة فرقة التفتيش.

أخبرته عن اختفاء كاثري، وأصغيت إلى تأكيداته بأنّ اللوم لا يقع عليّ، وأخبرته أيضاً عن بوردي.

"على الأقل هناك خبر سار".

"نعم. هل هناك أي معلومة عن آنا جونز؟".

"لا"

"تكسس؟"

"لا ربما. أنتظر. سأعلمك ما يجري هنا"

قلبت المكنسة، وشعرت بوبر يحتك بكاحلي، ونظرت إلى الأسفل لأرى بودي يلعب بمخيه بين قدمي"

"تعال يا بودي. ما رأيك ببعض الدلال؟"

قطي مولع جداً بحلوى الكلاب التي يستطيع مضغها. كنت قد شرحت له أن تلك المصاصات للكلاب، لكنه لم يقتنع بذلك.

أخرجت دمية على شكل قطعة عظم صغيرة من درج في المطبخ وجدت لها في خرطة منسية.

أسرع بودي نحو الغرفة، وقفز، ثم انقض على فريسته. عدّل وضعية جلوسه، ووضع العظمة بين قائمتيه الأماميتين وبدأ بنهشها.

راقبته وأنا أتساءل عن الإغراء الذي تمثّله قطعة عظم صغيرة.

مضغ القطعة الزاوية، ثم أثار الدمية وسحب أسنانه على طول إحدى الحواف. ركل العظمة جانباً ثم حركها بيده إلى حيث كانت وغرز نابه في الجلد.

راقبته يثبت الدمية بمخالبه.

هل كان الأمر كذلك؟

اقتربت من بودي، وجلست القرفصاء ثم سحبت الدمية منه. وضع القط مخالب قائمتيه الأماميتين على ركبتي، وقف على قائمتيه الخلفيتين، وحاول استعادة لعبته.

تسارع نبضي عندما حدقت إلى مقدمة العظمة المخرّمة.

يا الله

فكّرت في الجروح الغريبة على جسد جينيفر كارتر: خدوش سطحية، وجروح غائرة.

أسرعت إلى غرفة المعيشة وأمسكت بحقيبتي ثم عدت إلى المطبخ وبحثت في صور هارفاي. انتقيت صور الرأس وأمعنت النظر في كل منها تحت العدسة.

لم يكن الصدع نتيجة تصدّع الجثة؛ لأن بصيلات الشعر التي بقيت كانت قوية الجذور. كانت القطعة المنفصلة من الجلد والشعر مستطيلة الشكل، وحوافها ممزقة ومحزّزة.

كانت فروة رأس جينجر قد انتزعت من جمجمتها.

فكّرت في ما يعنيه ذلك، كما فكّرت في شيء آخر.

هــل كنــت عمية إلى ذلك الحد؟ هل يعقل أن ذهني الذي يحمل تصوّرات جاهزة قد أعماني عن رؤية ما هو واضح؟

أمسكت معطفي وحقيبتي وخرجت من الباب.

بعد أربعين دقيقة كنت في الغابة. كانت عظام جنجر مورتري غير المعروفة لم تكن إلّا بضعة من طاولة تشريحي: كيف كنت مهملة إلى ذلك الحد!

"لا تفترضوا أمراً مسبقاً ونتيجة للجروح" كانت تلك الكلمات التي أنصح بها طلابي طوال عقود.

لقد وقعت في الفخ. عندما رأيت الآثار على العظام ظننت أنها من فعل حيوانات الراكون والنسور، فلم أنظر عن كثب، لو تفحصتها كما يجب أن أفعل ذلك آنذاك.

فبالرغم من تعرض الهيكل العظمي لأضرار بالغة بسبب نهش حيوانات القمامة بعد الوفاة، إلا أن جروحاً أخرى وقعت قبل ذلك.

كان التلف في العظم القذالي الأكثر وضوحاً، إذ كان قطر كل منهما خمسة سنتيمترات، والمسافة بينهما سبع خمسة وثلاثين سنتيمتراً. لم يكن سن تركي قد أحدث هذين الثقبين، والنموذج أكبر من أن يعود إلى راكون.

كانت الأبعاد تشير إلى كلب ضخم، وكانت الخدوش المتوازية على عظام القفص، والثقوب المشابهة في عظمي الترقوة والقص.

كانت جينجر كالفون ورفيقتها قد تعرضتا لهجوم من قبل حيوانات؛ على الأرجح كلاب كبيرة. كانت الأسنان قد مزقت جسميهما وكسرت عظامهما، وكانت بعض العضات قوية بما يكفي لتخترق العظام القاسية في النصف الخلفي من الجمجمة.

خطرت في ذهني صورة أخرى، صورة كارون كرمبتون، صحفية مونتريال التي تم نبشها من مقصصها وتعليقها، عندما تعرّضت للتشويه أيضاً

ذلك مبالغ به يا ريان.

نعم.

هذا سخيف.

قلت لنفسي: لا، إنه ليس كذلك.

حسبي دسك الوقت، لم تكن شكوكي قد حققت شيئاً لإثبات الصحيح. كانت مهملة في ما يتعلق بالضرر الذي أحدثته الحيوانات. كنت أشك في الصلة بين هايدي شابلر ودوم لومبير وقد فشلت في رؤية علاقته بجينيفر كانون. لم أكن قد ساعدت كاثرين أو كارلي، ولم أفعل شيئاً لتحديد مكان آنا جويت.

من الآن فصاعداً، إذا كان ذلك ضرورياً، فسوف أمضي في الأمر حتى نهايته. وإذا كان هناك احتمال بعيد بوجود صلة بين كارول كومبتو والرأس على جزيرة مورتويه فسأفكر فيه.

اتصلت بهاردوي، متوقعة أنه لا يعمل حتى وقت متأخر من يوم الأحد. لم يكن هناك، وكذلك لاماش، عالم الأمراض الذي قام بتشريح جثة كومبترا. لذا تركت رسالة لكليهما، ثم سحبت مجموعة أوراق وأنا عطشة، وبدأت أكتب ما أعرفه.

كانت كل من جينيفر كانون وكارول كومبتو من مونتريال، وجرفت كل منهما بعد تعرضها لهجوم من قبل حيوان.

الهيكل العظمي المدفون مع جينيفر كانون يحمل أيضاً علامات أسنان حيوان، وترتبط الضحية مع مستويات روهيبنول تدل على تسمم حاد.

تم عزل روهيبنول لدى اثنين من الضحايا اللتين عُثر عليهن مع هايدي شابلر وأمرأة في سانت - جوفيت.

عُثر على روهيبنول في حشد في موقع الانتحار الذي اختاره أتباع سولر تامبل.

سولر تامبل قائم في كيبك وأوروبا.

تم إجراء مكالمات هاتفية من منزل في سانت - جوهانت بن مزرعة توم أوبنسر في سان هيلينا يملك المتقاعد جاك هيبل، كما يملك أيضاً عقاراً في تكساس.

حالة هيلين سمكي

كانت إحدى ضحايا سانت - جوهانت، باتريس سيمونيه، بالصدفة

تنصت هايدي شفايغر وبوليانا هيلوت بن جماعة توم أوبنسر في تكساس، وهناك بل هناك من أصل ولادة شقيقيهما. هاجرا مكسيكي وقد حققهما في سانت - جوهانت.

توفيت ضحايا سانت - جوهانت خلال ثلاثة أسابيع على الأكثر

توفيت جينيفر كاتون والضحية غير المعروفة في موربري قبل ثلاثة إلى أربعة أسابيع.

توفيت كارول كرميتو قبل ثلاثة أسابيع تقريباً

حلقت بي الصفحات عشرة عشرة موتى بعدد عشرت العبارة القديمة في ذهني: وقفة اليوم. كما قد عثر عليهم بمرور الأيام، لكنهم ماتوا جميعاً في الوقت نفسه تقريباً. من سيكون التالي؟

• • •

عندما وصلت إلى المنزل، ذهبت مباشرة إلى الحاسوب لتنقيح تقريري عن الهيكل العظمي الذي عثر عليه في موربري وتضمينه أن سبب الجروح هو هجوم حيوان. ثم طبعته وقرأت ما كنت قد كتبته

عندما انتهيت شعرت في حاجة لازمة (عبارة تذكرني بأستراليا) وبشيء كالعسل، ثم رأيت بين رفوف حاجة ذكرتني بشيء أنني لم أتناول شيئاً منذ أكلت الفطور وشربت القهوة.

ذهبت إلى العشاء وقطعته رغيفاً وكراثاً، ثم طلبت قطع جبنة، وأخرجت بسكويتاً من الركن، وطلبت كل ذلك معاً. سحبت قطعة أخرى، وسكبت كولا للتصبية، ثم عدت إلى الطاولة في غرفة المكتبة.

عندما راجعت اللائحة التي وضعتها في المطبخ، خطرت لي فكرة مزعجة.

كانت آخر حرب قد أصبحت أيضاً قبل أقل من ثلاثة أسابيع.

اختفت شيمي لتناول الطعام، فتركت الطاولة وذهبت إلى الأريكة. استلقيت وتركت ذهني يشرد على أمل أن تطفو أفكاري إلى السطح

راجعت الأسماء. شابير، غيلوت، كومستوك، سيمونيه، أوبنسو، كانون، جوبت

لا شيء.

الأعمار: أربعة شهور، ثمانية عشر عاماً، خمسة وعشرون عاماً، أربعة عقود

ليس هناك نمط معين

الأماكن: سانت - جوفايت، سانت هيبيا

الصلة؟

ساتس، هل ثمة صلة؟ سجلت ملاحظة: اسأل رايان أن يجمع عقار هيبال في مكسان.

قضمت ظفر إبهامي. ما الذي كان يؤخر رايان إلى ذلك الوقت؟

جال بصري فوق الرفوف التي تشغل ستة من جدران الغرفة الثمانية، وتمتلئ بالكتب من الأرض إلى السقف. إنه الشيء الوحيد الذي لا يمكنني إرغام نفسي على تجنبه. يجب أن أقوم فعلاً بترتيب تلك الكتب والتخلص من بعضها. كانت لدي عشرات النصوص التي لن أتصفحها مجدداً، ويعود تاريخ بعضها إلى الأيام التي كنت لا أزال فيها طالبة في الجامعة

كانت كل من جينيفر كانون وآنا جوبت طالبة في مكغيل.

فكرت في دوزي جوبت، والكلمات الغريبة التي قالتها عن مساعدتها.

ذهبت عيناي إلى الحاسوب. كانت شاشة التوقف تعرض هياكل عظمية ترقص. حتف عظام طويلة على الصورة العمري، ثم أصلاع، ثم حوض، وأصبحت الشاشة سوداء. بدأ القرص يصدر همهمة مع دوران بطيء.

بريد إلكتروني. عندما تبادلت وجوبت العناوين طلبت منه أن تتصل بي إذا عادت آنا. ولم أكن قد تفقدت رسائلي منذ أيام.

وصلت إلى البريد، وجلبت رسائلي، واستعرضت أسماء المرسلين. لم يكن هناك شيء من جوبت. كان ابن شيمي كيتي، قد بعث إلي ثلاث رسائل اثنتان في الأسبوع الماضي، وواحدة في صبيحة اليوم

كيت لا يرسل لي بريداً إلكترونياً أبداً.
فتحت الرسالة الأحدث.

من: كيه - هاوره
إلى: ل - رتان
الموضوع: هاري

عالة لي:
الصعب لكن لا بد أنك لم تكوني موجودة. أنا قلق جداً بشأن هاري.
الصبي يسي من عطلتك.
كيت

منذ أن كان عمره ستين كان كيت يدعو له باسمه (بالرغم من معارضة والديه، إلا أن القلق رفض أن يغير ذلك. كان وقع اسم هاري ببساطة يعلو أفضل على أذنيه.

بينما كنت أتصفح رسالة في شقيقتي، انتابتني مشاعر مختلفة. الخوف على سلامة هاري، الانزعاج من لامبالاتها، التعاطف مع كيت، التعب نتيجة إجهادي لا بد أن مكتبه كانت تلك التي تحملتها في أثناء حديثي مع كاثرين.

ذهب إلى الردهة وضغط على الزر

مرحباً خالة لي أنا كيت أتصل بشأن هاري. عندما اتصلت بشقتك في مونتريال لم ترد وليست لدي فكرة إلى من تحدث. أعرف أنك كانت هناك إلى ما قبل أسبوع الليلة. توقف آخر مرة تكلمنا فيها بدت غريبة، حتى في نظر هاري، ضحكة عصبية. هل لا تزال في كيبك؟ إن لم تكن هناك، هل تعرفين أين هي؟ أشعر بالقلق. لم أسمع لها صوتاً هكذا من قبل. أرجوك اتصلي بي. الوداع.

تخيلت ابن شقيقتي بعينيه الخضراوين وشعره الأصفر. كان من الصعب أن أصدق أن هاوره قد قدم أي إسهام جيني لابن هاري. كان كيت الذي يبلغ طوله ست أقدام وبوصتين نحيلاً مثل عصا، ونسخة طبق الأصل عن والدته.

أمسكت لتشغيل الرسالة وأمعنت التفكير في احتمال أن يكون هناك شيء لم انتبه إليه.

لا يا برناد.

لكن، لماذا كان كيت قلقاً جداً؟

اتصلي به، إنه أخي.

ضغطت زر الاتصال السريع، فلم أتلق رداً.

جربت رقمي في موتوريلا. الشيء نفسه. تركت رسالة

بيته. لم يكن قد سمع شيئاً من هاري.

بالطبع لا، لأنه كان مرتاحاً بشمسي مثل الطفح الجلدي، وكانت تعرف ذلك.

كفى يا برناد، عودي إلى الضحايا، إنهم بحاجة إليك.

أبعدت أفكاري عن شقيقي. كان هاري قد اختفى من قبل، ويمكن أن أفترض أنه بخير.

عدت إلى الأريكة واستلقيت عليها. عندما استيقظت كنت بملابسي، وكان هاتفي المحمول يرن على صدري.

"شكراً لاتصالك حقاً كيت. أنا، ربما كان قلقي من عودته، لكن أمي بدت محبطة جداً آخر مرة كلمتها. وهي غاضبة الآن جداً لا يبدو من شيم هاري أمي أن يبدو محبطة".

"كيت، أنا واثقة أنه بخير".

"ربما تكونين على حق. لكن، حسناً، كنا قد وضعنا خططاً. تشتكي دائماً من أنني لم أعد أعطيها وقتاً معها، ووعدتها بالخروج معها على متن القارب في الأسبوع القادم. كنت أنتهي من تصميمه، لهذا كنت سأتجه مع هاري حول الخليج لخمسة أيام. إن كانت قد غيرت رأيها، فقد كان في مقدورها على الأقل أن تتصل"

شعرت بالغضب يتصاعد من إهمال شقيقي.

"ستتصل بك يا كيت. عندما غادرت كانت مشغولة جداً بورشة العمل. تعرف كيف هي أمك؟"

"نعم" توقف قليلاً عن الكلام. "لكن، ليس هذا ما يقلقني. بحث عن الكلمة المناسبة. "مقلقة جداً. لا يشبه هاري"

تذكرت آخر أمسية أمضيتها مع هاري.

"ربما كان هذا جزء من الشخصية الجديدة. هدوء خارجي عجيب". بدت كلماتي فارغة المضمون حتى في نظري.

"حسب أظن ذلك. هل ذكرت أنها ستذهب إلى مكان آخر؟"

"لا، لماذا؟"

"مجرد شيء ما قالته أتذكر أنه ربما كانت لديها خطط للسفر. لكن، بدا الأمر وكأنّ فكرة لم تكن مكتملة، أو لا تريد القيام بها؟ أو يا إلهي لا أدري"

أطلق التنهيدة. ولاحظت ابن شقيقي يمرّر يده إلى منتصف شعره، ثم يحك أعلى رأسه. كنت محقة.

"متى قالت؟" بالرغم من حركتي، شعرت بخفقان القلق.

"لا أتذكر تماماً، لكني متأكد أنها في الشهر الذي تلته أو ما تبدو عليه. هل يبدو ذلك من طباع أمي؟"

لا، لم يكن ذلك طبعها.

"خالة كيت، هل تعرفين شيئاً عن تلك النوبة المرضية التي انتابتها؟"

"الأمر فقط حسن الحياة العائلية، حتى ما أظن. هل ستشعر بتحسن إذا استفسرت عن الموضوع؟"

"نعم".

"وسأتصل بجورج في مونتريال وأستفسر إن كانوا قد رأوها. لا بأس؟"

"نعم"

"كيت، هل تتذكر عندما اختفت سرايكر؟"

أطبق الصمت لبعض الوقت.

"نعم"

"ماذا حدث؟".

"اشتركت في سباق ماراثون، واختفت عن الأنظار ثلاثة أيام، ثم عادت مجروحة."

"هل تتذكر كم كانت حالتها؟"

"نعم، لكنها لم تتصل من أثر الإجهاد الشديد. الجميع تتصل بي. لقد تركت رسائل على الجهاز هناك. لكن، تباً – ربما تكون مسترخية في شيء ما. من يدري؟".

الغسيـــ المكالمة ونظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثانية عشرة والربع
انـــصـت بوســــرعة، لكن هاري لم ترد، لذا تركت رسالة أخرى. وبينما كنت
استلقي في الظلام أخرى دعني استحوذ.
ماذا لم أكمل من ورشة عمل عيسى ليمة المدمنة؟
لأنـــه مـــا من سبب يدعون إلى القيام بذلك. سجّلت في الدورة عبر معهد
شـــرحي، ولم يكن هناك سبب يدعو بي فرع ظرس مخطر. إضافة إلى ذلك، كان
إجراء بحث عن كل مشروعات هاري يتطلب عمقاً يمس سوم كامل
غداً سأجري بعض الاتصالات غداً، وبعد قليلة. أغيب الاستجواب
صـــعدت السلالم، وخلعت ملابسي، واستلقيت تحت الأغطية. كنت بحاجة
إلى النوم، بحاجة إلى الراحة من الاضطراب الذي يهيمن على تفكيري الواعي
فـــوق رأســـي، كانت مروحة السقف تصدر صوتاً هادئاً. فكرت في قاعة
ســـتقبال دوم لوبيـــر. وبالرغم من أنني قاومت الأمر، إلا أن الأسماء توافرت إلى
ذهني:
براياد، هايدي. كانت برايلا وهايدي طالبتين.
كانت جينيفر كالنون طالبة
آنا جوبت
اضطراب مطلق.
هاري.
كانـــت هاري قد سجلت للاشتراك في أول ورشة عمل لها في كلية مقاطعة
نورث هاريس. كانت هاري طالبة
كان الآخرون قد لقوا مصرعهم أو اختفوا في أثناء وجودهم في كيبك.
كانت شقيقتي في كيبك.
لم لقا بست هناك؟
بحقّ عليك يا رايان، أين أنت؟
عندما اتصل آسو تحوّل قلقي إلى خوف حقيقي

28

"احتضروا؟ ماذا تعني باحتضروا؟"

كنت قد سألت على عجل متطلعاً عندما ألقتني رايات حمراء، فشعرت بصداع وبالقلق يشتد على ما يبدو.

"عندما وصلت مع الدكتور كان المكان مهجوراً".

"ستة وعشرون شخصاً حضروا ببساطة؟"

"زوّد كوبيـــــــز وامرأة برفقة الشاحبين المتطوعين بالوقود عند الساعة السابعة مـــن صباح أمس. تذكر المالك ذلك؛ لأنه لم يكن يتوقعهم مسبقاً. وصلت وبيكر إلى المزرعة نحو الساعة الخامسة من بعد الظهر. وخلال ساعة من بين مجيء الوقود وبين أوبنـــز والحالة الأمور".

"رحلوا ببساطة؟"

"المصير بيكر بلاغ بحث، ولكن، حتى الآن لم نر أحد الشاحبين"

"إكرماً له" لم أكن أصدق ذلك

"في الواقع الأمر أسوأ"

انتظرت

"احتجى ثمانية عشر شخصاً عبر في مكسيكو".

شعرت بالشعور بالرعدة تسري في جسدي.

"تبين أن هناك قصة مشجعة أخرى في مخيم هناك. كان قسم شرطة مقاطعة فورث قد وظفهم منذ عدة سنوات ولم يكن هناك ما يستوجب إلقاء نظرة

عن كلب لسوء الحظ عندما وصل الفريق، كانت الضباعة قد اختطفت عظرو في رجل عجوز وكلب صغير يختبئان تحت الشرفة"

"ما قصته؟"

"الرجل رهن الاعتقال، لكنه خرف أو أبله ولا يفصح عن شيء"

"أو حذر جداً"

نظرت إلى الظلام خارج النافذة وهو يصبح أقل حلكة.

"ماذا الآن؟".

"الآن نفتش مخيم سانت هيلينا، ونأمل أن تكتشف شرطة الولاية المكان الذي قاد أوبيسر أتباعه إليه"

ألقيت نظرة إلى الساعة التي كانت تشير إلى السابعة وعشر دقائق، وبدأت آنذاك أقضم ظفر إبهامي.

"ماذا لديك أنت؟"

أخبرت رايان عن علامات الأسنان على العظام، وبشأن شكوكي في ما يتعلق بكارول كومبتو.

"ليس استنتاجاً صحيحاً".

"أي استنتاج؟ تلقت سيموبه رصاصة في رأسها، وتعرضت هايدي وصديقتها لسبع والطعن، ولا نعرف كيف ماتت الضحيتان في غرفة الطابق الثاني تعرضت كل من كاتوي وكومبتو لهجوم من قبل حيوانات، والطلعات سكاكين تلك ليست مصادفة قاتلة".

"قُتلت كومبتو في مونتريال. وعُثر على كاتوي وصديقتها على بعد ألف وعق ميل إلى الجنوب من هناك. هل تستقل ذلك الكلب حافلة؟".

"لا أقول إنه الكلب نفسه، وإنما النمط ذاته"

"لماذا؟"

كنت قد طرحت على نفسي ذلك السؤال طوال الليل. وحاولت أن أعرف من الشاعر؟

"كانت جنيفر كاتون طالبة في مكغيل، وكذلك أنا حوريت. كان بريان وهيدي يقرسان أيضاً عندما انضما إلى جماعة أوبيسر. هل يمكن أن تكتشف إن

كـان لكارون كومبتون أي علاقة بالمدرسة؟ هل درست منهاجاً هناك أو عملت في كلية؟"

"كانت موجهة"

قلب بحدة "ربما فازت بمنحة دراسية". كان موقفه السلبي محبطاً.

"حسنٌ، حسنٌ. لا تنفعلي"

"رايان..." ترددت. لا أريد أن أحصل من عرولي حقيقة بالتحدث عنه.

انتظر

"سجلت شقيقتي لمنحة دراسية في كلية عدم الاحتجاج في تكساس"

لزم رايان الصمت

"لتحصل لمنها سي لسي لأنه لا يستطيع العثور عليهم، ولا أنا أيضاً"

"ربما كانت عطفية كجزء من التدريب. كما عرفتها شيء يشبه المعتزل. ربما وضعت خريطة متشابكة ملتفوظ حول روحها وتتنقل فيها بوصة إثر أخرى. لكن إذا كنت قلقة حقاً، فاتصلي بالكلية".

"نعم"

"فقط لأنها سجلت في لمن ستار حاشيت لا يعني "

"أدرك أني سخيفة، لكنّ كلمات كاثرين أصابتني والآن ذوم أوبسر يخطط لشيء لا يعرفه إلا الله"

"سنسأل عنه"

"أعرف".

"يا إلهي، كيف أقول هذا؟". سحب نفساً طويلاً، ثم أطلق زفيراً مسموعاً "لقد تسمعت بمرحلة تحول وهي الآن منفتحة على علاقات جديدة. ربما تكون قد التقت شخصاً ما ويمضيان معاً عدة أيام"

من دون أن أنبس ببنت شفة... لمقصد شعرها؟ شعرت بالقلق مثل كتلة باردة كبيرة داخل صدري.

* * *

عندما أنهيت المكالمة حاولت الاتصال بهاري مجدداً. تركت الهاتف يرنّ ثماني الخالة. أين يمكن أن تكون عند الساعة السابعة من صباح الأحد؟

الأحد بدأ لي أستطيع الاتصال بالكلية حتى الغد.

حضّرت القهوة ثم انصتت بكمته، بالرغم من أن الوقت كان أبكر بساعة في تكاسلي.

كسلاً مهملاً ولكن بشعور بالتعاسة، ولم أتابع سلسلة أسئلتي. عندما بدأ أخي يستوعب ما أقوله، لم يكن واثقاً إن كانت دورة أمه الدراسية من تنظيم كلية عادية. على أنه يتذكر شيئاً عن دمشق ووعد بأن يبحث إلى مصدرها لتفقد ذلك.

لم يكن في مصدوري الخلوص من عوده لم أفعل شيئاً. فتحت الأوبرا، ثم تسليت بالانتظار، وحاولت الاستماع إلى قناة صباح الأحد لكن لا ترانيم ولا رجال الدين استطاعوا أن يحظوا بانتباهي ولا حتى الجرائد. كنت حبيسة تذكاري ومن دون أي منفذ للهروب منها.

لم يكن من حي جيد، لهذا ارتديت ملابس الجري وخرجت من المنزل. كانت السماء صافية، والهواء عليلاً وصعب عندما مررت في طريق كوينز سريعاً، ثم انطلقت عند برمنتون إلى منتزه الخوبة. تصبّب العرق من جبيني حين كنت أتجاوز البحيرة الاصطناعية الضحلة مرتدية حذاء نايكي. كانت بطة صغيرة تسبح في رتل خلف أمها، وصوت بطبطتها مسموع بوضوح صباح الأحد.

بقيت تذكاري مشوشة وعديمة الفائدة، وأصبحت الأسابيع الماضية تجري في داخل عقلي وكذلك بقي لاعبوها. حاولت التركيز على الإيقاع المنتظم للتمرين الرياضي، وعلى وتيرة تنفسي، لكني بقيت أجمع عبارة زيارات علاقات جديدة. هل ذلك ما دفعه وهاري إلى تحصيل ثقتهما في جوري؟ هل هذه هي تسمية التعارف مع زيارة على ملاذ سري؟

اجتزت المنتزه وجريت عائداً إلى ما وراء العيادة الطبية، ثم سلكت طريقي عبر الدروب الضيقة لمنتزه ماونت تجاوزت حدائق الورود والمساحات الخضراء التي يقوم على رعايتها عدد من العمال.

كنت قد تجاوزت طريق بروفيدنس عندما كدت أصطدم برجل يرتدي بنطالاً بنياً، وقميصاً زهرياً، وسترة رياضية قطنية مخططة تبدو مثل سور (علامة

تجربة) أصلية. وتحمل حقيبة أوراق قديمة وكيساً بلاستيكياً يحتوي بشرائح عرض، كان ريد سكايلر

سكت وأنا أحاول التقاط أنفاسي. "هل تزور ملتقى الجنوبي الغربي؟". كان ريد يعيش في الجانب الآخر من تشارلوت، قرب العاصمة

"حاضرت في الكنيسة الميثودية (جمعية مونتسانتية) اليوم" أخبرني بل منه من شعر الرمادي في المشروع. "لقد حضر باكراً لأرتب شرائح العرض"

"صحيح". كنت أسعب عرقاً، وشعري مبلل بخصلات رطبة. أمسك بقميصي وحركته بعيداً عن جسمي

"كيف تقدم نفسك؟"

"ليس جيداً. لقد انشقت الأرض وابتلعت توبي وأتباعه"

"هل هم متورطون في الأخطار؟"

"هكذا يبدو. ربما هل يمكني أن أناقشك في شيء ما؟"

"طبعاً".

"عندما ناقشنا موضوع الجماعات الدينية، ذكرت فودجيز وليمبي. تكلمنا كثيراً عن أحدهم ونسيت أن أسألك عن الآخر"

مرّ رجل مع كلب بودل أسود. كان كلاهما بحاجة إلى قص الشعر

"قلت إنك ستضم بعضاً من برامج التوعية التحفيزية في تعريفك"

"نعم. إن كانت تعتمد على إعادة تكوين الأفكار بتحديد أعضاء والحفاظ عليهم". وضع الكيس على الرصيف وحك حاجبه ابه.

"أظن أنك قلت إن هذه الجماعات تملأ صفوفها من خلال إغراء مشتركين على الاشتراك في المزيد من البرامج؟".

"نعم. بخلاف الجماعات الدينية التي بالتشابه، لا تهدف هذه البرامج إلى الاحتفاظ بالناس إلى الأبد. إنما تسعى للمشاركين طالما كان في مقدورهم شراء المزيد من الدورات، وجذب آخرين إليها"

"إذاً، ماذا نسميها جماعات منظمة؟"

"إن السائد العصري لما يدعى برنامج التطوير الذاتي محض، إنه الشيء القديم نفسه الذي يعتمد السيطرة على السلوك عبر إعادة تكوين الأفكار"

"ما الذي يحدث في برامج التدريب الوعي تلك؟"

نظر زيد إلى ساعته. "تنتهي عند الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة. لنلتقِ عند الفطور وسأجيبك على ما أعرفه"

"إنه معروف بتدريب وعي المجموعات الكبيرة"

بينما كان يتكلم وضع زيد صلصة حمراء فوق وجبته من الخربطي كما في مطعم المدرسون، وهو الفاطفه رأيت وشيماً ومستشفى دير العادة الطبيعية.

"إنها مصممة لتبدو كحلقات دراسية، أو مناهج جامعية، لكنّ الجلسات مصممة لإغواء المشاركين عاطفياً وتقنياً. ذلك الجزء ليس مذكوراً في الكرّاس، ولا حقيقة أن الشركة ستحرض لغسيل دماغ وتحول وجهة نظر حقيقية كلها عن العالم". دفع شوكته في قطعة لحم مدهنة.

"كيف تعمل؟".

"تستمر معظم البرامج أربعة أو خمسة أيام. اليوم الأول مخصص لفرض سلطة القائد، وتتضمن الكثير من الإذلال والسالم. وفي اليوم الثاني يتم تقديم الفلسفة الجديدة، ويقنع المدرب المشاركين بأن حياتهم بائسة، والطريقة الوحيدة للتخلص من ذلك هي من خلال قبول طريقة التفكير الجديدة"

مرعب.

"اليوم الثالث مخصص عادة للتمارين. تنويم مغناطيسي، إضعاف الذاكرة، أسئلة موجهة. يشجع المدرب الجميع على التعبير عن حيوات أمس، أو حالات رفض، أو ذكريات سيئة، بين ذلك حالة الشخص العاطفية. في اليوم الذي يليه هناك الكثير من المشاحنات المشتركة التي تقوم بها الجماعة، ويتحول القائد من مدرب قاسٍ إلى أم أو أب حنون. إنها الخطوة الأولى في السلسلة الآتية من السيطرات. اليوم الأخير ممتع ومبهج، فيه كثير من العناق والموسيقى والألعاب وتواصل العملية".

حضر شخصان يرتدي كل منهما بنطالاً قطنياً أصفر وقميص بولو في المقصورة إلى جانبنا.

"المزعج هو أن تلك التصورات قد تكون مجهدة على نحو لا يُصدَّق، جسدياً وعصبياً. ليس لدى معظم الناس أي فكرة عن الجهد الذي يجب بذله فيها، وإذا عرفوا ذلك فإن معظمهم سيتحسرون عليها"

"ألا يمكنكم أن تشتركوا في البرنامج في ما بعد؟"

"يتطلب منهم التحكم على الأمر، وخلال عدد من محاولة التجربة مع أخرى منافسة، يستعصون الإطراء على الطريقة التي تحولت بها حياتهم وإخفاء كم كانت التجربة صعبة ومتعبة للأعصاب"

"أين تجد هذه المجموعات الصامتة؟" كنت متعجباً من معرفة الجواب مسبقاً.

"في كل مكان، في الشارع، من حين إلى آخر، في المدارس والشركات والعيادات الطبية. ننشر إعلانات في صحف مختلفة، خلاف الخبر الجديد."

"ماذا عن الكليات والجامعات؟"

"أرضية خصبة حقاً، على لوحات الإعلانات، في السكن الجامعي وقاعات تناول الطعام، في أيام التوقيع للاشتراك في نشاطات طلابية. تعبر بعض الجماعات أعضاء للتسكع في المراكز الاستشارية داخل الحرم الجامعي وهم يبحثون عن طلاب يأتون إليهم ويجهزون. الجامعات لا تحب هذه الأمور ولا تشجعها أيضاً، ولكن ليس في وسعها فعل الكثير. تقوم الإدارات بإزالة النشرات عن لوحاتها الإعلانية، لكن الإعلانات تستمر في الظهور"

"لكن هذا أمر مختلف، صحيح؟ لا علاقة لهذا بجس التوعية هذه بسبب بالمجموعات الدينية التي ناقشناه من قبل؟"

"ليس بالضرورة. استفادة من بعض الوضع لتجنيد أعضاء لمنظمات سرية تتخفى بالدورة الدراسية، لم يقال لك إن أدلتك رفيع وقد لم اختيارك للانتقال إلى مستوى أعلى، أو للقدرة المرشدة، أو شيء من هذا القبيل"

تلقيت الكلمات مثل ضربة على الصدر. هنا، هاري في منزل القائد.

"وبعد، ما نوع الأشخاص الذين تصيبهم هذه الأشياء؟" تعيب أن يبدو صوتي أكثر هدوءاً مما أشعر

"اعتبرت أعلمني أن هناك عاملين مهمين". عندها على إصبعه المسحوب بالمنصة. "الإحباط وتغير العلاقات"

"ماذا تعني؟".

"غالباً ما يكون الشخص الذي يمر في مرحلة انتقال وحيداً ومشوشاً، ولهذا السبب يكون سهل الاقتياد"

"مرحلة انتقال؟"

"ترك المدرسة الثانوية والكلية، والجامعة والعمل. يكون منفصلاً حديثاً، أو مطروداً من عمله أخيراً".

بدت كلمات ريد على صحيح التطور، كان يجب أن أتكلم مع كيت عندما استعدت تركيزي كان ريد ينظر إليّ على نحو غريب، وعرفت أنني يجب أن أقول شيئاً.

"أظن أن شقيقتي ربما تكون قد انضمت إلى إحدى دورات التدريب الجماعي تلك. *تحسين الحياة الشخصية*"

هزّ كتفيه. "هناك عدد كبير منها، لكنني لا أعرف شيئاً عن هذه الجماعة"

"لقد انقطع الاتصال بها الآن ولا أحد يستطيع معرفة مكانها"

"حسب، معظم هذه البرامج مسالم لكن يجب أن تتكلمي معها. قد تكون التأثيرات مؤذية جداً بالنسبة إلى بعض الأشخاص"

مثل هاري.

اعتصر بطني انعقاد من الخوف والذنب داخلي

شكرت ريد ودفعت الفاتورة. على الرصيف تذكرت سؤالاً آخر

"هل سمعت من قبل بحالة اجتماع تدعى جيمبوت؟ إنه لمترس نهر كاب الدببة".

"دوني جيمبوت؟" رفع أحد حاجبيه، وقطّب جبينه عبوساً

"التقيت بها في مكتبي قبل عدة أسابيع وأنا مهتمة بمعرفة كيف نظر زملاؤها إليها"

تردد. "نعم، سمعت أنها كانت في كندا"

"هل تعرفها؟".

"عرفتها منذ سنوات". كان صوته قد أصبح جافاً

"لا تُعدّ جيمبوت عاقلة"

"آه؟" نظرت إلى وجهه لكنه كان خالياً من أي تعبير.

"شكراً لك على النصح وبحرصك يا تمب. آمل أن يكون قد حصلت على ما يساوي مالك" بعث ابتسامة متكلفة.

مسح ذراعه. "ما الذي لا تخبرني به يا ريد؟"

خفت الابتسامة. "هل شغلتك حالة لدى دوري هيبرت؟"

"لا. لماذا؟"

"كانت أعمال هيبرت محط خلاف قبل سنوات. لا أعرف القصة الحقيقية، ولا أريد نشر أقاويل. ولكن توخّي الحذر"

وددت أن أطرح أسئلة أكثر. ولكن، بعد أن أنهى قول ذلك أومأ وانطلق نحو سيارته.

وقفت تحت أشعة الشمس وفمي مفتوح. ما معنى ذلك؟

* * *

عندما وصلت إلى المنزل وجدت أن كيت قد تركت رسالة. كان قد عثر عيسى كركس عن الدورة الدراسية، لكن لم يكن هناك شيء يبدو مثل ورشة عمل جرى في كلية علم اجتماع مقاطعة بورث هاوس. وجد كيت كرّس عيسى الحياة الماضية على مكتب والتقته. كان هناك ثقب مسمار صغير في الورقة، وخاصرة الشك في أنه أحضرها من لوحة إعلانات. فتصل بالرقم، لكنه لم يعد موجوداً بالخدمة.

لم يكن لدوره جاري الغرفي علاقة بالكنيسة!

تقاطعت كلمات ريد مع ما قاله رايان، وولدت شعوري بالخوف. علاقات جديدة، في مرحلة انتقال، تعرفها، سهلة الاصطياد.

في ما تبقى من اليوم تنقلت بسرعة من إنجاز مهمة إلى أخرى، وتركيزي مشغول بالقلق وغيره. ثم، مع تطاول الظلال على مدى منزلي، تلقيت اتصالاً دعاني إلى التفكير على نحو أكثر سلبياً. أصبحت السمع مصدومة حين كانت القصة تتكشف، ثم اتخذت قراراً.

اتصلت برئيس قسمي لأخبره أنني سأغادر في وقت أبكر مما كان مخططاً، ولأنني كنت قد حجزت مكاني لحضور مؤتمر علم الإنسان الطبيعي، فإن

ملابسي لم تستغرق سوى حصة واحدة إضافية. كنت قلقة، لكن يجب أن أذهب

عندما أنهيت المكالمة صعدت إلى الطابق الأعلى لأحزم حقائبي، ليس إلى لوكلاند، وإنما إلى مونتريال.

كان يجب أن أعثر على سقيلي.

كان يجب أن أوقف المجنون الذي يتداعى مثل رعد بحموت.

29

عندما أقلعت الطائرة أغلقت عينيّ واسترخيت في المقعد. كنت مرهقة جداً من ليلة أخرى أمضيتها قلقة على حفيدي الطفل عمّ يحيط بي. عادة أستمتع عندما أرتفع وأشاهد العالم يصبح أصغر، لكن ليس في تلك اللحظة. كانت كلمات رجل عجوز خائف تجول في ذهني.

شددت قبضتي بالرزمة التي كنت قد وضعتها تحت المقعد. كانت العلبة المحمولة باليد تحت ناظري دائماً. قد تكون أغلال قسيس مهمة

كان رايان في جانبي يقلّب صفحات مجلة يو أس نيوز. لم يستطع الحصول على رحلة من سافانا، فقاد سيارته إلى تشارلوت ليلحق برحلة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة. في المطار كان يشرح لي بالتفصيل ما حدث في تكساس.

كان الرجل العجوز قد هرب يحمي كنزه

تماماً مثلما حفظت كاتري – كم فكّرت – على طفلها

سألت رايان بهمس خافت. "هل قال ما الذي تريده فئته بالضبط؟". كانت المضيفة تشرح طريقة عمل أجهزة الأمان وأقنعة الأوكسجين.

هزّ رايان رأسه. "كرس كحشة حية، وكان في طريقه لأنهم اقتنوا له مكاناً يمكنه فيه وسمحوا له بأن يحتفظ بكلبه. لم يكن منتبهاً حقاً إلى بضاعته، لكنه عرف ما يكفي." سرلت الحفة إلى صدره.

"إنه يتراوح عن طاقة كونية وملائكة واستنشاق ناري"

"استنشاق؟"

هزّ رايان كتفيه "يقول إن الناس الذين يعيش معهم لا ينتمون إلى هذا العالم. سيعبر لهم كانوا يقاتلون قوى الشر وقد حان الآن وقت الرحيل، لكنه لم يستطع اصطحاب فيلو"

"هذا اعتبأ تحت الشرفة"

أومأ رايان.

"من قوى الشر تلك؟"

"لا يعرف".

"ولا يدري إلى أين سيصحب الصالحون؟"

"حالاً. تذكري أن هرمس ليست غابة العالم"

"لم يسمع قط بقوم أوريـز؟"

"لا. عائلة قراءته كان شخصاً يدعى برميس".

"لا يوجد لقب"

"الألقاب ليس هذا المهم لكنه ليس الشخص الذي يخيفه. من الواضح أن توبسي والرحيل على وهال، لكن امرأة هي التي ترعبه"

ماذا، قالت كاثرين؟ "إنه ليس خوفه، ولكن هي" ونهض وجه أمامي.

"من هي؟"

"ليس لديه اسم، لكنه يقول إن هذه المرأة أخوف توبسي من شخص ما يحاول تخليصهم، وأن الشؤم الموعود أصبح وشيكاً بعد حدث انطلقت قافلة المركبات".

"و...؟" شعرت بالقلق.

"لم يكن الكلب موضع ترحيب"

"لا شيء آخر؟"

"قال إن السيدة هي بالتأكيد الأم الأفعى"

"تكلمت كاثرين أيضاً عن امرأة"

"اسمها؟".

"لم أسأل. لم يكن السؤال عن الاسم يبدو منطقياً في ذلك الوقت"

"ماذا قالت غير ذلك؟"

كرّرت ما تذكره.
وضع رهاف يده على يدي
"تمسه لا نعرف حقاً أي شيء عن كلاريس حلمه ما عدا أنّ أمضت حياتها في أجواء من ثقافة مغلقة. ذهب إلى مسـزلتك مدّعي أنها عثرت عليك بواسطة دليل الجامعة، مكنت تحاول بعث لم تخبرني اسمك منه. في ذلك اليوم نفسه مضى ثلاثة وأربعون من أصدقائها المقرّبين في ولايتين، وفعلت السهمة الشيء نفسه".
صحيح. كان رهاف قد عبّر عن هواجس بشأن كلاريس في وقت سابق.
"ألم تخبرني قط من قام بتحديد الخط ذلك؟"
"لا" سحبت يدي ورحت أقضم ظفر إبهامي
ثم بعد كلمه أي من تحص الوقت، ثم تذكرت شيئاً آخر
"أشارت كلاريس أيضاً إلى شخص ما يحاول خطفهم".
"كيف؟"
"قالت إن دوم لا يثق بوجود شخص ما يحاول تخليصهم"
بقي رهاف صامتاً وقتاً طويلاً، ثم قال "تكلمت مع الأشخاص الذين حققوا في وفيات سولار تامبل في كندا. هل تعرفين ما حدث في مرتفعات مورين؟"
"ما أعرفه فقط هو أن خمسة أشخاص ماتوا. كنت في تشارلوت، ووركّزت وسـائل الإعـلام الأميركية على سويسرا. لم تحظَ القصة الكندية باهتمام إعلامي كبير"
"سـأخبرك بمـا حـدث. أرسل جوزيف ديمسور فريقاً من السفّاحين لقتل طفـل" توقف عن الكلام ليعطي استرجاع ذلك. "كانت مرتفعات مورين نقطة انطلاق الطفرة التي ستمضي إلى ما وراء البحار. يبدو أن ولادة ذلك الطفل لم تحظ بموافقة الأب الكبير، لهذا اعتبره شخصاً ما يحاول تخليصهم. كان من الضروري أن يلقى الطفل حتفه حتى يصبح في مقدور الصالحين إتمام عملية الانتقال"
"يا الله. هل تظن حقاً أن مرينسر أحد معتنقي سولار تامبل أولئك؟"
هـز رهاف كتفيه قلقاً "أو قد يكون نوعاً من التقليد الأعمى من الصعب معرفة ما تعنيه أحداث إدور ليرسر حتى ينتهي هنسه التعبي من العمل عليها"
كان قد تم العثور على رسالة في مجمّع سانت هيلينا، وخريطة لمقاطعة كيسلك.

"لكنني لا آبه أبداً للمجد الذي يجول هارديه إن كان أشخاص أبرياء يتطايرون إلى حتفهم. سأمسك هذا الوعد وأقاتل به"

تورمت عضلات فكّه حين كان يرفع نظره.

أغلقت عينيّ وحاولت أن أستريح، لكنّ الصور لم تبارح ذهني.

هاري فرحة وتشيس حيوية. هاري تتصبب عرقاً ومن فوق تموّج

سام ميسرهيم حماماً من تدليس حزيرته.

ملاحمي، ماثيس، جينيفر كالوب، كارول كومبيرا. رقط متصمّم، والمنحوتات الملائية عند قدميّ.

كاثرين تومس بجنبيه، وكأنه في مقبروري مستعطفاً، وكأنني أستطيع جعل حياته بطريقة ما أفضل.

لم عس كان رفيان عماً؟ هل تم الإيقاع بسي؟ هل تم إرسال كاثرين نهاية شروره لم تحركها؟ هل كان أوسكر مسؤولاً عن ذبح ذلك الشعب؟

كانت هاري قد تكلمت عن نظام؛ إذ حياتنا مرتبة وإن النظام سيخلصها من ذلك. كذلك فعلت كاثرين التي قالت إن النظام يؤثر في المسيح. كان رفيان ومهيهي قد عرفاه. أي نظام؟ نظام كوني؟ نظام من الأعلى؟ نظام سيرلو تاسك؟

شعرت بأنني مثل فراشة في مرطبان، أرفرف داخل الزجاج وبراودني فكرة عشوائية تلو الأخرى، لكني لا أستطيع الهرب من القيود المرئية لتفكيري المشوش.

بيرنار، تستطيعين تحمّل إلى الخنوع! لا يمكنك فعل شيء على ارتفاع سبعة وثلاثين ألف قدم.

قررت التحرّر من كل ذلك بالعودة قرناً إلى الوراء.

فتحت حقيبة أوراقي، وسحبت مذكرات بالانغار وقلّبت الصفحات إلى كانون الأول من العام 1944، على أمل أن يكون الطقس قد حسّن مزاج لويس - فيليب أفضل.

استمتع الطبيب الصانع بحفلة ذكرى الميلاد في مستودع مكوك. أحب طلوعه الجديد، لكنه لم يوافق على خطة شقيقته للعودة إلى المسرح إذ كانت بوجهين قد تلقت دعوة للغناء في أوروبا

كــان لويس – فيليب يفتقر إلى حس الدعابة لكنه يعوّض عن ذلك بعذوبة على التذكر. كان اسم شقيقته يظهر دائماً في الشهور الأولى من العام 1845. من الواضح أنه كان يعبّر عن آرائه على نحو متكرر، لكن ما أزعج الطبيب كثيراً هو أن شقيقته لم تقتنع بكلامه. كانت ستغادر إلى ميلان، وستحيي حفلات في باريس وبروكسل، ثم تمضي الصيف في فرنسا، وتعود إلى مونتريال في نهاية تموز

أمر جـورج بإعادة المقاعد إلى وضعها الأساسي والتزام الأمكنة للهبوط في مونتريال.

بعد ساعة تقريباً، قلّبت الصفحات وصولاً إلى ربيع عام 1845. كان لويس – فيليب مشغولاً بالمستشفى ومستوى التغذية، لكنه قام بزيارات أسبوعية إلى صهره. لم يسافر آلان نيكول، كما يبدو، إلى أوروبا مع زوجته.

تساءلت كيف كانت رحلة يوجين. من الواضح أن لويس – فيليب لم يهتم ككاتب نصحه؛ لأنه لم يذكرها كثيراً خلال تلك الشهور ثم أثارت حادثة اهتمامي

17 تموز من العام 1845 بسبب ظروف خاصة كانت إقامة يوجين في فرنسا ستطول، فتم اتخاذ ترتيبات خاصة تناسبه. لكن لويس – فيليب لم يكن يعرف ماهيتها

ضحكت إلى السماء خارج نافذتي. ما الظروف الخاصة التي جعلت يوجين تبقى في فرنسا؟ أعرف حتماً. كانت إيزابيث قد ولدت في كانون الثاني آه، يا الله

خلال الصيف والخريف لم يشر لويس – فيليب إلى شقيقته سوى مرة واحدة عندما قال إنه تلقى رسالة من يوجين تقول فيها إنها بخير

عندما حطّت الطائرة على مدرج مطار مونتريال، خطرت يوجين في بالي مجدداً. كانت هي نفسها قد عادت إلى مونتريال في 16 نيسان من العام 1846، وكان عمر طفلتها آنذاك ثلاثة شهور

وحدها.

ولدت إيزابيث بيكون في فرنسا. لا يمكن أن يكون آلان والدها، لكن من كان؟

نزلت ورايان من الطائرة بصمت. تفقّدت رسائلي، فيما انتظرت الأمتعة عندما عاد عرفت من وجهه أن الأخبار ليست سارة.

"عثروا على الشخصين المختفيين قرب تشارلستون"

"هل هما حاويجانا؟"

أوما.

انتصبت موجهي، وطقطقها خلال قرن آخر

كانـــت الســماء حالكة والمطر الخفيف يهطل أمام المصابيح الأمامية عندما انطلقت ورايان بالسيارة شرقاً على طول الطريق الرئيسي 20 وصولاً للمطار. كانت الحرارة في مونتريال لا تتجاوز ثماني وثلاثين درجة فهرنهايت.

انطلقت بالسيارة صامتة بعد أن كنا قد تخطينا سلسلة الإجراءات التي استعملناها. كنت أريد الإسراع إلى المنزل، والعثور على شابليه، وإزاحة شيء من تفكيري عن الحس الذي أشعر به. ونتيجة بدلاً من ذلك، كنت سأعمل ما علمه رايان، ثم سأتوجه في ما بعد حقل ملاحة.

أوقفنا السيارة في ساحة بارثيه ومشيت مع رايان إلى المبنى. كان الجو معبقاً برائحة الشعير من مصنع شراب شعير مونتريال والزيت يغطي سطوح بركة الماء التي تحتجب على الرصيف.

خرج رايان من المصعد في الطابق الأول وتابعت أنا طريقي إلى مكتبي في الطابق الخامس. وبعد أن نزعت معطفي، طلبت رقماً داخلياً. كانت رسالتي قد وصلتهم وسيبدأ العمل عندما أصبح مستعدة. فذهبت مباشرة إلى المختبر.

أحضرت مشرطاً، ومسطرة وغراء، ومقصاً للعظم من عادة مطاطية ووضعتها على طاولة العمل. فحص بعد ذلك الرزمة التي كنت أحملها، أخرجت المحتويات وتفحصتها.

كانت جمجمة وعنق شخصية مونتري مجهولة قد قطعا الرحلة من دون أن يصابا بأضرار. استعمل كثيراً عنا غطاء الفاكس على أجهزة المسح الصوتي في المطارات عندما تظهر قطع هيكل عظمي على شاشاتها. وضعت الجمجمة على حلقة من الفلين في وسط الطاولة، ثم عصرت غراء على عظم الصدغ وثبّت الفك في مكانه.

وبينما كان اللاصق يجف، وجهت مصباح الضوء الأعلى الأيوكية البيضاء عندما اتصل الفك وضعت الجمجمة على ساعة، وعلقت

الارتفاع، وثبتها بمشابك. حدّقت الصبرتان الحلوتان مباشرة إلى عينيّ حين كنت أقيس، وأقص سبع عشرة قطعة أسطوانية الشكل من طلاء الصلصال وألصقها على عظام الوجه.

بعد عشرين دقيقة أسندت الجمجمة إلى غرفة صغيرة في نهاية ممر. كانت لوحة معدنية تشير إلى أنه قسم التصوير حيث رحّب بي تقني وأشار إلى أن النظام جاهز ويعمل.

لم أضيع وقتاً، وضعت الجمجمة على لوحة مسح، والتقطت صوراً لها باستخدام آلة فيديو، وأرسلتها إلى الحاسوب. قوّمت الصور المرئية على الشاشة والجوانب والجهة الأمامية. ثم باستخدام قلم ولوح رسم متصلين بالحاسوب قمت بوصل النقاط الطافية التي تبرز من الجمجمة. وبينما كنت أمضي بالخطوط بملامسه حول الشاشة بدأت صورة مرعبة تنبثق للعيان.

عندما أعجبني شكل الوجه، مضيت قدماً. وباستخدام هندسة العظام كدليل رسمت العينين، والأذنين والأنف، والشفتين من قاعدة بيانات البرنامج، ووضعت سمات متحدرة على الجمجمة.

قمت باختيار الشعر، وأصبحت ما ظننت أنه سيكون التسريحة الأقل تعقيداً. لم أكن أعرف شيئاً عن الضحية، هنا قررت أن الغموض أفضل من الخطأ. عندما أصبحت مقتنعة بما أضفته إلى صورة الجمجمة، استخدمت قلم الرسم لتلوينها وتظليلها وذلك بعمل تيمة عملية بعادة الباد تمر ناجحة بالحياة للسطاح. استغرقت العملية كلها أقل من ساعتين.

راجعت إلى الخلف ونظرت إلى عملي

حدّق بي عبر الشاشة، وجه ذو عينين داكنتين، وأنف رقيق، وعظمي وجنتين عريضتين ومرتفعتين. كان جميلاً بطريقة آلية تخلو من أي عيوب، ومألوفاً نوعاً ما. ابتلعت ريقي، ثم بلمسة من قلم الرسم جعلت الشعر قصيراً وأشقر تماماً.

سحبت نفساً. هل كانت نتيجة بجعله هذه الجمجمة تشبه آنا جوبيت؟ أم أنني ببساطة ابتكرت شابة عادية وجعلت تسريحة شعرها مألوفة؟

أعدت الشعر إلى التسريحة الأصلية وقرّبت الشبه. نعم؟ لا؟ لم تكن لدي فكرة.

أشعر وأ، فضغطت على أمر على اللائحة فظهرت أربعة أشكال على الشاشة الأسسفل. أمسسكت بالمسسدلة، وأنا أبحث عن إشارات إلى اختلافات بين صورتي التي التقطت وبيسن الجمجمة أولاً، لصغر وقت غير قابلين للتغيير ثانياً، صورة بجثة مع عظام مكشوفة إلى يسار الجمجمة، وصفت حلقية إلى اليمين ثالثاً، الوجه الذي ابتكرته بوضسع حسي عبر شعاب فوق علامات العظام والأنسجة أخيراً، الوجه النهائي الفتوتوغرافي. ضغطت على الصورة الأخيرة فملأت الشاشة وحدقت إليها وقتاً طويلاً كنت لا أزال غير واثقة.

طبسعت الصورة، ثم وضعتها في مغلف وأسرعت إلى مكتبسي في طرفي الممر المقابل لقاعة العين ووضعت نسخة من الصورة على مكتب رايان. كانت الملاحظة المرفقة تتكون من كلمتين. موزيري الصغيرة. كانت هناك أشياء أخرى تشغل ذهني.

عسندما خرجت من سيارة الأجرة كان هطول المطر قد توقف، لكن الحرارة ارتفعت. كسان ضباب رقيق يتشكل على برك المياه الضحلة ويقطر على الأسلاك والأغصان.

كانت الشقة مظلمة وهادئة مثل سرداب. ألقيت معطفي وحقائبي في الردهة، ومضيت مباشرة إلى غرفة الضيوف. كانت مساحيق تجميل هاري مبعثرة على خزانة الملابس المضيئة. هل استخدمتها في ذلك الصباح أم في الأسبوع السابق؟ ملابس، أحذية، مجفف شعر، مجلات. لم يعثر على شيء يشير إلى أن هاري قد رحلت أو متى غادرت المنزل.

كنت قد توقعت ذلك، لكن ما لم أتوقعه هو الشعور بالخطر الذي داهمني حين كنت أنتقل من غرفة إلى أخرى. تفقدت جهاز تسجيل المكالمات، لكن لم تكن هناك رسائل.

فكري، فربما تكون قد اتصلت بكيب

سيسي.

شارلوت؟

لم أسمسع أي كلمسة من هاري، لكن بعد سكاليار كان قد اتصل بقول إنه اتصسل بشبكة مراقبة المجمعات الدينية. فأخبروه أنهم لا يعرفون شيئاً عن دوم

أوبــرا، لكن لديهم صعب عن تحميص الحياة الشخصية وفقاً للشبكة، كانت الدورة قانونيــة، وتُشــاع في عدة ولايات، وتصبح الأنا الشخصية في موضعها أنا الآخر حرة، لكنها على الأرجح غير موجهة ولا داعي للقلق بشأنك كثيراً إذا أردت مزيد من المعلومات يمكنني الاتصال به أو بالشبكة وترك كلا الرقمين.

أصبحت مصحوبة إلى الأصوات الأخرى. سمع الذي يريد أبعد وكيف التي تجري من حولنا إلى مشارلوتسفيل

إذًا، لم يكن دوره تحميص الحياة الشخصية خطرة ورايان على الأرجح على حق، كان هاري قد تحدث عن الأخطر جمعاً. جعلني الغضب أشعر بحرارة في وجنتيّ.

مــنذ رحل آل هنّت معطفي وسحبت حقيبتي إلى غرفة النوم. جلست بعد ذلك على حافة السرير، ودلّكت صدغيّ. ثم تركت أفكاري تسترسل. تلوّت الأرقام التي تشير إلى الدقائق على ساعتي ببطء

كانــت الأسابيع الستة الماضية من أصعب ما مرّ عليّ في حياتي المهنية. كان التعذيب والتشويه الذي تعرض لها أولئك الضحايا يفوق كثيراً ما أراه عادة. ولم أتذكر أني عملت على ذلك العدد من الجثث في مثل تلك المدة القصيرة. ما صلة جرائم موروبري بتلك التي وقعت في سانت - جوفيت؟ هل لقيت كارون كوميــرا حتفها على يد قاتل متوحش؟ هل كانت الجريمة في سانت - جوفيت أوّل الضحايا فقط؟ في تلك اللحظة، هل كان هناك عيون تجمع خطة مخزية فظيعة لا يمكن توقعها؟

كان على هاري أن تتعامل مع هاري.

كنت أعرف ما سأفعله، أو على الأقل من أين سأبدأ.

كان المطر يهطل بهدوء، وحرم سكمبل الجامعي مغطى بقشرة رقيقة متجمدة من الأبنية لون مثل ظلال سوداء ويشع من نوافذها الضوء الوحيد في العمق المســرح في أماكن متفرقة. كان هناك شكل يتحرك في بقعة مضاءة، مثل دمية صغيرة في مسرح ظل

وضعت قطع جليد صامتة على الدرجات عندما أمسكت مقبض باب قاعة ماركـــس. كان المبنى عالياً، وقد هجره الناس الخائفون من العاصفة. لم تكن هناك

معاطف مطرية حتى تلتصق به أو أحذية تقطر ماءً على طول الجدران. كانت الطابعات والناسخات صامتة، والصوت الوحيد المسموع هو تكتكة قطرات المطر عالياً على الزجاج تختلط بأطر رصاصية.

تردد صدى خطواتي مع صعودي إلى الطابق الثالث. رأيت باب جيمس من الممر الرئيس، وبدا مغلقاً. لم أظن حقاً أنها ستكون هناك لكنني كنت قد قررت أن الأمر يستحق المحاولة. لم تكن ترافقني، ويقول الناس أشياء غريبة عندما تفاجئهم خارج روتينهم المعتاد.

عندما اقتربت إلى الممر رأيت ضوءاً أصفر ينسل من تحت الباب. طرقته وأنا غير واثقة مما ينتظرني.

وعندما فُتح الباب صرت مني مذهولاً

30

كانت عيناها حمراوين على طول الأجفان، وكان جلدها شاحباً ومصفراً
شدت قامتها عندما عرفتني، ولكنها لم تقل شيئاً

"كيف حالك يا آنا؟"

"بخير" طرفت عيناها وتغير تعبيرها

"أنا د. برنان. التقينا منذ بضعة أسابيع"

"أعرف."

"عندما عدت قالوا لي إنك مريضة".

"أنا بخير. لقد غبت لبعض الوقت"

أردت أن أسألها إلى أين ذهبت، لكني أحجمت عن ذلك.

"هل هو موجود هنا؟".

ضربت أنا رأسها، ودفعت شعرها بحركة بطيئة إلى الخلف، وحركت يدها دونما اهتمام حول أذنها.

"كانت والدتك لطيفة معي".

هزت كتفيها بحركة بطيئة تنصف ملاحظتي، ولم تستفسر عن اطلاعي على حياتها الخاصة

"أعمل على مشروع مع عالمتك. كانت هي أيضاً تشعر بالقلق"

"آه" نظرت إلى الأسفل، وهكذا لم أستطع رؤية وجهها

فاكتفيت بما عرفته.

"قالت صديقتك إنك قد تكونين متورطة بشيء يفسد عليك حياتك"
صادف عيناها بي عيني "ليس لدي أصدقاء. من هذه التي تتكلمين عنها؟"
كان صوتها خافتاً وكئيباً.
"سامنثا أوريلي. كانت تبحث عنك في ذلك اليوم".
"تريد سالدي المحصول على عملي. لهذا أنت هنا؟"
حوّل وجهه.
"أردت أن أتكلم معك ومع د. جيمسون".
"إنها ليست هنا".
"هل يمكننا أن نتكلم في الانتظار؟".
"لا يمكنك فعل شيء، بين حياتي هي شأني وحدي". أدهشني عدم مبالاتها
"أفهم ذلك. لكني في الواقع مكرّب لذلك ربما تساعديني"
ذهب بصرها باتجاه الممر ثم عاد ليستقر عليّ.
"ثم أساعدك؟"
"هل توكّين تناول بعض القهوة؟"
"لا"
"هل يمكن الذهاب إلى مكان آخر؟"
نظرت إليّ وقتاً طويلاً. كانت عيناها كئيبتين وعاليتين من أي تعبير، ثم أومأت وقادتني باتجاه عبر المشعب، ومشت أمامي على السلالم وخرجت من باب خلفي. اختبأت تحت المطر، ثم صعدنا التل إلى وسط مجمع الجامعي، ودخلت حول مبنى. وبعدها أخرجت أنا مفتاحاً من جيبها، وفتحت باباً، ثم قادتني عبر ممر كان هواؤه يعبق برائحة الطين والرطوبة.
صعدنا إلى الطابق الثاني، وجلسنا على مقعد خشبي طويل، وعظام الفقريات مائلة منه بعيد تحيط بنا. وفوق رؤوسنا كان هناك حوت أبيض يبدو أنه يعود إلى العصر الجليدي. كانت عواميد غبار تطفو في ضوء النيون.
"لم أحصل في الفحص. لكنني ما زلت آتي إلى هنا لأفكّر" حكت إلى الأسرلندي. "عاشت هذه المخلوقات تفصل بينها ملايين السنين والآلاف الأجيال. وها هي الآن مقيّدة في هذه القمة من الكون، ساكنة إلى الأبد في الزمان والمكان. أحب ذلك".

"نعم" كانت تلك إحدى طرائق النظر إلى الانقراض. "الاستقرار شيء نادر في عالم اليوم".

رمقتني بنظرة غريبة، ثم أعادت بصرها إلى شبابيك المطبخ. نظرتُ إلى صورتك الجانبية حين كانت تمعن النظر إلى المسوّدة.

"تكلمت سابقاً عن حالك لكني في الواقع لم أصغِ إليها" تحدثت من دون أن تستدير لتواجهني. "لا أعرف من أنت أو ماذا تريدين"

"أنا صديقة خالتك".

"خالتي إنسانة لطيفة"

"نعم. كانت والدتك تظن أنك في ورطة".

وسحبت ابتسامة ساخرة على وجهها من الواضح أن ذلك لم يكن موضوعاً مهماً في نظرها.

"لماذا تحسبين أن تفكر فيه والدتي؟"

"أعتقد لأن الأخت جوليان كانت منزعجة من اختفائك. لم تكن خالتك تعرف أنك قد اختفيت من قبل"

تركت بصرها الفتاريات وجهه نحوي. "ماذا تعرفين عن غير ذلك؟" تقرب بأصابعها عبر شعرها. بدى كأن الود قد أفسدها، أو ربما الهروب من حضرة المرشدة. بدت أكثر حيوية مما كانت عليه في نيويورك.

"أنا صديقة خالتك من أن أعثر عليك. لم أرغب في أن تتدخل في ما لا يعنيها، وإنما ببساطة أن أطمئن والدتك"

بدت متشككة "ولأنك صديقة من مشروع خالتك لا بد أنك عرفت أيضاً أن أمي مجنونة إنها تأمرني عشر مرات تتصل بالشرطة"

"وعماً بالشرطة إن مدة غيابك كانت تستمر أكثر من عشر دقائق"

ضحكت ضحكاً قليلاً

جيد يا برناك، ضعيها في موقف دفاعي

"اسمعيني يا آنا، لا أريد أن أتدخل في ما لا يعنيني. لكن، إذا كان هناك شيء يمكنني فعله لمساعدتك، فأنا مستعدة تماماً للمحاولة"

انتظرت لكنها لم تقل شيئاً.

تعكسي الأمر، فربما تفتح لك قلبها.
"وربما يمكنك مساعدتي. كما تعرفين أعمل مع فاتني التحقيق، وبعض القضايا الأسبوع لو لاحظنا قتلاً في حوزة. اختفت شابة تدعى جينيفر كانون من مونتريال منذ خمس سنوات. عُثر على جثتها في الأسبوع الماضي في كارولينا الجنوبية. كانت عالية في مكتبي."
لم يطرأ تغيير وجه آنا.
"هل تعرفينها؟".
بعثت صفحة مثل العظام حرسا.
"في السابع عشر من آذار فُقدت مرأة تدعى كلوي كومتوا، وتم انتزاعها من حزوره الأموات. كانت في الخامسة عشرة من عمرها".
ارتفعت يدها إلى صدرها.
"لم يكن جينيفر كانون وحدها" سرت اليد إلى صدرها، وارتفعت بعضها أعلى. "لم تتعرف إلى الشخص المفقود معها"
سحبت الصورة المركبة ومددت يدي عوضاً أضحكها، وعيناها تتحدى عينيّ.
ارتعشت الصورة قليلاً عندما حدقت إلى الوجه الذي رسم.
"هل هذا حقيقي؟".
"إنّ رسم صورة تقريبية للوجه فن وليس علماً. لا يمكن أن يكون دقيقاً واثقاً بسار الدقة"
"لعلّ ذلك من جمجمة؟" كان هناك ارتعاش في صوتها.
"نعم"
"الشعر ليس صحيحاً". صمتها بصعوبة.
"هل تعرفين الوجه؟".
"أماني بروفنشر"
"هل تعرفينها؟"
"تعمل في المركز الاستشاري" تحاشت عيناها النظر إليّ.
"متى رأيتها آخر مرة؟".
"كان ذلك منذ بضعة أسابيع. ربما أكثر. لست واثقة. لم أكن هنا"

"هل هي طالبة؟"

"ماذا تفعل هنا؟"

سردت: لا أعرف حجم المعلومات التي ينبغي لي أن أكشفها لك، لكنّ تبدل مرح أب حتى أخذك في أنها هي مسيطرة تتب أو تتدخل بمجموعات لم تنتظر حواسي.

"هل كلوها؟"

"من يا أنا؟ من هم؟".

أحنوا تقترب إليّ، وتلمع دموعها في الضوء.

"أسرتي ستاندي عن حديثكما. كانت هشة وعطفة. هناك جماعة هنا في الجامعة، لكن لا علاقة لها بجماعة المعتقدات غير المريحة، ولا علاقة لي بها. أمالي واحدة منهم. عملت في المركز الاستشاري لأنهم طلبوا منها ذلك"

"هل التقيتما هناك؟"

أومأت، ومرّرت إصبعها تحت عينيها، ثم مسحت يديها بسروالها.

"متى؟"

"لا أدري. قبل وقت طويل. كنت أتورط في الشراب فيما فكّرت في الحصول على استشارة. عندما كنت أذهب إلى المركز كانت أمالي تتكلم معي، وتقسم بسرية. لم تتكلم قط عن نفسها أو عن مشكلاتها. أصغت فعلاً إلى ما كنت أقوله. كانت بيننا أمور مشتركة كثيرة، لقد أصبحنا صديقتين"

تذكرت كلمات رند. يتدرب القائمون على عملية التجنيد ليحصلوا على معلومات عن أعضاء محتملين، لإقناعهم بوجود رابطة مشتركة ولكسب ثقتهم.

"تكلمت عن تلك الجماعة التي تنتمي إليها، وقالت إننا نقترب حيالك حدوداً. ذهبت أمالي إلى إحدى الاجتماعات، وكان الأمر ممتعاً" عرّت كتفيها "تكلم أحدهم، وتناولنا طعاماً، ولدينا تمارين تنفس وأشياء من هذا القبيل. لم يحصل الأمر كثيراً، لكنني عدت إلى هناك بضع مرات لأن الجميع كانوا يتصرفون وكأنهم أحبوني حقاً"

إطلاق مشاعر الحب

"ثم دعوني إلى الرقص، وبعد ذلك تطعماً على عشاء. لعب أمامنا واستمعنا إلى المطربات وغنينا وأدينا كاريوكي. أحبت أماني ذلك، لكنه لم يكن يناسبني. ظننت أن هناك الكثير من الفراغ، لكن لا يمكنك الاعتراض بصفة إلى عشائه لم يتركوني وحدي لحظة ولم أحظ بدقيقة واحدة للاختلاء بنفسي.

لم أرد حتى البقاء برفقة أحد لحضور ورشة عمل، وعندما رفضت، حضور! قليلاً تعمدت كثيراً في العثور على وسيلة مواصلات تعود بنا إلى البيت. أتحدى أماني الآن، تحكي أمرها من وقت إلى آخر"

"ماذا تدعى هذه المجموعة؟"

"لست واثقة"

"هل تظنين أنهم قتلوا أماني؟".

مسحت وحنت كتفيها جانبي ساقيها.

"كان هناك رجل التقيته في المرحلة انضم عبر جزيرة ... في مكان آخر. على كل حال، بعد أن غادرت معي معهم حتى لم أره وقتاً طويلاً ربما لمدة سنة، ثم قابلته مصادفة في حفلة في جزيرة الأخوات. خرجت معه بعض الوقت، لكن علاقتنا لم تنجح" هزت كتفيها مرة أخرى. "آنذاك كان قد ترك المجموعة، لكن كانت لديه بعض القصص المرعبة عما يجري داخلها لم يتكلم عنها كثيراً لأنه كان خائفاً جداً"

"ما اسمه؟"

"يعوت الهولندي بالي جزيرة"

"أين هو الآن؟"

"لا أعرف. أظن أنه انتقل بعيداً" مسحت دموعاً عن عينيها السفلى.

"أنا، هل د جيبوت على علاقة بهذه الجماعة؟"

"لماذا تطرحين هذا السؤال؟" سحبت حرفها مع آخر كلمة، واستطعت رؤية عرق أزرق صغير ينبض في عنقها.

"عندما التقيت للمرة الأولى في مكتبها، بدت متوترة جداً في أثناء وجود د جيبوت"

"لطفاً كانت لطيفة معي، وهي أفضل لرأسي من التأمل والتحكم بالتنفس" تابعت. "لكنها أيضاً كثيرة المطالب، وأشعر بالقلق طوال الوقت من إفسادي شيئاً ما."

"أفهم أنك تمضين وقتاً طويلاً معها"

عادت عيناها إلى الهياكل العظمية. "ظننت أنك مهتمة بأمثالي وأمثالي"

"آه، هل أنت على استعداد للتحدث إلى شخص آخر؟ ما أخبرتني به مهم، وسترغب الشرطة بالتأكيد في أن تتابع الأمر. هناك محقق يدعى أكتور رايلان يحقق في تلك الجرائم. إنه رجل لطيف حقاً، وأظن أنك سترتاحين إليه."

رمقتني بنظرة مرتبكة ودعكت شعرها خلف أذنيها.

"ليس هناك شيء يمكنني إخباركم به. يستطيع سون ذلك، لكني لا أعرف حقاً إلى أين ذهب".

"هل تتذكرين أين تقيم ورشة العمل تلك؟"

"في مزرعة ما في مكان ما. ذهبت إلى هناك في شاحنة مغلقة ولم أعر اهتماماً كبيراً للطريق، لأنهم جعلونا نلعب ألعاباً. وفي أثناء عودتنا خلدت إلى النوم. أبقونا مستيقظين كثيراً وكنت مجهدة ما عدا جوعي ونعاسي، ثم إني لا أعرف أياً منهم جيداً، وتقول الآن إننا -"

سمعنا صوتاً في الطابق الأول، ثم سمعنا صوت شخص يصعد السلالم: "من هناك؟"

صحت أنا: "رائع، سأحضر المفتاح الآن."

"ألا يعترض أحد أن يكون هنا؟"

"ليس تماماً. عندما توقف عن العمل في المتجر احتفظت بالمفتاح"

رائع

قلت وأنا أنهض عن المقعد الخشبي: "تعالي معي".

ناديت: "هل هناك أحد؟ نحن هنا".

سمعت وقع خطوات على السلالم، ثم ظهر جيريمي عند الباب. كانت لحيته تغطي رأسه وتصل حتى عينيه، وكان يرتدي بلوكا مبللاً بالماء لا يكاد يغطي بطنه كان يتنفس بصعوبة، وأسنانه تبدو صفراء تحت الضوء البنفسجي.

قلت بمبالغة: "آه، يا الله، نحن محظوظان برؤيتك. كنت ترسم أودوكوبلوس فورجيسانوس وفقدنا الإحساس بالزمن. غادر الجميع في وقت سابق بسبب الثلج، وأظن أنهم نسونا. لقد علقنا في الداخل". ومنحني ابتسامة ساحرة. "كنت على وشك الاتصال بالأمن".

قال بصوت أجش: "لا يمكنكما البقاء هنا في هذا الوقت. المتحف مغلق".

من الواضح أن لوقتي قد ذهب سدى.

"طبعاً. يجب أن نذهب حقاً. سيصاب زوجها بالجنون وهو يتساءل عن مكانها". أمسكت يد آنا، التي كانت ترمي مثل سلحفاة في صندوق.

نقل الحارس عينيه الفاحصتين من آنا نحوي، ثم أمال رأسه نحو السلالم. "لنذهب إذاً".

لم نضع وقتاً.

في الخارج، كان الثلج لا يزال ينهمر. وكانت القطرات أكبر الآن مثل مارشميلو (شراب مكثف محلّى) كنت وشقيقي نشتريه من باعة متجولين في الصيف. لاح لي وجه هاري من كوة ذهني. أين أنت يا هاري؟

عند قاعة بركس رمقتني آنا بنظرة مضحكة. "أودوكوبلوس فورجيسانوس؟"

"هذا ما خطر ببالي".

"لا يوجد شيء ليس قليل في الفحص".

هل كانت هناك تجاعيد حول عينيها، أم أن ذلك كان بتأثير البرد فقط؟ هززت كتفي.

زودتني آنا برقم هاتفها وعنوان منزلها وهي مترددة ثم افترقنا. وأكدت لي أن زوجها سيتصل بها قريباً. وبينما كنت أحث الخطى على طريق الجامعة، بحثت عن شيء من أستند إليه المكتب. كانت آنا تقف عند مدخل المبنى القديم لوحش العمارة ساكنة من دون حراك، مثل رفاقها من العصر المطبق.

عندما وصلت إلى المنزل اتصلت بجهاز نداء ريتشارد. رنّ الهاتف بعد دقائق، فأخبرته أن آنا قد ظهرت وأوضحت له حقيقتي معها. وعد بإبلاغ قاضي التحقيق

وبالبحث عن سجلات أمالي بروفنشر الصحية والسنية، وأتى الكلفة بسرعة لأنه يريد الاتصال بأمه قبل أن تغادر مكتب جيفرت. كان سيتصل بي لاحقاً ليطلعني على ما عرفه خلال النهار

تناولت عشاء مبكراً في مطعم وكروسان، ثم استحممت بحمام طويل، وارتديت بدلة رياضية مريحة وبلوزة من قطن بلون أحمر بالورد. تفرجت بإشعال النار، كنت قد استخدمت آخر قطع حطب الإشعال، عندما نفضت أوراق صحيفة على شكل كرات وأشعلتها. كان الجليد يتكتك على النافذة عندما أخرجت الكومة ورائحة الغاز تتصاعد منها.

الثامنة والربع دقيقة. حضرت ملاحظات بالأخبار وشاهدت الطقس على سيمبلك (مسلسل كوميدي) عسى أن يكون لإبداع الحوار والضحك أثر مهدئ. هادئاً تركت أفكاري على هواها. كنت أعرف أنها ستجري مثل القطط في الليل، تثب وتسرح، وتزيد القلق إلى مستوى يكون النوم معه مستحيلاً.

عالج بدل جري وكرير قصارى جهدهما، لكنني لم أستطع التركيز.

التفت بصري إلى النار. كانت ألسنة اللهب قد تضاءلت إلى شريرات صغيرة تتلوى حول قطعة خشب في الأسفل. ذهبت إلى موقد ووصلت قسماً من الصحيفة، مزقت هذه صفحات وكوّرتها، وحشرتها بين الجمرات

كنت أحرك قطع الخشب عندما تذكرت سبباً الصحيفة؟

كنت قد نسيت الفيلم المصغّر!

ذهبت إلى غرفة النوم، وسحبت الصفحات التي كنت قد نسختها في مكتبي، وعدت إلى الأريكة. لم يستغرق الأمر سوى ثانية لتحديد موقع المقالة في لابرس.

كانت القصة موجودة كما أتذكرها، في 20 نيسان من العام 845 كانت بسوغي، بكون منحدر إلى غرب ولقي في باريس وبروكسل، وقضى الصيف في جنوبي فرنسا، وتعود إلى مونتريال في تموز. كانت أسماء أعضاء حاشيته مذكورة، إضافة إلى مواعيد حفلاتها القادمة. وكانت هناك أيضاً خلاصة موجزة عن سيرتها العملية، وتعليقات عن مدى الاشتياق إليها

كانت نقودي المعدنية قد أوصلتني إلى 26 نيسان. تصفّحت كل ما كنت قد طبعته، لكن اسم يوحن لم يظهر بعدما عدت إلى الخلف، وقرأت بإمعان كل قصة وإعلان.

ظهرت المقالة في 22 نيسان.

كان هناك شخص آخر سيظهر في باريس لم تكن موهبة ذلك السيد في مجال الموسيقى وإنما في فن الخطابة. كان في جولة لإلقاء محاضرات إذ كان يندد ببيع السخرة ويشجع على إقامة علاقات تجارية مع غرب إفريقيا. ولد في ساحل الذهب، وتلقى تعليمه في ألمانيا، ويحمل إجازة أستاذ في الفلسفة من جامعة هيل. كان قد ألقى آنذاك إحدى سلسلة من المحاضرات في كلية العلوم الدينية في مكمين.

هممت بالتسريع إلى الوراء، إلى عام ألف وثمانمائة وخمسة وأربعين. كانت العبودية لا تزال شائعة في الولايات المتحدة، ولكن تم حظرها في فرنسا وإنكلترا، إلا أن كوبا كانت لا تزال مستعمرة برتغالية. كانت دور العبادة والجمعيات المحلية تتوسل إلى الإفريقيين لإيقاف تصدير إخوتهم ومواطنيهم، وتشجع الأوروبيين على إنشاء علاقات تجارية شرعية مع غرب إفريقيا. كيف نملك. ماذا كانوا يدعون ذلك؟ التجارة الشرعية.

قرأت اسم المسافر وأجرة سفره، واسم السفينة.

كان أبو غابي ويوحن نيكول قد قطعا المحيط على متن السفينة نفسها لعيب لأخص الناس.

هل كان الأمر على تلك الحال؟ هل عثرت مصادفة على معلومة بقيت سراً قرناً ونصف؟ يوحن نيكول وأبو غابي؟ علاقة غير شرعية؟

استجلبت حذائي ثم ذهبت إلى باب الحديقة، وأدرت المقبض ودفعت الباب، لكنه كان مغلقاً بإحكام بسبب الجليد الذي تشكل عليه. دفعت وركي بقوة عليه فانفتح.

كانت كومة الحطب متجمدة، وقد استغرق مني الأمر بعض الوقت لتحرير قطعة خشب باستخدام مالج حديقة. عندما عدت أخيراً إلى الداخل كنت أرتعش ومغطاة بحبيبات ثلج صغيرة. جمّدني صوت ما أثبتني في مكاني عندما كنت أتجه نحو الموقد.

لم يكـن صـرير بابـي يرنّ وإنما يزقزق. صدر عنه ذلك الصوت آنذاك ثم توقف فجأة، وكأن شخصاً ما اقتنع بعدم وجودي في المنـزل.

رميت قطعة الخشب، وأسرعت إلى جهاز الأمن، وضغطت على زر الفيديو، رأيت على الشاشة شكلاً مألوفاً يمضي عبر الباب الأمامي.

أمسكت مفاتيحي، وركضت عبر الرقعة، وفتحت الباب المؤدي إلى الرواق، كـان البـاب الخارجي يعود إلى مكانه، فضغطت على القفل وفتحت الباب على مصراعيه.

كانت ديزي جيدوت ستيفلي متكئة على درج منـزلي

31

تحركت جيسون قبل أن أستطيع الوصول إليها. سحبت يديها ببطء وتكوّرت، ثم دفعت نفسها إلى وضعية الجلوس، وحدّقت بي.

"هل تأذيت؟" كان حلقي جافاً جداً وكانت كلماتي تخرج قوية ومضغوطة.

فزعت لسماع صوتي، ثم استدارت.

"أنا بخير. لقد وقعت، لكني بخير."

سددت يدي لمساعدتها. كانت ترتعش، ولا تبدو بخير على الإطلاق.

"أرجوك، دعيني آخذك إلى المنزل وسأعد لك بعض الشاي."

"لا، لا يمكنني. هناك شخص ينتظرني. لا يجب أن أخرج في مثل هذه الليلة الرهيبة لكن يجب أن أتكلم معه."

"دعيني من فضلك، فالمكان هناك أكثر دفئاً."

"لا، شكراً." كانت نبرة صوتها باردة مثل الهواء.

أمسكت وشاحها، ثم نظرت مباشرة في عينيّ. عندها، ظهرت كدمات تلمع تحت ضوء الشارع، فيما بدت أغصان الأشجار سوداء لامعة عبر أنوار الصنوبر.

"يا سيدتي، يجب أن تتركي حقائبي وسلّمي. لقد حاولت أن أساعدك، لكني أظن حقاً أنك تستحقين طبيباً. لا يمكنك ملاحقة هؤلاء الشبان عبر هذه

الـصحو، وشـرويد الـشرطة برفقـتي لتضايق مساعدتي. هذا أمر غير مقبول أبداً"

مسحت عينيها بيديها، وتركت لطخة داكنة على وجنتها.

استشطت غضباً مثل عود ثقاب. كنت أحس بذراعيَّ حرّى وسطي، وعم الشيء الداخلي شعرت بالطفيري المترس في جسمي.

"بالله عليك، ما الذي تتكلمين عنه؟ أنا لا، لا أحقق أنا" قلت ذلك بحدة. "هذا ليس مشروع بحث ما! إنهم أشخاص حقيقيون! هتره بالتحديد، والله يعلم إن كان هناك آخرون".

ظهر طفح غضبي على جبيني وذراعيَّ، لكنني لم أشعر به. المعصبتي كلماتها، عبّرت عن كل الألم والإحباط اللذين تراكما داخلي في الأسابيع القليلة الماضية.

"كانت جينيفر كلفورد وأماندا بروكشر طالبتين في مكتبي، وقد قُتلتا بدم بارد. ثم تلقيا جثتيهما حسب، لا، لم يكن ذلك كافياً. هؤلاء الناس قد رموهما إلى الحيوانات، لم تشاهدوا جثتيهما يتحرك وجنسهم تتعفنان وصولاً إلى دماغيهما"

تكلمت بصوت عالٍ من دون أن أستطيع السيطرة على نفسي، ولاحظت أن عابري سبيل أسرعا الخطى بالرغم من أن الرصيف كان زلقاً.

"تعرضت أسرة للتعذيب والتشويه، وقطعت امرأة عجوز وصلبت في رأسها على بعد أقل من ميل كيلومتر من هنا. الشفلاء! لقد دفن طفلين صغيرين، وتركت فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً شر ترين، ووضعت في صندوق سيارة، والقي بها في حديقة المدينة. إنهم مرضى يا د. جينيوت، إنهم مجموعة من المعتوهين الذين يظنون أنهم مسؤولون عن كل الفضائل"

شعرت بأنني أشتعل غضباً، بالرغم من البرد القارس.

"حسناً، دعيني أخبرك شيئاً" اقتربت نحوها بإصبع ترتعش. "ساعد هؤلاء الأوغاد القتلة الذين يظنون أنفسهم أفضل من الآخرين وأرشدهم بغض النظر عن عدد رجال الدين، أو مستشاري الضرائب، أو معلمي الكتاب المقدس الذين سافلتهم! وذلك بغض طلابنا وقد يتضمنك أنت!"

بدا وجه جيوت شاحباً في الظلام، وقد حرّكت سكرة اللحظة وجهها إلى ما يشبه قناعاً مرعباً. وكانت هناك كتلة قد تشكّلت فوق عينها اليسرى وألقت ظلاً عليها، وعصب عينها اليمنى تبدو محمرّة على نحو غريب.

أمسكت إصبعي ووضعت مرفقي عندما حرّكت جسدي. كنت قد تلقّيت الكثير. هدأت ثورة غضبي، وحمتني قوة ارتخائي.

كان الشارع مهجوراً وساكناً على نحو غريب. استطعت سماع أصوات أنفاسي.

لا أدري ما كنت أتوقع أن أسمعه، لكنه لم يكن السؤال الذي خرج من فمها: "لماذا تستجوبني هذه الليلة؟"

"ماذا؟ هل كانت مشكلة في كلامي؟"

"كتاب طلاسم، مصرف، ورجال دين. لماذا تذكرين هذه الإشارات؟"

"لأنني أظن أن أشخاصاً معينين ارتكبوا هذه الجرائم."

حافظت جيوت على رباطة جأشها. وعندما تحدثت كان صوتها أبرد من الثلج، وجعلتني كلماتها أشعر بقشعريرة أكثر من برودة الطقس.

"لا يمكنك فهم ما يجري يا د. برنالد. أحذّرك أن تتركي الأمر وشأنه" حدّقت العينان الحادتان إلى عينيّ. "إذا تابعت على هذا المنوال، فسأكون مرغمة على اتخاذ إجراء ما".

تقدّمت سيارة ببطء عبر الزقاق الضيق نفسه الذي أمسكنا فيه. وعندما انعطفت نحو الشارع، أنارت مصابيحها الأمامية وجه جيوت للحظة.

ازداد توتري، وغاصت أظافري عميقاً في راحتي.

آه، يا الله.

لم يكن ذلك سوى ومضة عبرت عن الظل. كانت عين جيوت اليمنى متسعة على نحو غريب، وظهر الجفن والأهداب البيضاء من دون مساحيق تجميل في شعاع الضوء العابر.

ربما رأت شيئاً في وجهي، لأنها شدّت وشاحها إلى الأمام واستدارت، ثم تابعت طريقها سيراً على الدرجات ولم تنظر إلى الخلف.

عندما دخلت السـرير، كان صوت فرسائل يومض. رايان. عاودت الاتصال به بيدين مرتجفتين.

قلت له من دون أن أضيع وقتاً: "جيمي متورطة. كانت هنا الليلة لتغضب مني أن التخلي عن متابعة الأمر. يبدو أن اتصالك بآنا أزعجها حقاً. اسمع، عندما دعت بل سائلت عنهنا، هل تتذكر الرجل ذا العصبة البيضاء؟"

"نعم. إنه رجل نحيل وعجوز، يبدو مثل فزاعة. دعني أتكلم مع أريـسر." بدا رايان مرهقاً.

"تحمل عين آن بالضبط نفسه من فقدان اللون. وهو ليس واضحاً لأنها تغطيه عبر مساحيق التجميل"

"مثل الرجل صاحب خُصلة الشعر؟"

"لست واثقة، لكنها ستخدم على الأرجح صيغة اسمع، لا بد أن هناك صلة بين هذين الشخصين. إنها سمة غير عادية ليكون الأمر مجرد مصادفة"

"هل هما قريبان؟".

"لم أعــر الأمر اهتماماً كثيراً في ذلك الوقت، لكنني أظن أن الرجل في مناسب هيلت أصغر من أن يكون والدها وأكبر من أن يكون ابنها"

"إذا كانت من جبال بيبي ستكون الاحتمالات الوراثية محدودة"

"مضحك". لم أكن مزاج مناسب للدعابات سمجة.

"قد يكون هناك عشيرة كاملة تشترك في تلك الجينة الوراثية"

"هذا حقني يا رايان"

"كيف يعرفون مـورثات مختلفة لدى أشخاص مختلفين" تلك حيث لوكــسوروني (كومــيدي لموكي). "إذا كانت مورثاتك نفسها لدى شخصك عندها ربما"

مورثات. أثار شيء ما بشأن الورثات اهتمامي

"ماذا قلت؟"

"أشخاص، إنه ما ندعوه اسم -"

"توقف عن ذلك! لقد فكرت في شيء آخر. هل تتذكر ما قاله والد هايدي طاقيلر عن راثوما؟"

أطبق الصمت.

"قال إن الرجل يبدو مثل طرزان لعين"

"حسنٌ، إذاً، ربما لم يكن الأب يستخدم جهازاً هاتفياً"

في مخيلتها رنّ الهاتف ورنّ طويلاً من دون أن يرد عليه أحد.

سأل ريفاك: "هل تظنين أن لوبيز أرسل صاحب القصة إلى تكساس؟"

"لا، ليس لوبيز. تكلم كل من كاتري والرجل المحجوز عن امرأة. أظن أنها جيسون. ربما نشر المرض من هنا ولديه مساعدون في معسكرات الأخرى. أظن أيضاً أنها تجند بعضهم في الجامعة عبر شبكة حلقات دراسية"

"ما الذي يمكنك إطلاعي عليه بشأن جيسون أيضاً؟"

سردت كل ما تعرفه، ومن ضمن ذلك سلوكها عبر مساعديها، وما كان قد عرفه من محادثته مع آنا.

"لم أعرف الكثير. أظن أنها تملك معلومات كثيرة. هذه الفتاة تجعل ريتشا (بطلة لعبة فيديو) تبدو طبيعية"

"ربما تتعاطى بالمسوحات".

بدا الرئيس مجهداً.

"هل أنت وحدك هناك؟" بدت غرفة القرية عالقة على نحو غير طبيعي، ما عدا رنين الهواتف.

"لقد خرج الجميع تحسباً بسبب هذه العاصفة الوحيدة. هل تواجهين متاعب؟".

"مثل ماذا؟".

"ألا تستمعين إلى الأخبار؟ انقطع بعيد كل شيء. لقد أغلقوا المطار، والكثير من الطرقات الرئيسية عبر ساكنا. خطوط الكهرباء تتدلى مثل معكرونة جافة، ومساحات شاسعة من الساحل الجنوبي باردة ومظلمة. بدأ الناقمون على المدينة يطلقون النار على الطاعنين في السن، ويتحررون من اللصوص أيضاً"

"أنت تثير حنقي الآن. هل عثر رجال بيكر على أي شيء يربط ساندت هيلينا بالجماعة في تكساس؟".

"السبب حقاً. تكلم الرجل المسؤول صاحب الكلب كثيراً عن لقاء ملاكه الحارس. يبدو أن أوبيرو وأتباعه لديهم الفكرة نفسها. هذا واضح من دفاتر مذكراتهم".

"مذكرات؟"

"نعم. من الواضح أن بعض الصالحين يمتلكون حافز الإبداع"

"و...؟"

نفخت بأخذ شهيق، ثم أطلقت زفيراً بطيئاً.

"المسيح، النعمة عليك!".

"وقف بعض الخبراء هناك، من المؤكد أنه أمر حاسم بنهاية العالم، وهو يحدث الآن. إنهم مستعجلون إلى الحدث الكبير من مخاوف الشريف بيكر، وقد استدعى الاغتصاب"

"ولم يتركوا دليلاً على وجهتهم؟ أعني الوجهة الأرضية"

"لقد دعوا للقاء ملاكهم الحارس والانتقال إلى مكان أفضل. حدث هو نوع المراء الذي نتعامل معه. لكنهم مطمئنون جداً. من الواضح أنه تم التخطيط لرحلة منذ وقت طويل"

"حينوت! يجب أن نعثر على حينوت! إنها هي! إنها ملاك الحارس!".

كنت أعرف أنني أبدو شديدة الهياج، لكنني لم أستطع كبح جماح نفسي

"حسن، لو اعتقدت ذلك، متى توقف حضور الآنسة دوري في الزاوية. من عادتي منتصرف؟"

"قبل خمس عشرة دقيقة"

"إلى أين كانت تتجه؟".

"لا أدري. قالت إنها ستقضي أمسية"

"حسن، سأعثر عليها. برأسه، إذا كنت محقة بشأن هذا الأمر فإن الآنسة هاسكوم امرأة خطرة جداً. لا تتحركي. أكرر، لا تفعلي أي شيء من تلقاء نفسك. أعرف أنك قلقة على جارتك. لكن، إذا كانت قد ذهبت مع هؤلاء الذين فسيتطلب الأمر عثوراً لإخراجها من ورطتها. هل تفهمين؟"

قلت بحدة: "هل يمكنني تنظيف أسناني؟ أم أن ذلك ينطوي على مجازفة؟" لم تخرج طريقتي أفضل ما عندي.

"تصرفي ما أمكنك. عثري على بعض الشموع. سأعاود الاتصال بك عندما أعرف شيئاً".

انتهت المكالمة ومضيت إلى باب المطبخ. أردت فسحة أكبر حولي، لذا أزحت الستارة جانباً. بدت الساحة مثل حديقة خيالية، إذ كانت الأشجار والشجيرات فيها غريبة الشكل من خبث الزجاج. كانت طبقات رقيقة من الثلج تغطي شرفات الطوب العليا وتلتصق بالجدران و مناص لبنية من الآجر.

عثرت على شموع، وأعواد ثقاب، ومشعل كهربائي، ثم أخرجت معاطفي وسماعتي الرأس من حقيبتي الرياضية ووضعت كل شيء على منضدة المطبخ. وبعد ذلك عدت إلى غرفة المعيشة، وجلست على الأريكة وشغّلت التلفاز على محطة سي. بي. إن الإخبارية.

كان رعبان محقاً لأن العاصفة كانت عنيفة. فقد أوقفت شركات الطيران رحلاتها في كل أنحاء الإقليم ولم يكن في مقدور هايدرو - كيبيك تحديد موعد لعودة التيار الكهربائي. كانت درجات الحرارة تنخفض، وكان مزيد من الثلج سيهطل.

ارتديت سترة وخرجت ثلاث مرات لأحطب حطباً. فإذا انقطعت الكهرباء ستبقى المدفأة وسيلة للتدفئة. جلبت بعد ذلك بطانيات إضافية ووضعتها على السرير. وعندما عدت إلى غرفة الجلوس كان مذيع أخبار متجهم يعدد أحداثاً من الحدث.

كان ذلك إجراءً مألوفاً، ومرعباً على نحو غريب. فعندما يتساقط الثلج بغزارة في الجنوب، يتم إغلاق المدارس وإيقاف النشاطات العامة، وتجرّد موظفو الحكومة رفوف المتاجر من محتوياتها. عادة لا تقع عواصف ثلجية في تلك الولاية أبداً، وإذا تساقط الثلج فإنه يختفي في اليوم التالي. الاستعدادات متواضعة في مونتريال لمواجهة لا اضطراب فيه، ويمضي عنها من سوف تصب على المشكلة.

شغلني الاستعداد لمدة خمس عشرة دقيقة، وأثناء ذلك التلفاز تسمعني عشر حقائق أخرى، ثم أحسست استراحة قصيرة. عندما أوقفت الجهاز عن العمل، عاد الذي

بكامل قوته، وشعرت بانزعاج شديد كان رايان محقاً. لم يكن هنالك شيء يمكن فعله، وربما عثرت على الشرعامي

عادت روبي لتجلد في الليل، على أمل إبعاد الأفكار السيئة عنها وقتاً أطول، لكنّ ذلك لم ينفع. عندما تكوّرت في السرير، عادت الهواجس العصبية.

هاري. لماذا لم أسمع إليها؟ لماذا كنت متمسكة بطوقي الخاصة إلى حدث الحد؟ لمن استمعت؟ لماذا لم تتصل بأمّها؟ ماذا لم تتصل بي؟

ديزي جيوت. من الشخص الذي كانت ستلتقي به؟ ما الأمر الخطير الذي كانت تخطط له؟ كم شخصاً ربما كانت تنوي أخذه معها؟

هايدي شابيرو. من الذي شعر بتهديد شديد من طفلي هايدي إلى درجة أنه قتلهما بوحشية؟ هل كانت تلك الوفيات بمثابة لإزالة الزؤان من الحقل؟

جينيفر كانسون، أماني بروهشر، كارول كومبتو! هل كانت تلك الجرائم جزءاً من الجنون؟ أم لأعراف كي قد انتهكن؟ هل كانت وفاتي جزءاً من طقس جهنمي؟ هل لقيت شقيقتي المصير نفسه؟

عندما رنّ الهاتف قربه، فتحت بسقوط المقبس الكهربائي على الأرض، رجوت أن يكون رايان متصلاً ليخبرني أنه اعتقل جيرت.

جاء صوت ابن شقيقتي عبر الخط

"آسف جداً يا خالة تيس. أظن أنني أفسدت الأمر حقاً فحسب. فسمعت صوتك على الشريط الأحمر"

"أي شريط أحمر؟".

"كسدي جهاز سيجل مكالمات قديم مع أشرطة صغيرة. لم يكن الشريط الموجود في الجهاز يعود إلى الكلف كما تحب هذا وضعت شريطاً جديداً. لم أفكر فيه حتى عادت صديقتي إلى هنا. كنت سأزعجك حتماً منه لأنه كان يُفترض به أن تخرج معنا في الأسبوع الماضي. ولكن عندما ذهبت إليها لم تكن في المنزل. عندما زارتني اليوم اضطررنا أن تعرب عن وجهي، لكنها أصرّت على أنها تركت رسالة تساعدنا وأخرجت الشريط القديم وشغلته. كانت رسالتها هنه، ورسالة هاري أيضاً، في عليه تماماً"

"ماذا قالت والدتك؟".

"بسدت منــزعجة بعض الشيء، كيف هي هاري. لكنها بدت خائفة في الوقت نفسه. كانت في مزرعة في مكان من هذا القبيل، وترغب في أن تغادرها. لكن لم يكن هناك أحد على استعداد ليحملها إلى مونتريال. لهذا أظن أنها لا تزال في كندا"

"ماذا قالت غير ذلك؟" كان قلبي يخفق بقوة حتى أنني ظننت أن من حولي سيسمعه.

"قالت إن الأمر أصبح صعباً وإنها تريد الخروج من هناك لم لا شيء لو أنت كائنة. لست واثقاً من ذلك. لقد انتهت الرسالة فحسب"

"متى اتصلت؟"

"الخميس يوم الاثنين" كانت رسالة هاري بعد ذلك"

"أليس هناك مؤشر للتاريخ؟"

"هذا الشيء مصنوع في عهد بروماك".

"متى تلقيت الشريط؟"

"أظن أن ذلك ربما حدث الأربعاء أو الخميس. لست واثقاً، ولكن قبل نهاية الأسبوع بالتأكيد"

"فكّر يا كيت!"

صدر صوت على الخط.

"أظن أنني عندما رجعت إلى منزلي من القارب كنت متعباً ووجدت أن الشريط لا يعود إلى الخلف لهذا أخرجته وقمت باستبداله. في ذلك الوقت وضعت الشريط الجديد. بيد أن هذا يعني أنها اتصلت قبل ثلاثة أيام على الأقل. وربما منذ ذلك آمل أن تكون على ما يرام. بدت مذعورة، حتى في نظر هاري"

"أظن أنني أعرف مع من هي. ستكون بخير" لم أستطع كتمانها.

"أعلميني عندما تتكلمين معها. أعترف أنني أشعر بالسوء تجاه هذا الأمر. لم أفكر في ذلك من قبل"

مضيت إلى النافذة ووضعت وجهي على الزجاج. حولت حلقات بعيدة مصابيح الشوارع إلى هالات صغيرة وتوقف عقلي إلى مستطيلات مضيئة. وسألت المخرج على رحلتي عندما فكرت في شقيقتي التي كانت في مكان ما في تلك العاصمة.

عــدت متنقلة إلى السرير، وشكلت المصابيح واستاقت هناك بانتظار مكالمة رفيال.

بــين الفينة والأخرى كانت الأضواء تخبو، وتضطرب، ثم تعود إلى طبيعتها. مرت ثانية وبقي الهاتف صامتاً.

فكرت.

كان المعلم الذي رفودن هو الذي قدّم لي مدخل النهائي

32

كنت أقف وأتطلع إلى دار العبادة القديمة، وكان الفصل شتاءً والأشجار عارية. وبالرغم من أن السماء مكفهرة إلا أن الأغصان كانت ترسم ظلالاً مثل بيوت العنكبوت على الجدران الرمادية التي عفا عليها الزمن. كان الهواء يعبق برائحة الثلج، وكان صمت ما قبل العاصفة مطبقاً حولي. ورأيت بحيرة بعيدة متجمدة.

فتح باب وظهر شكل تحيط به هالة تحت ضوء المصباح الأصفر الخافت. تردد ثم مشى باتجاهي، وكان يحني رأسه لاتقاء الريح. اقترب الشخص، فتبينت أنها أنثى تضع غطاء على رأسها وترتدي عباءة سوداء طويلة.

اقتربت المرأة مني وظهرت فوق كسفات الثلج البيضاء بما تحمل جسدها، وأدركت أن انحناءها لحماية الشمعة فتساءلت كيف بقيت متقدة.

توقفت المرأة وأومأت برأسها. كان غطاء رأسها مغطى بالثلج كاملاً. كافحت لأتبين ملامح وجهها، لكنه مع هذا وضح للعيان مثل حصى في قعر بركة عميقة.

استدارت هيئتها

ابتعدت المرأة أكثر فأكثر. شعرت بالخطر وحاولت اللحاق بها، لكن جسدي لم يستجب، كانت قدماي ثقيلتين ولا يمكنني أن أحث الخطى. رأيتها تختفي عبر الباب، ناديت، لكن لم يصدر عني أي صوت.

بعد ذلك دخلت دار العبادة، وكان كل شيء معتماً. الجدران حجرية، والأرض ترابية. انعكست قواعد صحيحة عليها تتوهج في الظلام فوق رأسي، ورأيت كسفات صغيرة تحوم مثل دخان

لا أتذكر لماذا جئت إلى دار العبادة. أشعر بالتعاسة لأني أعرف أن هذا مهم لقد أوصلني أحدهم لكني لا أتذكر من هو

كنت أسير في الصحن في شبه الغسق، وأنا أنظر إلى الأسفل فأرى قدمي حافيتين. شعرت بالخجل لأني لا أعرف أين تركت حذائي. أردت أن أغادر المكان، لكني لم أعرف الطريق. وشعرت بأني إذا تخليت عن مهمتي فلن يكون في مقدوري أن أخرج من هنا.

كنت أسمع أصواتاً مكتومة فأستدير باتجاهها. هناك شيء على الأرض لكنه مبهم، مستريب لا يمكنني تحديده. تحركت نحوه فبدأت الظلال تتجمع في أشكال منفصلة.

حلقة من شرائق مطلية بشمع. حبوت نحو الأسفل إليها. إنها أصغر من أن تكون أجساداً، لكن أشكالها تبدو كذلك.

حبيت إلى إحداها ومرفق زاوية، فسمعت صوت طنين مكتوم. قمت بإبعاد الشمع فاندفع ذباب من تحته وطار في الظلمة. كان الزجاج ضبابياً بسبب البخار، فرحت أراقب الحشرات وهي تتجمع عليه، وأنا أعرف أن ذلك غير ممكن في البرد

عادت عيناي إلى الشرنقة. لم أسرع نحوها لأني أعرف أنها ليست جثة. إذ لا يتم تكفين موتى على هذا النحو

بعد كشطها، وأعرف الوجه. إنها كأمابل بروفنشر إليّ وسماتها مثل رسم كاريكاتوري بألوان زاهية.

بالرغم مما حدث، لا يمكنني أن أبحث مخطئ عنها. تحركت من حزمة إلى أخرى، وأنا أمد قشرة الشمع وأبعد الذباب يتغذى على الظلال. الوجوه بيضاء والعيون ثابتة، لكني لا أعرفها؛ ما عدا واحدة.

لصف ملتحمه الشمعي قبل أن أفتح الكفن. إنه أصغر بكثير من الأخريات. لا أريد أن أرى، لكن التوقف مستحيل.

لا حاجة للإنكار. لكن ذلك لا يجعلني أفهم.

كان كاري مستلقياً على بطنه، ويداه مكوّرتان في قبضتين.

رفعت الآن حتى أصرخ بصمت، جثيت في الحلقة

بدأت أصرخ، ولكن بعمق لم أسمع أي صوت.

أمسكت بذراعي، فرفعت بصري إلى الأعلى ورأيت فليبي. لقد تغيرت أو ربما أصبحت أكثر وضوحاً للعيان.

إلى الخلف، كان رداؤها بنياً ومعطفها عتيق، وعندما تحركت كنت أسمع طقطقة عظام، وأشم رائحة تراب رطب.

عندما رأيت حديداً بلون الشوكولاتة معلقاً بعنقها، والقرصات حوله. أعرف أنها إليزابيث ميكول

"من أنت؟". فكرت في السؤال، لكنها أجابت.

"كلهم يرتدون ملابس فاكهة"

لم أفهم.

"لماذا أنت هنا؟"

"جئت لأجل حروف محطمة"

ثم رأيت شكلاً آخر. شكل فتاة تقف في عتمتي. كان الضوء الخافت بسبب تساقط الثلج يخفي ملامحها ويجعل شعرها رمادياً باهتاً. التفت عيناها نحوي وتكلمت، لكن الكلمات ضاعت.

صرخت "هنري!"، لكن صوتي كان ضعيفاً.

لم تسمعني هنري. مدّت كلتا ذراعيها وتحركت نحوها.

صرخت مجدداً، ولكن لم يخرج مني صوت.

تكلمت ثانية فسمعتها، بالرغم من أن كلماتها بدت بعيدة مثل أصوات طفل في نومه.

"ساعدني. أنا أحتضر"

"لا!" حاولت الصراخ، لكن الشيء لم يتحرك.

صدمت هنري مرةً لم أحفظه، وقوله أرى شبحاً للآلاف الخارجي. وبعد ذلك أصبحت هنري خيالاً واختفت مع الظلام.

ناديتها لكنها لم تنظر إلى الخلف. حاولت الذهاب إليها، لكن جسدي كان متجمداً، ولا شيء يتحرك سوى الدموع على وجنتي.

فجأة، شعرت برفيقي، إذ امتد جناحان مكسوان بريش داكن اللون من ظهرها، وأصبح وجهها شاحباً وشبه شفاف سحيقاً، وتحولت عيناها إلى الفحم.

حصيرتين. وبينما كنت أحدق إليهما أبصرت الفرحتان صافقتين واختفى الفرد من شاخصتي والأعشاب. ظهر شريط أبيض في شعرها وراجع إلى الخلف، وقص فروة الرأس، ورماها عالياً في الهواء فسقطت الأسلحة على الأرض واندفع الشباب من النافذة ليسيطر عليها

"يجب عدم تحميل الطعام" يأتي الصوت من كل مكان ولا مكان.

تتحول بهجة حلمي إلى الرعب. أشعة طويلة من ضوء الشمس تخترق أشجار إسبانية، وظلال صلاقة ترقص بين الأشجار. أبحو حافر رأيت حفر أتصبب عرقاً وأنا أرى بالغرفة طب يعود دم حالك وأرميه على كومة صلبي

تضرب رائحة الغرفة شيء. فأكتشف المرآب لأكتشف عرض عن الشكل. وبر أسيض ملتصق بعين أحمر داكن. أمرر يدي على قوس الجبهة الخلفية لأكتشف بمناً ذات أظفار حمراء طويلة تقابع بشتى مرورها من أعلى الذراع. حاشية رجالة بعر كل شيء يلمع في سلمرة الشديدة.

أرى وجه علوي فأصرخ.

جلست منتصبة وقلبي يخفق بقوة وأنا أتصبب عرقاً. استغرق الأمر مني لحظة لأستوعب ما يجري

مونتريال، غرفة النوم، عاصفة ثلجية

كان الضوء لا يزال مشتعلاً والغرفة هادئة. تفقدت الساعة وكانت تشير إلى الثالثة والتسع وأربعين دقيقة.

تساءلي الحلم مجرد حلم، إنه عبارة عن الخوف والقلق، وليس حقيقة خطرت لي بعد ذلك فكرة أخرى. مكالمة ريان. هل كنت نائمة عندما اتصل؟

أبعدت عني اللحاف واتجهت إلى غرفة المعيشة. كان جهاز تسجيل المكالمات ساكناً وكانت شاشته مظلمة.

عدت إلى غرفة النوم، وخلعت ملابسي الرطبة. وبينما كنت ألقي بسروالي المبلل بالعرق إلى الأرض رأيت كدمات على شكل أظافر في لحم راحتي كفّيّ ثم ارتديت سروالاً وكنزة ثقيلة.

لم يكن اليوم لرقيب أطول ويبدو مرهقاً. هنا ذهبت إلى المطبخ وقمت بقلي بعض البيض. شعرت بالقلق من الحلم. لم أرغب في أن أتذكره لكن الحلم كان قد أثار شيئاً دفيناً في ذهني، وكنت بحاجة إلى فهمه. أحضرت الشاي إلى الأريكة.

أحلامي على نحو عام ليست واضحة ولا عنيفة أو غريبة. إن موضوعها أكثرها شيوعاً هو أنني لا أستطيع استخدام الهاتف أو رؤية الطريق أو التعامل بطريقة أو بأخرى أن أخضع لامتحان بكيمياء لم أحضر قط أي محاضرة. سهل جداً فهم هناك أحلام أقل تواتراً يكون المشهد فيها مبهماً. يجري اللاوعي مواد يكون ذهني الواعي قد جمعها، ويسحبها في مشاهد سريالية وتترك لي تفسير ما تقوله نفسي.

كان من الواضح أن كابوس تلك الليلة من النوع الأخير. أغلقت عينيّ لأرى ما يمكنني تفسيره. وومضت صور مثل ومضات عبر سياج من الأوتاد الخشبية.

وجه آمالي بروفنشر الحاسوبي.

الطفلان الميتان.

ديزي جينوب المقتضبة. تذكرت ما قالته لرايان. هل كانت حقاً ملاك موت؟

دم المساحة. إنه يشبه دم الضحايا في لالك عمرعلقوع. لماذا كان ذهني يعرض في ذلك؟

إليزابيث نيكول.

مسري خطيب المرأة لم تحظ في قبر معلم. هاري مينة مع يودي. هل كانت هاري في قبر فعلياً؟

عروس متعفنة. ماذا يعني ذلك؟ هل لم أحصل إليزابيث رغماً عن إرادتها؟ هل كان ذلك جزءاً من حقيقة سابقة؟

لم يكن لدي وقت للتمعّن في الأمر أكثر، لأن جرس الباب رنّ آنذاك. صديق أم عدو؟ تساءلت حتى كنت أسير إلى لوحة الجهاز الأمني وأرفع السماعة.

كان صوت رايان الطويل والنحيل يملأ الشاشة. ضغطت على زر لأسمح له بالدخول ورأيته عبر ثقب الباب في أثناء سيره في الممر. بدا مثل دجاج من القطيع المصروع (صورة الشيروكي إحدى قبائل الهنود الحمر).

"تبدو مرهقاً".

"كان يوماً طويلاً ولا سرقة تصل وقتاً إضافياً أن وحدي بظل العاصمة".

مسح رايان خدّيه ورفع سحاب الباركا. تساقط الجليد على الأرض حالما سرّح الفتونه. لم يسأل عن سبب ارتدائي ملابسي عند الساعة الرابعة صباحاً، ولم أسأل لماذا يزورني في تلك الساعة.

"عثر بيكر على كاثرين. غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة. إنها تتعاون بشأن أرنيستو".

"والطفل؟" سارع خفقان قلبي.

"إنه هناك أيضاً"

"أين؟"

"هل لديك قهوة؟"

"بالتأكيد"

رمى رايان قبعته على طاولة الردهة ومضى إلى المطبخ. تكلم بينما كنت أتحسس حبوب القهوة وأسكب فوقها الماء.

"كانت تختبئ لدى رجل يدعى إيسيدورو. هل تتذكرين المرأة التي اتصلت بالخدمات الاجتماعية بشأن أرنيستو؟".

"كنت أظن أن الجارة قد ماتت"

"إنه بيتها. هذا ابنها. إنه أحد الصالحين، ولكن لديه عمل ويعيش في آخر مسرب الأم"

"كيف حصلت كاثرين على كارلي؟"

"كانت هناك. هل أنت مستعدة لهذا؟ لقد تشتّت الناجين منطلقين إلى شارلستون، وذهبت المجموعة إلى المقر في منزل إيسيدورو. كانوا جميعاً هناك مختبئين طوال الوقت. ثم عندما هدأت الأوضاع غادروا المكان"

"كيف؟"

"تفرّقوا، وتم نقل كل منهم إلى مكان مختلف. وُضع بعضهم على متن مركب، وتم تهريب آخرين في شاحنات صغيرة وصناديق سيارات. يبدو أن أرنيستو لديه مكان سري. وكنا نحن مثل المغفلين لأننا ركّزنا فقط على الشاحنتين الملتقطتين"

أعطيته كوباً كان البخار يخرج منه.

"كان يُفترض بكاترين أن تذهب مع إسبيرو؟ ورجل آخر، لكنها أقنعته بالبقاء في مكانه"

"أي الرجل الآخر؟".

"تحول إسبيرو إلى صخرة صمّاء بشأن ذلك الموضوع"

"أليس ذهب لتسبيح؟". شعرت بحلقي يجف. كنت أعرف الجواب مسبقاً.

"أظن أنهم هنا".

لم أنبس بكلمة.

"لا تدري كاترين إلى أين ذهبوا بالضبط، لكنها تعرف أن الأمر يتطلب عبور حدود بسائر كل اثنين منهم معاً وقد تم تزويدهم بإرشادات عن الطرقات التي تخلو من دوريات شرطة".

"أين؟".

"تظن أنها سمعت كلاماً عن هيوموت. تم إخطار دوريات الطرقات العامة ودائرة الهجرة والتجنيس، لكن الأولاد قد هاجروا على الأرجح. كان لديهم نحو ثلاثة أيام، وكندا ليست دولة نائية في تحقيق بأمن الحدود"

ارتشف ونيال قهوته.

"تدّعي كاترين أنها لم تخبر الأمر لعصابة لأنها لم تعتقد أنهم سيرحلون فعلاً. لكنها تعرف شيئاً واحداً مؤكداً، وهو أنهم عندما يعثرون على الثلاثة الحارس سيموت المسيح"

بدأت أسبح للتفسير، بالرغم من كونها طفيفة آنذاك.

لم يتكلم أي منا وقتاً طويلاً، ثم قال: "أي كلمة من شقيقتك؟"

تقلّصت معدتي من حديثه. "لا".

عندما تكلم مجدداً كان صوته خافتاً. "عثر رجال يبكر على شيء في المنبع كانت هيلينا"

"ماذا؟". ظهر صوتي واضحاً.

"رسالة إلى لوبير سافرت فيها شخصٌ يدعى ماثيان أمر بحسين لعيدة انتخابية". شعرت بيد على كتفي. "يبدو أن المنظمة كانت واحدة، أو أن أتباع

ويتسنز تسللوا إلى الدورات الدراسية. فذلك الجزء ليس واضحاً ولكنّ الواضح هو أنهم استخدموا تلك الدورات لتجنيد أعضاء"

"آه يا الله"

"يعود تاريخ الرسالة إلى ما قبل شهرين تقريباً لكن، ليس هناك شيء يشير إلى المكان الذي جاءت منه. الصياغة مبهمة، لكن يبدو أن هناك عدداً يجب تحقيقه، واحتمال وعد بأنه سينجز ذلك"

"كيف؟" استطعت أن أتكلم بصعوبة

"لا أعلم. ليس هناك شيء آخر يشير إلى تحسس الحياة السياسية ما عدا تلك الرسالة الوحيدة".

عاودني الحلم بتفاصيل شديدة الوضوح وشعرت بجليد يسري في عروقي

"لقد نالوا من هارييتا" قلت بشفتين مرتعشتين. "يجب أن أعثر عليها!"

"سنجدها"

أسمعته من الصالة كيته.

"حياً".

"كيف يمكن أن يبقى هؤلاء الناس بعيدين عن الأنظار طوال سنوات، لم يكتشف أمرهم ويتسللون من مكانهم ويغتصبون؟". كان صوتي متهدجاً

وضع رايان كوبه على منضدة وأخذني نحوه ممسكاً بيديه. كنت أضغط على الإسفنجة بقوة جعلتها تصدر أصوات همس.

"لا يوجد أثر لهم لأن هؤلاء الناس لديهم تمويل سري ضخم، فهم يتعاملون بالعملة النقدية حصراً، ولكن لا يبدو أنهم متورطون في أي شيء غير قانوني"

"ما عدا الجرائم!" أردت أن أبتعد لكنّ رايان أمسكني بقوة.

"ما أقصده هو أنه لا يمكن ربط هؤلاء الأوغاد بمشروعات أو سرقة أو تحايل على حالات ائتمان. ليس هناك أثر للمال ولا دليل على ارتكابهم الجرائم، وهذا ما يجعل العثور عليهم صعباً" كانت عيناه قاسيتين. "لكنهم أخطأوا كثيراً بالمجيء إلى باحتي الخلفية وسأنال منهم بالتأكيد"

تحررت من قبضته ورميت الإسفنجة نحو المطبخ.

"ماذا قالت حينوت؟"

"استمعت إليكما، ثم ذهبت إلى منزلها. لم تظهر في كلا المكانين. لا تنسى أنني أعمل الآن وحتى بـ برنامج. لقد أغلقت عنه العاصفة الإقليم".

"ما الذي اكتشفته عن منجم كاترد وأميل بروفشتر؟"

"سينتقل مسؤولو الجامعة غرفهم لمجلد حول خصوصية الطالب. لن يكلمو شيئاً عن دون أمر من المحكمة"

كان ذلك كافياً. لجاورته مسرعة وذهبت إلى غرفة النوم. كنت أرتدي جورباً صوفياً عندما ظهر عند الباب.

"ماذا تظنين أنك فاعلة؟"

"سأذهب للحصول على بعض الأجوبة من آ. حوريته، ثم سأبحث عن شيمي"

"لا بد من فتاة كتلك. هناك غطاء من الثلج القطني في الخارج"

"سأتدبر أمري"

"في مترداً عمرها حتى سنوات؟".

كنت أرتعش بقوة فلم أستطع شد رباط حذائي. تولته، وفكك العقدة، ثم مرر الرباط بحرص عبر الفتحات، وفعلت الشيء نفسه على حذاء القدم الأخرى، ثم وقفت واستدرت إلى رايان.

"لن أجلس هنا وأسمع هؤلاء المختصين مثل شيمي. قد يكونون مهووسين بالأسرار، لكنهم لن يأخذوا هاري معهم. معك أو من دونك سأعثر عليها يا رايان. وسأفعل ذلك الآن!"

حدق إليّ لحظة دقيقة كاملة، ثم سحب نفساً عميقاً، وأطلق زفراً عبر أنفه، وفتح فمه ليتكلم.

في ذلك الوقت سطعت الأضواء، ثم خبت وخفتت.

33

كانت أرضية حجب وإيهان موحلة، أما ماسحتا الزجاج فكانتا تطقطقان وهما تتحركان يميناً ويساراً وبين سطور والأمر كانتا تنزلقان فوق قطعة من الجليد من خلال البقعتين النظيفتين على شكل مروحتين في النافذة الأمامية رأيت ملايين كسفات الثلج تقصف عبر ضوء المصابيح الأمامية.

كانت مستر - فيل مظلمة ومهجورة، إذ لا توجد فيها أضواء شوارع أو أبنية، أو لافتات بيوت، أو إشارات مرور. لم أر سوى سيارات شرطة. كان سريعاً أصفر تحيط بأرصفة مجاورة البلاد عالياً مع وقوع إصابات بسبب الانزلاق على الجليد. تساءلت عن عدد الأشخاص الذين سيحاولون حقاً الخروج إلى العمل في ذلك اليوم. كنت بين الفينة والأخرى أطقطق، ثم صوت صفقة مجمدة تتكسر على الرصيف. ذكرني الطبيعة تقطقطت بعجرفة لسرايبو، وكذلك حوائط تلمبوس في حرب بوده ومظلمة.

قاد إيهان السيارة خلال العاصفة الثلجية. كانت كتفاه متوترتين، وأصابعه تمسكت بالمقود بإحكام. كان يحافظ على سرعة منخفضة ومتوازنة، ويبطئها تدريجياً ويكبح كثيراً قبل التقاطعات. وبالرغم من ذلك، انزلقت السيارة بنا مراراً. كان إيهان محقاً باستخدام الحذر، لأن سيارات الشرطة التي رأيتها كانت تنزلق أكثر مما تتقدم على نحو طبيعي.

تقدمنا ببطء حتى طول شارع هاي واستدرنا شرقاً إلى هوكيور - [illegible] رأيت فوق مستشفى [illegible] العلم يتوهج بضوء [illegible]. فتحت أصابعي [illegible] على مسند الباب الأيمن، وانقلبت يدي اليسرى بشكل قبضة

قلت بحدّة. "الورد فارس. لماذا كل هذا الثلج؟" بدا التوتر والخوف واضحين في صوتي.

لم تفارق عينا رفيقه الطريق قط.

"وفقاً لما سمعته هناك نوع من الانقلاب الحراري. وهذا، معطوفاً على الغيوم [illegible] على الأرض، ويشكل حدّاً شبيهة بالغطاء. يجعله يتجمد عندما يصل إلى هنا. يغطي كل الثلج محطات توليد كهربائية كاملة".

"متى سيتوقف هذا؟"

"يقول الراصد الجوي إن العاصفة مستمرة ولا أحد يعرف متى تنتهي"

أغلقت عينيّ وركزت على أصوات طقطقة السلاسل ومساحات الزجاج والريح العاصفة، والنفس الذي يخفق بقوة

انعطفت السيارة فجأة [illegible] بسرعة. ارجعي بعيداً وابتعد عن المنحدر

سمعت صوتاً رتيباً ومتقطعاً. كان معظم الإقليم من دون كهرباء. ولدى شركة هايدرو كيبيك ثلاثة آلاف موظف في مواقعهم. كانت الفرق تعمل على مدار الساعة. ولكن، لا يعرف أحد متى سيتم إصلاح الخطوط.

كان المحوّل الذي بقرب منزلي - هل قد انفجر بسبب التحميل الزائد، لكنه يعطى بأولوية قصوى، وتعطلت محطة تصفية المياه، وتلقى السكان نصائح بغلي مياههم.

الوضع قاسٍ من دون كهرباء كما فكرت.

حُضِّرت ملاجئ، وبدأت الشرطة بالانتقال من مبنى إلى آخر لمساعدة الكبار في السن. تم إغلاق عدد من الطرقات وإسداء نصيحة إلى مالكي السيارات بالبقاء في منازلهم.

أصابني الذعر، وتمنيت من كل نفسي لو كنت في منزلي مع شقيقتي [illegible] في التفكير في هاري شيئاً يعصر حلقي في المجرى.

يخاطبني الصباح وفكري يا بريان. لن تكوني هناك ما لم [illegible]

يعيش آل سوبت في منطقة تدعى بلاتو. غدا اتجهنا شمالاً، ثم شرقاً على شارع دي [illegible] رأيت في بعض [illegible] أضواء [illegible] ميكوريا [illegible] كانت مكتبين كقطعة سوداء، وخلفها [illegible] والواجهة البحرية حيث كان الشيء الوحيد المرئي هو قصر فيل ماري.

استمر ريسال شمالاً عند سانت - دينيس. يكون الشارع عادة مزدحماً بالمتسوقين والسياح، لكنه الآن مهجور. كانت طبقة شفافة تغطي كل شيء، وتطمس أسماء المتاجر والمقاهي.

عند منحنى ريسال اتجها شرقاً مجدداً، ثم استدرت جنوباً عند كريستوف كولومبوس، وبعد وقت بدا أنه عقد توقفنا أمام العنوان الذي زوّدني به آنا. كان البناء نموذجياً في مونتريال ويتكون من ثلاثة طوابق، واجهته عريضة، مع سلالم معدنية ضيقة تصل إلى الطابق الثاني. وجه رايان سيارته الجيب نحو حافة الرصيف وتركها في الشارع.

عندما خرجت لسع البرد رجلي مثل حشرات صغيرة، وحمل عبق الدخان مصنوعاً لحيينا رأسينا إلى الأسفل، وصعدنا إلى طبقة حديدية، زلّت أقدامنا وكدنا ننزلق على الدرجات المتجمدة. كان الجرس داخل صندوق مغلق، لذا قرعت الباب. بعد لحظة، تحركت الستارة وظهر وجه آنا عبر اللوح الزجاجي الضبابي. استطعت رؤية رأسها يتحرك من جانب إلى آخر.

صرخت: "افتحي الباب يا آنا".

ازداد اهتزاز الرأس، لكنني لم أكن بمزاج مناسب للغموض.

"افتحي الباب اللعين!"

وقفت ساكنة لبعض الوقت ثم رفعت يداً إلى أعلى وتراجعت إلى الخلف. وتوقعت أن تختفي. ولكن، بدلاً من ذلك، سمعت صوت مفتاح، ثم فتح الباب مصدراً صوت طقطقة.

لم أنتظر. دفعت الباب إلى الخلف ودخلت مع رايان قبل أن تُبدي أي رد فعل.

تراجعت آنا إلى الخلف، ووقفت وهي تضم ذراعيها إلى صدرها، وبدت كأنها تكاد تُرتي سترتها. كانت مصباح ريش على طاولة خشبية صغيرة يرسل ظلالاً تتطاول على جدران الرواق الضيق.

"سيدة لا تتركوني جميعكم وشأني؟" بدت عيناها كبيرتين في الضوء الخافت.

"أريد مساعدتك يا آنا".

"لا أستطيع القيام بذلك"

"بلى، تستطيعين"

"أحرقنا الشيء نفسه. لا يمكنني القيام بذلك. سيحترقون" ارتعش صوتها وارتسم خوفاً حقيقياً على وجهها. أرسلت النظرة سهماً مباشراً إلى قلبي، فقد رأيتها من قبل. صغيرة خائفة من مجهول. كنت قد أقنعتها أن الخطر ليس حقيقياً وماتت بسبب ذلك.

"أخبرت من؟" تساءلت بألم وانشغال.

"د. جيفريت"

"كانت هنا؟"

أومأت برأسها

"متى؟".

"قبل بضع ساعات. كنت نائمة"

"ماذا كانت تريد؟".

انتقل بصرها إلى رايلان، ثم عاد إلى الأرض.

"طرحت أسئلة غريبة. أرادت أن تعرف إن كنت أرى أحداً من جماعة أمالي. أقصد القسا المتعصب من الريف، إلى المكان الذي أقمت فيه ورشة العمل. أنا – ضربني. لم يخبرني أحد بتلك الطريقة من قبل. كانت مثل شخص مجنون. لم أرها على تلك الحال قط"

سمعت ألماً وحنقاً في صوتها، وكأن الاعتداء كان خطأها بطريقة ما. بدت صغيرة جداً وهي تلتف في الغطاء، وهنا ذهبت إليها ووضعت ذراعيّ حولها

"لا تلومي نفسك يا أنا"

ابتسمت الكسندرا بامتنان، مررت على شعرها الذي لمع تحت ضوء المصباح الخافت.

"كنت أود مساعدتها، لكنني لا أتذكر شيئاً عنها – كان ذلك وقتاً عصيباً بالنسبة إلي".

"أعرف، لكنني أريد منك أن تعودي إلى ذلك الوقت وتفكري بإمعان فكري في كل ما تتذكرينه عن المكان الذي كنت فيه"

"لقد حاولت، لكنني لم أتذكر شيئاً"

أردت أن أعزّعها، لأحصل منها على المعلومات التي ستعقد شقيقي. وتذكرت مسروراً أن علم نفس الأطفال لا يلجأ إلى حواس تشتت الذهن، وإنما اطرحوا أسئلة محددة. بلطف، أمسكتها بمعصم ذراع ورحت أمسّها بيدي.

"عندما ذهبت إلى ورشة العمل، هل كان ثمة انطلاقاً من الكلب؟"

"لا. لقد أطلقوني من هنا".

"بأي اتجاه ذهبتم حين أصبحتم في نهاية شارعك؟"

"لا أدري"

"هل تذكرين كيف غادرت الشقة؟"

"لا"

شرود ذهني يا برماند.

"هل عبرتم جسراً؟"

ضاقت عيناها ثم أومأت

"أي جسر؟"

"لا أعرف. مهلاً، أتذكر جزيرة عليها الكثير من الأبنية العالية"

قال رايان، "جزيرة الأخوات".

"نعم" التمعت عيناها كثيراً "كأن لأحدهم دعابة عن أخوات يعشن في شقق، كما تعرفان، أسرتي يعني أخوات"

قال رايان، "جسر شامبلان".

"كم كانت المسافة إلى المزرعة؟"

"أنا -"

"كم أمضيت في الشاحنة المغلقة؟"

"نحو خمس وأربعين دقيقة. مع عندما وصلنا إلى هناك تقدير السائق بأنه قطع المسافة في أقل من ساعة"

"ماذا رأيت عندما خرجت من الشاحنة المغلقة؟"

مجدداً رفّت جفونها في محجريها، ثم بطء، وكأنها تصف اختبار رورشاخ (للشخصية والذكاء) "قبل أن نصل إلى هناك بوقت قصير أتذكر أنني رأيت برجاً

كبيراً عليه الكثير من الأسلاك والعوازل والطرق مسطار البث، ثم كوخاً صغيراً بسماء شخص ما على الأرجح لصغاره لينتظروا حافلة المدرسة. فتذكر أني فكرت آنذاك أنه مبني من كعك الزنجبيل ومزين بطبقة من السكر"

في السلك اللحظة، ظهر وجه خلف آبا لم يكن يضع ترساً ويبدو نحيلاً وشاحباً في الضوء الخافت.

"من أنتما؟ ماذا تفعلان هنا منتصف الليل؟" كانت لكنتها الإنكليزية ثقيلة.

من دون أن تنتظر جواباً سحبت المرأة معصم آنا وسحبتها خلفها.

"اتركا ابني وحالكما".

"سيدة حويت، أظن أن هناك أشخاصاً سيلتقون خصهم، ربما تستطيع آنا أن تساعد على إنقاذهم"

"إنها بيت على ما يرام، اذهبا الآن" أشارت إلى الباب. "اتركا بيتك وإلا سأطلب الشرطة"

وجه الشبح، الضوء الخافت، القامة التي تشبه القبر؛ كان كل ذلك في الحلم وفجأة تذكرت حرفت المكان، ويجب أن تذهب إلى هناك!

بدأ رايان يتكلم لكي تقاطعه

قلت، "شكراً لك. كانت اجتك معيقة حقاً"

حدّق رايان بي لكي يحاوره وخرجت من الباب. كانت أقلع حلال اندفاعي نزولاً على الدرجات. لم أعد أشعر بالبرد حلال وقوفي إلى جانب الحطب وأنا أنتظر أن ينتهي رايان من حديثه مع السيدة حويت. اختصر فلسوله ثم شق طريقه إلى مستوى الأرض.

"ما الذي فعلته -"

"أنتم بحاجة يا رايان"

"قد تكون المحتومة الصغيرة -".

صمت باستهجان "هل لديك خريطة لهذا الإقليم؟"

من دون أن ينبس بكلمة دار رايان حول الحطب وصعد كلانا إليها. سحب خريطة من مسند الباب بين جانب السائق، فأخرجت مصباحاً يدوياً من حقيبتي.

وبينما كنت أبسط خريطة الإقليم شكل ريان الفراش ثم خرج ليكشط الجليد عن الزجاج الأمامي.

حددت موقع مونتريال، ثم تتبعت حسر شامبلين عبر سانت لورانس وعلى الطريق 10 شرقاً. بإصبع عند سحت الطريق الذي كنت قد سلكته إلى لاك ممفريماغوغ. عشيت دار العبادة القديمة، والقبر، والثلاثة تصف مغطاة بالثلج.

حركت إصبعي على طول الطريق الرئيس، وقرأت وقت الوصول بسيارة إلى حسبما كتبت الأسماء في ضوء المصابيح الأمامية. ماغوغ، سانت - هربلوري، سانت - إيلي - عو - موتولر.

توقف قلبي عندما رأيت ذلك. أرجوك يا ربي، دعنا نصل في الوقت المناسب.

أدرت الخانقة وصرخت.

توقف الكشط وفتح الباب. رمى ريان المكشطة في الخلف وجلس خلف المقود، ثم نزع قفازيه وسلّمته الخريطة والمصباح. ومن دون كلمة، أشرت إلى نقطة صغيرة على مربع الذي حوته إلى الأعلى. أمعن النظر إليه، وانعسه مثل ضباب في شعاع أصفر.

"نباً" ذاب قطعة جليد وسال من قفتيه، فمسح عينه.

"يبدو هذا منطقياً. الملاك الحارس. إنه ليس شخصاً، وإنما مكان. سيقودون في المسلاك الحارس. يجب أن يكون على بعد عشر خمس وأربعين دقيقة من هنا"

سأل. "كيف فكّرت في هذا؟"

لم أشأ ذكر الحلم. "تذكرت الثلاثة من رحلتي إلى لاك ممفريماغوغ لتتعلل"

"بربان -"

"رايان، سأقول هذا للمرة الأخيرة. سأذهب لأعود بمسقق" كالنحت لبقى صوتي ثابتاً. "سأذهب معك أو من دونك. يمكن أن تأخذني إلى المنزل أو إلى الملاك الحارس"

تردد، ثم قال: "النجدة!" خرج من السيارة، ثم حرّك مقعده إلى الأمام، وبحث عن شيء ما في الخلف. وعندما كان يغلق الباب بعنف رأيته يمسح شيئاً داخل سترته ويشدّ السحاب، ثم استأنف الكشط.

عاد بعد دقيقة. ومن دون أن ينبس بكلمة وضع حزام الأمان، وطلق ذراع التروس إلى وضعية المركن وضغط على دواسة الوقود. دربت العجلات لكنها لم تتحرك من مكانها. غيّر وضعية ذراع التروس إلى الرجوع ثم بسرعة إلى الأمام، اهتزت السيارة حين كان رايان يغيّر من وضعية التقدم إلى الرجوع وبالعكس. ثم انطلقت سيارة الجيب وتحركنا ببطء على الطريق.

لم نحمل شيئاً في أثناء توجهنا جنوباً على شارع كريستوف كولومبوس، ثم غرباً على شارع رينس. عند سانت - دينيس استدار رايان جنوباً، وسلك الطريق الذي كنا قد أتينا منه ولكن بالاتجاه المعاكس.

بياً! كان يأخذني إلى منزلي. أصبح جسمي بارداً عندما فكّرت في الرحلة إلى تلال الحارس.

أطلقت عينيّ واسترخيت على المقعد لأجهز نفسي. لتبدأ سلاسل يا برنان. ستضعيه على الأطراف وتكوّمين ميلوتك كما يفعل وبياك الأحمق.

قاطع الصمت تفكيري، فتحت عينيّ على مشهد أسود. لم يكن الثلج يتساقط على الزجاج الأمامي آنذاك.

"أين نحن؟"

"نفق فيل - ماري"

في السير ببطء شديد، زاد رايان السرعة داخل النفق مثل مكوك يسلك ثقباً دودياً في الفضاء. وعندما انعطف عند المخرج إلى جسر شامبلين شعرت براحة وقلق في الوقت نفسه.

نعم، تلال الحارس.

بعد عشر سنوات ضوئية كما يعبر ساغان تورانس بدا النهر قرير المياه على نحو غير طبيعي، فيما بدت أبنية جزيرة الأخوات سوداء تحت سماء ما قبل الفجر. وبالرغم من أن اللوحات الإعلانية كانت معتمة، إلا أنني كنت أعرف الشركات: سيروتل، كوداك، هنيويل. طبيعي وعادي جداً في عالمي مع غاية

الأقبية النائية. تمنيت لو كنت أقترب من مكتباتها الأثيرة بدلاً من المجهول الذي ينتظرني.

كان الجو في الجيب متوتراً، وتركّز راماه على الطريق وقضيت أنا طوال الوقت بجانبي، حدّقت إلى خارج النافذة، وتفاديت التفكير في ما قد يكون بانتظارنا.

للفلاة جو بيئة باردة وموحشة، مثل منظر يطل عليه من كوكب مقفر. وبينما كنت نتحرك شرقاً يزداد الثلج على نحو ملحوظ، وجرّد العالم من جماله ولونه. كانت التلال ضبابية والأشياء تبدو وكأنها تندمج معاً مثل أجزاء من تمثال صلصال.

كان المشهد يعكس إشارات طرقية، ولافتات، ولوحات إعلانية وقد غطت رسائلها وحدودها. هنا وهناك عبر الظلام كان من الممكن رؤية خيوط دخان رفيعة تخرج ملتوية من المداخن، وكل ما عداها يبدو متجمداً في مكانه. فوق تل مستدير تماماً تنعطف الطريق، ورأيت سيارة محروقة، وأرضيتها إلى الأعلى مثل سلحفاة بحرية ضخمة. وكانت هناك مرايا تطل من المقاعد والإطارات.

كانت الرحلة قد استغرقت نحو ساعتين عندما رأيت اللافتة. كان الوقت عصراً، والسماء تتغير من الأسود إلى الرمادي الداكن. واستطعت عبر الجليد رؤية سهم والعبارة لاك حار

"صلاك"

ضغط راماه السرعة وقاد السيارة ببطء نحو المخرج. وعندما وصل الطريق إلى تقاطع ضغط على المكابح فاقتربت سيارة الجيب ثم توقفت.

"أي طريق؟".

أمسكت المكشطة وخرجت من السيارة، ومشيت بصعوبة إلى اللافتة، انزلقت مرة فخدشت ركبتي. وبينما كنت أزيل الجليد عن اللافتة، بلّلت الريح بشعري ودفعت حبيبات ثلجية إلى عينيّ. حول رأسي، كانت الريح تجعل الأغصان تئن وخطوط تلك الطاقة تخشخش بصوت غريب.

كشطت الجليد وكأنني مجنونة. و ... فتكسرت المكشطة، لكنني تابعت العمل حتى تحطم البلاستيك كله. كشطت وحككت باستخدام القبض بكفّي حتى استطعت أخيراً رؤية الأحرف وسهم.

عندما كنت أشق طريقي عائدة إلى المخيم، شعرت بأن ركبتي اليسرى ليست على ما يرام.

أشرت إلى الطريق قائلة: "دلتك الطريق" ولم أعتذر عن إتلافي المكشطة.

عندما أدار رايان السيارة، شعرت بالطرف الخلفي ينحرف بقوة، مددت ذراعي إلى الأمام وأمسكت بمسندي الكرسيين.

استعاد رايان السيطرة على السيارة فخففت الضغط على أسناني.

"ليست هناك مكابح من جهتك"

"شكراً"

"هذه مقاطعة روجيل. هناك مخفر لدورية أمن كينيك في مكان قريب من هنا. سنذهب إلى هناك أولاً"

وبالرغم من أنني لم أكن أريد إضاعة أي وقت، إلا أنني لم أجادل. فإذا دخلنا إلى عش دبابير فأنا أعرف أنه قد نحتاج إلى دعم. بالرغم من أن سيارة رايان جيدة على الثلج، إلا أنه لا يوجد لاسلكي فيها.

بعد خمس دقائق رأيت البرج، أو ما بقي منه. كان السقف قد سقط تحت ثقل الثلج، وكانت العوارض الخشبية والمعدنية ملتوية ومبعثرة مثل أجزاء من مجموعة تينكر (مجموعة ألعاب تركيبية) عملاقة.

خلف البرج المنهار رأيت طريقاً ينعطف إلى اليسار. وعلى بعد عشر ياردات إلى الأسفل رأيت كوخ كعك الزنجبيل الذي وصفته لنا.

"إنه هنا يا رايان. انعطف من هنا".

"سنفعل ذلك بطريقتي أو لا نفعل شيئاً على الإطلاق". وتابع من دون أن يخفف السرعة.

كنت متوترة جداً. أي ضجة.

"قطعوه بسرعة. مستحيل إن كانوا قد قرروا النهوض عند الفجر؟" فكرت في سارة، عصفورة لا حول لها ولا قوة، وفي متطرفين يشحذون سكاكينهم ويدهنون، أو يطلقون كلاباً متوحشة على أكباش فداء.

"سنذهب إلى مخفر الشرطة أولاً"

"قد يؤخرنا ذلك كثيراً" ترنحت بقلبي ولم أستطع تحمل ذلك. قد تكون شقيقتي على بعد عشر ياردات مني تتعذب وأدير ظهري لها

حسب شروط الأمر

لم نكن قد عبرنا أكثر من ربع ميل عندما وصلنا إلى شجرة صنوبر ضخمة تسد طريقنا. كانت قد سقطت، ويبرز منها جذور يبلغ طولها اثني عشر قدماً، واستمرت خطوط الكهرباء معها على الطريق. لم يكن في مقدورنا متابعة الطريق في ذلك الاتجاه.

ضرب ريان المقود مقطباً بغضب.

"يا لله، إنها شجرة دردار!".

"إنها شجرة صنوبر" صحّحت له بهدوء

حملق إليّ ريان، وهو غير سعيد بذلك. في الخارج، كانت الريح تعصف وترمي بكسفات ثلج على النوافذ. رأيت عضلات فك ريان تشتد ثم تسترخي، لتشتد مجدداً، ثم قال "سنفعل ذلك على طريقتي يا برنال. إذا قلت انتظري في سيارة الجيب، فستبقين فيها. هل هذا واضح؟"

أومأت. كنت سأوافق على أي شيء.

عدنا إلى الوراء واستدرنا يميناً عند البرج للتلفاز. كان الطريق ضيقاً وسقطت الأشجار على جانبيه، بعضها مقتلع من جذوره، وبعضها الآخر مكسور. قاد ريان السيارة على مسافة متعرج بينها. على كلا الجانبين، شكّلت أشجار الحور والدردار والبتولا نصف أقواس معكوسة، رؤوسها منحنية نحو الأرض بسبب ثقل الثلج.

ظهر سياج متصدّع خلف كوخ كنت قد رأيته سابقاً. خفف ريان السرعة وتقدم ببطء على طوله. في عتمة المساء، كانت الأشجار قد سقطت وسحقت السياج. رأيت بعد ذلك أول شيء حي منذ غادرنا مونتريال.

كانت هناك سيارة عالقة في الخندق، ومصابيحها تتحرك في مكانها، وتغطيها سحابة من غاز العادم. وكان باب السائق مفتوحاً ورأيت قدماً تنتعل حذاءً طويلاً على الأرض.

ضغط ريان على المكابح حتى توقفت السيارة.

"ابقي هنا".

قررت أن أعترض، لكنّي أحجمت عن ذلك

خرج ومشى إلى السيارة. لم يكن واضحاً من حيث كنت أجلس إن كان ذلك الشخص ذكراً أم أنثى. وبينما كان رايان والسائق يتكلمان كضراب الناعمة، لكنّي لم أسمع ما كان يُقال. كانت أنفاس رايان تنتفخ مثل نتفات ضباب رقيق. وفي أقل من دقيقة عاد إلى الجيب.

"ليس شخصاً مفيداً على الإطلاق"

"ماذا قال؟"

"نعم ولا. يعيش في آخر الطريق، لكنّ الأبله لن يلاحظ شيئاً حتى إذا انتقل ستكير هاك إلى المنزل المجاور"

تابعنا طريقنا إلى حيث ينتهي السياج عند درب مفروش بالحصى. فأوقف رايان السيارة وأطفأ المحرك

كانت شجيرات صفصاف وحب سياح تقف متباعدة أمام كوخ آيل للسقوط، وتبدو كل منها مثل حدبة دائرية، أو عرس لم متجمد في نهر رمادي. كان ماء الجليد يسيل من حواف البناء وعتباته ويجعل الوحل ضبابياً ويحجب رؤية أي شيء في الداخل.

استدار رايان نحوي قائلاً: "احمي الآن. إذا كان هذا هو المكان المنشود فسنكون موضع ترحيب مثل نفس سامة" مس وجنتي. "صدقي أنك ستبقين هنا"

"أنا -".

سرت أصابعه إلى شعري.

"ابقي هنا" كانت عيناه زرقاوين وجميلتين في ضوء الصحو الكئيب

فلت من خلال أصابعه "هذا نحمل عراه"

سحب يده وأشار إليّ "انتظري في السيارة"

وضع قفازه وخرج إلى العاصفة. عندما أغلق الباب صدمت يدي إلى قفازي. كنت سأنتظر طويلاً.

أستعيد ما حدث لاحقاً كصور غير مترابطة، وكأنها أجزاء من ذكرى محطّمة. أعرف أنني رأيت ما حدث، لكن ذهني لم يقبل الصورة الكلية. تلك الشمّ الذكرى ووضعتها في حجيرات مختلفة.

كان رايان قد قطع ست خطوات عندما سمعت فرقعة ورأيت جسده يهتز. ارتفعت يداه في الهواء وبدأ يستدير. فرقعة أخرى وتشنج آخر. ثم وقع على الأرض ساكناً من دون حراك.

"رايان!" صرخت عندما كنت أفتح الباب. وعندما هرعت إلى الخارج شعرت بألم شديد في ساقي وانثنت ركبتي. "آسف!" صرخت عندما رأيته جامداً من دون حراك.

وفجأة، لم يرَ سوى عشب حصى وصرخت طلقة أخرى كالقطة من الخلف.

34

استعدت رشدي في مكان مظلم وشعرت بالألم. حدث ببطء إذ لم أتمكن من رؤية أي شكل في الظلام. وانتابتني موجة ألم مطبق في رأسي وقف أنني صاحقاً شعرت بوجع عندما رفعت ركبتي وبكيت رأسي بينهما.

بعد لحظة انتهى الغثيان. أصغيت السمع لكنني لم أسمع سوى صوت خفقان قلبي. نظرت إلى يديّ لكنني لم أرهما في العتمة. أحدث شهيق عميقاً، وشممت رائحة خشب عفن وتراب رطب. تعفر شديد، مددت يديّ.

كنت أجلس على أرض ترابية، وخلفي وإلى جانبيّ كان هنالك جدار من حجارة قاسية. وحولي رسمي بست بوصات التفت بشيء كالخشب.

عرفت أنفاسي على شكل لهاث قصير وسريع في حين كنت أكافح شعوراً بالذعر

كنت محتجزة! يجب أن أخرج!

لا!

دوّت الصرخة في ذهني. لم أكن قد عدت رباطة جأشي تماماً.

أغمضت عينيّ وحاولت السيطرة على أنفاسي المتسارعة، وشبكت يديّ، وحاولت التركيز على شيء واحد

شهيق، زفير، شهيق، زفير.

سكن روعي شيئاً فشيئاً. جلست على ركبتيّ ومددت يداً أمامي مباشرة. لا شيء. مد حتى الألم في ركبتي اليسرى لأعرف الضوء، لكني زحفت إلى الأمام في الفراغ المظلم مسافة لتعيين ست، عشر أقدام.

هذا حولي مع تحركي في الظلمة، فقد كان من أفضل من قفص صدري.

تحسست وحفيف الخواطر مع ملء النشط في دمي. لم تكن لدي أي فكرة عن المكان الذي وُضعت فيه. منذ متى وأنا هنا؟ كيف وصلت إلى هذا المكان؟

بدأت أتذكر ما جرى بعد هروبي. الكوخ، السيدة.

ريهانا! يا الله، آه يا للهول!

أرجوكِ! لا! أرجوكِ أرجوكِ ليس ريهانا!

تقلصت معدتي غضباً، وأحسست بطعم مر في فمي فابتلعت ريقي

من أطلق النار على ريهانا؟ من أحضرني إلى هنا؟ أين هري؟

تحسست رأسي ثمّ بدأت أتحسس من الوجع. لم يكن ذلك مهماً، وكان علي أن أنهض شيئاً. سحبت نفساً عميقاً وجثوت بجهد على ركبتيّ.

خطوة تلو الأخرى زحفت على طول النفق وأنا أتألم. كنت قد خسرت قفازي، والطين المتجمد يخثر يديّ وركبتيّ ويسحق (عظم الركبة) المصابة. جعلني الألم أركز على ما أفعله حتى مسست قدماً

عندما تكسست إلى الخلف ارتطم رأسي بالخشب وتجمدت صرخة في حلقي

تمهلي يا بريانا، تمالكي نفسك. أنت معتادة على التوحد في مسرح حركة، ولست مقترحة لمصاب بمستوى!

جثمت وأنا لا أقوى على الحراك وأشعر بدوخ شديد. ليس من المكان الذي يشبه القبو ولكن من الشيء الذي يشاطرني إياه. انتظرت أحيان وأنا أنتظر علامة تشعر بي وجوده حياً. لكنّ أحداً لم يكبس أو يتحرك. تنفست بعمق، ثم تقدمت ببطء إلى الأمام ومسست القدم مجدداً

كانت المسألة تصل حملة جثةً مثنياً محجراً له رباط مثل حذائي. وجدت القدم الأخرى ومسحت الساقين إلى الأعلى. كان الجسد مستلقياً على جانبه. قلبته بحرص، والتمست استكشاف حافته، أزرار، وشاح، عناق حلقي حيث كانت أصابعي تتعرف إلى الملابس، وعرفتها قبل أن ألمس وجهها.

لكن ذلك غير ممكن! لا يبدو ذلك منطقياً

سحبت الوشاح وأحسست الشعر. سمعت هدير حجوت.

يا الله! ما الذي كان يجري؟

تابعي التقدم! اسرقي جزءاً من نعاسي.

دفعت نفسي إلى الأمام على ركبة واحدة، ووضعت إصبعي وحتى كفي على الجدار. مسست أصابعي بيت عنكبوت وأشياء لم أرغب في التفكير فيها فتحت وسقطت على الأرض حتى كدت أتحرك بعده من طول القلق.

بعد عدة أنفاس إضافية، أصبحت الدعامة أقل سماكة حتى تحولت إلى فجوة هو مضغوط تقريباً. وضعت يدي على شيء صلب إنه درابزين خشبي، أو مسند. عندما رفعت بصري رأيت مستطيلاً خافتاً من ضوء أصفر، وكانت الدرجات تقود إلى الأعلى.

ارتقيت السلالم ببطء وأنا أصغي لسماع أي صوت. أوصلتني ثلاث درجات إلى الأعلى، وتعرفت بيدي إلى سواتر باب، لكنه لم يتزحزح عندما دفعته.

وضعت أذني على الخشب، وحصل نباح كلاب الأقربانيين يندفع إلى كل حجرة من حجرتي بسبب الصوت بعيداً ومكتوماً، لكنني عرفت أن حيوانات مسعورة. صرخ صوت إنسان بأمر ما، ثم أطبق الصمت لبعض الوقت، بكى النباح انطلق مجدداً.

لم تكن هناك فوق رأسي مباشرة حركة، أو أصوات.

دفعت الباب بكتفي فتحرك اللوح قليلاً، ولكنه لم ينفتح. وعندما أمعنت النظر من خلال الفتحة التي يدخل منها الضوء رأيت قفلاً وسط الخشب الأيمن. حاولت توسيع الفتحة بأظفاري لكنها كانت ضيقة جداً. دفعت أصابعي إلى الأعلى وأنا محيطة وبروحاً على طول الشق، فاحترقت شظايا خشب وحشيت أظفاري، لكنني لم أصل إلى النقطة المنشودة. لم تكن الفتحة حول الحافة عريضة بما يكفي.

تباً!

فكرت في شعوني والكلاب وحينهم كانوا. فكرت في نفسي والكلاب وحينهم كانوا. كانت أصابعي باردة جداً ولم أعد أشعر بها، فسحبت يدي داخل جيبي. مست قبضتي اليمنى شيئاً قاسياً ومسطحاً مستقيماً، سحبت الشيء ورفعته نحو الفتحة.

نصل الكشطة المكسور

رفيع؟

تضرّعت بصمت، ولمحت حافة الكشطة في الفتحة قبيل أن النصل ملائم. بيد مرتعشة، هززت النصل نحو القفل. بدا صوت الكشط عالياً بما يكفي ليسمع على بعد أميال.

تجمدت وأصخت السمع. لم تكن هناك أي حركة فوق، وكنت أتنفس بصعوبة. دفعت النصل أبعد، وعلى بعد بوصات مما كنت آمل أنه رتاج، فتحرر وأفلت من يدي ليسقط في الظلام.

يا إلهي النجدة

سرت قشعريرة على عنقي وظهري، وجلست على الأرض، تحت قبة الكرسي، وبحثت بحثاً دقيقاً عبر الطين الشديد الرطوبة. وخلال دقائق عثرت أصابعي على الكشطة المكسورة.

صعدت الدرج بحذر، وكانت الحركة آنذاك ترسل ومضات ألم موخزة صعوداً وهبوطاً على طول ساقي. أدخلت النصل عبر استخدام كلتا يدي في الشق ودفعت الرتاج إلى الأعلى. لم يتزحزح. ثم بفعل ذلك. سحبت يديّ ووضعت القطعة المعدنية في مكان آخر، ثم حركتها جانبياً على طول الفتحة.

طقطق شيء ما. أصبحت المسحة صمت مطبق. دفعت بكتفي فارتفع الباب الأفقي. أمسكت اللوح الخشبي من حافته بكلتا يديّ، ودفعته برفق، ثم وضعته بهدوء على أرضية الغرفة. خفق قلبي بقوة، رفعت رأسي ونظرت حولي.

كانت الغرفة مضاءة بمصباح زيت واحد، وعرفت أنه مخزن طعام من نوع ما. كست الرفوف ثلاثة جدران. بعضها يحمل صناديق وعلباً وأكواماً من عشب السوري القوي الذي ملأ فروعها لمعني زيل البهار واليمين. عندما انطرف عقلي سرب في جسدي قشعريرة أقوى مما يمكن لأي طقس أن يتسبب بها.

كانت حشرات أتيب النار تخطف على الجدار، وظلالها تلعب يمنع في الضوء الخافت. علقت صورة في دعم تمثل حملة حربية عن أسلحة مكدسة في صفوف منتظمة. بشيء من رعشتين أسندت جسمي إلى الأرض وجلست على الدرجة العليا.

ماذا يمكنني أن أفعل لإيقافهم؟

نظرت إلى أسفل الدرج، فرأيت مربعاً من ضوء أصفر يسقط من أرضية السرداب، ولا يكاد يصل إلى وسط درج معيوب. أمعنت النظر في الظلام البارد الساكن.

همست: "من أنت؟ كنت أظن أن هذا من شعوري".

صمت مطبق.

سحبت عدة أنفاس متقطعة، ثم صعدت إلى حجرة الطعام. شعرت بالراحة للهروب من النفق، وبالخوف مما سأواجهه تالياً.

كانت حجرة الطعام مفتوحة وتؤدي إلى مطبخ كهفي. مشيت وأنا أعرج إلى عشبي الجانب البعيد. سندت ظهري إلى الجدار، وأرهفت السمع إلى أي أصوات. صرير خشب، همس ريح وثلج، طقطقة أغصان متجمدة.

بالكاد كنت أتنفس. درت حول إطار الباب ودخلت رواقاً طويلاً مظلماً. يبدو أن المناصب قد هدأته وغمست روائح غبار ودهان خشب وسجادة قديمة. مشيت بجهد وأنا أسند نفسي إلى الجدار. لم يكن أي شعاع ضوء يتسلل إلى ذلك الجزء من المنزل.

أين أنت يا هاري؟

وصلت إلى سلم والكتاف عليه لأصغي السمع. لا شيء. ارتعشت ركبتي وتساقطت عن سلة الإصابة في سالفطبيه. ثم سمعت أصواتاً مكتومة

اختبئي! صرخت خلايا دماغي.

أدرت المقبض ودخلت خفية إلى غرفة مظلمة.

كانت الغرفة تعبق برائحة رطوبة وشمع وكتب وورق. تركت للداخل في مرمرية فعاثت الشعر على ذراعيّ وعنقي. هل كانت هناك حركة؟ عندها، حبست أنفاسي وأرهفت السمع.

كان هناك شخص بجانبي!

حبست نفسي، فانثنت ركبتي وكافحت لسماع أدنى حركة. ما هذا الإيقاع المنتظم للشهيق والزفير. كانت الغرفة خالية من أي صوت. بعد ذلك تقدمت إلى الأمام حتى تبينت شكل الأشياء في الظلام. سرير، شكل إنسان، طاولة صغيرة عليها كوب ماء وإلى جانبه قارورة حبوب دواء.

سمعت خطوتين أخريين فاستطعت رؤية شعر أشقر على طرف مرفقي
هل ذلك ممكن؟ هل يعقل أن يكون مصارعي قد تعقّب بتلك السرعة؟
مشيت وأنا أنظر إلى الأمام وأدرت الرأس لأكتشف الوجه
"هوري!" يا إلهي، إنها هوري

استقرّ رأسها وصدر عنها أنين خافت. كنت أمدّ يدي إلى الضرورة الشعواء عندما أمسكت بي ذراع من خلفي والتفّت حول عنقي، وضغطت على قصبتي الهوائية، وقطعت أنفاسي، فيما أمسكت يد على فمي

ركلت بقدميّ وحدقت إليها لأعرف من مهاجمي. ظننته من أمسكت بمعصم وتوجهت إليه بحثاً عن وجهي، وقبل أن أتمكن من مكافحة رأيت حائطاً أسود مستطيلاً عليه نقش أمك عند سماعه سلاسله. عندما كنت أركل بقدميّ وأمسك بالشنفري تذكرت كلمة في علم طرق أيضاً، عرفت أنني بين يدي من تعرّفها في وضع حدّ للحياة

حاولت أن أصرخ لكنّ قاتلي ملاصق تمسكني بقبضة قوية ضغطت على عنقي وانطلقت مني شدّ رأسي بعد ذلك جانبياً ودُفع على صدر فرّاعة مجهولة في الدهنة المعتمة رأيت عيناً شاحبة وخصلة شعر بيضاء. مضت سنوات طويلة وأنا أكافح لأتنفس الآتي ولتأتي وارتجلت سرعة نبضي، وفقدت الوعي مراراً لأعود ولتعيده مجدداً

سمعت أصواتاً، لكنّ العالم كان يتقلّص. تلاشى الألم في ركبتي مع سيطرة مستمرة على جسمي وشعرت بأن شخصاً ما يسحبني ولا أعلم كيف مشيء ما، ولمست الأرض تحت قدميّ طرية، ثم قاسية مجدداً. مررنا عبر باب آخر، وشعرت أن الصراع تضخم على أخفي مثل القارمة

أمسكني بسماك وشيء خشن فوق معصميّ شعرت بحرارة شديدة في معصميّ، بكسر الضغط على رأسي وعنقي حتى أصبح في مقدوري أن أتنفس! حمت أنيناً من حنجرتي عندما تمسكت رئتاي بهواء القفص

عندما انتصب جسدي مع جسدي، عاد الألم.

آلمني حلقي وأسهمت أنفاسي. تمددت كتفاي ومرفقيّ من السحب، وشعرت بيديّ بالبرد وتضغطان فوق رأسي

أنتِ حساسة، استشعري عقلكِ

كانـــت الغــرفة كبــيرة، من النوع الذي نراه في الحمامات ومنازل الــسكن، أرضيتها وجدرانها مصنوعة من ألواح الخشب المرصعة، وتضيف النوع نمطاً. ثم تسـيدي تجيء إلى عارضة فوق رأسي، وكان ظلي مثل تمثال سباكوسي (أكواز تحت سروسري) يرجع دراميه حالياً.

أدرت رأسي مطلوب جمجمة الظل البيضوية في الضوء المتراقص. كان هناك بـاب أمامي مباشرة، وموقد حجري إلى يساري ونافذة إلى يميني. حفظت تلك المخطط في ذاكرتي.

سمعت أصواتاً عالية، حركت إحدى كتفيّ إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، ولمســت نفسي بأصابع يديّ متلمسة جسدي، ورأيتهما حزناً من الثانية قبل أن تسيل الحبال إلى الوضع الذي كنت عليه. تعرّفت إلى خُصلة شعر الرجل وجهه لكن من كان الشخص الآخر؟

ســـكت الصوتان قليلاً ثم تابعا الكلام همساً. صمت وقع خطوات، ثم أطبق الصمت على المكان. عرفت أنني لم أكن وحدي، فحبست أنفاسي وانتظرتهما.

هـــنالك موقف أمامي وجدته لكنني لم ألحظه. كانت الضمائر مجدولة فوق رأسها الآن، ولا تشبه كما رأيتها آخر مرة عندما كانت تمشي في شارع بيفورت مع كاترين وكارلي.

متّت بها ومسحت دمعة عن وجنتي.

"هل أنت خائفة؟" سمعت صوتها بارداً وقاسياً.

الحروف جوهرة وبعضها مثل كلب مسعور!

"لا يا ابني. ليس منك أو من أفراد جماعتك المتطرفين." كان الألم في حنجرتي يجعل التكلم صعباً.

مررت إصبعاً على أنفي وخدي، فشعرت بخشونة على خدي. "لست إيلي أنا إلي. دلشيرده. القوة الأنثوية".

تعرّفت إلى الصوت الصحيح المصحوب بأنفاس مسموعة

قلت بحدّة: "حبو اسوة الموت!"

"كان يجب أن تركينا وشأننا"

"كان يجب أن تتركي شقيقتي وشأنها"

"نحن بحاجة إليها".

"أليس لديك ما يكفيك من مسائل؟ أم إن كل حركة للملك تضطرني لمزيد من الإثارة؟".

تحاول تابع الكلام، اكتسى وجهاً

"نحن نطالب الشيطان"

"أهذا هو السبب فقتلتم دوزي حيوت؟"

"حيوت". أصبح صوتك أعمق مع ترديده. "تلك الصفحة الشريرة التي تندس في ما لا يحبها. أعداء مشتركة وشأنه"

ما الصواب الذي يمكن تمريره ويحافظ على استمرارية الحديث؟

"لم يكن يريد لشقيقتها أن يموت؟".

"سيعيش خالداً إلى الأبد"

"مثل جنيفر واساي؟".

"كان ضعفهما سيزعجنا"

"إذاً، تمسكون بالضعفاء وترقبونهم وهم يتحولون إلى أشلاء ممزقة؟".

ضاقت عيناها من شيء لم أستطع تفسيره. مرارة؟ ندم؟ توقّع؟

"أنقذتهم من محاضة وعلمتهما كيف تتحولان بنفسيهما. ولكنهما اختارتا هذه النهاية"

"ما كان ذنب هايدي شنايدر؟ أنها تحب روحها وطفلتها؟"

تثبت اليدان.

"أن كشفت الطريق وهي لم تعثرت حتاً إلى العام! أحضرت ضرراً مضاعفاً"

"الشخص الذي يحاول تخليصكم"

همتُ "نعم"

فكّري! ماذا كانت كلماتك في بيبروت؟

"تمر البشرية بمرحلة انتقالية في عملية التطور. هل تغذّي ذلك بذبح أطفال ونساء عُزّل؟"

"لا يمكن السماح للفساد بأن يلوث النظام الجديد"

"كان عمر طفلي هايدي أربعة شهور!" جعل الخوف والغضب صوتي ساخراً.

"كانا فاسدين!"

"كانا طفلين!". تململت وحاولت الانعتاق مجدداً، لكن الحبال ثبتتني في مكاني.

خلف الباب سمعت صوت أشخاص آخرين يتحركون في المكان. فكّرت في الأطفال في مجمّع سانت هيلينا، وشعرت بأن صدري يضيق.

أين كان دانيال جيمونت؟

"كم عدد الأطفال الذين ستقتلينهم مع تابعك؟"

ضاقت طرفا عينيها على نحو لا إرادي.

تجاهلت تلميح الكلام.

"هل ستطلبين من كل أتباعك أن يموتوا؟".

لم تقل شيئاً بالرغم من ذلك.

"لماذا تحتاجين إلى خنقي؟ هل فقدت قدرتك على تحفيز أتباعك؟" بدا صوتي حانقاً وحاداً.

"ستحل علي لعنتي"

"إنك لا تعتقد بالصراع بين الخير والشرّ الذي تتحدثون عنه"

"عالمكم شارف على نهايته"

"كان يحو في ذروة الأخدود التي نظرت إليه فيها"

"تقطعون الخشب الأحمر (شجر حرجي ضخم) لتصنع مناديل ورقية للمراحيض، وتسكبون سموماً في الأنهر والمحيطات. هل ذلك معقول؟" قرّبت وجهها من وجهي حتى استطعت رؤية شرايين حمر في حدقتيها

"اقتليني إذا شئت. ولكن، اتركي الآخرين يختارون مصيرهم بأنفسهم"

"يجب أن يكون هناك توازن مثالي. لقد وصلنا إلى الحد المطلوب"

"حقاً؟ وهل الجميع هنا؟".

اصطدمت رأسها إلى الخلف لكنها لم تتكلم. رأيت شيئاً يلمع في عينيها، مثل ضوء يرتد عن زجاج مكسور

"لم يأتوا جميعهم يا إل".

لم تخبر العينان قط.

"لن تموت كاترين من أجلك. فها علي بعد قليل من هنا، يأمل مع طعمها"

"تكلا يورك!"

"لن يكون بسببك السم الكوني المعد"

"الإشعارات واضحة، الرواية تتحقق الآن وستنهض من الرماد!".

كانت عيناه بدوش كعطرين سوداوين تحت الضوء المرتقص وعرفت ما تعنيه تلك النظرة: صمود.

كنت على وشك أن أرد عندما سمعت زمجرة ونباح كلاب. كان الصوت يأتي من مكان بعيد داخل القصر.

حاولت تحرير معصمي بقوة لكن الحبال اشتدت. تحول معصمي إلى لهب شديد التوهج. كان عملاً لا إرادياً يدل على عدم التحكم

لم أستطع فعل ذلك! لم أتمكن من تحرير معصمي! وماذا إن استطعت؟ كنت هناك بينهم.

وصلته: "أرجوك"

ضحكت بإل إلى بجنون خاليتين من أي مشاعر

رافقت من نهيبه عندما أصبح النباح أعلى صوتاً. نفضت محاولاً التملص من قيدي. لن أستسلم خانعة بغض النظر عن ضعف مقاومتي.

متى تصل الأحرون؟ رأيت الشعر يتعرق والجماجم المحطمة. تحول النباح إلى هرهرة. كانت الكلاب قريبة جداً. تملكني خوف لا يمكن السيطرة عليه.

اضطرب ألقي نظرة عبر بصري على النافذة العريضة وتجمد قلبي. هل رأيت أشكالاً تتحرك في الخارج؟

لا تلفتي الانتباه إلى النافذة!

أشحت ببصري واستقرت عيناي على إل. كان مهتماً، لكن أفكاري كانت معلقة أتساءل عما يجري في الخارج. هل هناك أمل بالإنقاذ؟

راقبني إل من دون أن ينبس بكلمة. مرّت ثانية فثانية. حتى دفعت عيني إلى السمي واختلست نظرة أخرى.

عبر الحديد والبخار المتكثف رأيت ظلاً يتحرك من اليسار إلى اليمين

تشي الشاهوها!

استقرت إلى حيث كنت، وركزت عينيّ على إن. كانت النافذة إلى يسارها،

أصبح النباح أعلى، وأقرب.

قولي شيئاً!

"هاري لا تحطم —".

تحطم الباب إلى الداخل، ثم سمعت صوتاً صاخباً "فرقعة"

تحطمت الأجنحة على الأرضية الخشبية

"ارفعوا أيديكم!"

سمعت أصوات زمجرة ونباح وصياح وصرخة.

تحوّل فم إن من شكل بيضوي، ثم إلى خط رفيع داكن. وسحبت مسدساً من طيات ثوبها، ووجهته من شيء خلفي.

وفي اللحظة التي فارقتني فيها عيناها ثبت أصابعي حول الحبال ودفعت ركبتيّ إلى الأمام ثم أرجعت قدمي إلى الخلف وتقلصت عوجها. شعرت بألم مقطع في كتفيّ ومعصميّ عندما تأرجح جسدي، وحدثت ذراعيّ قدر استطاعتي، حركت ركبتيّ ورفعت حذائي من الأعلى، وضربتها بكامل ثقل جسدي، فطار المسدس عبر الغرفة وخارج نطاق رؤيتي.

سقطت قدماي على الأرض، وتراجعت إلى الخلف بسرعة لأخفف الضغط على السلاسل العليا عندما رفعت بصري إلى الأعلى، كانت إن تقف خلفها، محروقة بدقة أحد عناصر أمن كيسك موجهة في صدرها. كانت شعرة واحدة داكنة قد سقطت على جبينها وانتفت مثل وشاح مطرز.

شعرت بيدين على ظهري وسمعت صوتاً يتكلم بي، ثم تحررت وسحبني أشخاص فوجئت استندت إليهم ثم إلى أريكة. شعرت بهواء بارد، وشممت رائحة صوف رطب، وعطر إنكليزي.

"لا عليك يا سيدتي. كل شيء على ما يرام"

كانت ذراعاي متيبستين، وركبتاي ضعيفتين. أردت أن أفقد الوعي وأنام إلى الأبد لكني كافحت لأقف

"شقيقتي، يجب أن أعثر على شقيقتي".

"كل شيء على ما يرام يا سيمون". ضغطتني بقوة لأستريح مجدداً على الوسادة. تلمست من الأحجية، أبوابه أوامر بصوت عالٍ. ولجت إلى رهائن حجبوني يُلهبون بالأغلال ويُغذّون بي.

"أين رهائن. هل سيعرفون أندرو وميغان؟".

"هوني على نفسك، ستكونين بخير" باللغة الإنكليزية

حاولت أن أحرر نفسي. "هل رهائن عمر؟"

"استرخي".

سالت عبارة وسقطت في ما بعد. بدت عيناها كبيرتين في الدرجة التي تشبه الحلم.

تمتمت بصوت أجش عاطف. "أنا حامل"

"لا عليك". وضعت ذراعيّ لتطوقني حولها. "سنذهب إلى المنزل"

استقر رأسها على كتفي، واستندت رأسي إليه. عانقتها لحظة ثم تركتها استرجعت ذكريات معلم ديني من طفولتي. أغلقت عينيّ، وشبكت يديّ أمام صدري، وبكيت بصمت وأنا أدعو أن يحفظ الله سلامة أندرو وميغان.

35

بعـد أسـبوعين كنت جالساً في فناء مـنزلي في تشاربوست، وستة وثلاثون كتيب امتحان مكدّسة إلى يميني، فيما الكتيب السابع والثلاثون على طاولة صغيرة أمامي. كانـت السـماء زرقاء صافية، والساحة خضراء داكنة هناك في المنطقة المجاورة. كان محاكي (طائر) يغرّد وحيداً.

قمـت وأنا أضع علامة وسط على الغلاف الأزرق وأرسم حولها عدة دوائر. "عمل مقبول". نظر بوردي إلى الأعلى، ثم تمطى، وتسلق على الأريكة.

كانت ركبتي تتماثل للشفاء على نحو جيد. لم يكن الكسر الرفيع في رضفتي اليسرى سيئاً مقارنة بالإصابات التي لحقت بتشيني بعد الرعب في الثلاثاء المحارس أمضيت يومين في كهف، وأنا أرتعش خوفاً من كل صوت وظل، وحتى الأصعب من صوت نباح الكلاب. عدت بعد ذلك إلى مشارلوت؛ لأنهي ما تبقى من الفصل الدراسـي. أصـبحت أمشي بنشاط عموماً، لكن الليالي كانت صعبة. كان ذهني يسرح في الظلام، ويطلق خيالات يصنعها النهار حصيلة. وفي بعض الليالي كنت أنام والمصابيح مشتعلة.

رنّ الهاتف فمسحت يدي بجوار المساحة. كانت المكالمة التي أتوقعها

"صباح الخير د. بريان. كيف حالك؟"

"أنا بخير، أحب صوتك. الأهم كيف أنت؟"

"أظن أن العلاج ينفع". أصبح صوته حالماً. "لا أعرف شيئاً عن اضطراب ثنائي القطب (خلل الهوس والاكتئاب)، لكن الطبيب يؤمّل بعودة كثيرة وأنا أتعلم."

لم أفهـم قـطّ من قبل سبب اكتئابها. كنت أظن أن أي مراهقة بسبب ما كانت والدتها تقوله أحياناً: تكون محطماً، ثم فجأة تمضي بالحياة وتشعر بأنك على ما يرام. لم أكن أعرف أن ذلك كان عادة بدعوة."

"مرحلة هوس؟"

"تلك هي. كان مزاجها يتقلب بسرعة كبيرة."

"أنا سعيدة حقاً لأنها أفضل حالاً."

"نعم، الحمد لله. بوصفها موجهة الأساتذة، جيبوت كثيراً من فصلك في برنامجه، من أجل ذلك، يجب أن تعرف ما كان يجري مع تلك المرأة."

سحب نفساً عميقاً. "ماذا تقول؟"

"استغلت مشكلات الأستاذة جيبوت من محبتها لشقيقتها. فقد أمضى دانيال جيبوت حياته وهو ينظم جماعة مهنية بعد أخرى. كانت دوري تظن أن بيته صافية لكي المجتمع يردوه عطفاً. كان عملها في عالم التدريس الأمريكي يكمن في تسوية الشكاوى التي تصل إلى جامعتها من أولياء طلاب تكون قد وجههم إلى مؤتمرات وورشات عمل دانيال. أخذت إجازة من التدريس لتتفرغ للأبحاث والتأليف، وظهرت مجدداً في كتبنا. وبقيت تدعم شقيقها طوال سنوات.

عندما ارتبط دانيال مع زل، بدأت دوري تعد قصتها به. خلقت لا إلى مضطربة عقلياً، وتطور صراع بين الرقيبين القوي بولاء دانيال. أرادت دوري أن تحمي شقيقها، لكنها كانت خائفة من شيء كالوني.

كانت جيبوت تعرف أن جماعة دانيال لا تزال تنشط في الحرم الجامعي، بالرغم من أن الجامعة قد حاولت إيقافها. لذا عندما اتجهت إلينا بالمساعدة، أرادت دوري أن تراقبهم عن قرب.

لم تكن جيبوتي تعمل فقط على تجنيد أعضاء للجماعة. عرفت أن أعضاء الجماعة قد اخترقوا المركز الاستشاري، وأنهم يبحثون عن طلاب بحاجة إلى العون. ثم تجنيد شخصي بتلك الطريقة في كلية مجتمع في تكساس. أعجب هذا دوري كثيراً لأنها حسبت أن يقع اللوم عليها بسبب ما حدث في ماضيها."

"من إلى عنده؟".

"اسمهــا الحقيقي سيفي بودريس. ما نعرفه عنها قليل. عمرها أربعة وأربعون عاماً، ولدت في باي كومو لأم من الإسكيمو (أسكيمو) وأب من كيبك. توفيت والدتها عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كان والدها مدمن كحول، وكان يضربها باستمرار، ولقد ترغمها على البغاء عندما كانت في الرابعة عشرة. لم تنه سيفي دراستها الثانوية قط، لكنها حققت علامات عالية جداً في اختبار معدل الذكاء.

احتجزت بودريس بعد تسربها من المدرسة ثم ظهرت في مدينة كيبك في منتصف السبعينات وهي تقدم علاجاً جنسياً مقابل أجر متواضع. اكتسبت ثقة مجموعة صغيرة من الأتباع، وأصبحت أموراً مالية جماعة اتخذت مقراً لها في كوخ صيد قرب سانت - آن - دي - بوبريه. كان هناك ضغط مادي مستمر، كما ظهرت بعض المشاكل بسبب وجود أعضاء قاصرين. عندما هربت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، لجأ الوالدان إلى السلطات.

تفككت المجموعة وانتقلت بودريس من المكان. والتحقت مدة وجيزة بجماعة تدعى سيليستيال ناتوراي في مونتريال لكنها انفصلت عنها، مثل دانيال جينوت، انفصلت من جماعته إلى أمريكا وظهرت في بلجيكا نحو عام 1980، حيث تمزج مزيج من الشامانية وروحانية العصر الحديث. اجتذبت عصبة من الأتباع صنعت رجلاً ثرياً جداً يدعى جاك غيليان.

كانت بودريس قد التقت غيليان في وقت سابق ضمن سيليستيال ناتوراي، وراث فيه أحد المشاكل التمويل النقدي لأي جماعة. ووقع غيليان أسير جاذبيتها، وتم إقناعه في نهاية المطاف بيع ممتلكاته"

"ألم يعترض أحد؟".

"كانت السلطة تُسمد ولم يكن لدى غيليان أسرة، هنا لم يطرح أحد أسئلة".

"ثم ماذا؟"

"في منتصف الثمانينات، هربت الجماعة بلجيكا إلى الولايات المتحدة، حيث أنشأوا مزرعة جماعية في مقاطعة مورت بمدينة مكسيكو. تنقل غيليان بينها وبين أوروبا عدة سنوات؛ لكن مال على الأرجح. ودخل الولايات المتحدة آخر مرة قبل سنتين"

"ماذا حدث له؟". كان صوتها خافتاً ومرتعشاً.

"تظن الشرطة أنه متورط في حكاية ما في المزرعة"

صمتت صيف الشماس.

"انتحر شقيق جيفري بودريس في نكسلي، وقتله مباشرة. في ذلك الوقت كانت تمحو نفسها إلى. وفي ذلك الوقت تماماً ظهر دوم أوبير في الصورة"

"إنه الرجل من كارولينا الجنوبية؟"

"نعم. عمل أوبير وقتاً قصيراً بالتأمل الباطني والعلاج المصري. إلى أن مرورها فورت بسيط وغشي بال. بعدها إلى مشيخ كاروبها المعوية على سانت هيلينا، فأحكمت سيطرتها على جمعته"

"لكن هذا كله يبدو مسلياً. أعصاب وتهمات ومداولة كلية. كيف تحول الأمر إلى عنف وموت؟".

كيف يعبر المرء الحدود؟ لم أرغب في مناقشة التطور النفسي الموجود على مكتبي، أو رسائل الانتحار التي تفتقر إلى التركيز والتي تم العثور عليها في الملاك الحارس.

"قرأت بودريس كثيراً في الفلسفة وعلم البيئة خاصة. كانت مقتنعة أن الأرض ستموت، وقبل أن يحدث ذلك ستساعد أتباعها جميعاً. علّمت نفسها الملاك الحارس لأولئك المخلصين جداً، وكان الخروج في الملاك الحارس نقطة الانتقال"

لطيف الصمت وقتاً طويلاً، ثم قالت. "هل كانوا يعتقدون ذلك حقاً؟"

"لا أدري. لا أظن أن إلى كانت تثق تماماً بقوة معتقداتها. فقد اعتمدت جزئياً على العقاقير".

ساد الصمت مجدداً.

"هل تظنين أنهم صدقوا، بعد ما يكفي ليكونوا على استعداد للموت؟"

فكّرت في كاثرين، وهاريت.

"ليس جميعهم".

"لن يستطيع شخص عملية انتحار جماعي كبيرة، لن حتى أن يتعمق إنسان آخر كمسعى"

حصر كثاز

"أستاذ، هل قرأت المعلومات التي أرسلتها بشأن إلزابيث تيكوني؟"

كان الصمت من طرفها أطول هذه المرة وانتهى بتنهيدة عميقة.

"نعم".

"أسريب أشياءً كثيرة عن "أبو عايسة". كان معروفاً وعظيماً مرموقاً ومعروفاً في كل أنحاء أوروبا وأمريكا، وأمريكا الشمالية نظراً من جهوده في إنهاء تجارة الرقيق"

"أفهم ذلك".

"أتذكر مع يوحنا ميكول بن فرنسيس على من السفينة تلسي. وحادث يوحنا بين كتفا مع ابنة رضيعة" سمعت معاً "العظام لا تكذب يا أخت جوليان، ولا يمكن العلم إلا بعد الفحص التي طرحت فيها إلى جمجمة إلزابيث، عرفت أنها كانت شخصاً مختلط الأعراق"

"ذلك لا يعني أنها كانت مسيحية"

"لا، تماماً".

صمتت مرة أخرى، ثم تكلمت بعد. "أتفق معك بأن ولداً غير شرعي لم يكن موضع ترحيب في دائرة ميكول الضيقة. وفي تلك الأيام ربما كان القبول بطفل أسود مختلط الأعراق أمراً مستحيلاً. لذا، ربما اقترب يوحنا أن دار العبادة مثل الإنسان الأقصى".

"ربما. قد لا تكون إلزابيث قد اختارت مصيرها بنفسها، لكن ذلك لا يقلل من أهمية إسهامها. وعلى تكل المستلزمات. كان عملها في أثناء انتشار وباء الجدري بطولياً. ربما أنقذت جهودها حياة آلاف الأشخاص

أستاذة، هل هناك أي مصادر جرى من أمريكا الشمالية تحصي سلالتهم أسلافاً من الهنود الحمر، أو الأفارقة، أو الآسيويين؟"

"ماذا؟ لا أعرف على وجه اليقين" تحت شيئاً مبهماً في صوتها

"قد تكون إلزابيث عدوة استثنائية بالنسبة إلى مواطنين يعانون من التحيز شعبياً لأنهم لم يولدوا من بشرة بيضاء"

"نعم، يجب ربما أن أتكلم مع الأسقف"

"هل لي أن أطرح عليك سؤالاً، أستاذة؟"

"بكل تأكيد".

"رأيت إليزابيث في حلمي. وقالت لي فيه جملة لم أفهمها. عندما سألتها عنها، قالت: "كلهم يرتدون ملابس داكنة"".

"سألني أحيانا الأخت المتأملة، الورعة والنقية، فلسفة دائماً والمجتمعة أبداً، لمَ يرتدون ملابس داكنة ويمشون بطريقة مهيبة حول مياتوس، إله تشستروسو؟"

قلت ضاحكاً: "اللدماج ترسيف ملحمي. لقد مضت سنوات منذ قرأت ذلك".

"هل يرتدي المجاج القصيدين الفضفاضة؟"

"طبعاً". كانت فكرة رائعة.

* * *

عندما أنهت المكالمة نظرت إلى ساعتي. حان وقت الذهاب.

في أثناء الرحلة شغّلت الشريط وأوقفته عن العمل مراراً. سمعت تحديد مكان مشوشة في لوحة القيادة ونقرت عليها بأصابعي.

بعد الإشارة الصوتية عند تقاطع ودلوت وبيني غراهام بدركري، ضربت دمراً: كانت تلك فكرتك يا برنالد.

صحيح. لكن من يعطيه ذلك فكرة مدهشة؟

وصلت إلى المطار وذهبت مباشرة إلى مكان استلام الأمتعة.

كان رفيقاد يضع حقيبة قماشية فوق كتفه اليسرى، وترفعه اليمنى في غضبة معلّقة حول رقبته وعرت بصعوبة لا يمكن تمييزها تكتّه بدت متنابتاً جداً.

إنه من إيطاليا، وهذا كل شيء.

لوّحت له وناديته. فابتسم وأشار إلى حقيبة رياضية تشجه بحوه على الناقل السيّار لومات وبدأت فقرر حقائبي لأقرّر أنها يجب أن يتعب في سلسلة أخرى.

"صباح الخير"

عانقته بأخذ الأولى من الملابس، كما يفعل الناس عندما يلتقون أصدقاءهم، تسراجع إلى الخلف، ونظرت العيناك الزرقاوان الرماديتان إليّ من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي.

"ملابس جميلة"

"بكل تأكيد"

"رأيت البرغوث في حلمي. وقالت لي مرة جدتي لم أفهمها. عندما سألتها عن تكوينه قالت: كلهم يرتدون ملابس ناكثة"

أعطاني أحد الأخت الناعمة، مورعة والنقية، المتصلة دائماً والمحتشمة. أنت التي ترتدين ملابس ناكثة وتمشين بطريقة معينة، سوف ينادونك إلى [illegible]"

قالت ضاحكة: "الصباح أرغب مختلف. لقد مضت سنوات منذ قرأت ذلك"

"هل تودين سماع قصيدتي المفضلة؟"

"طبعاً" كانت فكرة رائعة

• • •

عندما أنهيت مكالمة نظرت إلى ساعتي. حان وقت النهاب.

في أثناء الرحلة شككت بالسائق وأوقفته عن العمل مرتين. جدولت عديد مكالمات مشحونة في لوحة المفاتيح، ونقرت عليها بأصابعي

جيب الإشارة الصوتية عند تفاعل وتتبع وبيني مراقبها بتركيزي حمراء دهر"

كانت تلك فكرتك يا برنالد

صحيح، لكن هل يجعلها ذلك فكرة سيئة؟

وصلت إلى المطار وذهبت مباشرة إلى مكان استلام الأمتعة

كان رايان يمسح حقيبة قماشية فوق كتفه اليسرى، وذراعه اليمنى في عُصبة معلّقة حول رقبته وتحرك بصعوبة لا يمكن تمييزها، بكنه بلا حجاب حقاً

إنه هنا لينتظر، وهذا كل شيء

لوّحت له وملامح عابسة وأشار إلى حقيبة رياضية تحت ذراعه على الناقل [illegible] أومأت وبدأت تقرر مفاتيحي لأنزّل لها ثم نحن نذهب إلى سيارتنا أخرى

"صباح الخير"

عانقته بالجانب الأدنى من الملابس، كما يعبر الناس عندما يفتقدون أنفسهم. سرعان في احتضانه، ونظرت العينان الزرقاوان الرماديتان إليّ من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي

"ملابس جميلة"

كنت أرتدي جينزاً وقميصاً لا يتناسبان كثيراً مع العكازين
"كيف كانت رحلتك؟"
"أثقلت مسافة الرحلة عليّ وبقيت في مقدمة الطائرة"
أراهن أنه صعب ذلك.
في طريقنا إلى الشاليه سألت عن إصابته.
"ثلاثة أضلاع مكسورة، تمزق إصابة الركبة، فيما مزقت الرصاصة الأخرى العضلات. لم تكن إصابة خطيرة لولا أنني لم أفقد بعض الدماء".
كانت تلك الإصابة العنيفة قد تتطلب أربع ساعات من الجراحة
"هل تتألم؟".
"فقط عندما أتنفس".

عندما وصلنا إلى الشاليه، أرشدت ريان إلى غرفة الضيوف، ثم ذهبت إلى المطبخ لأسكب شاياً مثلجاً
بعد دقائق، انضم إليّ في شرفة المنزل. كان ضوء الشمس يمر عبر الغابة، فيما كانت مجموعة من عصافير الدوري قد احتلت مكان إطعامي
قلت وأنا أناوله كوباً: "ملابس جميلة"
كان ريان قد غيّر ثيابه وارتدى سروالاً قصيراً وقميصاً ثانياً. وكانت ساقه بدون مشد العضد الطبي، فيما كان حزامه الرياضي يلتف حول كاحليه.
"هل أمضيت فصل الشتاء في سوبرمدلاندا؟"
"الإعصار بسبب لورينا"
"سأحتاج إلى ظل من الوهج"
كنت وريان قد استعدنا الأحداث في الأيام الخالية، وناقشناها في المستشفى. لم لاحقاً عن الحادث بعد معرفة المزيد من المعلومات.
كان ريان قد استخدم هاتفه الخلوي يتصل بمخفر شرطة رومني عندما كنت خارج السيارة أكشط الثلج عن اللوحة. وعندما لم نصل إلى هناك أرسل المكتب ساحة لتفتيش الطريق لكي تتمكن وحدة من التحقيق في ما يجري. وعثر أفراد الشرطة على رايان فاقد الوعي فاستدعوا الدعم والإسعاف.

"إذاً، هل اكتشفت شقيقتك من العلاج الكوني؟"

"نعم" ابتسمت وهززت رأسي "جاءت إلى هنا وأمضت بضعة أيام، ثم عادت إلى بكسفي. لن يمضي وقت طويل قبل أن تشعر بالحماسة للقيام ببرنامج بديل"

رشفنا الشاي.

"هل قرأت تقرير الطبيب النفسي؟"

"شخصية مضطربة عيالية ولديها شعور بالعظمة وسلوك الارتياب. ما الذي يعنيه ذلك؟"

كان ذلك السؤال قد أعادني إلى كتب علم النفس

"شخص ما يحاول تخليصهم. يرى الناس أنفسهم لو اعتبروا شياطين. في حالة إلى، تُظهر الضلالة بتفكير هايدي. لقد قرأت عن الطبيعة ومن وراءها، وتعتقد أن كل شيء يجب أن يكون متوازناً. قالت إن أحد الطرفين هو ذلك الشخص، والآخر شكل من العلاج الكوني له. هل لا تزال تتكلم؟"

"مثل منسّق أغنيات في حفلة. العرض لقد أرسلت فريق الاتصال إلى ساحة فرقة لقتل الطاقيين. حاولت سيموريه أن تتدخل لقد أطلقوا النار عليها، ثم تنوب القتلة الصرخات وأشعلوا النار"

فكّرت في السيدة العجوز التي فحصت عظامها.

"لا بد أن سيموريه قد حاولت حماية هايدي وبرايان. كل تلك المكالمات إلى سانت هيلين، ثم مهمة الإنقاذ إلى بكسفي بعد أن ظهر دانيال حينوت أمام مسرح تستابهر" تركت أصابعي بحفنة بطوبة على البحار لدي التكثف على كوب الشاي. "لماذا تظن أن سيموريه بعثت تكمن بعد أن ظهر برايان وهايدي ساحة؟"

"يقيت هايدي على اتصال بجيمي كانون، وكانت سيموريه تكمن لها لتعرف ما يحصل، وعندما اكتشفت إلى ذلك أمرت بقتل كانون"

"الطقوس نفسها التي تمحص كلاباً وسكاكين، وسرابيل حارقة والتي أمرت بتنفيذها عندما ماتت كارول كوستر؟"

كانت الصورة لا تزال تجعلني ارتعش

"هل كانت كوميتوا تعمل أيضاً كمومس؟"

"كانت قد توقفت عن ذلك. المفارقة أن عميلاً سابقاً عرّفها إلى إل. وبالرغم من أن كوميتوا عاشت مع الخيانة أحياناً، إلا أنه كان واضحاً أن بينهما أعمالاً خارجها. ولأن والد طفلها لم يكن حصوراً في المجموعات لذا لم يكن مانع تعاطف محمداً. لذلك السبب عرفت إلى بقتلها".

"لماذا أمالي بروفسور؟"

"ذلك هو الجميع. ربما تكون أمثلي قد وضعت في طريق القضاء على جيمر"

"كانت إل تعتقد أنها بحاجة إلى قوة أرواح ستة وخمسين شخصاً لتحديد الطاقة اللازمة للانتقال الأخير. لم تأخذ بالحسبان مقتل كوميتوا. لذلك السبب كانت بحاجة إلى هاري".

"لماذا تحتاج إلى ستة وخمسين؟".

"لذلك علاقة بثقوب أوبوري الستة والخمسين في ستونهنج"

"ما ثقوب أوبوري؟"

"ثقوب صخرية يتم حفرها وملؤها فوراً. كانت تُستخدم على الأرجح لتوقع خسوف القمر. كانت إل قد سحبت كل أنواع الخرافات في عيونها"

تناولت رشفة من الشاي.

"كانت مهووسة بفكرة التوازن، والطبيعة وما وراءها، والتوبيخ للفتى. ستة وخمسون شخصاً بالضبط. لم تعثر على تلك الخاتم بسبب الاسم فقط ولكن لأنه يقع على مسافة واحدة من مكسيكو وكاروبينا الجنوبية. إنها مصادفة مدهشة، أليس كذلك؟"

"ما تلك المصادفة؟"

"كمثل شخصي في تكسيكو، وأصل أنا في كيبك، ولدي صلات طويلة الأمد مع الكاروليين. في كل مكان اتجه إليه يكون تأثير إل حاضراً. كان مدى نفوذها رهيباً. كم عدد الأشخاص الذين تظن أن تلك المساعدات الذهبية تؤثر فيهم؟".

"ليس هناك تقدير محدد".

سطع صوت بمطفئ (أنطونيو توسيو عن أوريلي) من فناء مجاور

"كيف تتبّل صديقك منذ هو قيام أحد مرتفعه بنقل نفسك إلى موريتري؟"

"لم يكـــن صعباً". تذكرت عصبية جوي إلى جانب شاحنة الملك عندما عدنا من موقع الحفر. "كان جوي إسبينوزا يعمل لدى سام منذ ستين تقريباً".

"صـــحيح. كان أحد أتباع أوبنسر، لكنه يعيش في منـــزل والدته. إنها المرأة التي اتصلت بالخدمات الاجتماعية. حـــسنٌ، تبين أنه والد كارلي أيضاً. لهذا السبب هربت كاثرين إليه عندما ساءت الأمور. يبدو أنها لا تعرف شيئاً عن الجرائم".

"أين هما الآن؟".

"هـــي والطفل مع قريب لها. أما جوي فيناقش الماضي القريب مع الشريف بيكر".

"هل تم توجيه اتهام إلى أحد؟".

"تم اتهـــام إلى ودانيال بارتكاب ثلاث جرائم قتل مع سبق الإصرار والترصد تخص ضحيتها: جيهفر كاتونه أماليا بروفنشر، كارول كومبترا".

قطف رايان ورقة مطوية ومررها فوق مسلم.

"ماذا تضمَّن تقرير التقويم أيضاً؟".

"وفقاً للطبيب النفسي الذي عيّنته المحكمة تعاني إلى ذهاناً حاداً. إنها مقتنعة أن النهاية ستحل قريباً على شكل كارثة بيئية كبيرة، وأن قدرها هو حماية البشرية من خلال نقل أتباعها بعيداً عنها".

"إلى أين كانوا ذاهبين؟".

"لم تعلن عن ذلك، لكنك لست على لائحتها".

"كيف يعتقد الناس بمثل هذا الهراء؟". كرّر رايان سؤال لريد سكايلر.

"حـــشدت الجماعـــة أشخاصاً يشعرون بحاجة لمن يحتضنهم ويعطيهم من خلال شعورها إياهم. فقد منحتهم إحساساً بالاحترام والأهمية، وقدّمت إليهم أجوبة بسيطة عن أسئلتهم مع القليل من المطابقة بالحقائق".

رفع النسيم أغصان المغولية، وحمل معه رائحة العشب الرطب. لم ينبس رايان بكلمة.

"قـــد تكـــون إلى مجنونة، لكنها ذكية وتمتلك قدرة كبيرة على الإقناع. حتى الآن، لا يزال أتباعها أوفياء لها. فبينما تسهب هي بالكلام عنّا جرى، لا ينطقون هم بأي كلمة".

"نعــم". تمطّى، ثم رفع ذراعه المشتعلة ووضعها على صدره. "إنها ماكرة. لم تســع قطّ خلف تأليف مجموعة ضخمة. أرادت ضربة صغيرة لكن وفيرة. سمح لها ذلك وأموال عيليان بالتواري عن الأنظار. لم تكن قد ارتكبت سوى أخطاء قليلة جداً قبل أن ينكشف أمرها".

"ماذا عن القط؟ كان ذلك عملاً وحشياً، لكنه يدلّ على غباء".

"كان ذلك من فعل دوم لوبيـــز. غرته إلى بأن يوقف تدخلك. يبدو أنه لا يريد إيذاء الناس جســدياً، لذا وجّه بعض أتباعه الطلاب في تشارلوت للقيام بشيء يخيفك، وهـــم السفلة الذين ابتكــروا مذبحــة القط. جاءوا بالقط المسكين من ملجأ للحيوانات".

"كيف عثروا عليّ؟".

"أعطى أحدهم فاتورة أو شيئاً من هذا القبيل من مكتبك، وكان عليها عنوان منــزلك".

ارتشف رايان الشاي.

"بالمناسبة، كانت مغامرة ذكرى ساقت باتريك في مونتريال من عمل طالب أيضاً".

"كيف عرفت ذلك؟".

ابتسم وهزّ الكوب. "يبدو أن الرغبة في الصحابة تسير بالأتباعين بين جيئوت وطلاتها. رأى أحدهم أنها كانت منــزعجة، واستنتج أن زيارتك هي الســبب. لذا قرر أن يتصرف من تلقاء نفسه ويقوم بإيصال رسالة شخصية".

غيّرت الموضوع. "هل تظن أن لوبيــز كان متورطاً بقتل جينيفر وأمالي؟".

"ينكـــر ذلك. يبدو أنه بعد أن واجه جينيفر بشأن الكتابات الفاضحة أصر إلى ما يجري. يقول إن إلى أخبرته أنها ومانيال سيصحبان جينيفر وأمالي إلى كندا".

"لماذا لم يكن لوبيـــز في *الملاك الحارس*؟".

"كــان لوبيـــز قد قرر الانفصال عن الجماعة؛ إما لأنه أصبح خائفاً مما قد تفعلـــه إل لأنــــه فقــد أثر جوي وكاثرين وكارلي، أو لأنه لم يكن واثقاً بالعبور الكوني. على كل حال، كان لديه ما يزيد عن مئتي ألف دولار من أموال عيليان، لذا جمعها وذهب غرباً بينما اتجه الآخرون شمالاً. كانت الشرطة الاتحادية الأميركية

القبض عليه في محمية للتاريخ الطبيعي في أريزونا. لم تكن إلا متحمّسة بست وخمسين روحاً حتى مع هاري".

"هل أنت جائع؟".

"سآكل".

حضّرنا سلطة، ثم وضعنا دجاجاً وخضاراً في أسياخ لشويها. في الخارج، كانت الشمس قد اختفت خلف الأفق، وملأ الغسق الداكن الأشجار والأرض بظلال قاتمة. تناولنا الطعام في الفناء وتكلمنا، ورافقنا الليل بسحل سطوته. وعلى نحو لا إرادي، عادت المحادثة إلى بل والجرائم.

"أظن أن ديزي جيمس شعرت أن في مقدورها مواجهة شقيقتها وإرغامه على إيقاف الجنون".

"لعلّ لكن إل رأت ديزي أولاً وجعلت دانيال يقضي عليها ويرميها في ذلك المكان الضيق حيث أخفوها لاحقاً. كانوا يعتبرونك تهديداً لكل شأنٍ وقد ضربوك بساطة على رأسك ورموك في الحفرة. عندما تحرّرت من ذلك المكان وسببت لهم المزيد من المتاعب، استشاطت إل غضباً وقرّرت إخضاعك لطقوس الموت نفسها التي كانت قد فرضتها على جينيفر وأمالي".

"ساعد دانيال إل على قتل جينيفر وأمالي، وهو المشتبه به الرئيس في قضية موت كارول كومبتون".

"من كان القتلة في سانت - جوفيت؟".

"قد لا نعرف أبداً. لم يسرد أحد تلك القصة بعد".

ألقى رايان بحساء الشاي واسترخى إلى الخلف. كانت أصوات الصراصير قد طغت على تغريد العصافير. دوّت صفارة إنذار في الليل في مكان بعيد. لم نتكلم وقتاً طويلاً.

"هل تذكر الجثة التي نبشتها في لاك مفريماغوغ؟".

"السانت".

"إحدى الأخوات في دار العبادة تلك علاقة أنا عرفت".

"تفضّل الأخوات لا أزال أستخدم مفاصلي على نحو جيد".

المسك. الجو آخر على أساس الحس.

أخبرته بشأن إليزابيث نيكول.

"كنّ جميعاً سجينات بطريقة أو بأخرى. ماري، كاترين، إليزابيث".

"إلى أنا. بأخذ السجن أشكالاً متعددة".

"شاطرتني الأخت جوليان اقتباساً. من قصة الوسطاء".

صرّت الصراصير.

"هل تظن أن هناك آخرين يعتقدون بوجود صراع بين الخير والشرّ ويشكون طقوس موت جماعي؟".

لم يجب للحظة. حفحفت الفتورية فوق رأسينا.

"سيكون هناك دائماً مجانين يطلبون مستفيدون من الأوهام واليأس، والتقليل من احترام الذات، أو الخوف للترويج لأفكارهم. لكن، إذا نزل أي من هؤلاء المختلين من الحافلة في أي بلدة فسيكون العقاب سريعاً ومؤكداً.هذا ما يقوله رايان".

رأيت ورقة تسقط على الأمر.

"ماذا عنك يا برنان؟ هل ستكونين هناك لتساعديني؟".

كان جسد رايان أسود تحت سماء الليل. لم أستطع رؤية عينيه، لكنني كنت أعرف أنهما تنظران مباشرة نحو عينيّ.

مددت يدي وأمسكت بيده.

...